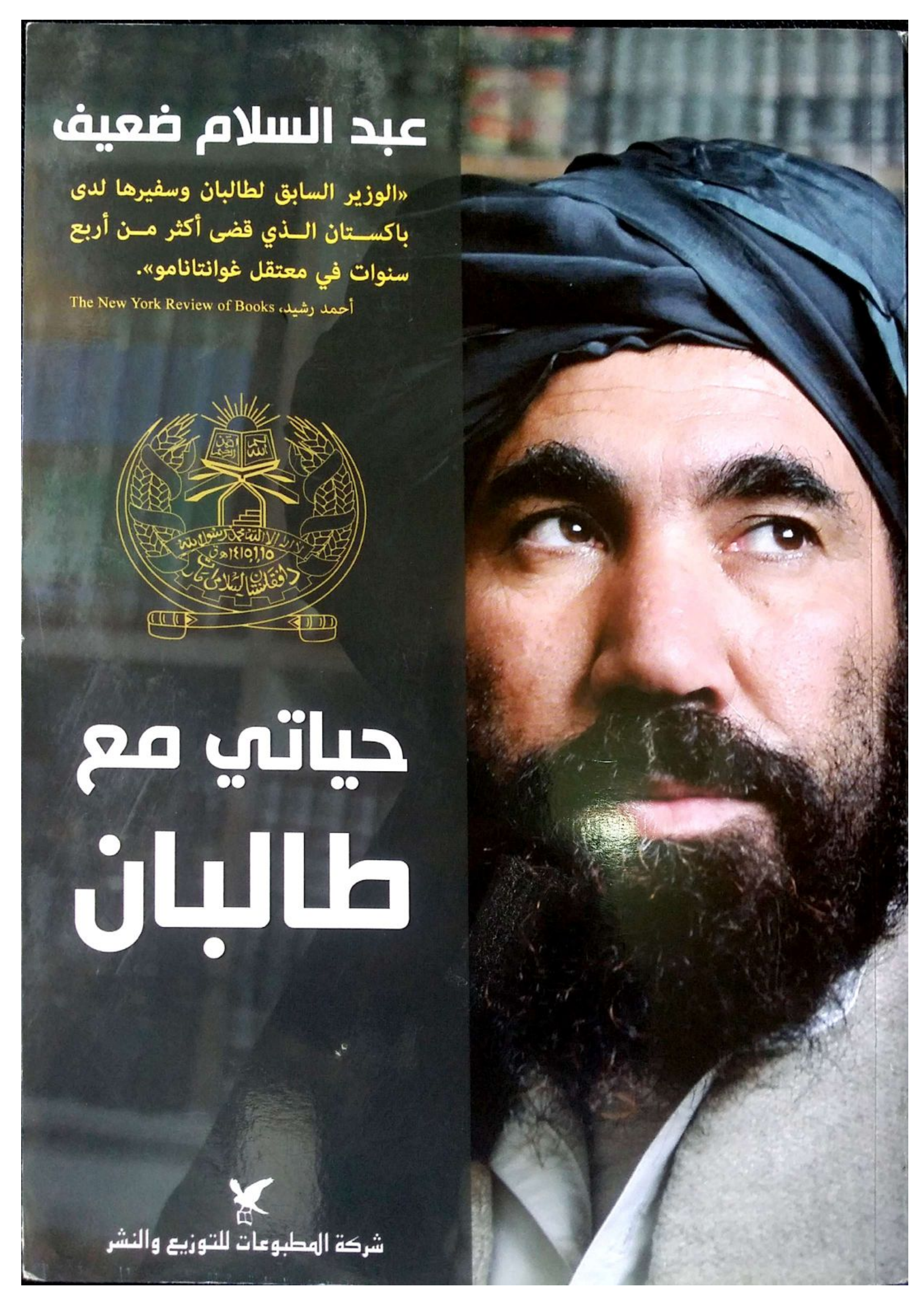


عبد السلام ضعيف
«الوزير السابق لطالبان وسفيرها لدى باكستان الذي قضى أكثر من أربع سنوات في معتقل غوانتانامو».
أحمد رشيد، The New York Review of Books
حياتي مع طالبان
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

عبد السلام ضعيف

حياتي مع طالبان

تحرير:

أليكس ستريك فان لينشوتن، وفيليكس كويهن





شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.

ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الثانية ٢٠١٥
ISBN: 978-9953-88-823-1

Originally published as: **My Life With the Taliban**.

This work was originally published in English by C. Hurst & Co.

ترجمة: بياتريس طعمة

تدقيق: وفيق زيتون
تصميم الغلاف: داني عوّاد
صورة الغلاف: Philip Poupin
الإخراج الفني: بسمة تقي
الاقتباس: Copyright © 2010, Ahmed Rashid, The New York Review of Books

المحتويات

كبّلت هذه الحريّة الشعبَ العنيد بسلاسلها
وجعلت الأحرارَ عبيدًا
نلنا استقلالنا فبتنا ضعفاء
وباسم الإحسان ذُبحنا
إنّها ديمقراطيّة الجلد بالسوْط
والخوف من السلاسل الحديديّة
تدور بنا إلى ما لا نهاية

الملّا عبد السلام ضعيف
(كُتبت في غوانتانامو[*])

(*) أقدّمُ جزيل الشكر والعرفان إلى جان ماكنزي وعبّاسين ناسيمي، لعملهما على هذه القصيدة.

قندهار

نبذة عن المدينة

أليكس ستريك فان لينشوتن وفيليكس كويهن

في طريقنا إلى النهر، حدث انفجار ضخم، فكان عدد الشاحنات المارّة بقربنا والمحمّلة بالجثث كبيرًا. ولم تكن الطريقة التي كُدّست فيها الجثث في صناديق السيارات والشاحنات المتّجهة إلى المدينة طريقة لائقة.

رأينا أمامنا ونحن نقترب من مسرح الحادثة، حشدًا من سيّارات الشرطة والمتفرّجين. وكان أهالي القرية وأفراد من الشرطة يقفون أمام قوارير من الشاي الأخضر مرميّة أرضًا، وصناديق الباعة البلاستيكيّة المعبّأة جوزًا وبسكوتًا وعلب كبريت، والتي باتت ملطّخة بدم أحمر برّاق.

وكان أفرادٌ يافعون من الشرطة يجولون، وكأنّ حراستهم هذه ستعيدُ ما فُقدَ؛ هناك أربع سيّارات رباعيّة الدفع قد تحطّمت مقدّماتها كما لو أنّ وحشًا قد دمّرها.. وأحذية مبعثرة خلعها أصحابها ليقفوا على الحصائر.

ترى أمام السيارات حصائر ممزّقة وكوفيات مرميّة وزُكام بطّانيّات من صوف وقطع ثياب وأنصاف أدمغة وأشلاء.. وبات لون الليمون المطروح قاتمًا ممزوجًا بالدماء.

إنّها أشلاء أولئك الناس الذين كانوا يقفون هنا قُبيلَ الانفجار.. يضحكون ويتحدّثون معًا. قال شهودٌ عيان في المستشفى إنّ هناك الكثير من الأرجل المبتورة المفصولة عن أجسادها وإصابة واحدة عاديّة.

حدث ذلك بتاريخ ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٨ في قندهار وكان يومًا مشرقًا يُزيّن سماءه قليلٌ من الغيوم.. في ذلك اليوم، قامَ الانتحاري بقتل عبد الحكيم خان، وهو ضابط معروف في الجيش، ورجلُ قبيلة مهمّ، كما أُزهقت مئات[1] الأرواح في أعنف هجوم شُنّ على أفغانستان. كان عبد الحكيم خان قد توجّه إلى نهر شبه جاف ليُشاهدَ قتال كلاب. وكان الضابطُ يُعرف بارتدائه الدائم للون الأزرق كما تعوّد أن يرتدي ثلاث قطع من الزيّ الأفغاني التقليدي، الواحدة فوق الأخرى. شكّل مقتل عبد الحكيم خان خسارةً للمدينة وصدمةً لقبيلة أليكوزاي التي كانت قد خسرت أحد أبرز قادة مجاهدي قندهار، الملّا نقيب.

كان عبد الحكيم خان أحد قادة المجاهدين الأحياء بين أبناء جيله والضامن الوحيد للأمن في قريته الأمّ أرغنداب. وكان مقتله دليلًا على مدى سوء الأحوال في جنوب البلاد.

▲▼▲

بعدَ مرور سنتين، باتت قندهار أخطر كثيرًا ممّا كانت عليه من قبل فهي تواجه تفجيرات تُحدثها قوّات حلف شمال الأطلسي يوميًّا في أنحاء المنطقة كافة، وتشهدُ في بعض الأحيان عمليّات انتحاريّة في داخلها. كما يتفشّى فيها فسادٌ وقح وارتفاع في أسعار المأكولات والمحروقات، وحملة اغتيالات وحشيّة متزايدة.

لم تُعرف قندهار قط بحياتها الليليّة. ولكنّ شوارعها باتت اليوم كصحراء قاحلة ليلًا. فمنذ ١٨ شهرًا كان عدد المتجوّلين مساءً أكثر من الآن بكثير. وصار سكّان وسط المدينة يستيقظون كلّ أسبوع في منتصف الليل على أصوات رشاشات أو صواريخ مبعثها هجومٌ يُشنّ على المنشآت الحكوميّة.

والفساد هو القاعدة السائدة في الحكومة الأفغانيّة. وهو يُرافق غالبيّة

(١) لن يُعرف عدد القتلى النهائي أبدًا. لكن من المحتمل أن يكون قد وصل إلى ١١٠ (بحسب الشهود العيان والشرطة وأفراد لجنة الصليب الأحمر الدولي في مستشفى مرويس).

العلاقات بين سكّان قندهار وموظّفي الدولة على المستويات كلّها. فأصغر المعاملات كدفع الفواتير تتطلّب رشوةً. ويشنّ المقاولون في كثير من الأحيان حروبًا ضدّ الهبات التي يمنحها الأجانب، في الوقت الذي ترتفع فيه الخلافات القبليّة والشخصيّة.

أمّا الفساد المرتبط بزراعة المخدرات والاتجار بها فمرض مزمن خصوصًا في موسم حصاد الحشيشة، أو حين تشن السلطات هجماتها الوهمية لإتلاف المحاصيل. يقودنا هذا إلى داخل أجهزة الأمن الحكومية، المرتبطة غالبًا بالتجار والمهربين الذين يعملون على تقويض أسس النظام الأفغاني. لكنّ هذا الأمر في جنوب أفغانستان متعارف عليه ويُسبّبُ الحيرة وخيبات الأمل لدى السكّان المحليّين.

ليسَ هناك إلّا بضعُ مناطق في مدينة قندهار يُمكن اعتبارها آمنة. وعليك أن تبقي في بالك الفرق بين أن تشعرَ بأمان وأن تكون بأمان. فسكّان المدينة ممنوعون من الذهاب إلى المناطق الحضريّة. أمّا السفر من قندهار إلى أجزاءَ أخرى من البلد فمحفوفٌ بالمخاطر. ويشهد الطريق الرئيس السريع من غربي قندهار إلى هرات، دوريّات وهجمات تشنّها طالبان بالإضافة إلى قطع طرقات وتفشّي فساد. ويمرّ الطريق السريع عبرَ مناطق عدّة خطرة في قندهارَ وهلمند وفرح. كما بات من الصعب جدًّا العثور على سائقين مستعدّين لنقل البضائع إلى لاشكارغاه التي تبعد ١٣٦ كم عن قندهار وذلك بسبب تردّي الأوضاع الأمنيّة. وقال صاحب إحدى شركات المقاولات إنّ نقل موادّ من مدينة قندهار إلى لاشكارغاه تُكلّفه أضعافَ ما يدفعه إن حصلَ على الموادّ نفسها من لاهور ونقلها إلى قندهار.

إن سافرت من شرق مدينة قندهار باتّجاه كابول ستمرّ في قرية زابول ومناطقَ أخرى من مدينتي غازني وورداك الخطرتين. فغالبًا ما يهاجِمُ مقاتلو طالبان مواكبَ على هذا الطريق. كما أنّ القنّاصة يستهدفون السيّارات ويقوم طالبان بعمليّات تفتيش على بعض النقاط. أمّا الطريق فهو متضرّر جدًّا ومليء بالحفر

العميقة جرّاء العبوات الناسفة، والهجمات المتفرّقة على طول الطريق. ويبدو أنّ الجسورَ جميعها قد دُمّرت. ولم يعد للأجانب أيّ مكان آمن لقضاء فترات طويلة من الزمن. والخيار الوحيد أمامهم هو القيام برحلاتٍ عشوائيّة إلى القرى. لكنّها رحلات قد تعيق الحركة وتجعل رحلات العمل المخطّط لها شبه مستحيلة وخصوصًا للمنظّمات الدوليّة. في الواقع، لا يكاد الأجانب يزورون هذه المناطقَ في أيّ مناسبة.

إحدى أخطر المشكلات التي تواجهها قندهار تكمن في جهل هويّة من يُشكّل خطرًا على سكّانها. هذا هو الفرق الكبير بين مدينة قندهار في العام ٢٠٠٩ ومدينة قندهار في أوائل العام ١٩٩٤. ففي عام ١٩٩٤ كان مصدر الخطر معروفًا إلى حدّ ما. لكن في العام ٢٠٠٩، أمست المخاطر تظهر وتختفي من دون أيّ تفسير. فبات سكّان قندهار يُواجهون عمليّات اغتيال وقطع رؤوس وتفجيرات انتحارية وهجمات بالعبوات الناسفة، وقصفًا جويًّا وجرائم قتل بالسلاح. وكما كان يقول أحد زعماء القبائل: «أنا لست خائفًا من القتل على يد طالبان. فإذا كانت حركة طالبان تريد النيل منك فسوف تنال منك ولا يسعك القيام بأي شيء لمقاومتها. لكنني أخشى من التفجيرات الانتحارية والهجمات العشوائية وقُطّاع الطرق والقتال الذي يمكن أن يحدث في أي مكان، وفي أي زمان».

يصدّقُ سكّان قندهار العاديّون نظريات بخصوص المؤامرة التي تُحيكها القوّات الأجنبية ومنظّمة حلف شمال الأطلسي. تبدو بعض هذه الشائعات ساذجة، ففي شباط/فبراير ٢٠٠٩، مثلًا، راح الناسُ يتبادلون رسائلَ فوريّة مُخيفة تدعو إلى عدم الردّ على الهواتف المحمولة، لأنّ قوّات حلف شمال الأطلسي تختبرُ نوعًا جديدًا من أشعة الليزر التي من شأنها أن تقتلهم من فورها إذا قاموا بالردّ عليها. وفعلًا كانت المكالمات التي أُجيبَ عنها في الجنوب مكالمات قليلة.

كما أنّ هناك نظريات بخصوص المؤامرة أكثر غدرًا، تشيرُ إلى أن الأميركيين

(في جنوب أفغانستان يُعدُّ الأجانب تلقائيًا أميركيين) يقومون بتمويل حركة طالبان، ويؤدّون دورًا في تسليح أفراد تنظيم القاعدة. وهناك شائعات أخرى منتشرة تفيدُ بأنّ «الأميركيّين» هم من قاموا بالاغتيالَيْن الأخيرَيْن اللذين استهدفا اثنين من كبار الشخصيات من مجتمع قندهار، لا حركة طالبان. كما يدّعي الناس أنّهم رأوا مروحيّات في الجوّ، في اللحظات التي سبقت اغتيال القائد المعروف حبيب اللّه خان. أمّا القصة الحقيقية فلا تمتّ إلى ذلك بأيّ صلة.

ربّما قرأت عن هذا الحدث في الصحف أو شاهدته في تقارير إخبارية متلفزة، وبتّ تعرف هذا الجزء من القصة جيدًا. ولكن ربّما جهلت الكثير عن الأجزاء التي سبقت الحادثة.

▲▼▲

كان عام ١٩٦٨ عامَ التغيير والثورة في جميع أنحاء العالم. ففي هذه السنة حدث هجوم التيت ومجزرة ماي لاي. وأُردي مارتن لوثر كينغ بالرصاص في ولاية تينيسي. وفي أيّار/مايو، من العام نفسه نزل الفرنسيون إلى الشوارع. وحُلَّ في هذه السنة «جناح الجيش الأحمر» (بادر ـ ماينهوف) في ألمانيا الغربية، وتمّت الولادة الجديدة للجيش الإيرلندي الجمهوري في شمال إيرلندا. وفي العام ١٩٦٨ أيضًا، تولّى صدام حسين السلطة في العراق كنائبٍ لرئيس مجلس قيادة الثورة البعثية وذلك بعد انقلاب عسكري. وفضلًا عن ذلك تمّت «عملية الفينيق» في فييتنام.

من السهل جدًّا أن يغمرنا الحنين إذا التفتنا إلى الوراء وألقينا نظرة على ما قبل أربعين عامًا ويزيد، حين كان السياح يتوافدون إلى جميع أنحاء البلاد، ليستكشفوها بأنفسهم. وكانت إحدى الرحلات الآتية من أوروبا تُسمى «الحافلة السحرية». وكانت مجموعات من الشباب والشابّات تعبر الحدود من إيران إلى أفغانستان وتقفُ بدايةً في هرات؛ لتتوجّه من ثَمَّ جنوبًا إلى مدينة قندهار. وثمّةَ آخرون ممّن جاءوا لزيارة أفغانستان من كويتا أو بيشاور. وكانت قندهار في حينها

«واحة جميلة»[١]؛ وصفها دليلٌ من السبعينيات بأنّها «مركز صناعيّ وتجاري مزدهر»[٢]. وكان الهيبّيون من أوروبا وأميركا يتجمّعون في قندهار ولاشكارغاه وأماكن أخرى من القرى. ويصف أحد السياح بعض مظاهر المجتمع في دفتر يومياته قائلًا: «إنّها دفاتر متسخة أو أوراق مربوطة بشرائط جلدية، يجد فيها كل تائه ومغامر وفارّ من الخدمة العسكرية ومدمن على المخدرات وتاجر ـ كل هؤلاء الأشخاص البيض الذين لم ينسجموا في مجتمعاتهم ويجدون في الشرق متنفّسًا لهم ـ وكل الساعين إلى النشوة (النيرفانا) يجدون فيها مادةً ليكتبوا أساطيرهم. هذه سجلات المسافرين إلى الشرق ـ وكأننا أول من يزور تلك المنطقة ـ وهي دليل لكل الراغبين في خوض تلك المغامرة.

لا يزال السكّان المحليّون يستذكرون الحفلات الموسيقيّة التي كانت تُقام في القرى خارجَ المدينة. إذ كان الأفغانيّون والأوروبيّون والمحليّون والأجانب يجتمعون لأيّام عدّة لمناقشة الشعر والموسيقى، ويأكلون اللحم المشويّ والسمك. لكن الآن بعدَ أربعين عامًا، بات من الصعب جدًّا تصوّر حدوث هذا الأمر.

▲▼▲

إنّ زانجياباد مسقط رأس الملّا ضعيف هي بلدةٌ نموذجيّة في جنوب أفغانستان وتُعدُّ القرية الثانية في زراعة العنب. وهي تقعُ على أحد رافدي النهر الأساسي في قندهار. لذلك اتّسمت بالخصوبة وبأنّها صالحة للزراعة.

تصعبُ معرفة عدد السكّان في ذلك الوقت. لكن من المفترض أن يكون حوالي مئتي ألف شخص خلال فترة الستينيات والسبعينيات قد عاشوا في المحافظة[٣].

(١) Van Dyk, J. (1983) *Inside Afghanistan* (New York: Author's Choice Press).

(٢) Dupree, N. (1977) *An Historical Guide To Afghanistan* (Kabul: Afghan Tourist Organisation).

(٣) وفق إحصاءات حكومة أفغانستان، يبلغ عدد سكّان بانجواي حاليًّا حوالى ١٥٧ ألف مواطن.

أمّا إيقاع الحياة اليومية، فيتم ضبطه وفقًا لاحتياجات الأسرة. ولا تزال الكهرباء معدومة في المناطق الخارجة عن المراكز الإقليمية الرئيسة في أفغانستان، ولا ضوء سوى ضوء الشمس. كما تنشغلُ نسوةُ الأسرة وذكورها الأصغر سنًّا في تربية الدواجن. أمّا الفطور، فهو شاي أخضر يقدم مع الخبز الأفغاني. لكن الأُسر الفقيرة كعائلة الملّا عبد السلام ضعيف لا تتمتع بهذه الكماليات في كل وقت. وتستغرق الأعمال المنزلية جزءًا لا بأس به من اليوم يُصرفُ في غسل الملابس وإعداد الطعام.

إنّ معظم الفتيان والرجال الذين يكبرون خارج المدن ليسوا متعلّمين. لكنّ الملّا عبد السلام ضعيف كان سعيد الحظ. فقد أرسله والداه إلى مدارس دينية وحكوميّة. وعندما لا يكون مشغولًا بالدراسة أو أعمال المنزل كان يُشارك في نشاطات للأطفال. ويروي الملّا عبد السلام ضعيف في الصفحات التالية أنّه كان يلعب لعبة الجندي في المعركة مع أبناء عمومه في الأزقة وكروم العنب المحيطة بمنزله. وكان يشارك في أحداث حياة الباشتون الاجتماعيّة كسائر الصبية. وغالبًا ما كانت حفلات الزفاف تستمرّ ثلاثة أيام؛ فتشكّل فرصة للاحتفال وكسر طوق الملل الذي يواجهه السكّان في الحياة اليومية. كما تساهم العائلات في القرية أو القبيلة نفسها في إعداد الطعام خلال الأيّام التي تسبق الاحتفال. وتزيّن النساء أيديهنّ بالحنّة في احتفالات مماثلة تتخلّلها الموسيقا. لكن ذلك يعتمد على مدى تحفّظ الأسرة، خصوصًا، إذا كان الاحتفال ذا طابع ديني.

أمّا والده فكان أوّل من يقوم بالمراسيم الجنائزية. لينعكس ذلك على الملّا عبد السلام ضعيف، في حضوره الكثير من تلك المناسبات. وغالبًا ما يُدفن الموتى في اليوم الذي يتوفّون فيه، وتتمّ قراءة الفاتحة من بعدها أو تُرتَّل آياتٌ من القرآن في مسجد القرية. وتنتهي في اليوم الرابع، إلا إذا كان المتوفى شخصية معروفة.

عرف الملّا عبد السلام ضعيف المؤسسات الأفغانية في جيرغا أو الشورى

على الرغم من الدور الصغير الذي أدته في ذلك الوقت العائلات الدينية في هذه الهيئات الاستشارية القبلية. أمّا الملّا في قرية ما فكان يُرتّل في كثير من الأحيان بعضًا من الآيات القرآنيّة لكنه لا يُشاركُ إلّا لمامًا في المناقشة. وقلّما كانت شخصية دينيّة قوية تشارك في المناقشات، وربما عُزي ذلك إلى مكانتها القبلية. وإذا كانت جيرغا ملامح من هوية الباشتون وثقافتها، فإنّ مسجد القرية هو موضع المعتقد الديني.

كان والد الملّا ضعيف أحد أبرز الوجوه المشاركة في الصلوات اليوميّة ولطالما استُدعي ليؤدي دورَ وسيطٍ بين فرقاء مختلفين؛ ما عزّزَ سلطته، وجعلَ دوره مهمًّا. وتندرج تربية الأجيال الصاعدة من الباشتون ثقافيًّا ودينيًّا في مراسيمَ مماثلة.

تبعدُ زانجياباد عن المدينة مسافةً وثقافة. ويتطلّب الوصول إليها بضعَ ساعاتٍ في السيّارة. وقد خلت الحياة الاجتماعية في هذه القرية من جدالات المدينة ومناوراتها السياسيّة. وحذت العاصمة حذوها في كلّ تلك الأحداث.

فرزت الإصلاحات الإدارية في شهر آذار/مارس ١٩٦٤ ثماني وعشرين مقاطعة جديدة (متساوية) مستبدلة بالنظام القديم الذي جعل في البلاد سبع مقاطعات أساسية وسبعًا أخرى ثانوية. كان الهدف من النظام السابق تعزيز المركزية الحكومية لفرض السيطرة على الأقاليم البعيدة. وتلك من المشكلات المزمنة التي رافقت دولة أفغانستان منذ قيامها. والواقع أن التقسيم الإداري كان أحد وجوه الاختلاف بين ثقافتي البلد، المدنيّة والريفية. وسوف تزيد السنوات العشرون القادمة تلك الاختلافات.

٨٧٨

كان الملّا ضعيف في الحادية عشرة من عمره، عندما دخلت القوّات السوفياتية أفغانستان. وكان يقيم في ذلك الوقت مع عائلته في سانزاري، إحدى المدن المتوسطة الحجم الواقعة غرب مدينة قندهار. ابتدأت المقاومة ضد الحكم الشيوعي كحرب عصابات في مطلع العام ١٩٧٩. لكنها ما لبثت أن تلاشت

أمام الغزو السوفياتي في شهر كانون الأول/ديسمبر، حين اجتاحت قوة مؤلَّفة من ٨٥ ألف جندي أفغانستان، ما دفع أعدادًا هائلة من الأفغان إلى النزوح باتجاه الباكستان. وقد ظهر التأثير الإيديولوجي الشيوعي جليًّا في الإصلاحات التي قام بها الملك ظاهر شاه عام ١٩٦٤.

منذ ذلك الحين، أخذت التيارات السياسية الأفغانية ذات التوجُّه الشيوعي تعمل بجدية، ما سيطبع الحالة السياسية الأفغانية في ثمانينيات القرن العشرين. ومما لا شك فيه أن تصاعُد التأثير السوفياتي في أفغانستان كان جزءًا لا يتجزأ من موجة التأثير العالمي التي اجتاحت البلاد.

فالمشروع الأميركي في هلمند، الهادف إلى تطوير البنية التحتية الزراعية، كان قد أُطلق في العام ١٩٤٥، واستغلّه الأميركيون في اللعبة الكبرى، ليحافظوا على تقدُّمهم بمواجهة السوفيات. وعلى الرغم من ذلك، فقد انحاز الرئيس دود كليًّا إلى الروس بحلول العام ١٩٧٩، «إذ بلغت المساعدات السوفياتية لأفغانستان ١,٢٥ مليار دولار أميركي. كما تلقّى ٣٧٢٥ أفغانيًّا التدريب العسكري في الاتحاد السوفياتي؛ لتغدو الروسيَّةُ اللغة التقنية للقوّات المسلحة الأفغانية؛ وتصبح أفغانستان في حالة اعتماد كامل على السوفيات لمدّهم بقطع الغيار»[١].

في المقابل، لم تحصل الشيوعية، بمفهومها الإيديولوجي، على الشعبية المطلوبة في أفغانستان. فقد واجهتها مقاومة على نطاق ضيق منذ مطلع العام ١٩٧٩ في جنوب البلاد، حيث سعت الحكومة إلى تنفيذ إصلاحات جذرية على المستوى الاجتماعي وعلى صعيد توزيع الأراضي؛ فاصطدمت بالمجتمع الريفي الزراعي القائم أساسًا في المنطقة. وسعت هذه القرارات إلى إحداث تغيير جذري في نظام حياة الأفغانيين، بأبعادها الرسمية والمعيشية، فانتهكت تقاليد الزواج المحلية، وحقوق ملكية الأراضي وتعليم الذكور، وبشكل أخطر تعليم الإناث، مبتعدة البعد كله عن المجتمعات الريفية.

(١) Maley (2002): 21.

أصبحت التعديلات القانونية التي أدخلها نظام تراقي أواخر العام ١٩٧٨ رمزًا للظلم في المجتمعات الريفية. بيد أن أكثر ما أقلق الشعب القمع العنيف الذي مارسته السلطات المحلية. ولا تزال صور اختفاء الأعيان من خان ومالك وسيد وملا ماثلة في أذهان أهالي قندهار. ففي معظم الأحيان كان هؤلاء يُقتادون إلى السجن كمرحلة أولى لتنفَّذ فيهم من ثَمَّ أحكام الإعدام. تلك كانت السياسة المتبعة خصوصًا في عهد حفيظ اللّه أمين، خليفة تراقي، الذي لم يدم طويلًا، فغرزت المسامير الأولى في نعش النظام القديم - النظام القَبَلي - الذي كان شديد التأثير في قندهار.

في أواسط العام ١٩٧٩، شهدت البلاد موجات احتجاج شعبي. ففي تلك المرحلة قُتل مدرّس من الطاجيك، يُدعى عبد المحمد وهو من مشان، بلدة صغيرة في بانجواي، قتله رجل يُدعى الحاجي أخطر محمد؛ فتحرَّك نحو ٥٠٠ شخص من البلدة المذكورة حاملين أعلامًا بيضاء، وتوجّهوا إلى مركز السلطة الإقليمي للاحتجاج. ويروي شهود عيان أن طائرة ميغ بيضاء اللون حلَّقت فوق المتظاهرين وأمطرتهم بقذائفها، كما لم توفرهم الدبابات التي خرجت من الداخل، وأطلقت النيران باتجاه الجمع مباشرة.

ويقالُ إن حوالي ثلاثين شخصًا قد لقوا حتفهم. في اليوم التالي، انتشرتِ القوّات الحكومية في المنطقة، وألقت القبض على كثير من الناس. وتمكّن أكثر من مئة قرويّ من الفرار في ذلك اليوم إلى الباكستان وأسّسوا بعدَ عشرين يومًا حركةً مسلّحة ضد الحكومة تعمل بشكل أساسي انطلاقًا من قواعد صغيرة في ريجيستان المنطقة الصحراويّة الواقعة جنوب مدينة قندهار. وبعدَ نصفِ عام دخلت القافلة الروسيّة المدرّعة الأولى مدينةَ قندهار فخرجَ الجميعُ من منازلهم، ودب الرّعب في الشعب. لكن الأطفال كانوا يلوّحون بأيديهم إلى الجنود السوفيات فوق دباباتهم.

وقد فُرض في وقتٍ لاحق حظرُ تجوُّل، اتُّبعت فيه استراتيجية إطلاق النار بهدف القتل على كلّ من يُضبط في الشوارع بعد العاشرة ليلًا. وشهدَ عاما

١٩٧٩ و١٩٨٠ تدفّق أعداد هائلة من الأفغان إلى الباكستان. وشكّل الملّا عبد السلام ضعيف، وعائلته الكبيرة، جزءًا من هؤلاء النازحين؛ جرّاء الأجواء المتقلبة والمتزايدة التي يشهدها جنوب أفغانستان امتدادًا إلى معسكرات بلوشستان. لتُمسي هذه الأحداث بدايةً لصراعٍ دامَ عشر سنوات، حيث بدأت الأحداث عفويّة؛ وأصبحت فيما بعد خاضعة لتمويل أطرافٍ خارجيّة، كجزء من سياساتها الخارجية وخططها الواسعة. وقد بدأ الجهاد.

▲▼▲

ما من مبالغة في القول بأهمّية الحرب ضد السوفيات في فترة الثمانينيات. وهذا الأمر ينطبق على السياسة الداخلية والتحالفات القَبليّة وأصحاب السلطة وغيرهم؛ وتعودُ هذه الخيوط كلُّها، التي تجلّت اليوم وظلّ يكتنفها بعض الغموض، إلى تلك الحقبة. لكن على الصعيد الدولي اكتسب الجهاد أهمية أساسية في نظر الولايات المتحدة (والاتحاد السوفياتي) وكذلك فكرة «الجهاد العالمي». ومن وجهة نظر محلية بحت، ولّدت الحربُ صداقات قوية وتحالفات وعداوات لا تزال قائمة حتى يومنا هذا. لا يزال الكثير من المجاهدين الذين قاتلوا في القرى وعلى طول الطرق أحياء، فجيل الشباب هو الآن في عقده الرابع من العمر؛ والمشاركون الأكبر سنًّا هم في عقدهم السادس أو السابع. وقد أفاد أولئك الناجون من الخبرة التي عاشوها؛ فضلًا عن أن الشبكات التي ساعدتهم على تخطّي الصراعات على مر السنين لا تزال ناشطة. وهذه حقيقة كثيرًا ما يغفل عنها الأجانب.

من البديهي أن تؤثّرَ حالة الجهاد خلال الثمانينيات في مسار حياة الملّا ضعيف منذ التسعينيات ومع بداية الألفية الجديدة. فهو لو لم يعد عام ١٩٨٣ إلى قندهار ليقاتل، ولو أنه اختار إكمال دراسته، لما انخرط في حركة طالبان بهذا الشكل، ولما تعرَّض للسجن في غوانتانامو لسنوات عدَّة. إنّه لمؤسفٌ أن تفتقر العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي إلى معلومات عن تاريخ جنوب

أفغانستان. فالمراجع المدوَّنة بالإنكليزية التي تتناول التحالفات والشبكات والحركة الجهادية في الثمانينيات قليلة؛ وإن وجدت؛ فهي تقع في فخ الدراسات والتحاليل العمومية.

تشكّل المراجع المدوَّنة بلغة الباشتو[1] مصدرَ معلومات لكنها ليس كافية. فصعوبة فهم اللغة حالت دون تدخّل الغرباء في مرحلة التسعينيات، كما في ظل الحرب الحالية. وتجدر الإشارة إلى أنّ الهدف الأساسي من هذا الكتاب، معرفة أن نتعرَّف كيف انخرط طالبان ضمن صفوف المجاهدين جنوب أفغانستان في الثمانينيات؛ حيث عُرفوا بهذا الاسم منذ ذلك الحين.

لا شك في أن معلومة كهذه توقع القارئ في حيرة من أمره. فمن المتعارف عليه أن حركة طالبان انطلقت من الباكستان عام ١٩٩٤. لكن النظر إلى تاريخ المنطقة يثبت أن الحركة بدأت قبل ذلك بسنوات. وكما سنرى في سيرة الملّا ضعيف، فإن مجموعات طالبان بقيت مبعدةً عن سائر المجاهدين، بسبب ما عُرف عن ممارساتها عادات واتباعها قوانين تتسم بالقسوة والزهد في فترة كان فيها المحاربون الآخرون ينشدون مزيدًا من التحرُّر. نرى هذه النظرة في موقف المجاهدين المنضوين تحت لواء الحركات الأكثر ليبرالية، كحزب المهاز الملّي الذي يرأسه بير غايلاني، أو الجامعة الإسلامية التي يرأسها رباني. فقد رأى هؤلاء أن وحدات طالبان مبالِغة في التشدُّد، في حين ظهرت على أنها السلطة الشرعية الوحيدة بحسب الشريعة الإسلامية، وأسست لنظام قضائي منهجي وخدمات وساطة، عمّمتها على كل المجموعات في الجنوب.

المولوي عبد الباري كان أول قضاة طالبان. قُتل في مطلع الثمانينيات، فخلفه المولوي باساناي صاحب، وهو اسم لا يزال يتردَّد حتى اليوم في قندهار باحترام ورهبة. فصلت هذه المحاكم في مختلف القضايا، البسيطة منها والكبيرة، بدءًا بالسرقات التافهة وانتهاء بجرائم القتل، وتمتَّعت بسلطة هي قمة

(١) كتب محمد طاهر عزيز كمنان على سبيل المثال *De Kandahar Atalaan* (١٩٨٦) كما قام بتأليف سلسلة القصص المشهورة *De Kandahar Cherikaan* (١٩٨٦).

ما توصل إليه العلماء الدينيون في جنوب أفغانستان قبل حكم طالبان الفعلي؛ نستثني بالطبع زمن فتاوى الجهاد خلال الحرب. ولا تزال أعداد الفصائل وقوتها، بالإضافة إلى الجبهات الجهادية، موضع نقاش حاد حتى اليوم. وفي ظل غياب مصادر المعلومات الموثوقة، سيبقى تحديد حجوم مختلف الأفرقاء أمرًا في غاية الالتباس.

يُجمع مَنْ ظلّوا أحياءً أن طالبان أدَّت دورًا مهمًّا في منطقة قندهار الكبرى. وقد نشرت خطوطًا أماميّة ومجموعات في المثلّث الخصب الواقع بين رافدَيّ نهر أرغنداب في إقليم بانجواي. في نهاية المطاف، أظهرت مجموعات المجاهدين تعاونًا في ما بينها، لم تشهده المناطق الأخرى من البلاد. ففي الباكستان (حيث كانت تُوزَّع الأموال والممتلكات)، دارت النزاعات الشرسة بين أقسام الأحزاب نفسها، في حين أن جبهات الجنوب قد حافظت على وحدتها وعلى التنسيق في ما بينها. ولا يزال بعض المجاهدين إلى اليوم يدينون بالولاء الكامل لفصائلهم، بشكل يصعب فهمه.

يتّفقُ الجميع على نقطة واحدة، ألا وهي وحشيّة الحرب في جنوب أفغانستان، كما أنّ الخسائر البشرية والاجتماعيّة التي أوقعتها الحرب، كانت خسائر ضخمة. ولعلَّ ندرة المعلومات والتغطية الإعلاميّة هما اللتان خفّفتا من هول ما حدث. وقد دفع ذلك العلماء الذين يجرون أبحاثًا خارج أفغانستان إلى الاعتماد على أفلام وثائقيّة وقصاصات في كتبٍ من قبل «في أفغانستان» لجيري فان دايك، وكتاب «جنود اللَّه» لروبرت كابلان أو وثائقي ألكسندر ليندسي «الجهاد: حرب أفغانستان المقدّسة»؛ وهو يُعيدُ ذكريات كثيرة إلى البال. يقول روبرت كابلان: «في السنة التالية، أي عام ١٩٨٧ استمرَّ الوضع في قندهار متدهورًا. فقد أقرّ مكتب الإعلام في وزارة الخارجية الآتي: مع بداية فصل الصيف أمست عاصمة جنوب أفغانستان والمناطق المحيطة بها مسرحًا لأكبر حربٍ».

أحضرت القوّات السوفياتيّة بمراسل صحيفة إزفستيا إلى قندهار في أيلول/

سبتمبر. وكانت هذه القوّات قد بدأت في ذلك الوقت تخبرُ شعبها حقيقة ما يجري في أفغانستان. كتب هذا المراسل يقول إن المدينة «تتعرَّض لخراب كبير، وهناك إطلاق نار طوال الوقت. وقد لا يأبه أحدٌ بحياتك إن قرّرت النزول إلى الشارع من دون سلاح». ولم يبقَ لقندهار في القرن الحادي والعشرين سوى تجربة الحرب التي دامت عشر سنوات، وتخلّلها قتال صعب وحرمان وذلّ اختبرها اللاجئون الأفغان في الباكستان، وحسابات عسيرة أجروها ليبقوا أحياء، فضلًا عن الصداقات الحميمة التي نشأت في الخنادق.

وقد ذكر قائدٌ معروف في صفوف المجاهدين من أرغنداب أنّ «المجاهدين كانوا سعيدين»، وهم يستذكرون تلك الأوقات بمزيج من الرعب والحنين إلى الماضي. ويقول الملّا عبد السلام ضعيف: «كم كانت حياتنا سعيدة!». وعلى الرغم من انسحاب الجيش السوفياتي ووقف الأعمال العدائية وبدء قادة المجاهدين بقبول رشاوى من الحكومة الأفغانية، فإن ذلك لم يشكل نهاية القصة لسكّان جنوب أفغانستان، بل بداية مرحلة جديدة.

▲▼▲

بعدَ انسحاب آخر جندي سوفياتي من البلاد، عمّ الشعبُ شعورٌ بالرضى والفخر، وتوقّفت النزاعات لفترة قصيرة. أمّا القوّات، فكانت تجتمع وتخطّط لإلحاق الهزيمة بالحكومة الشيوعيّة التي كانت برئاسة نجيب اللّه. وأتاحت الفترة الانتقاليّة في قندهار فرصةً للراحة وجني المال، وتعزيز المكاسب التي حصدتها بعض الجماعات.

وكان السوفيات في الأشهر الأخيرة قد دعموا قوات الأمن والميليشيات، ليحلّوا محلّهم في جنوب أفغانستان. حقّقت ميليشيا جبار «قهرمان» وعبد الرشيد دوستم، انتصارًا لم يسبق له مثيل على المجاهدين. وفي الوقت نفسه، كان نور الحق عُلومي، رئيس الوزراء الجديد، يثني جماعات المجاهدين عن القتال ضدّ القوات التابعة للحكومة. ويوجّههم إلى شن هجمات وهميّة في أحسن الأحوال.

ولكن ظلَّ المال المحفّز القويّ في الكثير من مبادرات السلام عبر التاريخ الأفغاني. وقد عبّر أحد موظّفي حكومة أفغانستان الذي يُشارك عن كثب في تنفيذ خطة تمويل الميليشيات (وتمويل المعارضة لإبطاء عمليّاتها)، قائلًا: «أردنا أن نجد من يملأ الفراغ الذي خلّفه رحيل ١٥٠ ألف جندي سوفياتي». حقّقت هذه الاستراتيجيات هدفها: فبقيت حكومة نجيب الله فاعلة لسنوات عدّة وهذا ما لم يتوقّعه بعضهم.

فأنشأت الحكومة قاعدةً للقوّات شبه العسكرية، بقيادة جبّار قهرمان تهدف إلى إبقاء مدينتَيْ هلمند وهرات مدعومتين من قندهار. وقرّر المجاهدون المعارضون، فورَ سماعهم خبرَ إنشاء هذه القاعدة، شنَّ هجوم على عارف خان، والحاجي بشار، والملّا نقيب، وسر كاتب، وحبيب الله خان؛ وهم جميعًا نخبة القادة. وقد يظنّ البعض أنّهم لن يُعارضوا وجودَ عصابة مسلّحة صغيرة في مقاطعة مايواند.

في الحقيقة بدا المجاهدون واثقين بنجاحهم حتّى أنّ العمليّة بدأت مصادفة ومن دون أيّ تنسيق. وقد استغرقت الدبابة الوحيدة التي يملكونها تسعة أيّام للوصول إلى مايواند، حيث انتهت الحرب بعدَ يوم واحد بانتصار جبّار قهرمان، وهزيمة قوّات المجاهدين.

وقد بدت عمليّة تمويل المجاهدين المعارضين فعّالة حتّى أنّها غدت تحفيزًا على الرفاهية. فالثياب كانت تُستورد من الباكستان والأحذية من فرنسا. وتوافرت مع القادة أموال طائلة؛ فسارعوا إلى شراء الكثير من الأراضي فضلًا عن قنوات المياه.

وفي نيسان/أبريل العام ١٩٩٢، راحت البلاد شيئًا فشيئًا تفلت من أيدي الحكومة الأفغانيّة، وأصبحت الخطط كلّها تهدف إلى تسليم المدينة إلى المجاهدين. ولم يكن لطالبان أيّ حصّة من كلّ تلك الصفقات. ويروي الملّا ضعيف أنّ طالبان غفلت عن السيطرة على مدينة قندهار؛ ولم يبقَ لها سوى بعض الأراضي خارج البلدة.

كان من المتوقّع أن يشكّل تسليم السلطة حدثًا أكثر هدوءًا. لكن، حين تسرّبت أخبار حول تسليم تلك المناطق إلى بعض القادة، هُرع الجميع ليستولوا على ما كانوا يحلمون به. فترأس غول آغا شيرازي، ابن القائد المعروف حاجي لطيف، الحكومة. وتسلّم الملّا نقيب القاعدة العسكريّة، واستولى أمير لالاي على منطقة الأقمشة وورش العمل، واستولى الحاجي أحمد على المطار؛ والأستاذ عبد العليم على مقرّ الشرطة والسجن. أمّا الحاجي سر كاتب، فاستولى على منطقة باغبول وسيلو وهلمَّ جرّا. فبعدَ أن تسلّم القادة وقبائلهم المناصبَ في المدينة كلّها غابت القوانين. وبات كلّ شيء مسموحًا من سرقة وقتل ونهب. وراح القادة يبيعون الأراضي. فاشترى أحمد شاه مسعود السجون العسكريّة، وتمّ أيضًا بيع الكابلات والمصانع والمطارات. أمّا صفقة البيع العظمى، فكانت المعرفة العامة.

بدأ الحلم يتلاشى بعدَ شهرٍ عصيب من كسب الأموال والسيطرة على الأراضي. وفي هذه الأوقات حدث التصادم الأوّل بين القادة. ولم يعد بمقدور أي منهم أن يحتملَ زميله. ومع بداية ظهور العنف، تمّ إقصاء الأستاذ عبد الحليم من مقرّ الشرطة إلى قاعدته في غرب المدينة قربَ سجن ساربوزا. وبحلول العام ١٩٩٣، أسفرت هذه التصادمات عن مقتل عدد كبير من المدنيّين. وفي هذه المرحلة تحديدًا، وبحسب سكّان المدينة آنذاك، عرف الشعب أنّ القادة لا يبغون سوى توسيعِ نفوذهم. وفي هذه المرحلة أيضًا غابت القوانين والأنظمة. وكما يقول السكان المحليّون: بات الجميع ملوكًا، أو أتباعًا. وكان الملّا ضعيف وكثير من قادة طالبان في فترة الثمانينيات قد عادوا إلى قراهم وراحوا يجتمعون ليدرّسوا ويعلّموا في المحافظات.

لم تستغرق أخبار شهود العيان، عن التجاوزات والانتهاكات التي كان يقوم بها قادة المجاهدين في المدن، وقتًا طويلًا، لتبلغ مسامع سكّان القرى. ولم يبدُ تأثير هذه القصص إلّا مع نهاية العام١٩٩٣ وحلول العام ١٩٩٤ . فقد كان رجالٌ مسلّحون يتعدّون على سكّان القرى أيضًا في مراكز التفتيش، وهم في طريقهم إلى المدينة.

لم تخرج الحركة، التي تعرف اليوم بطالبان، من العدم. يفصّل الملّا ضعيف في هذا الكتاب الأيام الأولى لنشأة المجموعة عام ١٩٩٤، حيث استمرّت اللقاءات والمشاورات لأشهر عدّة قبل اتخاذ القرار بالتأسيس. وهذه القصة تختلف عن الرواية الشهيرة المنشورة في الإعلام. فقد ظهرت في التسعينيات دراسات ضخمة عن طالبان تباينت من حيث نوعيّة المعلومات التي تقدمها، فقلّة منها عرضت التفاصيل التي تطابق أيام الحركة الأولى. وكان أحد الكتب حول الأصولية[١]، وهو من المؤلفات الحديثة للبروفسور وليم مالي، أول المنشورات الإنكليزية حول ظاهرة طالبان في أفغانستان. وهو أيضًا من الكتب القليلة التي عالجت المسألة بدقة.

انطلقت المحادثات على المستويات المحليّة. فتمّت زيارة قياديي الجهاد السابقين، وأُخذ برأيهم في كيفية تصحيح الوضع القائم. وجرى الاتفاق على وجوب تأسيس قوة لها مواصفات خاصّة لتعيد فرض النظام والعدالة في المنطقة. ثم انتقلت المناقشات إلى موضوع القيادة، في الوقت الذي كانت المجموعات المسلحة منتشرة حول قندهار. وقد رست الآراء على الملّا عمر كقائد أعلى مسؤول عن السير اليومي للعمليات. واختير المولوي عبد الصمد أميرًا أو رئيسًا للتنظيم.

سعت أولى المبادرات إلى فتح الطريق السّريع من غرب قندهار باتجاه المدينة. وتكللت الخطوة بالنّجاح، وكرّت سبحة النجاحات؛ فتوسّعت طالبان خارج حدود الإقليم نحو مقاطعات جديدة. لن ندخل في تفاصيل أحداث تلك الأيام، فشهادة الملّا ضعيف كفيلة ببث الحماسة في نفوس دارسي تلك الفترة. وفي جميع الأحوال، فإن العناوين العريضة لتلك المرحلة باتت معروفة بالإجمال.

أما المراحل اللاحقة من حياة الملّا ضعيف فهي مألوفة أكثر: تدرّجه في مناصب عدة في حكومة طالبان حتى تعيينه سفيرًا في الباكستان في العام ٢٠٠٠؛

(١) William Maley (ed.), *Fundamentalism Reborn? Afghanistan and the Taliban*, London, Hurst & Co., 1998.

توالي ظهوره الإعلامي الذي أعقب اعتداءات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر؛ سجنه في غوانتانامو عام ٢٠٠٢ وإطلاقه من دون إدانته عام ٢٠٠٥.

▲▼▲

يُعدُّ ولوج حياة الملّا ضعيف بمثابة قراءة لتاريخ قندهار أكثر مما هو سيرة حياة. فامتداد حياته على مدى الأعوام الأربعين الماضية يغطّي التغييرات العميقة التي شهدتها المنطقة. ويُعدُّ الاطلاع على الإطار التاريخي ضروريًّا لفهم ما وصل إليه هذا الرجل اليوم.

ذلك أنه أدّى دورًا بارزًا في أحداث قندهار، لكونه نشأ فيها. وبنشره، في قندهار، الكتاب الأول باللغة الإنكليزية الذي دقّق في تاريخ تلك الفترة، يصبح الملّا ضعيف نموذجَ الإنسان الأفغاني الجنوبي.

على الرغم من خيارات الحياة المتنوّعة المتوفّرة في قندهار، ترعرع الملّا ضعيف في الأقاليم، وشبّ كابن ريف. لجأ مع عائلته إلى الباكستان بعد الاجتياح السوفياتي. وحارب كمجاهد شاب في الخطوط الأمامية في الثمانينيات. وتابع تنشئته الدينية بعد رحيل السوفيات، كما خدم كموظّف في الحركة التي عرفت لاحقًا باسم طالبان في التسعينيات. تعرَّض للسجن على أيدي القوات الأميركية في معتقلات عدَّة، كان آخرها وأهمها غوانتانامو. يعيش اليوم في كابول. ويطل في المناسبات كمعلّق إعلامي، ووسيط وكاتب. بهذا الشكل، يظهر الملّا ضعيف كشاهد على معظم الأحداث التي أصابت أفغانستان.

وفي الوقت الذي أدى فيه دورًا فاعلًا في هذه الأحداث، حافظ على صفة المراقب القادر على الانسحاب من المدينة إلى الأقاليم في كل مرة يشعر فيها بالحاجة إلى الابتعاد عن اللعبة الدائرة. هذا الكتاب هو شهادة ذلك المُراقب، رغم أن عدم الانخراط في اللعبة يبدو أصعب في يومنا هذا، في الوقت الذي يشتدّ فيه الاصطفاف مع الجهات الخارجية خصوصًا في أوساط ذوي الخبرة والمعرفة. يروي الملّا ضعيف في الصفحات الأخيرة من الكتاب، أن ممثلي

سجّانيه السابقين لا يزالون يسعون حتى اليوم إلى نيل مساعدته وكسب تعاونه رغم طلباته الصريحة بتركه وشأنه.

هو يعيش اليوم في كابول، ويراقب من بعيد الوضع المزري الذي يزداد تفاقمًا في القرى خلف حدود مدينته. ستصل عمّا قريب دفعة جديدة من الجنود الأميركيين إلى قندهار؛ فبدأ السكان بتحصين أنفسهم استعدادًا. تنتشر في أوساط الشعب عبارات على غرار «سأراك قريبًا، إن كنتَ لا تزال حيًّا». ويجمع المواطنون على أن نتائج انتخابات آب/أغسطس محسومة مسبقًا بطبيعة الحال. فكرزاي سيفوز مجدّدًا؛ والانتخابات ستتحوّل إلى مهزلة، تتحكّم في نتيجتها مئات آلاف الأصوات المزوّرة؛ وقندهار ستتابع مسيرها نحو مستقبل غامض.

وفي الأشهر الأخيرة، عمدت واشنطن وإدارة أوباما الجديدة إلى تقديم جملة مشروعات من أجل جنوب أفغانستان اختلفت مضامينها. وجرت محاولات عدّة لإيجاد حلول قبليّة للمشكلات المحليّة: يقترح أحدهم إنشاء مجالس استشارية كبرى. ويقترح آخر إنشاء ميليشيات قبلية، على غرار مجلس الصحوة في العراق، أو حركة أبناء العراق. لن يكون هذا المكان هو المكان المناسب لمناقشة وجهات النّظر هذه وخصائصها والالتباس الذي يكتنفها بها، بل يسعى هذا الكتاب ليكون مقياسًا تقوّم على أساسه هذه الجهود.

«حياتي مع طالبان»، إذًا، كتابٌ يقدّم رؤية شخصية ومتميّزة للحياة داخل مجتمعات القرى في باشتون، ولتصوُّر رجال الدين وأفكارهم، ولحركة طالبان، ولدولة ابتليت بحرب مريرة. هذا السّرد لثلاثين عامًا من النزاع هو في الوقت نفسه حكاية تحذير لكلّ شخص يحاول تصنيف قضية هذه المنطقة في جنوب أفغانستان أو تبسيطها.

أليكس ستريك فان لينشوني، وفيليكس كويهن

مدينة قندهار، تموز/يوليو ٢٠٠٩

كلمة شكر الكاتبيْن

استغرق إنجاز هذا الكتاب أربع سنوات. ونحن نشكر جميع الذين قدّموا مساعدتهم من علماء وصحافيين وخبراء من خارج أفغانستان، بالإضافة إلى عدد كبير من أصدقائنا وزملائنا الأفغان من كابول وقندهار ومناطقَ أخرى جنوب أفغانستان.

كثيرون من هؤلاء الأصدقاء لا يمكننا الإتيان على ذكرهم؛ فالحرب لا تزال مستمرّة في أفغانستان، وقد تكون حياتهم معرّضة للخطر.

نشكر حميد ستانيكزاي وميروايس رحماني وعبّاسين نسيمي لساعات عملهم المطوّلة، وترجمتهم من لغة الباشتو إلى الإنجليزيّة، ولمساعدتنا على ملاحقة المقابلات التي أُجريت مع الملّا ضعيف.

كما نرغب في شكر دومينيك ماكان وغرايم سميث *(Globe and Mail)* لعملهما على تدقيق النصوص في ظروف سيّئة، وضمن مهل قصيرة. ونشكر كاثرين غانلي وليزا ويزفلد وآنا بترسون وبيدجان نشاط، الذين ساهموا في إنجاز هذا الكتاب. فذلك يتطلّب التحقّق من الكثير من الأحداث والمعلومات. وقد ساعدنا في هذا النطاق سكوت بيترسن (مشرف في العلوم المسيحيّة) وجوش فوست (Registan.net) ونعيم رشيد والأستاذ أناتول ليفن (من جامعة كينغ في لندن)، بالإضافة إلى جميع الخبراء في هذا المجال. وشكر خاصّ للأستاذ أناتول الذي عرّفنا بمايكل دوير في هرست.

وقد حالفنا الحظ في كابول أن نتشارك الآراء على العشاء مع جوانا ناثان (من مجموعة الأزمة الدوليّة) وثريا سارهادي نيلسن (من الإذاعة الوطنية العامة) وريشارد سكارث، وجسيكا باري (من اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر).

ونشكر أيضًا المراقبة الجويّة والأرضيّة التي رافقتنا في جولاتنا في القرى منذ وصولنا إلى كابول عام ٢٠٠٣.

وقد ساعدنا جان ماكنزي (من معهد الحرب والسلم) في المقدّمة. كما كان حسن الضيافة وقدّم الطعام خلال سني عملنا على إنجاز هذا الكتاب.

وفي قندهار تعاون معنا كلّ من تحدّثنا إليهم. وغالبًا ما كانت الظروف صعبة ولم يكونوا في حينها مضطرين إلى مساعدتنا. كما نحن ممتنون جدًّا من جميع أهالي قندهار؛ نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر: الحاجي مختار رشيدي، ونعمة اللّه أرغندابي، وباكي آغا، والحاجي كرم خان، والحاجي عبد الغني.

كما كان جاسون إليوت بمثابة مشجّع لنا وقدّم إلينا استشارات مطوَّلة فترة إنجاز هذا الكتاب؛ ولا بد من إهدائه جزيل الشكر. كما كان جير فان دايك وبول فيشستاين في غاية الصبر، وأسديا لنا النصائح والدعم خلال فترة السنتين والنصف التي قضيناها في العمل على هذا الكتاب. ونوجّه شكرنا أيضًا إلى ن.ب، إ.ر.و، ك.د، بالإضافة إلى ز.د.

كما نشكر مايكل دوير، ناشر هذا الكتاب في هرست، وكان من دواعي سرورنا العمل معه، بالنظر إلى خبرته وصبره علينا، كلّما تأخّرنا في تسليمه الكتابات.

وفي النهاية، نرغب في شكر الملّا ضعيف لثقته بعملنا معه، ولصبره خلال السنوات الثلاث فيما نحاولُ أن نجدَ «بيتًا» لكتابه. وقد أخجلت تجاربه في الحياة تواضعَنا، هو الذي حافظ على إنسانيّته ولطفه ولباقته.

ملاحظات الكاتبَيْن

كيف تقرأ هذا الكتاب؟

فيما نحن نعمل على ترجمة كتاب «حياتي مع طالبان» وتدقيقه، جمعنا موادَّ كثيرة متعلّقة بالملّا ضعيف وبجنوب أفغانستان والأحداث التاريخيّة التي عاشها. وفي محاولة منا لوضع هذا الكتاب بمتناول القارئ العام عملنا على تكثيف المعلومات في النصوص.

ولن يكون الأمر صعبًا أو مقلقًا لمن لا يملك معلومات كثيرة عن التقلّبات السياسيّة المعقّدة في أفغانستان والقبائل والديانة والعملة والإيديولوجيّات؛ ذلك أن بإمكانه أن يعودَ إلى صفحة الشخصيّات في المسرد الذي يضمّ الشخصيّات، كلّها بحسب ورودها في الكتاب.

كما وضعنا بعض الخرائط في هذا الكتاب كي يتمكّن القارئ من تصوُّر المسافات والأماكن الموصوفة في النص، وخصوصًا الأماكن الواقعة جنوب أفغانستان. وأدرجنا في أوّل الكتاب خريطة عامّة لأفغانستان والمنطقة.

يتخلّل هذا الكتاب وصف لبعض الأحداث التاريخيّة التي جرت في أفغانستان لكنه لا يصلح مادّة لتاريخ أفغانستان أو المنطقة. ويقول لكلّ من يرغب في معرفة الأحداث التي كانت تجري في حياة الملّا ضعيف أن ينظر إلى صفحة الترتيب الزمني للأحداث في آخر الكتاب. ففيها أهمّ الأحداث في حياة الملّا ضعيف، بالإضافة إلى أحداث أخرى مهمّة في تاريخ أفغانستان.

ويقول لكلّ من يودّ أن يطّلع على خلفيّة بعض الأحداث الموصوفة في هذا الكتاب، أن ينظر إلى صفحات «اقتراحات لقراءات أخرى».

وضع الكتاب ومصادره

تعود فكرة العمل على هذا الكتاب مع الملّا ضعيف إلى العام ٢٠٠٦. وكان النص الأصلي مكتوبًا باللغة الباشتونيّة فأضفنا إليه مقابلات أجريناها معه ومع شخصيّات لها علاقة بالأحداث التي ذكرها. كما أجرينا بحوثًا حول كل المواد المكتوبة المتعلّقة بجميع الأحداث المذكورة في الكتاب.

قائمة الشخصيات

كابول

بابراك كارمال: طاجيكي، رئيس دولة أفغانستان (١٩٧٩ ـ ١٩٨٦)، أوصله السوفيات إلى الحكم في أيّام الغزو العسكري.

حفيظ اللّه أمين: باشتوني شيوعي تبوَّأ منصب رئاسة الجمهورية خلال العام ١٩٧٩، قبل أن يغتاله لاحقًا بابراك كارمال الذي تولّى السلطة مكانه.

داود خان: باشتوني، قريب الملك ظاهر شاه، ترأس مجلس الوزراء (١٩٥٣ ـ ١٩٦٣) وأصبح رئيسًا للجمهورية (١٩٧٣- ١٩٧٨) بعد انقلاب «سور» العسكري.

صبغة اللّه مجدّدي: علّامة إسلامي باشتوني (درس في الأزهر بالقاهرة)، تسلّم الرئاسة مؤقتًا عام ١٩٩٢، وأسّس الحزب السياسي المعروف «جمعيّة العلماء المحمديّة»، ولا يزال له دورٌ في السياسة الأفغانية.

ظاهر شاه: ملك باشتوني (١٩٣٣ ـ ١٩٧٣)، حكم في مرحلة استقرار نسبي من تاريخ أفغانستان. توفي في تموز/يوليو ٢٠٠٧.

عبد الرب الرسول سياف: علّامة إسلامي باشتوني ومؤسس حزب الاتحاد الإسلامي السياسي. لا يزال حتى اليوم يؤدّي دورًا بارزًا ومؤثّرًا في السياسة الأفغانية.

المولوي أحمد خان صاحب: باشتوني، تولّى وزارة المناجم والصناعات في نهاية عهد طالبان. خدم الملّا ضعيف تحت قيادته.

المولوي وكيل أحمد متوكّل: وزير الشؤون الخارجية في سنوات حكم طالبان الأخيرة. يتحدّر من قندهار ووالده شاعر محليّ معروف.

نجيب اللَّه: باشتوني، رئيس دولة أفغانستان (١٩٨٦ ـ ١٩٩٢)، تولّى الحكم بعد خروج السوفيات من البلاد، ولكنّه سُجنَ في مجمع سكني للقوات الدولية في كابول.

نور محمد تراقي: باشتوني الولادة، قائد شيوعي ورئيس دولة أفغانستان (١٩٧٨ ـ ١٩٧٩)، تولّى الحكم بعد إعدام سلفه حفيظ اللَّه أمين.

جنوب أفغانستان

أستاذ عبد الحليم: أحد قادة المجاهدين البارزين في الثمانينيات جنوب أفغانستان. يتابع اليوم أداء دوره في السياسة الداخلية وهو من القلّة الذين ظلّوا أحياء من مجموعته.

بارو: قائد في مجموعات المجاهدين سيئ السمعة جدًّا يحفل سجلّه بابتزاز السكان في قندهار وإرهابهم في مطلع التسعينيات. أعدمه طالبان شنقًا في اليوم الأول من سيطرتهم على المدينة.

حاجي أحمد: قائد بارز في قندهار خلال الجهاد في الثمانينيات وما تلاه في التسعينيات، حيث سيطر على أجزاء كبيرة من المدينة.

حاجي بشار: شيخ سن في قبيلة نورزاي في قندهار. أدّى دورًا بارزًا في الثمانينيات والتسعينيات، ودعم حكم طالبان الناشئ أواسط التسعينيات. أُدين بتهمة تهريب المخدّرات في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٨.

حاجي كرم خان: مجاهد في الثمانينيات وشيخ قبيلة أشكيزاي في السنوات التي تلت.

حاجي لطيف: يُعرف بأسد قندهار. نُصّب قائدًا عالي النفوذ في حركة الجهاد، وشيخ قبيلة، قبل تسميمه عام ١٩٨٩. هو والد غول آغا شيرزاي، حاكم نانغارهار الحالي.

حافظ اللَّه آخوندزاده: قائد بارز في جنوب أفغانستان خلال الجهاد في الثمانينيات.

حامد كرزاي: رئيس دولة أفغانستان منذ سقوط حكم طالبان.

شاه باران: مجاهد انتقل إلى الضفة الحكومية مع عصمت مسلم في الثمانينيات.

في مطلع التسعينيات أقام حاجز تفتيش في قندهار يحرسه اللصوص ليبث الرعب في القلوب.

صالح: مجرم وقاتل. اشتُهر بنصبه حاجز تفتيش في فترة الاضطرابات مطلع التسعينيات.

عبد الحكيم خان: من القيادات النافذة والشخصيات المفعمة بالحيوية في إقليم قندهار منذ الحركات الجهادية في الثمانينيات وحتى اغتياله في شباط/فبراير ٢٠٠٧.

عبد الغفار آخوندزاده: قائد مهم من قادة الجهاد في الثمانينيات جنوب أفغانستان. قاوم طالبان عندما حاولوا احتلال هلمند عام ١٩٩٤.

عزيز اللَّه واصفي: أحد شيوخ السن في قبيلة أليكوزاي. دعم عودة الملك ظاهر شاه من المنفى. لا يزال قيد الحياة.

عطا محمد سر كاتب: من قيادات الجهاد القندهاريين البارزين في الثمانينيات، رئيس سابق للحزب الإسلامي، حارب طالبان عام ١٩٩٤، وأُجبر على الانسحاب من مراكزه ونقاط التفتيش التابعة له في المدينة.

القائد عبد الرازق: قائد في الجهاد خلال الثمانينيات ومقيم في نلغام، يتحدَّر من أرغستان في إقليم قندهار.

الملّا برجان: قائد بارز في الجهاد من قندهار، قتل عام ١٩٩٦ بعد سقوط كابول في أيدي طالبان.

الملّا داد اللَّه آخوند: قائد طالباني بساق واحدة، تميَّز بشجاعته الفائقة وبوحشيته أيضًا. قُتل في أيار/مايو ٢٠٠٧ على أيدي قوات الأمن الدولية.

الملّا ستّار: من مجاهد في الثمانينيات إلى قائد أواخر التسعينيات. قُتل عام ٢٠٠٤ أو ٢٠٠٥، خلال الهجوم على مطار قندهار.

الملّا عبد الرؤوف آخوند: يتحدَّر من هلمند. ترأس واحدًا من أكبر اجتماعات طالبان في بداياتها عام ١٩٩٤ لمناقشة تكوين مجموعة تحمي جنوب أفغانستان. وهو محتجز في غوانتانامو منذ القبض عليه في العام ٢٠٠١.

الملّا عبيد اللَّه آخوند: قائد معروف للمجاهدين في الثمانينيات. عُيّن لاحقًا وزيرًا للدفاع. لا يزال حيًّا، ويعتقد أنه معتقلٌ في الباكستان.

الملّا فدى محمد: حارب في صفوف حركة الجهاد وقُتل أواخر الثمانينيات.

الملّا محمد حسن: شخصان في قندهار يحملان هذا الاسم، وكانا كلاهما حاكمَيْن عليها في أواخر التسعينيات تحت حكم طالبان. يُمكن التمييز بينهما بأن أحدهما فقد ساقه في الثمانينيات.

الملّا محمد ربّاني: قائد للمجاهدين في قندهار خلال الثمانينيات. كان نائبًا لزعيم طالبان حتى وفاته في نيسان/أبريل ٢٠٠١.

الملّا محمد صادق آخوند: قائد ذو نفوذ كبير في حركة طالبان خلال الجهاد في الثمانينيات. أُلقي القبض عليه عام ٢٠٠١، ولا يزال منذ ذلك الحين محتجزًا في غوانتانامو.

الملّا محمد عمر آخوند: قائد بارز في حركة الجهاد فترة الثمانينيات وقائد طالبان عند نشأتها عام ١٩٩٤. يعتقد أنه لا يزال حيًّا، وهو متوارٍ في مكان ما من الباكستان.

الملّا مرجان: قائد في معارك الجهاد في الثمانينيات. حارب على خطوط طالبان الأمامية، وقُتل أواخر الثمانينيات.

الملّا معز اللّه آخوندزاده: قائد متقدّم في حركة الجهاد فترة الثمانينيات. قاد عدّة خطوط أمامية لطالبان. احتفظ بنفوذه حتى وفاته في أواسط التسعينيات.

الملّا نقيب: أحد أكبر القادة المجاهدين في جنوب أفغانستان، استمر في أداء دور بارز في السياسة الأفغانية حتى وفاته في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧.

الملّا نظام: أحد أعمام الملّا ضعيف، قتل عام ١٩٦٢ في صحراء زراي على أيدي القوات النظامية.

الملّا نك محمد آخوند: صديق مُقرَّب من الملّا عمر، ومجاهد من قندهار، اشتُهر بنجاحه في الدفاع والقتال ضمن مجال ضيق من الطريق المجاور لباشمول، حتى وفاته في أواخر الثمانينيات.

الملّا نور الدين ترابي: قائد للمجاهدين، أصله من أوروزغان، عُيّن وزيرًا للعدل في أواخر التسعينيات. لا يزال حيًّا حتى اليوم.

موسى خان: خال الملّا ضعيف.

المولوي باساناي صاحب: قاضي طالباني ذو نفوذ، عُرف لترأُّسه المحاكم في الثمانينيات في قندهار. برز أيضا كمؤيّد للطالبان بعد تولّيهم الحكم عام ١٩٩٤. عمل مع الملّا ضعيف لأشهر عدّة.

المولوي نياز محمد: رجل دين مسلم في سانجيسار، دعم الشيوعيين في أواخر السبعينيات، وتعرَّض للاغتيال لاحقًا بسبب آرائه.

نور الحق عُلومي: عضو في الحكومة الأفغانية، وحاكم شيوعي سابق لقندهار. حكم عُلومي في الجنوب بداية التسعينيات، ولا يزال يشغل مركزًا في الحكومة الأفغانية.

شمال أفغانستان

أحمد شاه مسعود: لُقِّب بأسد بانشير. كان قائدًا مهمًّا للمجاهدين في الثمانينيات. خدم في الشمال الشرقي للبلاد، كما حارب ضد طالبان في التسعينيات حتى اغتياله في ٩ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

بشير بغلاني: قائد الحزب الإسلامي في بغلان خلال الثمانينيات، تولّى لاحقًا قيادة طالبان في المقاطعة نفسها.

الجنرال مالك: يعدّ الرجل الثاني بعد دوستم في قيادة شمال أفغانستان. نكث بوعد قطعه لطالبان بتأمين عبورهم ممر زارانج، فهاجمتهم قواته خلال عبورهم الممر، وفي محيطه عام ١٩٩٨.

عبد البصير سالانجي: من المحاربين الطاجيك الأشدّاء في شمال أفغانستان. تورَّط عام ١٩٨٨ عندما حوصر طالبان في زارانج. طُرد من مركزه كقائد شرطة كابول عام ٢٠٠٣، إثر فضيحة استيلاء على الأراضي، أثيرت داخل البرلمان.

عبد الرشيد دوستم: قائد أوزبكي سيئ السمعة، لانتقاله المتكرّر من جبهة إلى أخرى خلال النزاع في الثمانينيات والتسعينيات. تزعم أكبر ميليشيا سوفياتية في الثمانينيات ومطلع التسعينيات، قبل أن ينتقل إلى صفوف المجاهدين ليحتل مركزًا في حكومتهم. لا يزال حتى اليوم يؤدي دورًا بارزًا في السياسة الأفغانية، في كابول كما في شمال البلاد.

قلب الدين حكمتيار: زعيم الحزب الإسلامي. حارب في حركة الجهاد في الثمانينيات، ونال حصة الأسد من المساعدات الأميركية ـ السعودية التي استخدمتها المخابرات الأميركية لتغذية المعارضة الأفغانية ضد السوفيات. لا يزال حيًّا، ويُحكى عن انخراطه في المحادثات بين الإدارة الأميركية وحكومة كرزاي.

غرب أفغانستان

إسماعيل خان: أهم القادة المجاهدين في غرب أفغانستان. انخرط في حزب جمعية الإسلام، ولا يزال حتى اليوم يؤدّي دورًا في السياسة الأفغانية كوزير للطاقة.

محمد أنور: شقيق إسماعيل خان.

الباكستان

برويز مشرّف: رئيس الباكستان (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٨). تسلَّم الحكم بعد انقلاب العام ١٩٩٩.

بولا ثادي: مسؤولة الشؤون السياسية في السفارة الأميركية في الباكستان.

الجنرال جيلاني: نائب مدير وكالة المخابرات الباكستانية (٢٠٠١ ـ ...).

الجنرال محمود أحمد: مدير وكالة المخابرات الباكستانية (١٩٩٩ ـ ٢٠٠١). كان في واشنطن يوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وشارك في اجتماعات مع السلطات الأميركية بعد الهجمات على البنتاغون ومركز التجارة العالمية.

عبد الستّار: وزير الخارجية الباكستاني (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٢).

عزيز خان: مدير مكتب الشؤون الآسيوية في وزارة الخارجية الباكستانية.

محمد رفيق طرار: رئيس الباكستان (١٩٩٨ ـ ٢٠٠١).

معين الدين حيدر: وزير الداخلية الباكستاني (١٩٩٩ ـ ٢٠٠٢).

المولوي سيّد محمد حقاني: خلف الملّا ضعيف كسفير لطالبان في الباكستان منذ العام ٢٠٠٠. هو اليوم مطلوب من الحكومتين الأفغانية والباكستانية لضلوعه في هجمات ضد الشرطة والقوات الأجنبية.

المولوي عبد القادر: مرشد الملّا ضعيف في الباكستان قبل عودته إلى قندهار للقتال مرة ثانية.

المولوي نبي محمدي: علّامة إسلامي أسَّس حركة الانقلاب الإسلامي، وهي حزب سياسي شكل أعضاؤه نسبة لا بأس بها من المنضوين في صفوف طالبان عام ١٩٩٤.

وليم ميلام: السفير الأميركي في الباكستان (١٩٩٨ ـ ٢٠٠١).

أوروبا والولايات المتحدة الأميركية

جورج بوش: رئيس الولايات المتحدة الأميركية (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٨).

فرانسيسك فاندريل: دبلوماسي إسباني، الممثل الشخصي للأمين العام للأمم المتحدة في أفغانستان، ورئيس بعثة الأمم المتحدة الخاصة إلى أفغانستان (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١). عمل أيضًا ممثّلًا خاصًا للاتحاد الأوروبي (٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٨).

كوفي أنان: أمين عام الأمم المتحدة (١٩٩٧ ـ ٢٠٠٧).

آسيا الوسطى

نور سلطان نزارباييف: رئيس دولة كازاخستان (١٩٩٠ ـ ...).

البلدان العربية

أسامة بن لادن: سعودي، راعي الإرهاب في العالم. قضى فترة جنوب شرق أفغانستان خلال الجهاد في الثمانينيات، ثم عاد إلى السعودية، فالسودان، قبل أن يرجع إلى شرق فجنوب أفغانستان عام ١٩٩٦، حيث خطّط لعدَّة هجمات إرهابية ضد المصالح الأميركية، توّجها بهجوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١(*).

غوانتانامو

بدر الزمان بدر: باكستاني اعتُقل في فترة ٢٠٠١ ـ ٢٠٠٤، كتب بعدها مع أخيه

(*) قُتلَ في عمليّة أميركيّة نوعيّة عام ٢٠١١، ورُمي جثمانه في البحر.

مذكّرات اعتقاله «أغلال غوانتانامو المكسورة». يعتقد أنه في السجون الباكستانية حاليًا. أما أخوه فقد اعتُقل مجدَّدًا وأُعيد إلى غوانتانامو.

الجنرال جوفري د. ميلر: القائد الأعلى لمعتقل غوانتانامو منذ العام ٢٠٠٢. يربط الكثيرون معاملته الحسنة للسجناء بفضيحة سجن أبو غريب بالعراق في آذار/ مارس ٢٠٠٤.

الشيخ شاكر: سجين سعودي في غوانتانامو منذ العام ٢٠٠١. كان ممثل الرئيس للسجناء المضربين عن الطعام في مفاوضاتهم مع إدارة السجن عام ٢٠٠٥. لا يزال رهن الاعتقال حتى اليوم.

الكولونيل مايكل بومغارنر: القائد الأعلى لمعتقل غوانتانامو (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٦).

الملّا محمد فضل: مقيم في مقاطعة أوروزغان ونائب وزير الدفاع، أيام حكومة طالبان الأخيرة. اعتُقل عام ٢٠٠١ ولا يزال رهن الاعتقال.

تمهيد

حتى تاريخ كتابة هذه السطور، يكون قد مضى على حرب الولايات المتحدة وحلفائها ضد طالبان حوالي عقدٌ من الزمن. ولا تزال معرفتنا لهذا التنظيم محدودة جدًّا. يصف الجنرال الأميركي ستانلي ماكريستال في التقييم الذي أعده للرئيس أوباما في حزيران/يونيو ٢٠٠٩ النزاع في أفغانستان بأنه «حرب أفكار» ويضيف أن أفغانستان «بيئة تسبق فيها الأفعال الإدراك»[١]. وبخلاف بعض الشعارات التي باتت أخبارها معروفة «كالتطرُّف الإسلامي»، وهي: حرمان البنات من التعليم والنسوة من العمل، ورفض تسليم أسامة بن لادن للأميركيين، وحالة التمرُّد الدموية المتصاعدة في أفغانستان، فإن قلّة كانت على بيّنة من أفكارها وكيف تقوم بتطبيقها.

لهذا السبب، ولأسباب أخرى، يجدر بكل شخص، مهتمّ بالاطلاع على واقع الجهود الأميركية والدولية في أفغانستان، قراءة هذا الكتاب ودراسته. بمساعدة محرّري هذا الكتاب الموهوبَيْن والشجاعَيْن، يعرض لنا الملّا عبد السلام ضعيف بأسلوبٍ خالٍ من أي ندم أو افتخار لمحة عن العالم الذي نشأت فيه حركة طالبان منذ تأسيسها ضمن بوتقة الحركة الجهادية ضد السوفيات، وصعودها إلى السلطة في مرحلة الصراع الدموي الفوضوي الذي تلا الانسحاب السوفياتي، وحكمها لخمس سنوات وسقوطها. كان الملّا ضعيف حاضرًا من طفولته المحرومة ودراسته في قرية نائية حتى ظهوره على شاشة السي إن إن، وسجنه دون إدانة في غوانتانامو، وحياته اليوم في كابول.

---

(١) تقييم كوميزاف الأول، نسخة غير مصنّفة، وزارة الدفاع تقرير ٢٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٩، الموضوع: تقييم أولي القوات الأميركية في أفغانستان، المكتب الرئيسي لقوات الأمن الدولية المساعدة، كابول، أفغانستان، ٢١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩، واشنطن بوست. http://www.washington post.com/ wp-dyn/content/article/2009/09/21/AR2009092100110.html

يعيش الملّا ضعيف اليوم بسلام في كابول. وكما يظهر جليًّا من خلال هذا الكتاب، فهو فصيح اللسان، ولا ينطق دائمًا بما قد يروق للآخرين، أو ما قد يودون سماعه. منذ العام ٢٠٠١، حين عُيّنَ سفيرًا لإمارة أفغانستان الإسلامية في الباكستان وحتى اليوم، لا ينفك الخبراء الدوليون يقترحون اسم الملّا ضعيف للمساعدة في قيادة حركة طالبان المعتدلة، هو الذي ساهم بتأسيس الحركة حتى قبل انضمام الملّا محمد عمر إليها. يرفض الملّا ضعيف في مجالسه الخاصة، كما في كتابه، محاولات التقسيم هذه، حيث يقول: «إن فكرة تقسيم حركة طالبان إلى معتدلين ومتشدّدين، لهي مخطط عقيم وطائش». ولمّا طلبت السلطات في غوانتانامو إلى الملّا ضعيف توقيع إفادة تدلّ على انتمائه إلى القاعدة وإلى طالبان، وتعهُّده بقطع جميع العلاقات التي تربطه بالجماعتين كشرط لإطلاق سراحه، رفض قائلًا: «كنت من طالبان ولا أزال من طالبان وسوف أبقى حتى النهاية منهم؛ لكنني لم أنتم يومًا إلى القاعدة!». ونتيجة لهذا التصريح، سمحوا له بتوقيع إفادة يعلن فيها براءته، ويعترض على اعتقاله، ويتعهَّد «بعدم المشاركة بأي نشاط معادٍ لأميركا، أو بأعمال عسكرية أخرى».

ربّما دفعت هذه التصريحات بعض القرّاء إلى التساؤل عمّا قد يفعله ضعيف وأترابه، فيما لو تسلّموا زمام السلطة من جديد. ورغم أن الملّا يدّعي أن قنوات التواصل بينه وبين طالبان مقطوعة (وطالبان أنفسهم صرّحوا بذلك علنًا)، ورغم أنه يقيم في كابول حيث يخضع للمراقبة بشكل دائم، فإنه بالمقابل كان متشربًا روح التنظيم منذ نشأته. وهذا ما يمنح كلامه أهمية كبيرة في كشف الخيوط والدلائل. سيجد القراء صمت ضعيف المتكرر مخيّبًا للآمال في أماكن عدة؛ فهو لا يتطرّق إلى قرار حرمان الفتيات من التعليم. ويشير مرة واحدة، وبصورة عرضية، «إلى عدم وجود نسوة يعملن في الدوائر الحكومية» يوم سيطر طالبان على هرات. وهو لا يذكر نهائيًّا أنه التقى أسامة بن لادن أو أحد أعضاء القاعدة الآخرين قبل سجنهم معًا في غوانتانامو. يكتب بالمقابل أنه بكى عندما شاهد على التلفاز صور البرجين التوأمين يحترقان في أحداث ١١ أيلول/سبتمبر،

وفكر حينها قائلًا: «سندفع غاليًا ثمن ما حدث اليوم». لكنه يمتنع عن تحديد مسؤولية المعتدي. يكن الملّا ضعيف للدولة الباكستانية، وخصوصًا جهازها الاستخباراتي، مشاعر كراهية تفوق ما كنّه لأعداء طالبان الآخرين من احتقار. بيد أنه لا يروي إلا تلميحًا كيف تلاعبت المخابرات الباكستانية بطالبان.

لكن الأهم من الأجوبة التي يردّ بها على أسئلتنا، هي تلك الأسئلة التي يطرحها الملّا ويجيب عنها بنفسه، عن المكان الذي أتى منه هو والحركة، والمكان الذي سعيا إلى أخذ البلاد نحوه، وعن السمات الشخصية للرجال، في الحركة. كيف كانوا وكيف أصبحوا. لم يتمتّع جميع من في التنظيم بصفات الملّا ضعيف نفسها، رغم أنه يرفض وصفه بالمعتدل. هو أحد المؤسسين؛ وبرأيه لم يساوم يومًا على أي من مبادئه الجوهرية.

لم تُؤسَّس حركة طالبان لمحاربة الغرب أو تحديه، ولو أنها فعلت ذلك. هي أُنْشِئَت لأهداف مختلفة، في مكان آخر من قندهار، مكان لا يعرفه سوى قلة من الأجانب ممن مروا في تلك المنطقة بعرباتهم المصفّحة. من هنا بدأت قصة الملّا ضعيف.

بارنت ر. روبن

مركز التعاون الدولي، جامعة نيويورك

بارنت ر. روبن موظف في وزارة الخارجية الأميركية. والآراء المعبّر عنها هي آراؤه الشخصية، ولا تعبّر بالضرورة عن موقف وزارة الخارجية أو الحكومة الأميركية.

مقدّمة

قندهار: مكان ولادتي. تعجز الكلمات عن وصف الحب الذي أكنه لأرضي وبيتي. وما من شعور لأي مكان آخر فوق سطح الأرض يضاهي حبي لها. حين أنظر إلى جبالها وتكويناتها الطبيعية، تسمو روحي. لا أملاك، لا قصور تستطيع الاستحواذ على مكانها في قلبي. أصلّي إلى اللّه القدير أن يمنحني، متى أتت ساعتي، أن أُدفن بجانب الأبطال، إخوتي وأصدقائي في مدافن طالبان.

في أواخر العام ٢٠٠١، حين باشرت الولايات المتحدة هجومها على أرض الشجعان، أرض أحمد شاه بابا[١] ومرويس خان[٢]، كما فعل قبلها كثير من الغزاة، زارعين النار والدمار، عدت إلى قندهار.

حين وصلت كانت الكآبة بادية على وجوه الناس؛ ولم يكن أحد ليعلم ما الآتي. كان التخوّف من عودة أمراء الحرب. أعادت الصورة ذكرى الاجتياح السوفياتي منذ ثلاثين عامًا إلى الأذهان. في هذا الوقت كان بعض الناس يتماشى مع إيقاع الطبول الأميركية، ويجهل ما يحمل المستقبل له.

ودّعت أرضي على وقع القصف الجوي العنيف لقندهار والمنطقة المحيطة. وعلمت في قرارة نفسي أن الوقت سيطول قبل أن أتمكّن من العودة مجدَّدًا إليها. هرب الدخان الأسود صُعدًا من المدينة نحو السماء، كذلك فعل السكان، محاولين إنقاذ أنفسهم وأولادهم من وابل القنابل الأميركية العديمة الرحمة.

---

(١) وُلد أحمد شاه بابا (١٧٢٢ - ١٧٧٢) في هرات، وحكمَ مملكةً امتدَّتْ من الهند إلى شرق بلاد فارس.

(٢) مرويس خان هو مؤسّس سلالة هوتاكي الذي قاد ثورة القبائل. وقد قضى الدورانيس فيما بعد على قبيلته.

انطوت ست سنوات قبل أن أعود لأرى قندهار. رجعت في نهاية العام ٢٠٠٧ على متن طائرة أريانا من كابول. ورأيت أثناء الهبوط ما آلَ إليه مطار قندهار. كان الوضع أشبه بالاحتجاز داخل خلية نحل تعجّ بالقوات الأجنبية، وحيثما نظرت اصطدمت بوجوه حمراء لجنود أميركيين، مع دباباتهم وآلياتهم المصفّحة، ومروحياتهم وطائراتهم، وخنادقهم ومنشآتهم. في وسط كل ذلك كنت قادرًا على تمييز السجن ذي الأسوار الموحلة الذي رماني به الأميركيون، حيث عملوا على إذلالي والتنكيل بي. عاملوني كغريب في الوقت الذي كانوا فيه هم الغرباء.

مشهد قندهار هذا أيقظ في داخلي ذكريات كثيرة بشعة، كما أشعرني بالحزن وباليأس. في ذلك الوقت أحسستُ أنني في بلد آخر. لم تعد أفغانستان تبدو كبيتي؛ كنت كطائر جريح أُجبر على الهبوط في أرض غريبة عنه.

أُصبتُ بالرعب والذهول، حالي حال الركاب الآخرين الذين رافقوني.

تغيّر مطار قندهار بالكامل، وتحوّل إلى جبهة حرب. أُجبر الأفغان على سلوك طريق واحدة تقودهم من المطار مباشرة إلى سبين بولداك[1] ـ طريق قندهار. وأقام الأميركيون أبراج مراقبة للتدقيق في كل تحرّكاتهم.

أقلتني سيارة حكومية من المطار وتوجّهنا نحو قندهار. كنت أشعر بالفضول لاكتشاف التغييرات الطارئة عليها. أخبرني المحققون الأميركيّون في غوانتانامو أن المدينة «أصبحت مشابهة لدبي». لكن في الواقع أن كلّ شيء قد بقي على حاله، باستثناء الطريق المعبّدة التي سلكناها.

في قندهار، ارتفع عددٌ قليل من الأبنية الحديثة، كمظهر من مظاهر الاستثمارات الخاصة. بدت المدينة أكثر نموًّا، من دون أي مؤشرات واضحة على تأثير المشروعات الحكومية أو المساعدات الخارجية. تم تعبيد الطرقات

(١) تقع سبين بولداك على الحدود مع الباكستان. إنّ الطريق هو المسلك الأساسي للمسافرين في سيّاراتهم إلى الباكستان.

المؤدية إلى أقاليم - سبين بولداك، أرغنداب، داند والبانجواي - التي زرتها انطلاقًا من قندهار. لكن لم تتعدَّ التغييرات ما ذكرت. ويعتقد بعض السكان أن الأميركيين كانوا يلجأون إلى تعبيد الطرقات لأمنهم الخاص؛ فيتمكنون بذلك من بلوغ الجبهات الأمامية بأسرع وقت ممكن، ويتفادون التعرُّض للقنابل المزروعة على جانبي الطريق. عانى الكثير من القندهاريين خلال هذه المرحلة؛ فسوق العمل ضاقت واتسعت البطالة. وكانت أموال الهبات تذهب إلى الأميركيين الذين أنفقوها لغاياتهم الخاصة، وإلى الأفغان المتعاملين معهم. «المساعدات الخارجية تقتلنا»، هذه العبارة هي لسان حال الأفغان.

تحدّث الناس عن غول آغا شيرزاي[1]، وحاولوا المقارنة بينه وبين الحاكم الجديد أسد اللّه خالد[2] وحكّام آخرين. وقد أجمعوا على أن شيرزاي كان حاكمًا صالحًا لقندهار. فعلى الرغم من أنّه عُرف بحبه للحفلات الموسيقية وبخصال أخرى سيئة، فقد أتى بأعمال جيدة للشعب. ففي حين احتفظ مختلف السياسيين بالأموال لأنفسهم، استثمر هو نصف الموارد، على الأقل، في مشروعات إعادة الإعمار. لذلك شعر القندهاريون بالأسف لرؤيته يغادر الحكم.

بقي الشأن الأمني يقلق أهالي قندهار. وكانوا يشتكون من إخفاق الجنود الأجانب في فرض الأمن. فتفشّت الجرائم والسرقات في المدينة. وقامت القوات الأجنبية بتفتيش المنازل؛ فحرمت السكّان من النوم ليلًا.

في المقاطعة الثالثة، وقعت حادثة في منزل أحد القصّابين هزّت قندهار. انتشرت موجة الصدمة في المدينة كلّها، وتناقل الناس الرواية عن لسان أبناء القصاب. يخبر أحد الأطفال قائلًا: «قام الأجانب بتفجير بوابة منزلنا، فقفز الجميع من أسرّتهم.

(١) يتحدّر غول آغا شيرزاي أصلًا من قندهار وهو أحد أبناء أشهر القادة المجاهدين، الحاجي لطيف، في الثمانينيات في قندهار وقد عُرف بـ«أسد قندهار». لقد كان حاكمًا على قندهار في أوائل التسعينيّات وذلك بعدَ سقوط حكم نجيب اللّه في كابول كما حكمَ من العام ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٣ بعدَ سقوط طالبان.

(٢) أسد اللّه خالد يتحدّر أصلًا من غازني وحكمَ هذه المحافظة من العام ٢٠٠١ إلى ٢٠٠٥ وحكمَ من ثمَّ قندهار من العام ٢٠٠٥ إلى آب/أغسطس ٢٠٠٨.

أفاق أخواي الأكبر سنًّا، وأخذا يصرخان، «يا إلهي»! وخرج أخونا البكر إلى الباحة لينظر ما الأمر. لم يكن يدرك أن الجنود الأميركيين كانوا هناك، منتشرين على السطح وفي مواقع أخرى محيطة بالمنزل، ينتظرون خروج أحدنا. لم يسألوه شيئًا، لم يحاولوا حتى أن يعرفوا إن كان متورّطًا في شيء. أطلقوا النار عليه، واخترقت رصاصاتهم جسده. أطلقوا النار بكل بساطة ومن دون رحمة».

خرج الابن الثاني أيضًا إلى الباحة، بعد سماع النيران؛ ولقي المصير نفسه. عندها دخل الأميركيون إلى المنزل. كانت النسوة لا يزلن في الداخل مع الأطفال. تصرّف الجنود كالحيوانات البريّة؛ فأخذوا أغراض المنزل ورموا بها في الباحة، خلعوا الأقفال، حطّموا العلب وفتشوا كل زاوية في المنزل ولم يجدوا شيئًا سوى الملابس والأدوات المنزلية.

طُرح الرجال أرضًا في الباحة، تحت أعين زوجاتهم وأطفالهم، الذين كانوا يرتعدون خوفًا. لم يكن باستطاعة أحد مساعدتهم، حتى الحكومة تعجز عن انتشالهم من قبضة الجنود الأميركيين عديمي الشفقة.

حين همّوا بالمغادرة، توجّه الجنود بتعازيهم إلى أهالي الدار. قالوا لهم «هيا عودوا إلى النوم. ما من مشكلة». وكانت جثث الرجال القتلى حديثًا تسبح في دمائها، على بعد أمتار قليلة منهم.

اشتكى الناس بمرارة من تصرُّفات القوات الأجنبية اللاإنسانية. كان أولئك الجنود يصبّون جام غضبهم على المدنيين كلما أقدم مقاتلو طالبان على قتل بعضهم. وكنت أشعر بتصاعد مشاعر الكراهية تجاههم يومًا بعد يوم في أوساط السكان.

قيّض لي أن أكون شاهد عيان على مشاهدَ عدّة مشابهة حين كنت أتجه برفقة قندهاري آخر إلى أرغستان لمعاينة الطريق المعبدة حديثًا. في طريق العودة، بالقرب من شوراندام، توقفت جميع المركبات إلى جانب الطريق من دون أي إنذار. بدا القلق على وجوه ركّاب السيّارات الأخرى. قاد مرافقي السيّارة إلى جانب الطريق.

ولما سألته عما يجري، أجاب ضاحكًا «لا شيء، إنه موكب للأجانب. حين يعبرون باتجاه قندهار، يتوجّب على السيارات أن تفسح لهم الطريق وتتوقّف جانبًا. وعليك أيضًا أن تحوّل وجهك عنهم، وإلا فستجرّ عليك غضبهم».

كنا لا نزال في السيارة ننتظر، حين شاهدت الدبابات تقترب، وتطلق نيرانها في الجو. كانت الشظايا الملتهبة تسقط في كل الاتجاهات وتصيب السيارات. وجّه الجنود بندقياتهم نحونا على طول الطريق، وأخذوا يصرخون في وجوه الناس كالحيوانات. كانت المرة الأولى التي أشاهد فيها موكبًا يعبر في قندهار، وأحسست بالغرابة والخوف. سألت صديقي هل الأمور تسير دائمًا بهذا السوء؟ فأجاب: «اليوم كان جيدًا. هذا ما نعانيه يوميًّا، وفي كثير من الأحيان، يسقط ضحايا أثناء مرورهم في المدينة». أزعجني أن أرى الأجانب يتصرفون بهذا الشكل. لا يجدر بهم أن يكونوا هنا أصلًا. هم ينظرون إلى كل شيء كعدو لهم: البشر والحمير والأشجار والصخور والمنازل. يخافون من كل شيء، ولا يفعلون شيئًا سوى سفك الدماء وقتل الناس واستثارة مشاعر الحقد تجاههم وتجاه الحكومة.

أنا قلق على شعب أفغانستان، خصوصًا سكّان قندهار: كم سيطول شقاؤهم؟ والحالة أسوأ بكثير في الأقاليم القروية. كان القتال يدور بشكل يومي على طريق قندهار السريعة. بانجواي، مايواند، خاكرز، شاه والي كوت، ميا ناشين، معروف، أرغستان، شوباراك، داند، وبعض مناطق دامان[1]. لم تكن تلك المناطق خاضعة لسيطرة الحكومة أو القوات الأجنبية باستثناء مراكز الأقاليم. كنّا يوميًّا على موعد مع اشتباكات وتفجيرات، ومزيد من الدمار والقتلى.

معظم الضحايا الذين سقطوا من المدنيين. أخبرني أحد المقيمين في سبروان ما جرى عشية العيد، حين قامت طائرات أميركية بقصف قافلة من اللاجئين الذين يغادرون البلدة، متجهين نحو رجيستان. في غضون ساعة أسقط الهجوم ما يزيد على مئتي امرأة وطفل. «حين ذهبنا في اليوم التالي لانتشال الجثث،

(١) كلّها مناطق في محافظة قندهار.

وجدنا الأيدي ملوّنة بالحنة تحضيرًا لاحتفالات العيد». تبعثرت آمالهم بالعيد، مع أشلائهم فوق رمل الصحراء.

تكرر الأمر يوميًا، المزيد من القتل والمزيد من الموت. اتّسعت الفجوة بين الشعب والحكومة، ولا تزال، جرّاء القصف العشوائي الذي تقوم به القوات الأجنبية من دون تمييز بين هدف وآخر. اتّهم المواطنون الحاكم وسائر الهيئات الرسمية بالتغاضي عن المجازر التي يقوم بها الأجانب. أمّا الأجانب، من جهتهم، فسعوا إلى التقليل من شأن الخسائر بين المدنيين. يقتلون الناس لأنهم يتحرّكون بناءً على معلومات مغلوطة. وفي بعض الأحيان يقوم المخبرون الخونة بذلك من أجل المال. يعطون المعلومات الخاطئة للأميركيين، ويتقاضون الأموال مقابل ذلك. يحصلون على التمويل للقيام بمشروعات الإعمار؛ ولكنهم لا يبنون شيئًا، ولا يفسحون للناس مجالَ الحصول على الوظائف في مشروعاتهم.

لم أواجه أي مشكلة مع طالبان، رغم أنني عدت إلى قندهار بموافقة الحكومة المركزية. بالعكس، فقد أبدى رفاقي حماسةً بالغةً للقائي مجدّدًا. لكنني أدركت سريعًا أن وجودي قد تحوّل إلى مصدر إزعاج لمضيفيّ في البلدة التي أقمت فيها. لقد شعروا بالخوف على حياتهم جرّاء وجودي بينهم.

لم يكن أحد ليضمن أنهم لن يتعرّضوا للقصف أو لعملية عسكرية؛ كانت حياتهم دومًا على المحك. أحيانًا تتصاعد وتيرة الضغط بسببي شخصيًا، وأحيانًا أخرى بسبب الحالة التي آلت إليها الأمور. عندما سألت كبار السن عن الموضوع، جُلّ ما أجابوا به كان «اللّه رحيم». لكن الجميع كانوا يائسين.

بعد رحلة استمرّت ثمانية أيام، عدت إلى مطار قندهار مع شاب يحمل بطاقة تعريف القوّة الدولية للمساعدة الأمنيّة[1] تمكّنه من الوصول إلى المطار[2].

---

(١) «القوّة الدوليّة للمساعدة الأمنيّة»: هي بعثة منظّمة حلف شمال الأطلسي يقودها مجلس الأمن في الأمم المتّحدة بموجب قرار ٢٠ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠١.

(٢) تجدرُ الملاحظة إلى أنّ قوّات الأمن الدوليّة وحكومة أفغانستان منعت الوصول إلى المطار؛ فاضطّر المسافرون القادمون من قندهار إلى ركوبِ باص الدولة لبلوغِ المطارِ، أو الاتّصال بأحد العاملين في المطار لإدخالهم.

لدى عبوري إلى مدخل المطار وصولًا حتى المحطة النهائية، صادفت كثيرًا من المسافرين يشقّون طريقهم سيرًا على الأقدام عبر نقاط التفتيش. ولما وصلت إلى المحطة، قدم الكثير منهم لإلقاء التحية علي. سأل بعضهم عن أحوالي، وآخرون أرادوا فقط إلقاء السلام. بسطت شالي الصوفي «الباتو»[1] وجلست على الأرض. تجمّع المسافرون حولي، وكنت أعلم أن ذلك لن يروق للأميركيين. لم يكن باستطاعتي إبعاد المسافرين المتحلقين حولي، وهم ركاب في رحلتين جوّيتين: أريانا وطيران كام الجوّي. لكنني كنت قلقًا من أن يخيفَ جمعٌ كبير الأميركيين. بعد دقائق رأيت هامات الجنود الأميركيين خلف الشباك أيسر المحطة، وظهر آخرون على السطح مع بندقياتهم؛ فأحاطوا بنا من الاتجاهين. استدار الجمع حولي ليروا ماذا يحدث فأشرت إليهم بالمغادرة. وهكذا كان. اقترب الأميركيون مني وتوقفوا على بعد أمتار وبدأوا يتحادثون.

سمعت أحدهم يقول: «إنه هو.. إنه رجل صالح. بالفعل هو رجل نزيه» واستداروا مغادرين، كذلك اختفى الجنود المتمركزون على السطح.

كان من المفترض أن تقلع الطائرة في تمام الواحدة بعد الظهر، لكننا لم نصعد إليها قبل السادسة. ثم انتظرنا في الداخل نصف ساعة أخرى. كان المدرّج مغلقًا بالدبابات الأميركية. وحرص الطيار أن يعتذر كل خمس دقائق عن التأخير، إلى أن أعطتنا قوات الأمن الدولية الإذن بالمغادرة.

▲▼▲

الحمد للّٰه، له يصلي الكون كله والملائكة أجمعين. الحمد للّٰه الذي بعث فينا الحياة. الحمد للّٰه الذي خلق الكون ونظّمه. الحمد للّٰه الذي أنعم على خلائقه بالحياة، والطعام والإدراك. الحمد للّٰه الذي هدى البشر بواسطة أنبيائه، وأمرهم

(١) الباتو شال من الصوف (هو في هذه الأيّام مُركَّبٌ من مواد مختلفة) يرتديه الكثير من الأفغان كجزء من ملابسهم التقليدية. خلال فصل الشتاء غالبًا ما تكون المواد سميكة ودافئة، أمّا في فصل الصيف فيكون الباتو أرقّ. إلّا أنّه لا يتمّ استخدام الباتو للتدفئة فالأفغان يجلسون عليه في الهواء الطلق وغالبًا ما يُؤدّون الصلوات اليومية على الباتو نفسه الذي يرتدونه.

أن يجلّوا حبيبه محمّدًا، الصلاة والسلام عليه وعلى آله وأعوانه وأهل بيته وأتباعه، من الآن وحتى يوم القيامة.

أرى الحياة في هذا الكون أكثر أهميّة ممّا نستطيع إدراكه وفهمه، لأنها أوجدتنا من العدم، ومنحتنا القدرة على البقاء أحياء. هي الحياة التي تسبغ على الأرض جمالها. ومن خلال الحياة أعطى اللّه البشر القدرة على الاهتداء بواسطة الكتب التي أنزلها على أنبيائه.

الحياة هي هبة اللّه الطبيعية للبشرية. والبشر يدينون بحياتهم للّه. كل دقيقة من حياتنا محسوبة، وقيمتها أغلى من الذهب. لا أحد يستطيع انتزاع حياة إنسان آخر، بأي ثمن. تنبّهوا جيّدًا إلى هذا الأمر، وتعاملوا مع حياتكم كما تتعاملون مع أغلى شيء تملكونه، واحرصوا على السير بها في صراط مستقيم.

تتساوى قيمة حياة كلّ شخص على هذه الأرض. فليست حياة بوش، أو أوباما، أو بلير، أو أي قائد، أو ملك، أو وزير آخر، أهم من حياة أسامة أو الظواهري أو الملّا عمر، أو أي طفل، أو امرأة، أو إنسان، في هذا العالم.

يُحرّم على الإنسان أن يسفك دماء أي إنسان آخر من دون سبب وجيه. وعليه أن يدرك قيمة حياة البشر الآخرين كما لو كانت حياته. وعليه أيضًا أن يفهم أهمية حياة كل أخت وأم وأب وأخ وحيوان، كما لو كانوا أخته وأمه وأباه وأخاه وحيوانه. وأخيرًا، على كل إنسان أن يقدّر كل حياة بشرية وأن يحترم حياة قريبه أو أخيه؛ هبة اللّه هذه جديرة بكل تقدير وصون. أوجّه هذا السؤال لكل إنسان، في الدنيا والآخرة: لماذا تعتبر حياتك وحياة أبنائك أغلى من حياة الآخرين؟ لماذا تستخدم كل الوسائل المتاحة لحماية حياتك وتتلاعب بمصير حياة الآخرين الثمينة؟

في المرحلة التي تلت اعتداءات ٩/١١، بات الرئيس بوش، بهدف حماية حياته الخاصة، يعيش في الجو، ونادرًا ما يهبط لفترات قصيرة فقط، ليظهر في مؤتمر صحافي أو حدث آخر مهم، وكان يرتدي سترة واقية داخل البيت الأبيض. ولكن... كم إنسانًا تلاعب بوش بحياتهم في أفغانستان؟ كم قتل من الناس؟ كم دمّر من البيوت والقرى؟ هذه حقائق لا يمكن نسيانها!

بطريقة مماثلة، عندما ربح الرئيس أوباما الانتخابات الأميركية، وقف برفقة زوجته وابنتيه في مبنى الكابيتول ليلقي خطبة التنصيب، وكانت ألواح الزجاج المضاد للرصاص تحميه. وهو الآن في ظل الغزو القائم، سوف يزهق أرواح الكثير من الأفغان. يا أيها الرئيس أوباما! اعلم أن حياة أطفالنا عزيزة علينا كما هي عزيزة عليك حياة طفلتيك!

حياتك غالية عليك، وأيضًا حياة الوغد بوش. من أجل ذلك أكتب هذه المذكرات، لكي يفهم البشر أن حياة الآخرين هي أيضًا مهمة.

أربعة أمور أساسية أتمنى أن أحقّقها من خلال هذا الكتاب:

أوّلًا: على كل فرد أن يفهم أن حياته ليست أهم من حياة أي إنسان آخر، ملكًا كان أم متسوّلًا، شابًا أم عجوزًا، رجلًا أم امرأةً أبيض أم أسود.

ثانيًا: كل من يحسب أنه يملك حق الدفاع عن نفسه وأرضه وشرفه، وجب عليه أن يدرك أيضًا أن هناك بشرًا، في أماكن أخرى من الأرض، يحظون بالحقوق نفسها للدفاع عن حياتهم، وأرضهم وشرفهم.

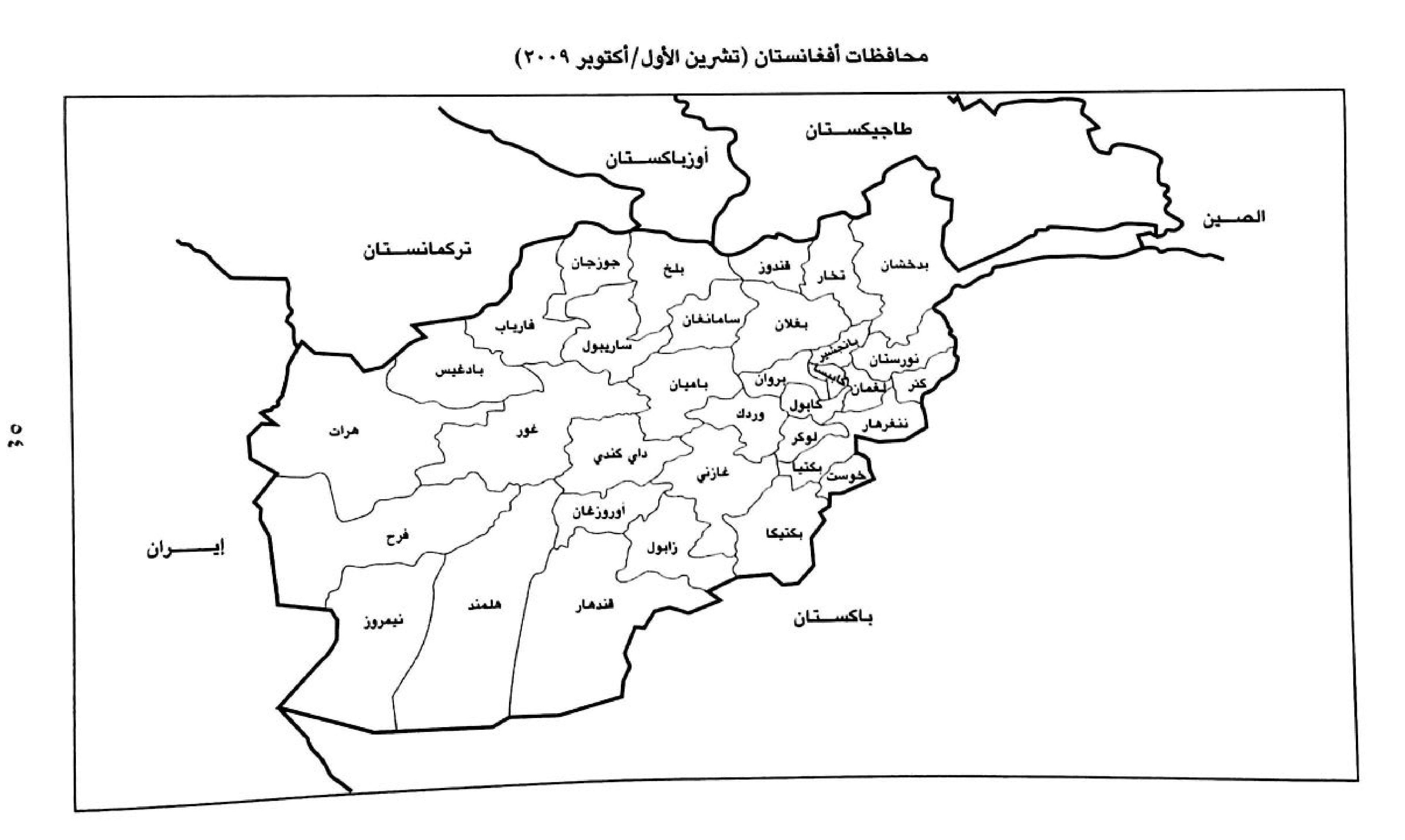
ثالثًا: كل من هم بعيدون عن الحضارة الأفغانية، يفعلون خيرًا لو أنهم وسّعوا معرفتهم لها وفهمهم لها.

رابعًا: على العالم أن يدرك كم هو سيئ وضع الأفغان، وكم يتعرّضون للظلم. وعلى البشر أن ينظروا ويتعاملوا معهم برقة ولطف أكبر.

أنا جزء من المجتمع الأفغاني، وعشت مراحل متعدّدة من تاريخه الحديث. هو مألوف لي. ولديّ الحق بنقل الذكريات الجميلة والسيئة من كل العقود التي عشتها، من كل شخص حادثته. لقد عشت حياة غنية وخبرتها وآمل أن يتعلم الآخرون ويستفيدون من خبرتي. جعل اللّه من هذا الكتاب مصدر فائدة للأجيال الحالية والقادمة.

الملّا عبد السلام ضعيف، كابول، آذار/مارس ٢٠٠٩

محافظات أفغانستان (تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٩)



جنوب أفغانستان



١

موتٌ في المنزل

وُلدتُ في بلدة صغيرة في زانجياباد[١] عام ١٩٦٨. كان ظاهر شاه[٢]، ملك الباشتون الذي حكم في الفترة ١٩٣٣ ـ ١٩٧٣، لا يزال على العرش، وكان يعمّ البلاد في تلك المرحلة سلامٌ واستقرار. في عهده تدفق الطلاب إلى الجامعات، وتقاطر السيّاح الأجانب إلى مختلف أنحاء البلاد. لم يكن مصير البلاد جليًّا بعد: كان الحكم حازمًا والشعب راضيًا.

انتقلت عائلتي إلى بانجواي[٣]، الإقليم الغربي لقندهار قبل سنوات من ولادتي، فنحن أصلًا لا نتحدَّر من قندهار. وقعت بعض النزاعات القبليّة حول ملكية الأراضي في قريتي الأم جلداك[٤]، الواقعة في الوسط بين قندهار

(١) ثاني أكبر قرية في محافظة بانجواي. تتكاثف العرائش قربَ نهرها. تقع زانجياباد في منطقة خصبة. من الأوجه المعروفة في زانجياباد خان مال (أليكوزاي) وهو شيخ قبيلة، وطوران عبد الحي (نورزاي) والحاجي شابوزاي (أشكيزاي) وغولان.

(٢) كان ظاهر شاه ملكاً على أفغانستان من العام ١٩٣٣ حتّى العام ١٩٧٣. وحين سافرَ إلى إيطاليا للعلاج، تسلّم ابن عمّه الحكم بدلاً منه. وُلدَ عام ١٩١٤، وهو مَن بَقي حيّاً من أبناء نادر شاه. وأصبحَ ملَكًا بعدَ مقتل أبيه. ويُذكر ملكه بحنين إذ كانت فترة يعمّها السلام والاستقرار. توفّي في كابول في تمّوز/يوليو ٢٠٠٧.

(٣) محافظة بانجواي هي إحدى المِساحات الخضراء في قندهار، تحيطها الجبال من الشرق والغرب، وهي أرضٌ خصبة جدًا.

(٤) قرية صغيرة في محافظة زابول. سكنها قلّة من الناس في عهد زهير شاه. وكان سكّانها يتحدّرون أصلًا من قبائل التوخي وطراقي غيلزاي أو أليكوزاي.

وكابول، وقضى العشرات في الاشتباكات. اتُّهم أحد أعمامي، الملّا نظام، بقتل ستة عشر شخصًا، وحرّكت الحكومة قواتها للقبض عليه، فما كان منه إلا الهرب والاختباء.

عندما تسفك الدماء داخل النظام القبلي، يهب الشرف مطالبًا بالثأر. تملّك الخوف عائلتي؛ فالحكومة كانت تفتّش عن الملّا نظام، وكان القتال القبلي مستمرًّا ويعد بالمزيد. فقرَّر والدي، مع اثنين من إخوته وسائر العائلة، النزوح من قريتنا الأم في زابول[1] لحقن الدماء، والانتقال إلى العيش في زانجياباد، حيث أبصرتُ النور.

كان إلقاء القبض على الملّا نظام في العام ١٩٦٢ حادثًا مأساويًّا. تحرَّكت القوات الحكومية باتّجاههم في الليل بينما كانوا يختبئون، هو وآخرون متورّطون في المواجهات، في بلدة صغيرة من صحراء زهاري. هرب البعض. أمّا الملّا نظام فقُتل مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه، في تبادل لإطلاق النار.

زهقت المواجهات القبلية والعداء المتبادل بين الأفغانيين أرواحًا كثيرة من الأفغان. كل باشتوني هو رجل قبيلة، فوالدي وأنا ولدنا أيضًا في قبيلة الغلزاي[2]. تمتدُّ منطقة الباشتون من شمال شرق كابول نزولًا حتى الجنوب، وشرقًا عبر الحدود الباكستانية[3]، وهي موطن لقبائل متنوّعة. أشياء كثيرة تحدّد هويّتك كأفغاني: نسبك، قبيلتك، إثنيّتك، والمكان الذي وُلدت فيه. هذه كلّها تحدّد من أنت، وتصبح جزءًا منك. ربما نسي هذه الحقيقة الباشتون الذين هاجروا منذ القدم باتجاه المدن الكبرى في أفغانستان أو الباكستان أو دول أخرى. لكن هويتهم الحقيقية ترتبط بقبيلتهم وعشيرتهم وعائلتهم وأقربائهم. ولن يستطيع الأجانب مهما حاولوا، أن يدركوا فعلًا معنى أن تكون أفغانيًّا.

(١) أُنشئت محافظة زابول في آذار/مارس ١٩٦٤. وكانت مِنْ قبلُ جزءًا من قندهار إلى أن أنشأت الإصلاحات عام ١٩٦٤ محافظات جديدة.

(٢) تُقسم كلّ قبيلة: إنّ قبيلة الملّا ضعيف وعائلته جزءٌ من مجموعة أكبر وهي هوتاكي غلزاي.

(٣) يجدرُ لفت الانتباه إلى أنّ هناك أقليّة من الباشتون في وسط أفغانستان وشمالها.

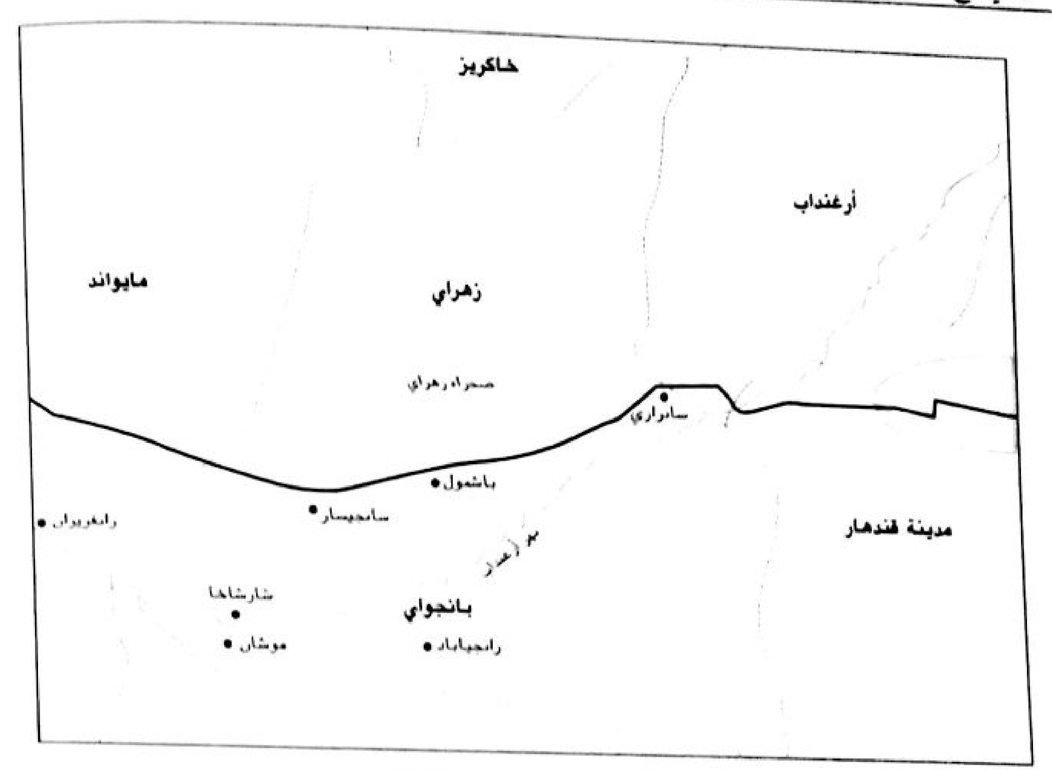
يتحدّر والدي ووالدتي من العائلة نفسها على جري العادة في المجتمعات القروية. أنجبت أُمّي لأبي صبيَّيْن وبنتَيْن. كنت أنا الصبي الثاني والولد الثالث في الأسرة. وأنا، كالآخرين، لا أذكر الكثير عن طفولتي. أقمنا لفترة في زانجياباد، ولكنني لا أذكر بالتحديد كم من الوقت أقمنا هناك.

لم تكن أمي قد طعنت في السن حين توفَاها اللّه، لكنَّني لست متأكدًا من ذلك. لا أذكر شيئًا عنها، كنت لا أزال طفلًا في الثانية أو الثالثة من العمر حين حدث ذلك. أخبرتني أختي الكبرى لاحقًا عن أمي ووفاتها. الذكرى الوحيدة التي رسخت في ذهني عن تلك الحقبة، كانت صورة والدي. أتى إلينا، حملنا بين ذراعيه، وبكى بصمت. رغم أن ذلك يبدو مستحيلًا، لكنني واثق بأنّه قد حدث يوم وفاة أمي.

كان والدي رجلا حنونًا، لم يتعرّض لنا يومًا بالضرب أو بالصراخ. كان عالِمًا دينيًّا، كرّس حياته لدراسة القرآن الكريم، وعُرف بكرمه وأخلاقه العالية. تمكّن من دخول المدارس الدينية العريقة، وتعلّم طريق الإسلام والتقدّم ليصير عالمًا مرموقًا ورجلًا للّه، بفضل التضحيات الكبيرة التي قدَّمها جدي إلى أبي. وهو فعل الأمر نفسه معنا. لم نتكلّم كثيرًا عن والدتي بعد موتها، لكنني أعرف أنها كانت امرأة متعلمة، نشأت في عائلة تولي التعليم قيمة كبيرة، فسمحت لأولادها بدراسة القرآن الكريم والسُنّة، بل شجَّعتهم على ذلك. سعى الأبوان إلى توفير أفضل الوسائل لتعليمنا لأنهما كانا يعلّقان أهميّة كبرى على هذا الموضوع تحديدًا.

بعد وفاة والدتي، انتقلنا لنعيش مع أحد أعمامي، موسى خان؛ فاعتنت بنا زوجته. كان أبي معلّمًا في مدرسة محليّة، وكان كثير الانشغال، وقلَّما تمكّنا من رؤيته. رغم كل ذلك، يمكنني القول إن الحياة في منزل عمي كانت جيدة.

▲▼▲



المحافظات في غرب مدينة قندهار

عندما بلغت الثانية من العمر، غادرت أنا ووالدي وشقيقتاي منزل عمي، وانتقلنا إلى بلدة أخرى تسمى مشان[1]. كان أخي رحمه الله قد ترك المنزل في حينها، وانتقل إلى باشمول[2] لمتابعة الدراسة.

أصبح والدي الملّا في مسجد القرية. وكان يعمل لساعاتٍ طوال يدرس خلالها ويعلّم؛ فاهتمت بنا نسوة القرية؛ لكننا غالبًا ما كنا نقضي الليالي وحيدين خائفين في بيتنا الطيني الصغير. ننصت إلى عواء الذئاب في البساتين والحقول المجاورة. لم تكن الكهرباء أو المياه قد وصلت إلى القرية بعد. وسرعان ما يحمل الظلام في المساء، ليغطي الأرض كستار أسود، فتجوب مجموعات من الكلاب الأزقة الضيّقة، تنبح وتتنافس على بقايا الطعام المرمية خارج المنازل.

---

(١) تقع قرية مشان بين فرعيْ نهر آرغنداب الذي يمرّ في محافظة بانجواي. في ذلك الحين لم يسكن فيها سوى اثنتي عشرة عائلة تتألف كلٌ منها من ٥ إلى ١٠ أفراد. أمّا عدد منازل المنطقة فكان ٢٥٠ منزلاً. والقبيلتان الأساسيّتان كانتا السيّد والأشكيزاي.

(٢) تقع باشمول في محافظة بانجواي. وقد شهدت صراعات كثيرة خلال الحرب ضد السوفيات. عاشت فيها حوالي ٢٠٠٠ إلى ٣٠٠٠ عائلة أمّا القبائل الأساسيّة فكانت الككر وأليكوزاي وأشكيزاي.

في إحدى الليالي، كان والدي لا يزال غائبًا عن المنزل، جلست وشقيقتي في باحة المنزل، والذئاب تعوي عند أطراف جانب القرية. ومع كل عواء نحسبها تقترب أكثر فأكثر من منزلنا؛ فنرتعد من الخوف، يمسك أحدنا بالآخر ونصغي إلى رهبة الظلام، إلى درجة إحساسنا بأن الذئاب تخدش بمخالبها باب المنزل وتتنقل من زاوية إلى أخرى حول الجدار الطيني المنخفض. علا صوتنا بالصراخ، فهرعت إلينا إحدى الجارات. قادتنا إلى منزلها، واحتضنتنا، وأخذت تداعب شعرنا، وهي تخبرنا حكايات الملوك والأمراء والأميرات. لم تدعْنا في تلك الليلة، إلى أن عاد والدنا.

ماتت أختي الصغرى في مشان، ولا زلت أجهل سبب وفاتها. تتالت الوفيات في البلدة بين العامين ١٩٧١ و١٩٧٢، بعد موجة جفاف اجتاحت المنطقة، تسبَّبت بخسارة عائلات عدة لمحاصيلهما الزراعية. أما المجاعة الأقوى[١]، فقد اجتاحت وسط أفغانستان وشمالها، فمات الآلاف جوعًا. واضطر الكثيرون إلى مغادرة قراهم، بحثًا عن القوت والمياه. انفطر قلب والدي لفقد زوجته وابنته. انتقلنا بعدها إلى رانغريزان، حيث غدا والدي إمامًا في مسجد صغير.

▲▼▲

كانت رانغريزان[٢] ولا تزال بلدة صغيرة، أصغر من مشان. تفتقر إلى أبسط الخدمات كالطرق المعبّدة وشبكة المياه والكهرباء، وحتى المولّدات الكهربائية الخاصة. وما هي إلاّ بضعة منازل متلاصقة، مدعّمة بجدران من الطين.

تستفيد الحدائق والحقول في المناطق القاحلة داخل البلدة، وفي محيطها، من

(١) أفادَ مايكل باري أن مسؤولاً في وزارة الزراعة قال في ذلك الحين: «إن أكل الفلاّحون العشب، فهذا ليس بأمر خطر. هم وحوش، لقد تعوّدوا ذلك» (Barry, 1974: 182).

(٢) رانغريزان قرية صغيرة في محافظة مايواند في ولاية قندهار وفيها قرابة ٢٣٠ منزلاً. تحكمها قبيلة محمدزاي ومن الأوجه المعروفة في رانغريزان، فايز محمد آغا الذي حارب الاتّحاد الإسلامي في جهاد الثمانينيّات.

نظام ري مؤلّف من شبكة وخزّانات تغذّيها جداول صغيرة متدفّقة من الجبال في الشمال والشرق. وشكّل الرمان والعنب المحصولَيْن الرئيسيّين. وأشار المؤرّخون العرب في القرون الوسطى إلى تميّزهما عالميًّا.

انتقلنا إلى هناك في الأيام الأخيرة من عهد ظاهر شاه، قبل وصول الشيوعيين إلى الحكم وانحدار أفغانستان إلى موجة الصراعات التي اجتاحت البلاد؛ فدُمّرت الخزانات وشبكات الري، وحُوّلت الحقول والحدائق إلى صحراء قاحلة.

على الرغم من أن والدي كان رجلًا متعلّمًا وعالمًا مسلمًا، فإن وضع عائلتي لم يكن ليختلف عن وضع أي من العائلات الريفية الأخرى. وكانت حالتي الخاصة هي أيضًا أشبه بحالة أي صبي آخر. اتّسمت الحياة بالصعوبة. لقد عانينا من الفقر، وجاهد أبي ليُوفّرَ لنا قوتنا اليومي. وهو، كإمام القرية، كان مسؤولًا عن هداية الجماعة وتعليمها. فأقام فروض الصلاة كاملة، خمس مرات في اليوم في المسجد. وكم غادرنا منذ الفجر لتأدية صلاة الفجر، وهي الصلاة التي يؤدّيها المسلمون صباحًا.

أغلب الأيام، كان والدي يعود إلى المنزل بعد ساعات. نتناول الفطور معًا ونرافقه، أنا وأختي إلى المسجد، لندرس طوال فترة الصباح. وككل الأطفال الأفغان، استخدمنا كتاب «القاعدة»[1] لتعلُّم القراءة والكتابة. وعند الظهيرة نعود إلى المنزل لتناول الغداء. ثم يأخذ والدي قيلولة، قبل أن نرجع معًا إلى المسجد. في ذلك الوقت، بلغ أبي من العمر عتيًّا؛ لكنّه لم يفقد الأمل بالزواج مجدَّدًا ليجعلنا ننعم بأم من جديد. تعوّد أن يقول لنا «اصبروا قليلًا! وقريبًا ستكون لكم أمّ أخرى، وربما إخوة آخرون». لكنّه لم يقدم على الزواج ثانية.

كنا في فترة بعد الظهر نتابع دروسنا. وفي الأوقات التي ينشغلُ فيها أبي عن تعليمنا، يؤدّي المهمة عنه أحد تلامذته يبدأ المنهج الديني التقليدي بقراءة وكتابة بسيطة في المرحلة الأولى. ثم ينتقل إلى دراسة أعمق وحفظ النصوص والآيات

(١) كتاب أساسيّ يستخدمه طلاب الدين. يحتوي على مدخل إلى الأبجديّة العربيّة وبعض الجمل الإسلاميّة، وبعض العمليّات الحسابيّة الابتدائيّة. تُرجمَ فيما بعد إلى لغة الباشتو. يجدر ألاّ يتمّ أي لغط بين اسم الكتاب في حينها وتنظيم القاعدة. فالكتاب لا يمتّ إلى أسامة بن لادن بأي صلة.

الأساسية عن ظهر قلب. في ذلك الوقت، تلقَّفت مبادئ أبجديّة الباشتو[1] وبعض الحساب من الكتب.

يمرّ الشتاء قارسًا على مشان. لم تتوافر لدينا الملابس الشتوية المناسبة ولا الحطب الكافي لتدفئة غرفتنا الصغيرة في الأشهر الباردة. استخدمت مرّة كلّ كتبي المدرسية وقودًا للتدفئة، كان البرد قاسيًا إلى درجة أني جلست عاجزًا قرب الجمر المتّقد، أراقب كتبي تحترق، والصفحات تلتوي، تسمرّ ثم تسود أطرافها.

كان والدي إمامًا معروفًا، قصده الناس من القرى البعيدة طلبًا لمشورته ومساعدته. وكم من مرّة جاء بالمرضى والممسوسين إلى المنزل، ليؤدّي وإياهم طقوسًا معيّنة؛ يصلّون معًا، يقرأون سُورًا من القرآن الكريم، أو يكتب لهم التعاويذ. في تلك الأيام، كان الإيمان يعمل، حيث يعجز الطب.

وعلى الرغم من تواضع مدخولنا لم يقبل والدي أن يتقاضى أي مبلغ مادي من الناس، حتى الزكاة ترفّع عن قبولها. لكن الناس لم تعيهم الحيلة لدسّ بعض المال سرًّا في جيبه، أو إيداعه تحت الوسائد أو الأغطية، أو داخل أوعية الطعام الفارغة. كل مساء، لدى رجوع والدي أو لدى مغادرة الضيوف، نُهرع إليه، نفتّش جيوبه، نقلب كل وسادة وكل فراش في المنزل. في معظم الأحيان، كنا نجد بعض الروبيات، فنبدأ بالدوران حول الوالد ملوّحين بالنقود فوق رؤوسنا.

لم يتوانَ أعمامي عن زيارتنا مع أولادهم فعائلتنا مليئة بالأقارب، لكن محمد أسلام وعبد الباري هما الأقرب إلى قلبي؛ لتقارب أعمارنا. وكم أنفقنا من ساعات نلعب في الباحة أو خارجًا في الشوارع المحيطة بالمنزل، أو قرب جدول الماء الصغير. قدنا جيوشنا في معارك ضارية، وأبدنا أعداءنا لحماية ممالكنا. حكمنا في أراضينا كما يفعل الملوك والوزراء، ففرضنا ضريبة المرور، وفاوضنا على الاتفاقيات والهدنات. أعتقد أن هذا ما يفعله الأطفال في مختلف أنحاء العالم.

(١) أبجديّة الباشتو واحدة من اللغتَيْن الرسميّتين في أفغانستان. يتحدث بها معظم الباشتون في أفغانستان وخارج الحدود في الباكستان. هناك لهجات مختلفة من منطقة إلى أخرى، لدرجة أن رجلاً من قندهار في الجنوب قد يجد صعوبة في متابعة محادثة مع رجل من خوست في الجنوب الشرقي.

أنظر اليوم، بعد أربعين عامًا، وأبتسم بأسى، حين أفكر بتلك الألعاب. لم أتخيل قط أن هذا التهريج في ظلال شُجَيرات الرمان وفي أزقة مشان الترابية، سيغدو واقعًا بعد سنوات، وأن المعارك التي تخيّلناها ستعود لتكسَحنا، فنجد بلادنا خرابًا حين نصحو من الحلم.

كل الفرح الذي نكسبه عند استقبال أحد أعمامي القادم لزيارتنا، ينقلب حزنًا وقت رحيلهم. وكم رجوناهم أن يطيلوا الإقامة والبقاء، أو يسمح لنا أبي بالمضي معهم. تشهد الأرض والأبواب التي ركلناها، وصراخنا وبكاؤنا؛ لكنّ ذلك لم ينفع إطلاقًا.

▲▼▲

في صيف ١٩٧٥، توفِّي والدي في رانغريزان. استيقظ منتصف الليل، أبكر من المعتاد. وعندما حان وقت صلاة الليل، استيقظت وراوحت مكاني، أصغي إلى والدي يصلّي في تلك الليلة المقمرة. لم أتمكن من فهم كل الكلمات التي كان يتلفَّظ بها، إلا أنني رأيت الدموع تنهمر فوق وجهه.

كان يصلي لنا، نحن أبناءه، سائلًا الله أن يمنحنا الأمان، والمستقبل المشرق والصحة الوفيرة. لم أسمعه يصلّي هكذا من قبل. لكنني لم أفكر في الموضوع حينها. وغادر والدي المنزل في الصباح الباكر ليصلي صلاة الفجر في المسجد.

عندما رجع، كان الألم باديًا عليه. وظهرت الدموع جليّة في عينيه حين كان ينظر إلينا. لكنه لم ينبس ببنت شفة، بل أدار ظهره وغادر الغرفة. شعرت بالخوف. ولم تمضِ ساعة حتى ناداني أنا وشقيقتي. طلب إليها أن تخرج وتستدعي الجيران. لم نكن نفهم ما الذي يحدث. نظرت إلى والدي المتمدد في سريره، ووجهه مبلل بالدموع ومثقل بالألم. قدِّم الجيران، امرأة مسنّة مع رجل آخر، كنا نعرفهما جيّدًا، فطالما لعبنا مع أولادهما.

توجّه الرجل إلى أبي ليجس نبضه عند المعصم. وإثر ذلك، أخذ يتلو آية من سورة ياسين الشريفة:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة ياسين].

التفت إلينا وأوعز إلينا بمغادرة الغرفة. بعد قليل، خرجت المرأة أيضًا من غرفة والدي، كان وجهها شاحبًا حين توجّهت إلينا، وشقيقتي. داعبت رأسينا وانفجرت بالبكاء. وفي لحظة أغمي عليها، ووقعت أرضًا وسط ذهولنا.

هالنا المشهد، فركضنا إلى غرفة والدي لنخبره بالحادثة. ناديناه «أبي! أبي! تعالَ سريعًا، وانظر ما حلَّ بالعمّة»[1]. لكن أبي لم يجب. نظرنا إليه فاكتشفنا أن الجار قد شدّ فكه الأسفل إلى رأسه بقطعة قماش بيضاء اللون، كما جرت العادة أن يفعلوا عندما يموت الشخص. صرخنا مجدّدا «أبي! أبي!». لكن لم يكن أمامنا فوق السرير سوى جثة والدي الهامدة. لقد توفي منذ لحظات قليلة.

حاول الرجل إخراجنا من الغرفة، لكننا أخذنا نبكي ونصرخ، ونتمرّغ أرضًا؛ فطفق يبكي هو أيضًا. لم يكن أحد من أقربائنا هناك لمواساتنا، لا عم ولا عمة ولا حتى شقيقي الكبير. وحيدين كنّا. توفي والدي، وأنا في السابعة من العمر. خلال لحظات، غصّ المنزل بالرجال والنساء[2]؛ فاصطحبتنا امرأة أخرى إلى منزلها بعيدًا من ضوضاء أهالي القرية، وتحدَّثت إلينا بلطف، وعاملتنا بحنان «والدكم لا يزال حياً، هو مريض بعض الشيء، لكنه سيتعافي قريبًا».

طلبت إلينا ألا نبكي، وأن نتحلّى بالصبر. أخرجت بعض الحلوى من طيّات ملابسها، وحاولت أن تهدّئ روعنا بها.

كان شقيقي في مشان، وبعض الأقرباء يقيمون في باشمول وشارشاخا، وخالي في زانجياباد. ولا أزال حتى اليوم أجهل كيف تم إعلامهم بوفاة والدي. فهم جميعًا

---

(١) في الثقافة الأفغانية التقليدية، غالبًا ما يُشار إلى الأصدقاء الأكبر سنًّا والأقرباء بكلمة «عمة» أو «عم».

(٢) في الثقافة التقليدية في القرى، تربط كثيرًا من الناس بعضهم ببعض صلة قرابة، لذلك فمن الممكن لكل من الرجال والنساء أن يختلطوا اجتماعيًا. ويحق لكبار السنّ (رجالًا ونساءً) التحرك في أنحاء المنزل.

وصلوا إلى رانغريزان قبل موعد صلاة العصر. عدت وشقيقتي إلى المنزل. جلسنا في زاوية الغرفة التي ازدحمت بالأقرباء. ولم يغفل شقيقي وأنسبائي وأعمامي عن الإطلالة علينا من وقت إلى آخر، مقدّمين الحلوى والنقود، لعلّنا ننسى.

في وقت متأخر من بعد الظهر، أخذنا أحد الأنسباء إلى منزله في شارشاخا[1]. كانت المرة الأخيرة التي أشاهد فيها والدي ذلك الصباح. واروه الثرى في المدافن قرب النهر، إلى جانب أقرباء آخرين فارقوا الحياة. تمَت مراسم الجنازة في منزل أحد الأقرباء. ثم عاد كلّ إلى بيته، وعاد أخي إلى متابعة دروسه. أما شقيقتي وأنا فبقينا وحدنا في منزل نسيبنا في شارشاخا.

▲▼▲

أقمنا في منزل قريبنا لعام ونصف. كنت أستيقظ في الصباح وأذهب إلى المسجد للدراسة. وأعود بعد الظهر للمساعدة في المنزل. اهتممت بالخراف والماعز والأبقار، ونظّفت الحظيرة وأطعمت الحيوانات. كان المنزل ضيّقًا، لكنه اتّسع للجميع. نمت في غرفةٍ مع عمّتي، ونام أنسبائي[2] في غرفة أخرى.

قبل وفاته، وعد أبي شقيقتي أن يُزوّجها لأحد الأقرباء في سنّ مبكرة. فبعد الوفاة، ارتأت عائلة العريس أن تتمّ مراسمُ الزواج بأسرع وقت، لتتمكّن الفتاة من الانتقال إلى منزل زوجها. احتفل الجميع بالعرس في منزل العريس. وأحسست يومها بالحزن وبكيت كثيرًا. ذلك أن شقيقتي هي الشخص الوحيد المتبقي من عائلتي الذي يهتمّ حقًّا بأمري، والذي كبرت إلى جانبه.

بعد انتهاء الحفل، عدنا إلى منزل قريبي حيث أقيم. شعرت أنني وحيد وخائف مما قد يحدث لي. امتنعت عن الطعام والشراب، وعن الدراسة أيضًا.

(١) شارشاخا قرية صغيرة فيها حوالي ٣٠ منزلًا وتقعُ في محافظة بانجواي. كما أنها ليست منطقة معروفة ويسكنها رجال قبيلة محمدزاي. ومن الوجوه المعروفة في هذه القرية، حكيم مير حميد خان (والد محمود حقيقات) وسردار عبدالله خان (والد الحاجي غفور) والحاجي غفور أغا (شيخ قبيلة).

(٢) بقي ضعيف مع أنسبائه حبيب الله وعبيد الله ومحمد أسلم ومحمد أكرم في شارشاخا.

وفقدت معنى الأشياء. لم أكن أدري ما أفعل، أو ما ينتظرني في المستقبل. ففي كلّ مرّة كان يجيء شقيقي رحمه اللّٰه لزيارتي، أتوسّل إليه أن يصطحبني للعيش معه، ويواجهني بالرفض. فهو لا يزال يتابع دراسته ويقيم مع الأقرباء. لم أستطع آنذاك من فهم تلك الأشياء.

مضى بعض الوقت قبل انتقالي لأقيم مع خالي، بغية إكمال دراستي. لا أذكر كم أقمت عندهم. وخالي رجلٌ صارم، كم من مرَّة رفع يده في وجهي، أو ضربني بالعصا على مؤخرتي. أما زوجته، فعلى عكسه، كانت طيّبة القلب ومهتمّة برعايتي.

أكملت دراستي في مدرسة محليّة في سانجيسار[١] وسُجلت في صفّ يدرّس فيه الملّا نعمة اللّٰه، الذي درس على يد والدي في مشان؛ وهو يكنُّ لي عاطفة خاصّة. وصودف أيضًا وجود المولوي[٢] نياز محمد[٣] وهو علّامة كبير، في المدرسة، وكان يعرف بوالدي؛ فاهتمّ بشراء الملابس والكتب المدرسية لي، لأتمكّن من متابعة دراستي.

كان المولوي محمد نياز من المؤيّدين البارزين في المنطقة لنور محمد تراقي[٤]، وهو شخصيّة مهيمنة في جبهة خلق الشيوعيّة، التي أبصرت النور إثر انشقاقٍ في حزب الشعب الديمقراطي[٥] أواخر الستينيّات. حين وصل تراقي إلى السلطة في

(١) تقع سانجيسار على الطريق السريع الذي يصل هرات بقندهار.

(٢) «مولوي» لقب يُمنح للذين تخرّجوا في المدرسة الدينيّة، وتلقّوا ما يُعادل «الدراسات العليا» لعلماء الإسلام.

(٣) المولوي نياز محمد هو أحد الرموز الدينيّة، عاش في سانجيسار. وقد أيّدَ الشيوعيّة. أما عائلته فتتحدّر أصلًا من أوروزغان.

(٤) وُلد نور محمد تراقي (١٩١٧ ـ ١٩٧٩) في غازني. تولّى قيادة حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني الذي تولّى السلطة في الانقلاب الشيوعي في نيسان/أبريل ١٩٧٨. هو رئيس حزب خلق، وقد حكم حتى أدّت النزاعات داخل الحزب إلى إعدامه في تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٧٩.

(٥) حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني حزب أفغاني ماركسي تأسّس عام ١٩٦٥. أدّت نزاعات داخليّة في الحزب إلى انقسام داخلي، وبحلول العام ١٩٦٧ بدأ حزب خلق وبارشام العمل بشكل منفصل. استولى حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني على السلطة في انقلاب «ساور» في نيسان/أبريل ١٩٧٨.

ربيع العام ١٩٧٨، أصبحَ نياز محمد مواليًا للشيوعيين، حتى وصل به الأمر إلى التصريح بأن تراقي كان أحد مُساعدي الإمام المهدي ومبعوثًا له على الأرض. بيد أن معظم تلاميذه تركوه بعد أن انضمّ إلى صفوف مؤيّدي تراقي. غادر معظمهم إلى الباكستان، والتحق آخرون بمولوين آخرين في أماكن مختلفة من المنطقة. أمّا أنا، فقد ارتأى أقربائي أن أذهب إلى معهد علماني في مدينة قندهار، لأتابع فيه الدروس العاديّة إلى جانب دراستي الدينية في المدرسة.

نجحت في امتحانات الصفّ الرابع الأخيرة، ودخلت المدرسة الابتدائيّة لسنة في قندهار. ضجَّت المدينة بالحياة: كانت البيادر ممتلئة والمياه تروي المدينة كلّها. وأذكر ولع الناس بلعب الكرة الطائرة (بدأنا لعب كرة القدم بعدَ فترة طويلة). رجعت ذات يوم إلى سانجيسار لرؤية المولوي نياز محمّد. لقد تغيّر المولوي صاحب[١] وازداد دعمه لتاراقي. جلسنا معًا واحتسينا الشاي؛ ثم سألني: «يا ابني، هل قدّمت طلبًا أم بعد؟».

بعد الانقلاب، تحرّك تاراقي سريعًا، فقدّم مشروع قانون استصلاح للأراضي[٢]. أرادَ أن يوزّعَ الأراضي من جديد على الشعب. وكان بإمكان الجميعِ أن يقدّموا طلبًا. وقد تصلُ حصّة الفرد إلى ٢٠ ألف م² من الأراضي[٣].

سبق للملّا نعمة اللّه أن حدّثنا عن هذا المشروع في قندهار، وطلب إلينا أن

(١) «صاحب» لقبٌ يدلّ على الاحترام، يُستخدم لكبار السنّ والمعلّمين، والذين يشغلون مراكز مهمّة في الحكومة.

(٢) الفرمان أو «الفتوى» رقم ٨ بتاريخ ٢ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٧٨ حدّد إطار الإصلاح الزراعي. كانت الفكرة أن المزارعين «الفلاحين» الصغار سيكونون أكثر ميلاً لدعم النظام، إلى جانب مركزية إصلاح زراعي أكثر عمومًا من المثالية الشيوعية. تُحدّد الفتوى سبع فئات مختلفة من الأراضي (يفصلها فرق النوعية). أي من الآن فصاعداً لا تملك العائلة الواحدة أكثر من ستة هكتارات من الأراضي من الفئة الأعلى. وسيجري إعادة توزيع بالدرجة الأولى لصالح العمال المياومين. ألغى كارمال الإصلاح الزراعي في آذار/مارس ١٩٨١ آملاً في استمالة الأفغان العاديين. شملت السياسات الأخرى التي سُنت «إنشاء مجموعة رجال دين رسمية، سياسة القوميات، وتعيين وجهاء وإنشاء ميليشيات» (Dorronsoro, 2005: 179).

(٣) الجريب يساوي ٢٠٠٠ متر مربع أو ٠,٢ هكتار.

نتوخّى الحذر، قائلًا: ليس من عادات الإسلام أن نأخذَ الأرض؛ وعلينا أن نقاومَ مغريات الثراء. لذا أجبته: «مولوي نياز! أوصتنا مراجع أخرى أنّ هذه الأراضي هي ملك لأشخاص آخرين. وأن نأخذ ما لغيرنا يُعدُّ خطيئة. فكيف لي أن آخذ هذه الأرض؟».

فأجابني: «يا بُني، إنّها الحصّة الأخيرة والفرصة الأخيرة. فمن يتوانَ عن أخذ حصّته الآن، يظلّ من دون أرضٍ إلى الأبد». وتعهّدَ أن يُساعدني، لأنني كنت يافعًا، وقال لي بإصرارٍ: «عليك من دون أي تردّد أن تقدمَ على هذه الخطوة! الملك هو الحاكم. فإن قرّر شيئًا علينا تنفيذه». مكثت هناك في الليل، وغادرت في الصباح الباكر، من دون أن أودّ ع المولوي نياز. غادرَ معلّمي الملّا نعمة اللّه آخوند وبقيّة الطلاب إلى الباكستان. لم يبقَ أحدٌ من الذين أعرفهم في قندهار. فقد كانت الحكومة تُلاحق السيّد والخان والملك والملّا. وقد عمدت الشريحة المتعلّمة من المواطنين الذين يقطنون في المحافظات، إلى نصح الشيوعيّين بسجن أصحاب السلطة المحليّين، كي يتسلّموا هم القيادة؛ فسُجن الكثيرون واختفى الآخرون.

▲▼▲

ببلوغي العاشرة من العمر، عام ١٩٧٨، تسلّم الشيوعيّون مقاليد الحكم، بقيادة تراقي وحفيظ اللّه أمين[١] بعدَ حدوث انقلاب. راحوا يمهّدون لأفكار وسياسات شيوعيّة؛ وبدت مرحلة الإصلاحات سريعة جدًّا. فأول إصلاح أجروه كان على الأراضي التي حاول المولوي نياز محمد إقناعي بها. وفي حينها كان القتال قد عم المنطقة. حاولوا القبض على قادة معروفين، وكانوا يُلاحقون طالبان.

هناك مفهوم خاطئ مفاده أنّ حركة طالبان أُنشئت عام ١٩٩٤. في الواقع إنّ كلمة «طالبان» تدلّ على الطلاب الذين يرتادون المدارس الدينيّة. ولطالما

(١) وُلد حفيظ اللّه أمين (١٩٢٩ - ١٩٧٩) في باغمان، وعُيّن وزيرًا للخارجيّة. أطاحَ بنور محمد تراقي في أيلول/سبتمبر ١٩٧٩، ولكنّه قُتل في كانون الأوّل/ديسمبر في السنة التي سقط فيها ٤ من مموّليه السوفيات. استُبدل به بابراك كارمال.

تفادت حركة طالبان المسائل السياسيّة؛ ولكنّ الحكومة حاولت إدخالها في السياسة، عندما حثّت على المشاركة في مسألة استصلاح الأراضي، أو حتّى تهديدها بأمور أخرى. لذلك بدأت حركة طالبان باستهداف مؤيّدي الحكومة، فقتلَ المولوي نياز، والمولوي مير حاتم[1]. كنت في ذلك الوقت أدرس، ولم أكن أهتمّ في ما يحدث من حولي. لكنّني سمعت الناس يتحدثون عن هذه الأمور، عن زمن «الكفر».

كان الاتّحاد السوفياتي يدعمُ الحكومة الجديدة المؤلّفة من مجاهدي خلق. وقد وقّع الطرفان عقد صداقة وتعاون وحسن جوار. وبدأت الأحاديث تدور بين الكبار وبين أولاد عمّي. وتسارعت الشائعات حول وجود جواسيس. وراح الناس يختفون من دون أيّ أثر. وقمعت الحكومة المعارضة بلا رحمة.

كما جرَّد المجاهدون حملة مسلّحة ضدّ قوّات الحكومة. لكنّ تراقي وأمين أرسلا طائرات حربيّة لدكّ حصون المجاهدين في صحراء راجستان جنوب مدينة قندهار وهاجموا أيضًا حقول بانجواي الخضراء والنهر، حيث نشأتُ. كنّا نسمع هدير الطائرات وهي تحلّق كلّ يوم، والقتال ينتشر. راح الآلاف يُهاجرون إلى الباكستان وإيران. وكان المجاهدون ينظّمون ردّهم من مناطق الباكستان الحدوديّة، فيما كانت الأيّام الأولى للحملة صعبة لأنّ الشيوعيين حاربوا بقوى خارقة.

انتقلت وأختي إلى سانزاري[2]، حيث المجاهدون يختبئون على بعد بضع كيلومترات من غرب المدينة، فيما راح القتال ينتقلُ من قرية إلى أخرى. واجه

(١) المولوي مير حاتم رمز دينيّ، عاش في قرية نادي، وقد أيّد الشيوعيّة. قُتل في الليلة الأولى لتسلّم كارمال الحكم (٢٧ كانون الأوّل/ديسمبر ١٩٧٩).

(٢) تقع سانزاري قرب بغيبول غربِ مدينة قندهار. هي قرية كبيرة سكنها في ذلك الحين حوالي ٣٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ مواطن. ومن السكّان المعروفين في سانزاري حبيب اللّه خان الرجل القويّ في قبيلة أليزاي والذي قُتل في تموز/يوليو ٢٠٠٨. كانت هذه القرية تعجّ بالسكان في فترة الجهاد (إلى حدّ أن تشاركت عائلتان المنزل نفسه). وقد أبرم قادة المنطقة اتّفاقيّة مع السوفيات بعدم الهجوم إن لم يقم المجاهدين بمهاجمتهم. كما ساعد بعض الأحيان سكّان سانزاري الروس في البحث عن الألغام. حكمت هذه القرية قبيلة أليزاي.

مؤيّدو الحكومة الجديدة المجاهدين. أمّا رجال تراقي فسلّحوا القرى والعصابات الصغيرة بأسلحة يبتاعونها من الأسواق المحليّة. وكان المجاهدون وأفراد طالبان يقعون في كمائن تُنصب لهم وهم يعبرون وسط القرية. وأحيانًا، كان القتال يستمرُّ طوال الليل. كنت أسهر في فراشي أستمعُ إلى رشقات الأسلحة والتفجيرات والقنابل. وانتفض الباشتون على تدخّلات كابول وحكومة تراقي الشكلية. لقد عاش الجنوب حالة حرب.

شعرتُ أن عليّ العودة إلى منزل ابن عمّي في زانجياباد. اجتمع كلّ أقربائي الذين لا يزالون يقيمون في أفغانستان؛ وتهيّأوا للسفر عبر الجبال إلى الباكستان. قالوا إنّ الوضعَ يزداد سوءًا كلّ يوم؛ وقد يمتدّ القتال قريبًا عبر الجنوب؛ فقرّرنا المغادرة بأسرع وقت. انضمّ اثنان من أعمامي إلى صفوف المجاهدين. وامتدّ النزاع وسفك الدماء كنهرٍ من ضفّة إلى ضفّة، ومن مقاطعة إلى مقاطعة، حتّى غمر أفغانستان كلّها.

٢

المخيّمات

بعد انقلاب السوفيات في نيسان/أبريل ١٩٧٨، ازداد عدد المهاجرين إلى الباكستان وإيران ودول أخرى. كما لجأ بعض السياسيّين الأفغان إلى الباكستان، بهدف تجريد حملة ضدّ الحكومة الأفغانيّة بدعم من السلطات الباكستانيّة. وقد رفض الشعب المرسوم رقم ٨ الذي شرّع حجزَ أراضي الآخرين والمشاركة فيها، بالإضافة إلى المرسوم رقم ٧ الذي ينصّ على تعليم النساء، ويفرض مهر زواج بقيمة ٣٠٠ روبية. واعتبر الشعب هذين المرسومين غير لائقين ومن المحرَّمات. استقرّ اللاجئون[١] الأفغان في مخيّمات على حدود الباكستان وفي بلوشستان. وأصدرت الأحزاب السياسيّة، التي تطوّرت فيما بعد، هويات لأعضائها تسمح لهم بالتنقّل في أنحاء البلاد. لم يُواجه السكّان أيّ مشكلة في قطاع الأعمال والتجارة، بل غدت الباكستان، بسبب اللاجئين، غنيّة على الصعيدين الاقتصادي والسياسي.

عجّلت المنظمات الإنسانية، كالأمم المتّحدة والمنظّمات غير الحكوميّة، بفتح مكاتب لها في الباكستان. وكان للولايات المتّحدة دور مهمّ بل الأهمّ في تلك اللعبة. وأصبح الاتحاد السوفياتي، الذي دعمَ النظام الشيوعي في كابول بهدف هزيمة منافسيه، قريبًا من الباكستان. لكن حين بدأ الجيش الأحمر يخسر مواقعه في أفغانستان، انخفض دعم الغرب واهتمامهم. فحين رفض الغرب المساعدة، أمسى موقف الباكستان إزاءَ اللاجئين قاسيًا. وازدادت مُشكلاتنا مع

(١) في أوائل التسعينيّات بلغ عدد اللاجئين الأفغان خارج البلاد حوالى ستة ملايين لاجئ.

الحكومة في إسلام أباد. وقد أُجبرَ بعض اللاجئين على مغادرة مناطق عدّة، أو على الرجوع إلى أفغانستان، بل إنهم رُحّلوا إلى مناطق قاحلة، ليبنوا بيوتًا لهم من جديد.

لا أذكر أشياء كثيرة عن قرار ترحيلنا إلى الباكستان وترك بلدنا الأم. لكنّني أذكر البرد القارس والجوع الذي شعرنا به، وكم كانت الرحلة صعبة ومخيفة. غادرنا في كانون الثاني/يناير ١٩٧٩، حين احتدم القتال في جنوب أفغانستان. فبدأت الموجة الأولى من اللاجئين تُغادرُ البلاد؛ ولم يكن الوضع مُبشّرًا قط. وفي ذلك الوقت، كان قد مرَّ شهرٌ على بتّ قرار استصلاح الأراضي، وانضمّ اثنان من أعمامي إلى المجاهدين. وأصبح جليًّا لنا استحالة البقاء في أفغانستان. غادرنا زانجياباد ليلًا في موكب مؤلّف من سبع سيّارات متوجّهين جنوبًا إلى الباكستان. وضّبنا بعضًا من مقتنياتنا، لكنّ كتبَ أبي لم تتّسع في حقائبنا. مررنا خلال الرحلة بصحراء ريغ، وصولًا إلى سري تساهان. وكنت أغادرُ بلادي وأقطعُ الحدود للمرّة الأولى.

أمسى التجوّل والسفر في البرّ مخاطرة. لذا رحنا نتنقّل ليلًا من دون إنارة مصابيح سيّارتنا. موكبنا يتحرّك ببطء بعيدًا عن الطريق السريعة. وحين نصلُ إلى سفوح الجبال، نترجّل من السيّارات ونمشي بمحاذاتها، أو نركنها كلّها في أماكن محدَّدة، ونتابع على دراجات نارية تقلّ الواحدة أربعة معًا. وباتت ممرّات الغبار تضيق ونحن نعبر الطرقات التي لطالما شهدت عمليّات تهريب بين أفغانستان والباكستان. وقد استغرقت رحلتنا ستّة أيّام.

أمّا الجانب الآخر من الحدود فقد أنشئ فيه مخيّم خارج شامان[1]، حيث

(١) شامان مدينة تشبه قندهار كثيرًا وتقع في محافظة بالوشيستان. في ذلك الوقت كان عدد سكّان شامان يبلغ ١٠٠ ألف وكان ٧٠٪ من السكان ينتمون إلى قبيلة أشكيزاي و٣٠٪ من السكّان ينتمون إلى قبيلة نورزاي. وكانت مشاكل إمدادات المياه مزمنة (حتى اليوم) والدليل أن هناك عدداً قليلاً من الحدائق في المدينة. هي منطقة جبلية معتدلة، كثيرًا مثل قندهار، وتحيط بها كثير من القرى المتناثرة في جميع أنحاء ضواحي المدينة. يقسّم الناس المدينة إلى شامان «القديمة» وشامان «الجديدة». وتعود شامان «القديمة» إلى القرن التاسع عشر وربما لا تزال ألفا أسرة تعيشُ في هذه المدينة.

تستفيد الحكومة الباكستانيّة ولسنين طوال من ملايين الأفغان الذين لجأوا إلى بلادها. وقد تم توفير إرشادات أكثر للاجئين حول المكان الذي ينبغي أن يتوجّهوا إليه أو حول انتقالهم إلى مخيّمات أخرى. وصلنا في الصباح الباكر، وبقينا بضعَ ساعاتٍ في المخيّم، قبل أن نستقلّ الحافلة مع عائلات أخرى. وقفنا متلاصقين كالماشية في مؤخَرة الحافلة، ونحن في طريقنا إلى كويتا. وحين وصلنا إليها، ذهبوا بنا إلى نوشكي. أدركت الباكستان أنّها ستُواجه موجة هائلة من اللاجئين الأفغان. كذلك عيّنت لهم أماكن محدّدة كنوشكي ليستقرّوا فيها. كان أقرباؤنا قد وصلوا إلى المخيّم منذ بضعة أيّام؛ فانتقلنا للإقامة في الخيم المجاورة لخيمهم.

قُسّمَ المخيّم الجديد إلى أجزاء عدّة وعلى الرغم من أنّه يقع تحت إدارة الحكومة الباكستانيّة فإن اللاجئين كانت لهم إداراتهم الخاصّة؛ وانتخبوا قادة لهم، من بينهم ابن عمّي. وعُيّنوا على أساس الأقدميّة. وكان هؤلاء القادة يحافظون على النظام، ويتحدّثون مع السلطات الباكستانيّة باسمنا.

عندما وصلنا إلى المخيّم، افتقدنا أساسيّات الإقامة: وأبطأت مؤسّسات الحكومة بالمقابل في تلبية تلك الاحتياجات فلا إمدادات المياه كانت سليمة ولا الخدمات الصحيّة والعيادات كانت حاضرة.

يقع المخيّم في وسط الصحراء والشمسُ الحارقة تسطع فوق رؤوسنا وشهد الطقس درجة حرارة مرتفعة جدًّا في أوقات لا تُحتمل، حتى أمست خيامنا كالأفران، إلى درجة أن بعض الأيادي قد احترقت حين لامستها.

خضعت المياه لنظام تقنين؛ وكانت الحكومة تحضرُ شاحناتٍ محمّلة بمياه صالحة للشرب؛ ولكنّها لم تكن تكفي يومًا. فنضطرّ إلى جلب المياه من قرى مجاورة. أمّا ثقافة جماعة البلوش، فهي تختلف عن ثقافتنا. وقد تعرّضت علاقتهم بالأفغان إلى ضغوط عدّة بعدَ إنشاء المخيّم وتوسّعه. وراح اللاجئون الذين تزايد عددهم، يجوبون المنطقة بحثًا عن المياه والحطب، ما أثار غضب البلوش الذين يشعرون أنّ توسّع المخيّم يُشكّل تهديدًا لهم؛ فنشأت العداوات بين البلوش والأفغان، وتحوّلت إلى معارك دامية، حيث قُتلَ لاجئان وأربعة من

السكان المحليّين. ما دفع الحكومة الباكستانيّة إلى الإحاطة بالمخيم، وتطويق جميع مداخله ومخارجه.

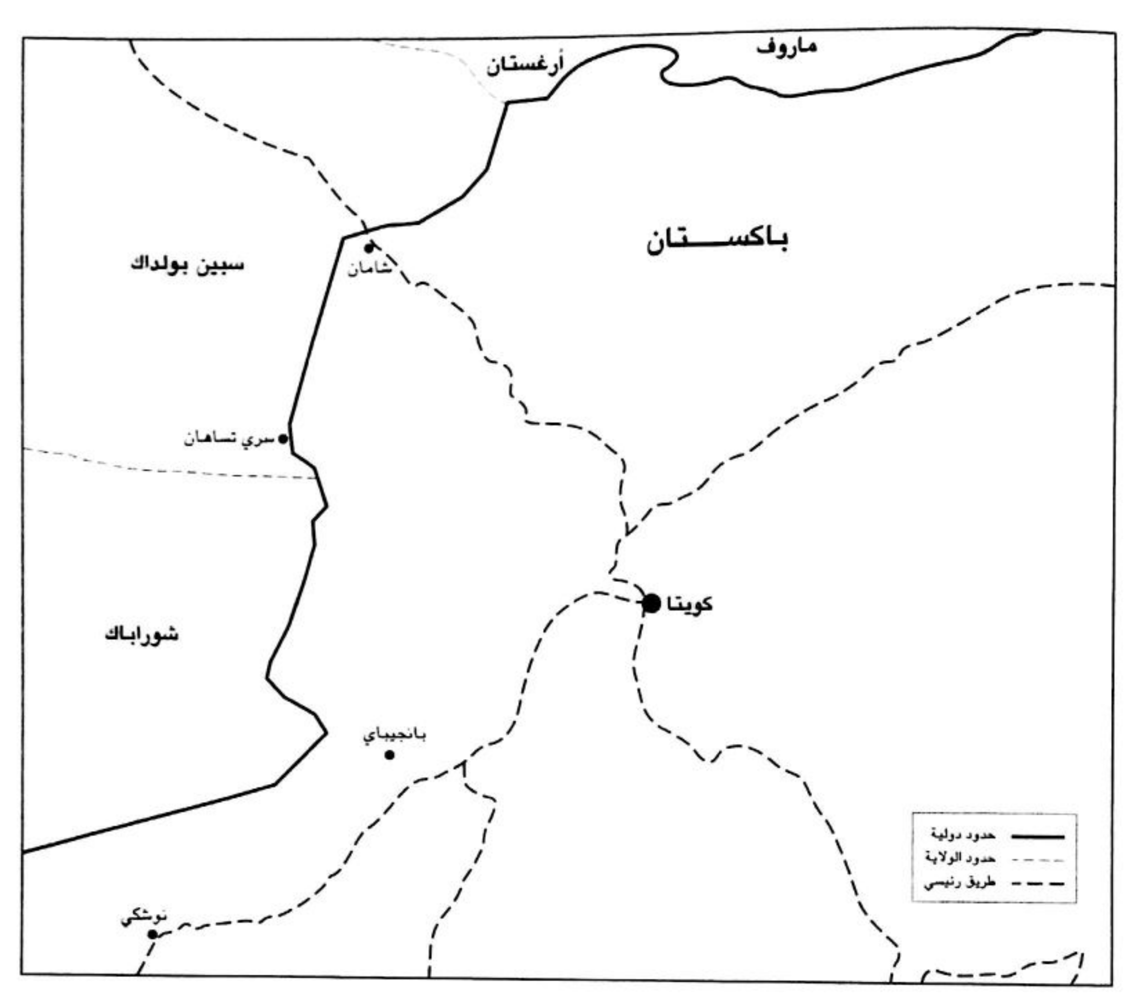
كما حاولت الحكومة أن تكون وسيطًا بين البلوش واللاجئين، واعدةً أن توفّر للمخيّم كميّات كافية من المياه. ولكن ولسوء الحظ، كانت المياه من النوعيّة السيّئة جدًّا، ولم نستطع شربها. وراح الوضع في المخيّم، الذي لا يزال مطوّقًا، يسوء يومًا بعد يوم؛ ولم نستطع إيجاد حلول للأزمة. وكان يصعُب تحديد السبب الرئيسي لكل تلك العداوات. فأنا أعتقدُ أن البلوش كانوا يرفضون، منذ البدء، فكرة إنشاء هذا المخيّم في منطقتهم. لكنّهم انتصروا في آخر الأمر إذ إنّ الحكومة أغلقت المخيّم، ونقلت اللاجئين إلى منطقة جديدة، تبعدُ كيلومترات عدّة.

سحبت شاحنات الحكومة المخيّم في منتصف الليل. وقد أُمهلنا بضعَ ساعات لحزم أغراضنا، قبلَ أن يتمّ نقلنا إلى شير خان آغا، وهو عبارة عن صحراء، وأماكن تُدفن فيها شخصيّات دينيّة.

بقينا هناك يومين فيما كانت السلطات الباكستانيّة تُهيّئ لنا مخيّمًا جديدًا. أذكر شير خان آغا جيّدًا؛ فقد قضيت معظم وقتي أسبح، ووجدت في الرمال قطعة من فئة العشر روبيات. وفي اليوم الثالث، انتقلنا إلى المخيّم الجديد في بانجيباي[1].

حين وصلنا إلى المكان الذي يبعد ٧٥ كيلومترًا غرب كويتا، لم نجد سوى البريّة. كانت الشمس قد بدأت تغرب، حين توقّفت الشاحنة عند نهاية طريق ترابيّة ضيّقة. في الليلة الأولى، تدّبرنا أمورنا بما تيّسر. لكن في الأيام التاليّة، انشغل الجميع بقطع الأشجار، وإزالة الأعشاب والأوساخ، وبناء أكواخ صغيرة

(١) سُمّي مخيّم بانجيباي قبل مجيء اللاجئين الأفغان. والمخيّمات الخمسة الأساسية في هذه المنطقة هي سرخب وسارانان وجنغل وبانجيباي وجردي جنغل.



مخيمات اللاجئين في باكستان

ومسجد من الخشب. نصبنا الخيام التي أحضرناها، وحاولنا أن نستقرّ على أفضل وجه. كما بنينا حول أكواخنا المؤقتة سياجًا مصنوعًا من قش مورغاي، وهو نوعٌ من الشجيرات الشائكة. كانت التربة جافة والطقس حارًّا، كطقس منطقة نوشكي. وقد ملأت المكان أعشاش العقارب وأوكار الأفاعي والعناكب الذئبيّة. وكنا كلما أضأنا في خيمتنا ليلًا قناديل الكيروسين نرى أربع عناكب أو خمسًا تزحف نحونا.

في الأيّام القليلة الأولى، لم تتوافر المياه. لذا اضطُررنا إلى الاقتصاد؛ فاستخدمنا القليل الذي أحضرناه معنا في الدلاء والعلب. ولشدّة شحّ الماء، اضطُررنا إلى استخدام التراب للتيمّم قبل الصلاة. وكانت أقرب بئر تبعد بضعة كيلومترات عن المخيّم. ولكم بعث بي الكبار، مع بقيّة الأولاد، لتعبئة دلاء الماء.

تعوّدنا الانطلاق كل صباح من مخيّم اللاجئين والعودة وقت صلاة الظهر. والدلاء ثقيلة جدًّا؛ فلا نكاد نبلغ المخيم إلّا وقد هدّنا التعب.

▲▼▲

كنّا خمس عشرة عائلة، نعيش معًا في المخيّم وجميعهم أقرباؤنا، أخوالنا وأبناء أعمام غدونا نصلي جماعة في المسجد الذي بنيناه. واستمرّ اللاجئون الجدد بالمجيء يوميًّا. وتوسّع المخيّم بقدومهم، حتى بدا لنا أن تدفّقهم لن يتوقّف. وسرعان ما تحوّلت بنجاب من مخيّم لبضع مئات من اللاجئين إلى مخيّم يضمّ مئات الآلاف، فضلًا عن اثني عشرَ مسجدًا مؤقّتًا. وبات المخيّم مدينة أفغانيّة وسط أراضٍ قاحلة. وقد أربك عددُ اللاجئين السلطات الباكستانيّة.

وفيما توافرت الحاجات الأساسيّة كالطحين، الصابون، الشاي، وعيدان الكبريت والحليب المجفَّف ووُزّعت على الجميع، لم يكن الماء متوافرًا بقدر الحاجة إليه، فعدد الشاحنات محدود والآبار بعيدة عن المخيّم. وعلى الرغم من أن بعضنا قد امتلك حميرًا فإننا قد عجزنا تمامًا عن تلبية حاجة الجميع من الماء. فبدأ الناس بالحفر باحثين بيأس عن الماء في كل أنحاء المخيّم. أخيرًا، وجدنا مياهًا على عمق ٣١ مترًا. انتشر الخبر بين أهالي المخيّم بسرعة البرق؛ فابتهج الجميع، وكأن العيد قد حلّ، فتبادل الأصدقاء والأقرباء التهاني. احتجنا إلى بضعة أيّام للانتهاء من أعمال ضبط التدفق. لكن سرعان ما استطاع الناس سحب الماء من الآبار.

كان القادمون إلى المخيّم يطلعوننا على أخبار الاجتياح الروسي في كانون الأول/يناير ١٩٧٩. أضحت في حينها الثورات شائعة خارج العاصمة كابول. وبدأت تلك الثورات أولًا في كنر الواقعة شمال شرق البلاد؛ ثمّ امتدّت إلى مدينة هرات، في غرب البلاد. أمّا قندهار، فقد تظاهر الناس فيها ضدّ السوفيات. وبدأت تلك المظاهرات في مدينة بانجواي. ورغم أنها اتّسمت بالسلميّة، فإن الروس لم يتحمّلوا معارضة علنيّة، ففرّقوا المتظاهرين، وأطلقوا عليهم النار والقنابل. بحلول

ذلك الوقت، كان المجاهدون يتمركزون في صحراء رجيستان بحيث كانوا يقومون بالعمليات العسكرية ليلًا، وينسحبون إلى قواعدهم نهارًا.

ومن بين اللاجئين في المخيم، برز الكثير من الملالي الذين تعوّدوا إعطاءنا دروسًا في المسجد مرتين يوميًا. وفيما بعد، أنشأ شير محمد خان[1] مدرسة الإمام أبي حنيفة، وكان هو مديرها ومؤسسها. وأقيمت المدرسة في بناية، وتضمّنت صفوفًا حتى الصف العاشر. تابع بعض أولاد المخيّم دروسهم في تلك المدرسة. أما أنا فقد أجري لي امتحان دخول، قرّروا على أثره قبولي في الصف السادس.

تعوَّدنا الذهاب كل يوم إلى المدرسة لتلقّي العلم؛ إلا أن المدرسة كانت بعيدة عن المخيّم. لذا كان علينا أن نستيقظ كل يوم في الساعة السادسة صباحًا، وأن نمشي لمدّة ساعة للوصول إليها. وفي فترة بعد الظهر، كنّا نجتمع في قاعة صغيرة مع المولوي حنيفة، صاحب المكلّف بتلقيننا الدروس الدينية. وكانت مجموعة مؤلّفة من سبعة أطفال من المخيّم تذهب إلى هذه المدرسة، وأنا واحد منهم. عملت جاهدًا في المدرسة حتّى نجحت في صفَّي السادس والسابع. ولا زلت أذكر أنّني نلت ٤٨٠ نقطة في الامتحانات النهائية للصف السابع، وكان هذا المجموع هو الأعلى بين طلاب الصف جميعهم. وفي الصف الثامن، عُيّنت مسؤولًا للصف. استمتعت بالدراسة. وأسعدني الوقت الذي قضيته في المدرسة. رضي أساتذتي عن عملي وسُرِرْتُ بهم؛ فاتّبعتُ نصائحهم وتعليماتهم، وأحسنتُ التصرُّف في الصف. لم يفارقْني حبُّ التعلُّم ذاك، حتّى عندما حاربت الروس.

▲▼▲

كان علينا أن نقطع الكثير من القرى الصغيرة حتّى نبلغ المدرسة. وكانت موشوانو أكبر القرى التي تصادفنا في طريقنا؛ ومنها ينضمّ إلينا ثلاثون طفلًا من مختلف

(١) شير محمد خان هو من قبيلة أشكيزاي ويتحدّر أصلًا من قرية تالوكان. كان قائداً في الحزب الإسلامي والتحق فيما بعد بحزب ماهاز الإسلامي وتلقّوا أسلحة إضافيّة للتوزيع. كان مرشّحًا في الانتخابات البرلمانيّة في أفغانستان عام ٢٠٠٥. وكان في نظام المجاهدين وزير التعليم في محافظة قندهار.

الأعمار ويتابعون معنا إلى المدرسة. أحد هؤلاء الأطفال كان مسؤول الصف التاسع، وهو شاب يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة. لم نتفق مع هؤلاء الأولاد، بل كنا على الدوام نتشاجر ونتعارك؛ حين يطلق أحد الأطفال شتيمة على آخر. في أحد الأيام، ونحن على طريق عودتنا إلى المخيّم، رأينا أطفال موشوانو بانتظارنا، وهم يتأهّبون للعراك. كل ما كان بحوزتنا أخشاب صغيرة تعوّدنا وضع كتبنا عليها وقت الكتابة. أمّا صبيان القرية فكانوا يحملون العصيّ والسلاسل المعدنية؛ وصوّبوا نحونا إشارات نابيّة وبدأ بعضهم يحمّس بعضًا؛ وهو أمرٌ لم يكن ضروريًا، بالنظر إلى أنهم يفوقوننا عددًا، بنسبة أربعة صبيان إلى واحد.

اقتربنا منهم، تكلّمت مع رفاقي، واتفقنا على أن نثبت ونصمد. كما اتفقنا على أن أهاجم أكبرهم، فيما يهاجم رفاقي باقي الأولاد في الوقت عينه. تعلّمنا أن علينا أن نهزم خصومنا من الضربة الأولى. عندما تكون في موقع ضعف، عليك أن تحضّر نفسك جيّدًا وتستخدم كل الوسائل المتوفّرة لديك. يومها، كل ما كان علينا فعله هو ضرب بعض صبيان موشوانو بكل ما لدينا من قوة وما أن اقتربنا نحوهم، حتى بدأوا بشتمنا ونعتنا بألفاظ نابية، فحاولنا التكلّم معهم وإخبارهم أن الشتيمة إثم. وعندما أصبح أكبر الصبيان قريبًا منّي، رفعت لوح الخشب من دون إنذار أو مناقشة، وضربته بطرفها الحاد على رأسه، بكل ما أوتيت من قوة؛ فانطرح أرضًا تسبّبت ضربتي بجرح كبير في رأسه وبدأ الجُرح ينزف. وحين انطرح، بدأ بالصراخ قائلًا: «لقد قتلني! لقد قتلني!».

التفت إليّ الصبي الأقرب إليّ. ورأيت من زاوية عيني أن رفاقي لم يتراجعوا بل هاجموا الخصوم الّذين فرّوا عائدين إلى قريتهم. لم يصب أي من رفاقي بأذى. تابعنا طريقنا ونحن في غاية الحماس وأعدنا تمثيل بعض مشاهد العراك. أخبرنا كل الرفاق عن المعركة. لكن سرعان ما أتى زعماء موشوانو ليشكوا أن سبعة من الصبيان أصيبوا بجروح، وأن الصبي الذي ضربتُه أُدخل المستشفى. وعلى الرغم من أن الزعماء فضّوا الخلاف وأنهوه، فإننا مُنعنا من ارتياد المدرسة، أو حضور دروس الدين بعد ذلك. فتابعنا تربيتنا الدينية في مسجد المخيّم.

بعد ذلك، قُسّم مخيَّم بانجيباي إلى أقسام عدّة. احتوى قسمنا على من أتوا من قندهار، في حين أن القسم الثاني احتوى على أشخاص من مقاطعة «غزني» في جنوب شرقي البلاد، وهكذا... حينها، كانت الحكومة الباكستانيّة قد عيّنت مفوّضًا للإشراف على المخيّم. كان باستطاعتي رؤية المجاهدين منطلقين إلى أفغانستان للقتال، أو عائدين مع جرحاهم. وهو قتالٌ مستمرٌّ منذُ أربع سنوات بين الاتحاد السوفياتي والحكومة الأفغانية، التي كانت كاللعبة بين أيدي الروس، من جهة والمجاهدين من جهة أخرى.

كثيرٌ ممن تركوا المخيّم وعبروا الحدود، لم يعودوا. وفقدت كل عائلة أقرباءَ لها استُشهدوا وهم يقاتلون دفاعًا عن بلدهم. وانضمّ كثير من أقربائي إلى خطوط المجاهدين الأمامية[١]. في المساجد، تمحورت خُطَب الملّاوات حول الجهاد المقدّس[٢]، الواجب على كل مسلم، وحول الجنّة، وحول بلدنا الأم. كما أن واحدًا من المخيّم المولوي يُدعى عبيد اللّه[٣] انتسب إلى حزب «سيّاف»[٤]، وقاد عددًا كبيرًا من المجاهدين، وارتبط معظمهم بأحزاب ومجموعات أخرى أيضًا. وانضمّ بعض الأشخاص إلى الجهاد في صفوف طالبان، وآخرون في

(١) الخطوط الأمامية حيث جرت المواجهات. كانت ساحة المعركة في قندهار «الكبرى» سهلة للغاية، وكان الذين في الخطوط الأمامية أساس التنظيم الذي ميّز بين مجموعات المحاربين الصغيرة المتنوعة.

(٢) يذهب المجاهدون إلى الخطوط الأماميّة لفترة ما ويعودون من ثمّ لرؤية عائلاتهم في الباكستان قبل العودة إلى أفغانستان. يستخدمُ النظام عينه في أيّامنا هذه جماعات معارضة لحكومة كرزاي.

(٣) قائد معروف من نلغام، حاربَ مع حزب حكمتيار الإسلامي. كان معروفًا في ذلك الوقت وسمعته كانت حسنة. حارب في ماهالاجات وفي المنطقة من شارشاخا إلى سانزاري.

(٤) عبد الرب الرسول سياف (١٩٤٦-)، وهو باشتوني خاروتي غيلزاي من باغمان، هو عالم إسلامي تعلّم في الأزهر (مصر) أسس حزبه السياسي الخاص، الاتّحاد الإسلامي الأفغاني لحريّة أفغانستان في بيشاور عام ١٩٨١، ويتحدث العربية بطلاقة. كان حزبه مرتبطاً بشكل وثيق جداً مع المانحين العرب خلال الثمانينيّات، ونتيجة لذلك تلقى حزبه نسبة كبيرة من التمويل، ما دفع الكثير من القادة في الجنوب للانتقال من الحزب الذي كانوا ينتمون إليه إلى حزب سيّاف «الاتّحاد» وذلك من أجل الحصول على المزيد من الإمدادات. لا يزال سياف يلعب دورًا في السياسة الأفغانية.

صفوف فصائل أخرى. وكان الملّا شاه زاده[١] أحد المجاهدين المعروفين في قريتنا؛ وقد استشهد لاحقًا على الجبهة، بعد أن شارك في الجهاد مع قاري شاه زاده[٢] الذي نشط في جبهة الملّا محمد صادق آخوند[٣] في نلغام.

وكمعظم الشباب في ذلك الوقت، تحمّستُ للمشاركة، فقد رغبنا جميعًا في القتال ضد الروس. وغالبًا ما كنت أتحدّث عن ذلك مع أصدقائي حين نرى المجاهدين يغادرون. أردت أن أنفّذ واجبي تجاه اللّه، وأن أحرّر وطني من الجنود السوفيات الملحدين. إلا أنني لم أملك المال اللازم للرحيل، وبالمقابل لم يسمح لي أقربائي وأساتذتي بالرحيل. لقد آمنوا بفكرة الجهاد ولكنّهم لم يكونوا مستعدّين لفقدان أحد أبنائهم. ونصحني ابن عمّي بالتركيز على الدراسة حاليًّا، على أن نذهب للجهاد لاحقًا. قال لي: «إن الدراسة ستفيدك، ستؤمّنُ لك مستقبلًا». بدأت حينها بتوفير المال قدر المستطاع. وتمكّنت من ادّخار حوالي مئة روبية[٤] باكستانية على مدى ثلاثة أشهر. كنت في الخامسة عشرة، حين غادرت إلى أفغانستان من دون أن أخبر أيًّا من أقربائي أو أصدقائي.

بدأت حينها رحلتي مع الجهاد.

---

(١) الملّا شاه زاده هو ابن الحاجي محمد غول أغا؛ وكان صديق والد الملّا ضعيف. قُتل في نلغام أثناء الحرب.

(٢) كان قاري شاه زاده من قبيلة أشكيزاي، وكان له سمعة جيّدة لكونه مقاتلاً شجاعاً، ولا يزال يعيش في قندهار اليوم.

(٣) الملّا محمد صادق آخوند (من قبيلة أشكيزاي) قاتل في البداية مع حزب الحركة ولكنه انتقلَ لاحقًا إلى حزب سيّاف «الاتّحاد» عندما تلقّي الحزب كميات كبيرة من الأسلحة. كان لديه حوالى مئة من المجاهدين يقاتلون معه. يتحدّر أصلًا من تيرين كوت (إقليم أرزكان)، كان صديق والد الملّا ضعيف. وفي العام ٢٠٠١ بعد سقوط نظام طالبان الذي قاتل معه، قُبضَ على الملّا محمد صادق آخوند واقتيد إلى سجن خليج غوانتانامو. وكان هناك في نفس الوقت الذي كان فيه الملّا ضعيف ولكن أفرج عنه في وقت لاحق ومازال على قيد الحياة.

(٤) في ذلك الحين، قد تشتري بـ ١٠٠ روبية باكستانيّة ١٠٠ كلغ من الطحين أو ١٠ كلغ من زيت الطبخ والقلي.

٣

الجهاد

حين ذهبت إلى شامان بالباص، لم أكن أملك سوى ثيابي التي أرتديها، ومئة روبية في جيبي. حدث ذلك في صيف ١٩٨٣، وكانت الممرات واضحة جدًّا لكي ينتقل المجاهدون بين المخيمات وأفغانستان ذهابًا وإيابًا. انضممت إلى مجموعة صغيرة متّجهة نحو قندهار. صادفت هناك أحد الأساتذة الذين علّموني التربية الدينية، واسمه سلام آغا؛ فاصطحبني لعبور الحدود. مشينا كثيرًا عبر طرق التهريب في ظلام الليل. لم تكن الحدود مرسّمة لذا لم أعرف متى بالضبط دخلنا أفغانستان لكنني أذكر كم كنت سعيدًا. مشينا عبر صحراء راجيستان، حتى بلغنا بولاك ناكا. وهناك، امتطينا الجمال، لنمرّ بنايب والي وتانجي. وبعد ثلاثة أيام وليلتين، وصلنا إلى وادي باشمول الخصب، حيث حقول القمح وكروم العنب. بحلول ذلك الوقت، كان قد مرّ على بدء الجهاد ثلاث سنوات. وكان المجاهدون قد حدّدوا ساحات القتال في أحياء قندهار. وراحوا يقاتلون السوفيات بشكل دائم متنقّلين من حيّ إلى آخر.

وفيما اعتمدنا على سهولة التحرُّك ومعرفتنا للمنطقة اللتين تميّزنا بهما، اعتمد الروس بشدّة على قوّة السلاح والدعم الجوّي. علمت فيما بعد أنهم في ذلك الوقت استقدموا قوى إضافيّة[1] مدرّبة خصّيصًا على مواجهة طريقتنا في القتال لكنني لست أكيدًا إن كان ذلك قد أحدث أي فرق.

---

(١) قوّات خاصّة روسيّة.

سمعت حينها أنّ القائد عبد الرازق[1] يقود جبهة في باشمول، فانضممت إليه ورجاله. في البداية، ظننت أنّه قائد قوي ورجل جيّد. لكنني سرعان ما أدركت أنَّ همّه الأول كان حماية أرضه وممتلكاته. بقيت مع عبد الرازق حوالي الشهرين، نفّذت خلالهما عمليات عسكريّة معه ومع رجاله. وقضيت باقي الوقت أعتني بشؤونه الخاصّة وشؤون باقي المجاهدين. تعوّدنا تنظيف أسلحتنا أسبوعيًّا. كما كنا نتمرّن على الرماية أحيانًا. ورغم أنني تعرّفت إلى الجهاد مع عبد الرازق، وتعلّمت استعمال الأسلحة، والتصرُّف تحت نيران الرصاص فإن أملي سرعان ما خاب. لقد أتيت إلى أفغانستان للجهاد؛ لكنّني وجدت نفسي أؤدي للآخرين مهمات عاديّة ومملّة. علمت حينها أنّ الوقت قد حان لترك عبد الرازق. فضلًا عن ذلك، لم يكن أي من رجاله أستاذًا، وقلقت لأنّني لم أتعلّم أي أمر عدا مهارات السلاح.

علمت أنّ طالبان يقاتلون في «نلغام»[2] بقيادة الملّا محمد صادق آخوند؛ لكنّني خشيت من الانضمام إليهم، لأن لي أقرباء يسكنون تلك المنطقة، وكان بعضهم يقاتل مع الملّا محمد صديق. وربّما أبلغ واحدٌ منهم عائلتي بمكاني. ولا شك، عندئذ، في أنها سترجعني إلى المخيّم في «الباكستان». وباتت حركة طالبان حينها حديث غالبية النّاس؛ وكان بقيّة المجاهدين يكنّون لها الاحترام. حتّى أن بعضهم تعوَّد استشارة محاكم طالبان لحل خلافاتهم، أو لطلب النصيحة. ذلك أن الجهاد ليس في نظرنا قتالًا فحسب، بل ينطوي على جانب تعليمي ويحمل لواء إحقاق العدالة.

(١) كان القائد عبد الرازق في الثلاثين من عمره آنذاك. حارب في البدء مع حزب الحركة ثم التحق فيما بعد، كما فعل الكثيرون، بحزب الاتّحاد الإسلامي لسيّاف. حاربَ معه ٥٠ مقاتلاً وكان رجُلاً محترمًا في صفوف المجاهدين.

(٢) اشتُهرت نلغام، وهي قرية صغيرة، بزراعة العنب. كانت قبائل أليزاي والسيّد وكاكار الأكبر في المنطقة. إلى جانب نهر أرغنداب وبين مراكز كبيرة في سانجيزار وطالقان، كان هناك الكثير من المجاهدين العاملين في منطقة نلغام بسبب موقعها. الوجوه المعروفة من نلغام تشمل: الحاجي حميد آغا (سيد قبيلة، قاتل مع جيلاني) وهو قائد جهادي؛ الملّا عبد الحكيم آخوند (من قبيلة نورزاي)، وشاه والي خان (من قبيلة أليزاي قاتل مع الرباني في حزب الجامعة) وهو أحد شيوخ القبائل المعروفة في المنطقة في ذلك الوقت.

لجأ كثير من الأشخاص إلى طالبان لتسوية خلافاتهم. وكان المولوي نزار محمد[١] القاضي الأساسي وحلّ محلّه بعد استشهاده المولوي السيّد محمد باساناي صاحب[٢]. حيث أنشأ سجنًا لطالبان في باشمول، بالإضافة إلى سجون صغيرة في الأحياء، وُضعت تحت سيطرتنا. من اللافت أن معظم المجاهدين أتوا من الخلفيّة نفسها، ومن القبائل والعائلات والمناطق نفسها؛ فظهروا متجانسين. أمّا طالبان، فكانوا متباينين، بالنظر إلى كونهم مجموعة علماء دين من خلفيّات مختلفة تجاوزوا التركيبة الاعتياديّة للفصائل والتحالفات، وقاتلوا انطلاقًا من إيمانهم العميق باللّه والجهاد. واللّه هو الدّافع الوحيد لقتالهم، على عكس كثير من المجاهدين الّذين قاتلوا من أجل المال أو الأراضي. وحين اخضوضرت الحقول وبلغ الصيف أوجه، قرّرتُ الذهاب إلى «نلغام» للانضمام إلى طالبان. فعلى الأقل أتلقّى هناك تعليمًا فضلًا عن القتال. طلبت الإرشادات حول الطريق، ومضيت إلى «نلغام». وبعد وصولي إلى هناك، التقيت مصادفةً الحاجي محمد غول آغا[٣] وهو جارٌ سابق لنا من بانجيباي. التقيت أيضًا أقرباء لي يقاتلون في صفوف الملّا محمد صديق. سُررنا جدًّا لتلاقينا؛ بَيْدَ أنني بقيت خائفًا من أن يبلغوا عائلتي بمكاني.

▲▼▲

كان قد مضى على وجودي في نلغام بضعة أيام حين طوّقتنا القوّات السوفياتيّة

---

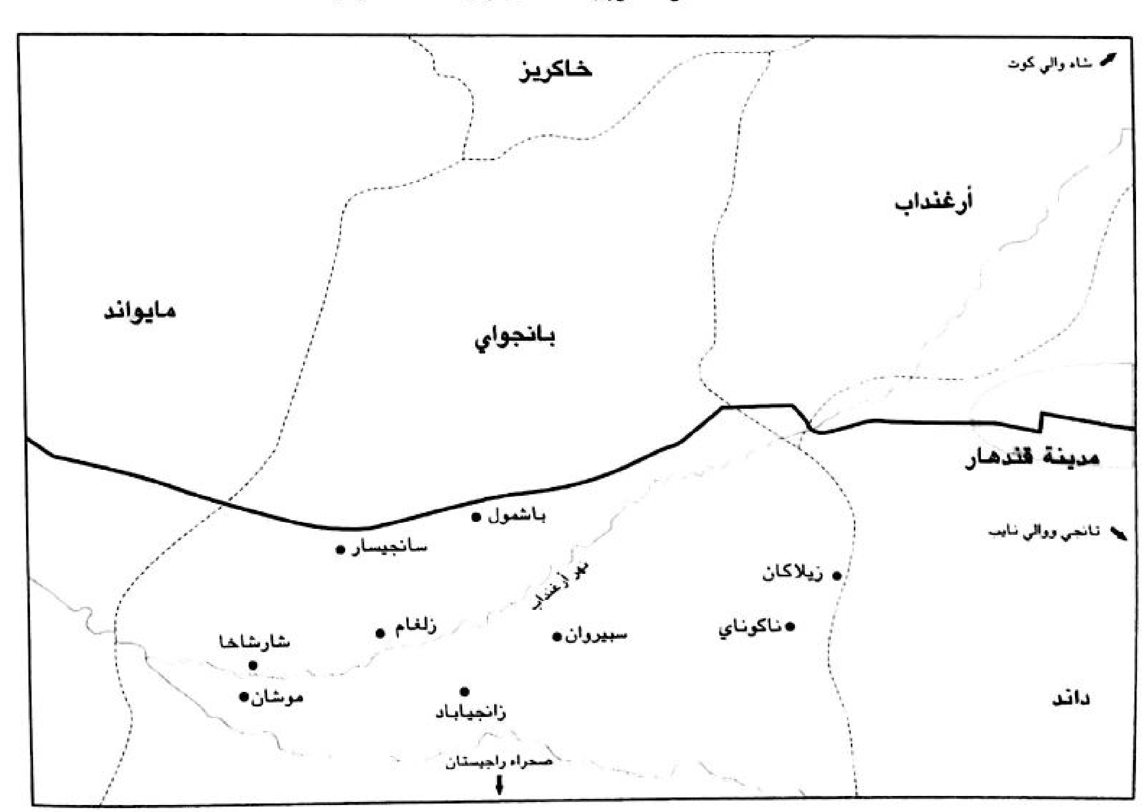
(١) كان المولوي نزار محمد، المتحدّر من سيا شوي، القاضي الأوّل في طالبان، وذلك في الفترة الأولى من الجهاد. استبدل به المولوي باساناي صاحب لأنّه كان أحدب وقصير القامة. كان غير متعلم، وحكم على الكثيرين بالموت. كان شعره رمادياً، وقُتل في قتال مبكر في باشمول.

(٢) المولوي باساناي صاحب هو القاضي الذي خلف المولوي نزار محمد بعدَ وفاته. يتحدّر أصلاً من شاه جوي (محافظة زابول). توفّي المولوي باساناي على الأرجح عام ٢٠٠٢ بعدَ اجتياح العام ٢٠٠١. وكان معروفًا في قندهار لأنه رفض (واستمرّ في رفض) تقارير اغتيال مسعود في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١. كان معروفًا جدًّا بين قضاة طالبان.

(٣) الحاجي محمد غول آغا من قبيلة تراقي، وهو والد الملّا شاه زاده وهو فاعل بصفته شيخ قبيلة. حارب في نلغام أيّام الجهاد ولكنّه يتحدّر أصلاً من ميراخور في محافظة مايواند في قندهار.

والجيش الأفغانيّ. حوّل القصف البريّ والجويّ ليلنا نهارًا؛ ودمرت القنابل والقذائف المدينة والمنازل. انتشرت القبور في كل مكان. وما زلت أذكر وجوه النسوة والرجال، وهم يصرخون في الجنائز التي لا تعدّ. وهرب المدنيون القلائل الذين بقوا في المدينة، مخلّفين بيوتهم ومزارعهم، فيما رمت الطائرات الروسيّة القنابل كوابل المطر. وبدا الروس كأنهم سيقصفون مواقعنا للأبد، فيما نحن صامدون. هزّ القصف المدينة عشرة أيام متتاليّة. ونفدت كل ذخائرنا؛ فلم يبقَ بحوزتنا سوى بعض الطلقات وقنبلة يدويّة واحدة. لازم الروس مواقعهم، فقررنا الانسحاب وهربنا إلى زنجياباد. لم يكن الانسحاب بالأمر السهل؛ فقد استشهد أربعة مجاهدين خلال فرارنا.

مقاطعة قندهار الغربية خلال جهاد الثمانينيات



التقينا في زنجياباد قرابة السبعين مجاهدًا، بحوزتهم ثلاثة رشاشات كلاشنيكوف، وبندقية واحدة وقاذف آر بي جي لم يكن أصليًا[١]، وأسلحة أخرى[٢]. شكرت ربي لأنني أحمل الكلاشنيكوف. كانت القوّات السوفياتيّة قد طوّقت المنطقة وبدأ القتال في زنجياباد.

عزّز السوفيات والجيش الأفغاني مواقعهم في راجيستان، وورود بانجوي، وشارشاخا وموشان، مشكّلين بذلك طوقًا حولنا. ودرج الروس على مهاجمة موقعنا طوال النهار، بأربع طائرات أو ستّ حتى أننا في يوم واحدٍ عددنا أربع عشرة طائرة، تقصف منطقة صغيرة جدًا. انتشرت الدباباتُ في كل مكان، واسودّت التلال جرّاء الانفجارات والبارود. حاول كل من استطاع الهرب أن يهرب؛ فامتلأت قرية سبراون ووسط بانجوي باللاجئين؛ مما اضطر العائلات على التشارك في المنازل، حتى بلغ عدد القاطنين في غرفة واحدة صغيرة أكثر من عشرين لاجئًا.

بعد عشرة أيام تقريبًا، ترك الروس بانجواي، وانتقلوا ليهاجموا باشمول. قُتل المئات من المجاهدين والمدنيين في زنجياباد، ودُمّر الكثير من المنازل والبساتين. لحق بعض المجاهدين بالروس لينضموا إلى جبهة باشمول. قاومنا بقوة في باشمول، واستمرت المعارك لأسبوعين، تكبّد فيهما الجانبان خسائر كبيرة. واستشهد مجاهدون كثر وأُحرقت عشرات الدبابات. في النهاية، طُرد المجاهدون من المنطقة مرّة ثانيّة. ومن بين المجاهدين الذين استشهدوا، قائدان مهمّان هما القاضي المولوي نزار محمد (أول قاضٍ في طالبان وقد خلفه السيّد محمد باسلناي صاحب)؛ ومجاهد آخر هو الملّا خواس آخوند[٣]. إلا أنّ المجاهدين

---

(١) كانت الأسلحة Balazan و Jaghuri بنادق قديمة بطلقة واحدة تعود إلى القرن الماضي. Balazan سلاح ألماني و Jaghuri سلاح أميركي. وهي أسلحة قادرة على إطلاق النار على مسافة طويلة.

(٢) لم تكن الأسلحة التي استخدمها المجاهدون بالضرورة أصلية. وكانت الكثير منها نسخاً صُنعت في الباكستان أو مستوردة من الصين. وكانت نوعية الأسلحة المنسوخة في كثير من الأحيان رديئة.

(٣) كان الملّا خواس آخوند قائدًا في باشمول، يتحدّر من بغران (محافظة هلمند)، وحارب مع الملّا نك محمد آخوند؛ ولكنّه قُتل على أيدي مفجّرين روس في أواخر الثمانينيّات.

التابعين له استمرّوا في القتال ولم يتخلّوا عن مترٍ واحد من الأرض للسوفيات من دون قتال. وانتقلوا من قرية إلى قرية، ومن منطقة إلى أخرى.

اعتبرت معارك «باشمول» و«زنجياباد» نموذجًا عن الحرب بين السوفيات والمجاهدين؛ فلطالما كان عدد المجاهدين أقل وأسلحتهم أقدم ولا احتراف في تدريبهم. ورغم ذلك قدنا حرب ميليشيا، فضحت نقاط ضعف الجيش الروسي[1]. وشيّدنا طرق انسحاب وطرق تموين. فإن اقترب الروس كثيرًا أو تكبّد المجاهدون خسائر فادحة، انسحبوا إلى أرغنداب، أو سنجيسار أو زنجياباد. وإذا تعرّضوا للكثير من الضغط في أرغنداب، انسحبوا إلى مهالجات، أو شاه واي كوت أو بانجواي. ولاحقًا، حين انسحب الروس، عاد المجاهدون إلى مواقعهم الأساسيّة. قاتلنا وهربنا وأعدنا تنظيم صفوفنا من جديد. وكنا نعيد هذه الخطوات مرارًا، مثلما يفعل طالبان في أيامنا هذه.

وفي كل أنحاء أفغانستان، أنشأ المجاهدون مقابر خاصّة للشهداء. ولم يكن بمقدورنا معالجة كل الإصابات. فغالبًا ما كانت تنقضي عشرة أيام أو خمسة عشر يومًا لإحضار طبيبٍ أو مسعف، لمعالجة المصابين. ذلك أن الاستراتيجية التي اتّبعها الروس جعلت نقل المصابين صعبًا للغاية؛ مما أدّى إلى التهاب الجروح وبالتالي وفاة كثير من المقاتلين جرّاء جروح صغيرة. لا يزال في ذاكرتي مشهد الجرحى العشرة في الغرف الصغيرة التي استخدمها المجاهدون كقاعدة. وكان كل من تابع دروسًا[2] في الطب يجهد لمعالجة الإصابات. وحين انسحب الروس من باشمول، عاد المجاهدون والسكان إلى بيوتهم؛ ووجدوا دمارًا لا يوصف؛

---

(١) تألّفت قوة الغزو السوفياتي من خليط من قوّات مجوقلة وآليّة يصل عددها إلى ٨٥ ألف فوج. سُمّيت «الجيش الأربعين» وأشارت إليها مصادر سوفياتيّة رسميّة بـ «الوحدات المحدودة».

(٢) جرت تدريبات طبيّة عدّة في كويتا ذلك الوقت. تلقّى الملّا ضعيف تدريبه الطبّيّ في مستشفى الجهاد، بعدَ أن عادَ للمرّة الثانية إلى أفغانستان. أخذوا دروسًا في الرعاية الصحية الأساسية، وكيفية وقف النزيف وغيرها من التدابير الوقائية الأساسية لإبقاء الجرحى على قيد الحياة من أجل أخذهم إلى الباكستان للحصول على الرعاية الطبية المناسبة. أدارت المستشفى منظمة غير حكومية وكان حضور الدورات التدريبية إلزاميا لكل مجاهد. وفقاً لأحد التقريرات لقد شاركت نحو ٢٥٦ منظمة غير حكومية في مساعدة الأفغان، منها خمسون كانت تعمل في أفغانستان (Baitenmann, 1990).

ذلك أن العمليات العسكرية الروسية خلّفت دمارًا لا مثيل له محا كل آثار الإنسانية من القرى. ورغم أن المجاهدين قد غادروا باشمول، فإن بعض المدنيين ظلوا لحماية الماشية. لكنّ الروس قتلوا الجميع؛ وكان الهواء مثقلًا برائحة جثث النسوة والرجال والأولاد، التي انتشرت بين بقايا الأبقار، والخراف والدجاج. وانشغل السكّان العائدون بدفن أقربائهم وأصدقائهم لأيام.

▲▼▲

أقام الروس قاعدةً عسكريّة في صحراء زهراي[1]، نصبوا فيها صواريخ غراد والبي أم ٤٠ والبي أم ١٦ وأسلحة أخرى من العيار الثقيل. استهدفوا القرى والبيوت الواقعة على ضفاف النهر ليل نهار من دون أي ذريعة. لقد قصفوا البيوت من الطّائرات. وشقّ الروس طريقهم بالدّمار عبر أرغنداب، وماهالاجات وزلخان نحو نافوناي. وحين بدأت عمليّاتهم، واجهتهم جبهة موحّدة من المجاهدين مؤلّفة من وحدات ساندت بعضها بعضًا واستمرّ الوضع على هذه الحال. فكلّما نشب قتال في الجنوب، سارع المجاهدون من القرى المجاورة إلى مساندة رفاقهم. كنا نسافر مشيًا على الأقدام. وكان كلّ منّا يحمل عتاده. إلا أنّنا وجدنا لاحقًا جرّافات وسيّارات للتنقّل.

سلكنا الطرق الفرعية ومعابر التهريب في الأودية وفي الجبال، للالتفاف على حواجز السوفيات والشيوعيين الأفغان. وفي الرحلات الطويلة استعنّا بالخيول والدراجات النارية. تمتّع المجاهدون بسرعة التحرّك، واستخدموا المعلومات التفصيلية التي يملكونها عن المنطقة، كسكّان محليين. من الصعب إيجاد خرائط جيدة لجنوب أفغانستان. حتى صور الأقمار الصناعية تعجز عن تحديد مواقع المسالك الجبلية، وتفضيل الواحد على الآخر من ناحية الصعوبة أو السرعة

(١) زهراي هو اسم صحراء في شمال محافظة بانجواي. تم فصلها وأصبحت محافظة في العام ٢٠٠٥. خلال فترة الاتحاد السوفياتي، كانت زهراي الصحراء قاعدة عسكرية كبيرة تُستخدم لمهاجمة باشمول وبانجواي. كان لديهم الكثير من الدبابات هناك، فضلا عن الصواريخ التي كانت تطلق من القرى المحيطة بها في جميع الأوقات من اليوم.

في الاجتياز. وهذا ما منح الأدلاء المجاهدين دورًا فعّالًا في مواجهة الاتحاد السوفياتي.

لم يكن هؤلاء عادة من المنتمين إلى مجموعتك، لكنّ روح التعاون كانت تشكل جزءًا مهمًّا من أسلوب المجاهدين في التعامل. ولم يكن من الصعب إيجاد أشخاص للمساعدة في التوجيه وإعطاء المعلومات حول كيفية التحرُّك في المنطقة. كنا نقاتل غير آبهين بالتعب والجوع والعطش، ونختار مسافات قد تمتد من مايواند إلى داند، من شاه والي كوت، أو من أرغنداب إلى البنجاب ومناطق أخرى. وكنا أحيانًا نجتاز مئات الكيلومترات، من نلغام إلى هلمند، أو إلى تيرين كوت في أوروزغان. كنا نرتدي الملابس نفسها لأشهر متواصلة، ونعيش على رغيف خبز واحد، أو بضع حبات من التمر تُشكّل قوتنا اليومي. كنا نتلهّف إلى القتال، غير آبهين للموت، لا بل نتطلّع إليه، خصوصًا نحن، الجيل الشاب من المجاهدين. قضينا تلك الفترة نعيش في الأرض، ونشكر كل من مَنّ علينا بالطعام والمال.

كان الناس يهبّون لمساعدتنا لا لشيء، إلا لرغبتنا في القتال. وكان إذا أخرج قائد ما أحد مقاتليه من عملية معيّنة يشعر المقاتلُ بالغضب والخيبة. وكما يتملك الناس العاديون حماسة للزواج، تملّكنا شوق عظيم إلى الاستشهاد. كم سمعنا مجاهدين يبكون في وسط المعركة، لكن ذلك لم يكن نابعًا من الخوف. ورغم استشهاد الكثير من رفاقنا، الواحد تلو الآخر، فإننا لم نشعر بالخوف يومًا. كنا ننتظر المعركة لنقفز في مرمى النيران، ما لم يمنعنا القائد من ذلك. أعلم أن ذلك صعب التصديق، لكننا كنا سعداء. ولكم احتفلنا ورقصنا رقصة الأتان ابتهاجًا[1]. ولكم عانينا بالمقابل لكن خيارنا كان صائبًا؛ إن قُتل أحد، فلا شك أن ذلك مُقدَّر عليه. تلك هي الحياة السعيدة التي عشناها! عند انتهاء كل عملية، نعود إلى

(١) «الأتان» رقصة باشتونيّة تقليديّة، يقف فيها المشاركون في دائرة ويصفّقون بأياديهم وفق الإيقاع ويدورون. ويقف شخص واحد في الوسط ويقود بقيّة الراقصين فيتبعون حركاته. غالبًا ما تُرقص الأتان في الاحتفالات والأعراس.

مراكزنا ومخابئنا، نجلس في غرفنا، نسترخي، ونطمئن إلى النتيجة التي حقّقناها بتدمير آلة العدو الحربية، إلى أن ننطلق في عملية جديدة. فلم يكن القتال في صفوف طالبان يتمحور حول المجاهد فحسب، بل جاوز ذلك كثيرًا.

خضع المحاربون في طالبان لتدريبات روتينيّة شملت الجميع من دون استثناء. اقتضت الأمور أن نستيقظ قبل الشروق فنصلّي الفجر في المسجد، ونجلس معًا قبل العودة إلى المخيم. وجرت العادة أن نتلو سورة ياسين الشريفة كل صباح تحسُّبًا للاستشهاد في أي لحظة. بعدها، نتوزّع؛ فينطلق البعض لتحصين الجبهات، أو لشن غارة، بينما يهتم الآخرون بالسجناء والجرحى، أو يقضون بعض الوقت في الدراسة. ورغم انخراط أعداد كبيرة من الناس العاديين في صفوف طالبان، فإن مبادئ الحركة الأساسية كانت مفروضة على الجميع. وبالإضافة إلى العمليات القاسية خلال الهجوم أو الدفاع، انخرط جميع المجاهدين في الدراسة[1].

يقوم أعضاء طالبان الكبار بتعليم الشباب الجدد الساعين للدخول في الحركة. ويهتمّ المولوون الكبار بتدريس أعضاء طالبان الآخرين الأكبر سنًّا. بهذه الطريقة، يتمكّن المجاهد الأمّي العادي أن يصبح طالبًا خلال سنتين أو ثلاثٍ. أوكلت إلي المهمّتان في الجبهة؛ فمارست تعليم القراءة والكتابة للمبتدئين، وكنت في الوقت نفسه أتعلّم على يد مرشدي. تمكّن الجميع من الدراسة، فأتيح لي أن أتابع تنشئتي الدينية. ومن لم يرد من الناس الدراسة، ذهب للقتال تحت إمرة قادة آخرين. لم تتّبع كل المنظمات هذه الطريقة، لكننا نحن، في طالبان، أردنا أن نخطّ لنا طريقًا نظيفة، فنسيطر على سلوكنا، ونبتعد عن الخطيئة.

▲▼▲

قضيتُ عامًا مع طالبان بقيادة الملّا محمد صادق آخوند، قبل أن أنتقل إلى

(١) أدّت نزعة المطالعة هذه إلى المفهوم الشعبي الذي يقول إنّ مقاتلي حركة طالبان لم يكونوا جيّدين خلال الجهاد.

الباكستان. آنذاك تلقّى بور محمد، وهو مجاهد يُعرف باسم الملّا برجان[١]، إصابة في ساقه جرّاء انفجار قذيفة دبابة. فعجز عن المشي. وبات تلقّيه العلاج أمرًا صعبًا وخطيرًا. صحيح أن الحكومة الباكستانية والهيئة الدولية للصليب الأحمر قد أقامتا عيادات نقّالة على الحدود، لكن الوصول إليها كان يتطلب أسابيع عدّة.

في ذلك الوقت، غدا تحرّك الشاحنات والآليات غير ممكن، إلا من خلال المعابر والطرقات الموحلة. بينما تعوَّد المجاهدون واللاجئون وسواهما على اجتياز الحدود مع الباكستان، والعودة إلى أفغانستان، راكبين الجمال. وقد عملوا بالطريقة نفسها على نقل الجرحى والمرضى إلى شامان. وحتى يومنا هذا، لا تزال الخيارات نفسها مفتوحة أمام المقاتلين، وهم يسلكون الطرق عينها التي سلكناها في الماضي للنزوح إلى الباكستان طلبًا للعلاج والراحة؛ حيث معابر التهريب سبيلنا الوحيد للانتقال من الباكستان وإليها. ولم يسلم من احتجاز القوات الأفغانية أي رجل بين الخامسة عشرة والخامسة والأربعين من العمر يحاول عبور الحدود الباكستانية عبر طريق شامان قندهار السريع.

لم يقتصر عبور الجبال وطرقات التهريب على المجاهدين فحسب، بل سلكها الكثير من المدنيين والعائلات والأجانب والصحافيين، للخروج من البلاد ودخولها. التقيت الملّا برجان في نلغام، حيث انتقلنا وبدأنا رحلتنا. كان الملّا برجان، في الثلاثين من عمره، رجلًا قويًا، صلب البنية، ذا لحية سوداء كبيرة. انطلقنا في رحلتنا وكانت الجمال مطايانا، عبر جبال الريغ في تانغاي. كنت أقود مجموعة من خمسة أشخاص، ونتحرّك ببطء نحو الحدود. مع الغروب، انضم إلينا اثنان من المجاهدين من منطقة الملّا محراب[٢].

(١) أقام الملّا برجان (من قبيلة أشكيزاي) في دي ميرازاي، وأُصيب بجروح خلال القتال الذي دار في بانجواي بقذيفة رميت من دبّابة. كان يبلغ حينها الثلاثين من عمره تقرّيبًا وكان رجلا قويًا له لحية كثيفة. وهو شقيق الحاجي بهاء الدين.

(٢) الملّا محراب: منطقة قربَ صحراء راجيستان تقع جنوب مدينة قندهار. سُمّيت على اسم ملّا دُفن هناك وعلى الرغم من وجود ضريح باسمه إلّا أنّ التاريخ الذي تُوفّي فيه غير واضح.

الملّا خنجريار من المجاهدين الجيّدين الذين حاربوا على جبهة صغيرة في مهالاجات، واستشهد في معركة ضد الروس، فأخذ أخوه مكانه. لم يسلك خنجريار الطريق نفسها التي سلكها إخوته، وكان يدير حلقة صغيرة من المسلحين، تعمل على تهريب البضائع على الجمال. لم يطلعني أحد على ما تتضمّنه القافلة، رغم أنني سألت عن الموضوع. وأخيرًا وصلنا إلى مكان يُسمّى دو لاري.

قبل يومين بالتحديد، أقدم الروس على قتل ثلاثين مقاتلًا، وصرعوا سبعة جمال في كمين في المنطقة. كنت مقتنعًا أن القوات الروسية لا تزال في المنطقة، وأننا سنقع في فخها ما لم نتحضّر للأمر. لكن ليس في حوزتنا أي سلاح، ولم يكن من طريق أخرى أمامنا، فأي التفاف سيكلّفنا أيّامًا إضافية تطيل من فترة سفرنا، بينما كانت إصابة الملّا برجان بليغة. هذه الأنباء عن الكمائن الروسية زرعت الرعب في صفوف موكبنا.

بات من المستحيل أن نعود أدراجنا، والروس ينتظروننا في الأمام. في تلك المرحلة هبط عددنا إلى ثلاثين أو أربعين شخصًا يسافرون معًا، عزّلًا تمامًا. حين اقتربنا من المنطقة حيث ينتظر الروس تحت ستار الظلام، اقترب مني أحد أشقاء المولوي خنجريار، وأخبرني أن بحوزتهم راجمة آر بي جي[1] واحدة، وخمسة رشاشات كلاشنيكوف مع ذخيرتها محمَّلة فوق جمالهم. قال لي «سنعطيكم ثلاثة رشاشات والراجمة، ونحتفظ برشّاشين».

وهذا أول نبأ مفرح سمعته وطلبت إليه أن يسرع بتزويدنا بالسلاح. فالوقت داهمنا، ويجب التحضير لما ينتظرنا. أوقف الشبان الجمال، وأنزلوا الأسلحة، وسلّمونا رشّاشات الكلاشنيكوف والـآر بي جي. وحين رأى المرافقون الأسلحة تنفّسوا الصّعداء. قمت برسم خطة، فأعطيت توجيهاتي لرجال أشقّاء المولوي

(١) من أكثر الأسلحة التي يستخدمها المجاهدون الأفغان الآر بي جي أو القذيفة الصاروخية وبندقية كلاشنيكوف AK-47. في بداية الجهاد، لم يكن أي من هذه الأسلحة معروفاً لهم. ولكن في وقت لاحق، مع زيادة التمويل الآتي من الخارج، بدأوا باستخدام الآر بي جي بفاعليّة كبيرة ضد الدبابات وناقلات الجنود المدرعة. ولا يزال يتمّ استخدام كلّ من هذين السلاحين؛ بندقية AK-47 والآر بي جي ضد القوات الأجنبية وذلك منذ العام ٢٠٠٩.

خنجريار بضرورة التفرّق. اقتضت الخطة أن أمرّ مع رجالي من أحد المعابر الضيقة، بينما يأخذ هو ورجاله طريقًا أخرى.

يبقى أن يتبعنا المصابون والمسنّون على بعد مسافة معينة، حتى يتمكنّوا من الانسحاب سريعًا إن تبيّن وجود أي كمين، ويحاولوا العثور على طريق أخرى بالالتفاف حول القوات الروسية. كان هذا الأمر مهمًّا بالنظر إلى استخدام الروس ما يسمّونه بالروكسانا خلال الاشتباكات. والروكسانا نوع من الأنوار تقلب، لتوهُّجها، الليل نهارا، وتضع الجميع في دائرة خطر الاستهداف. في هذه الأثناء، وبينما كنا نتحضر لمواجهة الكمين، تعرض موكب قادم من الباكستان إلى أفغانستان لهجوم على بعد كيلومتر واحد منا. سمع أزيز الرصاص وانفجار قذائف الأر بي جي. وأنارت الروكسانا سماءنا، فحوّلت الليل نهارَ صيف مشمس. حلّقت المروحيّات في الجو، وأُطلقت الروكسانا، وتمّ تمشيط المنطقة. اختبأنا بين الشجيرات الصحراوية لعلّ الظلام يغطّينا، وانتظرنا حتى انتهى القتال.

تجمّعنا من جديد، وانطلقنا عبر طريق مختلف لتجنّب الحاجز الروسي. عند الفجر بلغنا جبال تانغي. عند سفح الجبل، حفر الكوشيون[1] آبارًا. بلغنا مع شروق الشمس مخيّمهم في بلدة تدعى شين أغا وفيها بعض الخيم والبيوت. تفرّق جمعنا، وذهب كل منا إلى منزل للاستراحة في فترة بعض الظهر. احتفى بنا الكوشيون وأمّنوا لنا الطعام والماء. وتابعنا رحلتنا عند المغيب عبر نايب ويل باتجاه شامان. وردنا أن كمينًا آخر قد نصب في جوار بام بول تانا، فسلكنا مسارًا آخر أطول؛ فوصلنا بأمان اللّه إلى شامان، كما لو لم يواجهنا أمرٌ خلال السفر، وبدا الخوف الذي عشناه كذكرى بعيدة جدًا عنّا. هُرعت لنقل الملّا برجان إلى العيادة، لكن الالتهاب كان قد تفشّى في مكان الإصابة.

(١) هم شعوب أفغانستان الرُّحل. إنّ كلمة «الكوشي» مشتقّة من الكلمة الدارية «كوش كردان» والتي تعني «أن تقوم بخطوة» أو «أن تتحرك». تنقل قبائل الكوتشي منازلها مرتين في السنة وتتواجد في جميع أنحاء أفغانستان.اعتادوا العيش في صحراء راجيستان. ولكنّ حرب الثمانينيّات والجفاف أجبرا الكثير من الرحّل أن يستقرّوا بشكل دائم في مخيمات في الباكستان.

رغم نقل الملّا إلى مستشفى الصليب الأحمر في كويتا، فإنه سرعان ما فارق الحياة شهيدًا. بهذا انتهت مهمّتي، فقرّرت الذهاب لرؤية عائلتي. توجّهت إلى البنجاب، لكنّ أهل المنطقة أخبروني بأنّ عائلتي قد انتقلت للإقامة في كويتا. قضيت الليل هناك، ثم سافرت إلى كويتا في اليوم التالي. جرى ذلك صيف ١٩٨٤، وكان قد مضى على وجودي في أفغانستان ثلاثة عشرَ شهرًا. ولم تكن عائلتي قد تسقّطت عني أي خبر منذ أن انخرطت في الجهاد، لكنّ فرح اللقاء في ذلك الوقت فاق كثيرًا غضبهم لمغادرتي إلى الجهاد من دون إذنهم.

٤

دروس من المخابرات الباكستانيّة

تبدّلت كويتا منذ رحيلي عنها قبل عام. نزح كثير من سكان المخيّمات إلى المدينة، ورغم فرح أفراد عائلتي بلقائي، فإن الخوف بقي يتملّكهم من عودتي إلى أفغانستان للقتال. أصرّوا كثيرًا على بقائي في الباكستان والذهاب إلى المدرسة هناك، ففعلت. خضعت لامتحان الدخول إلى الصف التاسع، وباشرت متابعة الدروس. وفي الأشهر التسعة اللاحقة، قضيت معظم وقتي بين المدرسة ومسجد القرية. وعند انتهاء العام الدراسي، تقدّمت لامتحان الدخول إلى الصف العاشر.

لم يخفت وهج حماستي لمتابعة الدروس الإسلامية رغم ذلك؛ فقرّرت الانضمام إلى مجموعة من الطلاب في كويتا بإشراف المولوي عبد القادر[١] الذي افتتح مدرسة كجزء من المسجد القندهاري[٢]. كان يعطي الدروس في غرفة صغيرة بفندق بورما على طريق سرياب.

في ذلك الحين، كان المولوي قادر لا يزال رجلًا شابًّا، بشعره البنّي الفاتح وبشرته الداكنة، ويرتدي بشكل دائم عمامة بيضاء. أذكر حتى اليوم لقائي الأول به. وكطالب في الدين، لا بد من تنفيذ بعض المهمات في خدمة المعلّم. فكنا، نحن التلاميذ، نجمع الزكاة، ونهتم بالحيوانات، ونحضّر الطعام... عندما التقيت

(١) المولوي عبد القادر (من قبيلة براكزاي) ملّا أفغاني عاش في كويتا. يتحدّر أصلًا من محافظة معروف في ولاية قندهار.

(٢) كان مسجد قندهار صغيرًا وقريبًا من سوق قندهار.

المولوي قادر للمرة الأولى، صارحته بأنني لن أرضى بمزاولة هذه الأعمال، وبأنني لم أقصد المدرسة للاهتمام بالحيوانات وجمع الأموال. كنت أريد أن أفرض شروطي، لا أن أرضخ لشروطه. ضحك حينها، لما سمع ما قلت، وحدَّق مباشرة إلى عينيّ، وقال «يا ضعيف، هذه الخدمات التي تتكلم عنها وُجدت من أجلك. بتتميمها ستعبّر عن اهتمامك بمدرّسك وبزملائك الطلبة. عليك بها. أفليس من الحق والواجب، مقابل الجهد الذي أبذله لتعليمك، أن تهتمّ بي؟». استمتعت بالدراسة مع المولوي قدير وبرعت فيها. قرّرت التركيز في دراستي، فلم أخبر أحدًا من رفاقي المجاهدين عن مكاني، وبقيت خارج الصّورة في تلك المرحلة.

بعد ثلاثة أشهر، قدِمَ إلى المسجد المير حمزة[1]، وبدأنا مناقشة الوضع في أفغانستان وحالة الجهاد القائمة. كان ذلك في العام ١٩٨٤ وفي هذا العام، استدرجنا السوفيات إلى معارك على نطاق واسع، وشنوا هجمات على معاقل المجاهدين بشكل منتظم. ازداد عددنا، لكنّ فرصنا بالانتصار في الحرب تضاءلت. وسعى رفاقي لإقناعي بترك الدراسة والعودة إلى الجبهة. لم يأتِ المولوي عبد القادر على ذكر هذا الموضوع يومًا، لكن رفاقي أصرّوا على موقفهم، فاحتدم النقاش، إذ شمل مسائلَ ساخنة كدواعي عودتي، وواجب الجهاد، وأخبار المعارك الأخيرة بين المجاهدين والقوّات الروسية في الجنوب.

لم يعارض المولوي عبد القادر موضوع عودتي إلى أفغانستان. كان يؤمن بالجهاد ويشجّع الأشخاص الذين يرغبون في الانخراط في هذه الدعوة، حتى الشباب في سنّي. مع مرور الأشهر، توطّدت علاقتي بالمولوي وأصبحنا أصدقاء؛ وغدا مهتمًّا بأمري؛ بات يخشى أن أمضي وأستشهد في المعارك. في نهاية المطاف، تمكّنت، بمساعدة رفاقي، من إقناعه بأنني سأعود إلى القتال على الجبهة. غادرت من فوري، ورافقنا المولوي عبد القادر مسافة باتجاه الحدود، فباركنا وقفل عائدًا إلى مدرسته.

---

(١) الملّا مير حمزة (من قبيلة أشكيزاي) يُعرف بالحاجي لالا وهو يتحدّر من تيرين كوت (محافظة أوروغزان). كان مجاهدًا، ولم يكن صيته ذائعًا بين المجاهدين الآخرين.

لم أُطلع عائلتي على خططي بالعودة، لأنّهم توسّلوا إلي في المرة الأولى ألّا أعود. كان بإمكاني الحصول على منزل وزوجة وعمل، لو أنني أردت الاستقرار في الباكستان ولم أعد إلى أفغانستان. لكنني كنت متلهفًا لتلبية نداء الجهاد في بلادي. وهكذا، توجّهت مع مجموعة صغيرة من المجاهدين إلى مخيّم زنعال، ومنها إلى منزل الحاجي كرم خان[1] القيّم على جبهتنا. باشرنا في تحضيرات العودة إلى أفغانستان. كان الملّا محمد صادق قائد جبهتنا، وكرم خان مدير الجبهة[2]. عمل كرم خان على متابعة ما يحدث على الأرض معظم الوقت؛ فكان الثاني في القيادة. بينما تولّى الملّا محمد صادق القيادة فعليًّا، صارفًا نصف وقته على الجبهة، والنصف الآخر في الباكستان.

لم تكن قيادة الجبهة بالأمر البسيط. فعليك أن تعمل بين بلدين لتتمكّن من قيادة مجموعة ناجحة. ومن الضروري نسج شبكة فاعلة من العلاقات مع سائر المجاهدين والأحزاب السياسية لتأمين الدعم المادي والسياسي، بينما يعتمد القتال في قندهار على القيادات المحلية. عملت الجهتان كمجموعة واحدة لتأمين التمويل والسلاح، والمحافظة على الاتصالات، وتنظيم النقل والتدريب وتحضير المجاهدين الجدد.

في أيام الجهاد الأولى، لم يكن للمجاهدين القدرة على مواجهة الدبابات والمروحيات الروسية، وطائرات الميغ والقاذفات البعيدة المدى بطبيعة الحال. شكّلت المروحيات الروسية تهديدًا كبيرًا، لكنها بقيت عاجزة عن دخول الأودية

(١) كان الحاجي كرم خان (من قبيلة أشكيزاي) مُجاهدًا في جهاد الثمانينيّات وشيخ قبيلة في السنين التي تلت. وقد أدّى دورًا سياسيًا في قندهار وكان فاعلاً في شورى قبيلة أشكيزاي التي تلتقي كلّ يوم جمعة في مدينة قندهار.

(٢) تم تقسيم الأعمال في الجهاد على اثنين من كبار الشخصيات، الأوّل «الأمير» والثاني «القائد». يحضر الأمير المسائل الإدارية ويقوم بجمع الأموال وفي بعض الحالات يكون بمثابة الوجه العام أو ممثّل «جبهة» معيّنة. أمّا القائد فيقضي معظم وقته على «الجبهة» ويُقاتل ويتعامل يوميًّا مع أيّ مشكلة قد تحدث داخل أفغانستان.

الضيقة. في أواخر الثمانينيات، أطلقت المخابرات الباكستانية[1] برنامجًا تدريبيًا للمجاهدين بهدف تدريبهم على استخدام أسلحة خاصة تسمح لهم، بحسب ما وعد الباكستانيون، بتدمير الدبابات الروسية وإسقاط المروحيات في الجو.

اختارني الملّا محمد صادق مع آخرين للمشاركة في البرنامج التدريبي[2]. انتقلنا إلى مكتب سياف في كويتا حيث القائد عبدالله[3]، مدير المكتب والمسؤول عن جنوب شرق أفغانستان، وهو الذي عرّفنا بالضباط الباكستانيين.

كانت تلك من العلاقات الحديثة العهد التي بناها الملّا محمد صادق مع حزب الاتحاد الإسلامي[4]، الذي أسَّسه سياف مؤخرًا. لطالما عُدَّت جبهتنا مرتبطة بحركة الانقلاب الإسلامي[5] التي أسسها المولوي نبي محمدي[6]، لكنّ سياف وحزبه كانا ذَوِيْ نفوذ في أوساط المخابرات الباكستانية، وكان من بديهيات

(١) المخابرات الباكستانيّة هي الجناح العسكريّ الأساسي في الباكستان، تُؤمّن السلاح للمجاهدين الأفغان. أصبحت هذه المخابرات مرادفًا للمشاركة القويّة للجيش الباكستاني في الشؤون السياسيّة.

(٢) وفق تقرير الباكستاني كتبه العميد يوسف بعد أن عمل مع المخابرات الباكستانية في الثمانينيّات، فإنّه قد تم تدريب حوالى ٨٠ ألف مجاهد في الباكستان في الثمانينيّات. وفي نهاية عام ١٩٨٣ كان للمخابرات الباكستانيّة معسكران يتّسعان لمئتي متدرّب، وبحلول منتصف عام ١٩٨٤، أشركوا ألفًا منهم في النظام وبحلول عام ١٩٨٧ كان لديهم سبعة مخيمات تعمل في وقت واحد (Yousaf and Adken, 1992).

(٣) كان القائد عبدالله شخصيّة بارزة ومسؤولاً عن توزيع الأسلحة على مكتب سيّاف لكل مناطق جنوب أفغانستان. كان من قبيلة وارداكي واحترمه المجاهدون لعمله على تأمين الأسلحة للمقاتلين. وفي فترة بعدَ النظام، تولّى منصب والي محافظة لوغار ولكنّه قُتل.

(٤) تأسّس حزب الاتّحاد الإسلامي للسلام في أفغانستان عام ١٩٨١ في بشاور على يد عبد الرب الرسول سيّاف. تأسس بداية بهدف تحالف بين الأحزاب أي محاولة لتوحيد أهداف التجمّعات السياسيّة في الثمانينيّات في بيشاور إلّا أنّه سرعان ما أصبح حزب الاتحاد الإسلامي مستقلًا له ميزاته وأتباعه.

(٥) حركة الانقلاب الإسلامي هي من أولى حركات المجاهدين. كانت في أوائل الثمانينيّات إحدى أكبر المجموعات السياسيّة. وقد عمل الكثير من أفرادها التقليديّين على التعويض عن جزء كبير من الهاربين من «حركة طالبان» بعد العام ١٩٩٤.

(٦) كان المولوي نبي محمدي (١٩٢١ ـ ٢٠٠٢) عالمًا (باشتوني من قبيلة أحمدزاي وُلد في محافظة لوغار) قاد الحزب التقليدي حركة الانقلاب الإسلامي، وتولّى منصب نائب رئيس أفغانستان في حكومة المجاهدين في أوائل التسعينيّات وكان له علاقة جيّدة مع طالبان حين تولّوا السلطة.

الأمور أن يمر القسم الأكبر من الدعم الذي تقدمه المخابرات الباكستانية، أسلحة وتدريبًا، عبر سياف الذي يهتم بتوزيعه.

اختلف الوضع في الباكستان عمّا هو في أفغانستان. ففي قندهار، على الجبهة وفي وسط الاشتباكات، كان الانتماء الحركي أو الحزبي أمرًا غير مهم، إذ كان جميع المجاهدين يدعمُ بعضهم بعضًا بغض النظر عن تلك التفاصيل. وفي طالبان وأشباه طالبان، عُرف المحازبون بتعاونهم في ما بينهم، كما يتعاون الأشقاء. لكن نشوء الانقسامات والخلافات داخل الحركات الجهادية ظهر في مرحلة لاحقة. فكثيرًا ما تحارب الملّا نقيب اللّه[١] والسر كاتب عطا محمد[٢]، على سبيل المثال. بالمقابل، وعلى الطرف الآخر من الحدود، كانت السياسة الفئوية هي الطاغية.

أقلّنا الضباط الباكستانيون في شاحنة من مكتب سياف، ووضعونا في الخلف، بحيث لا نتمكن من رؤية الطريق التي سلكناها. دامت الرحلة ثلاث ساعات، فتوقّعنا أن ننقل إلى إحدى المنشآت العسكرية السرية في الجبال. لكننا، عندما ترجلنا من الشاحنة، تعرّفنا جميعًا وبسهولة إلى المكان. كنا في ناحية تسمّى ترات، تقع ما بين باشين بازار ومخيم سورخاب. يجري نهر باشين داب أليزاي مقابل المبنى، وخلفه ينساب جدول صغير من سورخاب بمحاذاة طريق يصل إلى منطقة باشين. أرسل الملّا محمد صادق اثني عشر مجاهدًا من جبهتنا. لكننا حين وصلنا، وجدنا أكثر من ثمانين مجاهدًا ماثلين في الساحة في ترات. كان

(١) الملّا نقيب اللّه (١٩٥٠ ـ ٢٠٠٧) عُرف بالملّا نقيب، أو الملّا غول آخوند. وُلد في قرية شرقلبا في محافظة أرغنداب في ولاية قندهار. بقي رئيساً على قبيلة أليكوزاي حتّى وفاته في تشرين الأول/ أكتوبر عام ٢٠٠٧. كان بارزًا باعتباره قائداً جهادياً خلال جهاد الثمانينيّات. قاتل مع رجاله في مسقط رأسه أرغنداب وبقي يلعب دورًا محوريًّا خلال اضطرابات منتصف التسعينيّات وأوائل العام ٢٠٠٠.

(٢) كان سر كاتب عطا محمد (من قبيلة لودين) القائد الأقوى للحزب الإسلامي في جنوب أفغانستان، خلال الجهاد في الثمانينيّات. يتحدّر من مدينة قندهار القديمة. تحكم بمناطق غرب قندهار من باغبول إلى شاه آغا دوراي. عاش في كويتا بعدَ أن استولى طالبان على الحكم عام ١٩٩٤.

التدريب يجري بلغة الباشتون؛ فاضطررنا إلى ترجمة التعليمات لبعض المجاهدين القادمين من الشمال، والناطقين بلغة الداري.

بدأ التدريب في اليوم التالي. وتعلّمنا في البداية استخدام قاذف صاروخي متعدد القذائف، يُسمّى بي إم ١٢. هذا السلاح يثبّت على الأرض، وهو مصمّم لقذف الصواريخ من عيار ١٠٧مم، على مسافة تزيد على ثمانية كيلومترات. صُنع هذا السلاح في الصين، من مادة الألومنيوم، ما جعله فعّالًا وخفيف الوزن. تضمّن التدريب قسمًا نظريًا يجري في قاعة الصف، وقسمًا تطبيقيًا نستخدم فيه السلاح بأنفسنا. في الدروس النظريّة، تعلّمنا استخدام السلاح وصيانته، وتعرّفنا إلى مختلف أجزائه ومسائل احتساب الهدف والمدى وقوة الإصابة. كنا ندرس من السابعة صباحًا حتى الثانية عشرة ظهرًا. وبعد الظهر، أراجع دروسي. استمرّت الدروس النظرية لعشرة أيام قبل أن ننتقلَ إلى التمرين على السلاح. شاهدنا الأسلحة يوم وصولنا، وكان الجميع يسعون جاهدين لاستيعاب مختلف الدروس التي تلقّناها، إذ كنا ندرك أن ما نتعلمه في ترات سيكون له دور حاسم[1] في تقرير مصير المعارك التي سنخوضها ضد الاتحاد السوفياتي.

حين انتقلنا إلى الشق العملي، تم توزيعنا على مجموعات مؤلّفة من عشرة أفراد إلى عشرين. وتسلّم كلٌّ منا سلاحًا لتطبيق الدروس التي تعلّمناها في الأيام العشرة الماضية. ثبّتنا حامل الـآر بي جي، رتّبنا الأسلاك، وصوّبنا نحو الهدف آخذين في الحسبان سرعة الرياح والعوامل الأخرى المؤثرة في احتساب الأهداف.

شاركنا في التدريب مجموعاتٌ من المجاهدين من أهرات، وكندوز، وجلال أباد، وغارديز، وكابول. استخدم الجميع الأسلحة، فحملوا العدَّة وجهّزوها، وأطلقوا النار مرتين، قبل أن يعاودوا التصويب على الهدف عند الضرورة. أعاد

(١) هناك رأي غير رسميّ يفيد أنّ قرار شحن صواريخ «ستينغر» إلى المجاهدين كان العامل الحاسم في خسارة السوفيات في الحرب ؛ حصل المجاهدون تقريبًا على ألف صاروخ «ستينغر» بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٠. وقد قدّر مارك أربن أنّ خسائر السوفيات قد بلغت تسعين مروحيّة وطائرة أقل من ٢٠ في المائة من إجمالي الخسائر إلى حد الانسحاب السوفياتي (Urban, 1990).

المدربون شرح النقاط الثلاث الأساسية التي تعلّمناها في الأسابيع الماضية: تركيب الـآر. بي. جي، وتجهيزه، تنظيف القذيفة وحشوها، التصويب وإطلاق النار. كنا الفريق الثالث في استخدام السلاح، فبدأنا بالتحضيرات سريعًا. كنت مسؤولًا عن الحامل ومنظار التصويب ومقياس الارتفاع. عند الإشارة، أطلقنا القذيفة نحو هدف بعيد على سفح الجبل، وأخطأناه بعشرة أمتار. فككنا الـآر. بي. جي، وأعدنا تحميله وأطلقنا، فأخطأنا من جديد. وفي الواقع، لم يتمكن سوى الفريق القادم من كوندوز من إصابة الهدف، بينما أخفق الآخرون جميعًا. أمّا مجموعة هرات فأطلقت صاروخًا وصلَ إلى الجبال.

وانتهى التدريب بعدَ تمرين الركض الثاني. لم أكن ممنونًا بالنتيجة وقد خاب أمل كثيرين غيري لأنّنا لم ننجح. فحاولنا أن ننسى هزيمتنا ونحن عائدون من كويتا ملتصقين بعضنا ببعض في صندوق الحافلة. وفي طريق عودتنا إلى كويتا، أعطانا الجنود الباكستانيّون ب. م ١٢ لجبهة حفيظ اللّه آخوندزاده[١] الأماميّة وب. م. ١ لجبهة الملّا محمد صادق آخوند. وانضممت إلى مجموعة من أربعة وثلاثين مجاهدًا يتّجهون إلى مخيّم بغرا في شمان. إذ كانت المحطّة الأولى في طريقنا إلى قندهار ويجتمع عادة المجاهدون هناك قبل الذهاب إلى شنا ناراي كوز في أفغانستان. وكانت قد زوّدتنا منظّمة عربيّة برئاسة أبو خبيب بتراكتور. وكان في المخيّمات مخازن أسلحة فعبأناها في التراكتور. وصعدَ ثلاثة وعشرون مجاهدًا منّا في الخلف وبدأنا طريقنا إلى أفغانستان. وبعدَ قليل انضمّ إلينا تراكتور آخر تابع للملّا عبد الغني في بلا زحالي.

نشأت علاقات صداقة بين أشخاص منّا وآخرين من أتباع الملّا عبد الغني؛ فتابعنا رحلتنا معًا. بعد يومين، وصلنا إلى واندوز حيث أخذنا قسطًا من الراحة خلال النهار. قبل صلاة العصر، أرسلنا كرم خان والملّا والي محمد[٢] أمامنا

(١) حفيظ اللّه آخوندزاده (من قبيلة نورزاي) يتحدّر من محافظة مايواند في ولاية قندهار.

(٢) الملّا والي محمد (من قبيلة تراقي) هو من مدينة قندهار. حارب أوّلًا مع حزب الحركة أثناء الجهاد، وانتقل بعدها إلى حزب السيّاف «حركة الاتّحاد الإسلامي».

على درّاجتَيْهما الناريَّتين ليستطلعا الطريق، لاحتمال نصب أي كمائن أو حواجز. تبعناهم على متن جرّارينا عن مسافة قريبة، قبل أن تميل الشمس إلى الغروب. وهذا الوقت يشكِّلُ خطرًا، ذلك أننا تعوّدنا عبور الحدود باتجاه أفغانستان تحت غطاء الظلام. اجتزنا حبيب قالا، وعبرنا الطريق المعبّد حتى بلغنا كاريز[1] سلطان محمد خان حيث كانت الطريق مقطوعة بالصخور.

التقينا أحد الرجال في الطريق، فأخبرنا أن الروس مروا قبلنا مع دباباتهم وناقلات الجند، وسلكوا الطريق نفسها التي نخطط لاجتيازها، وبالتالي يحتمل أن يكون هناك كمين ما منصوبًا في الأمام. كان الملّا عبد الغني[2] مطمئنًا، لأن كرم خان ومرافقه قد سبقانا على المسار نفسه، ولو لمحا كمينًا هناك لعادا وأنذرانا. لم أوافقه الرأي؛ ذلك أن لعدم رجوعهما أسبابًا كثيرة قد يكونا قد تعرّضا لمشكلة ما، بل للقتل. كنت متأكّدًا أن ثمة كمينًا بانتظارنا، وطال الجدال. لكن الملّا عبد الغني كان في مركز القيادة، فتقرَّر أن نتابع السير عبر الطريق ذاتها. مشيت مع خمسة من المجاهدين في مقدّمة الموكب، وكنا نحمل أربعة رشاشات كلاشنيكوف، وقاذف آر بي جي.

مررنا بكاريز سلطان محمد خان، لبلوغ كاريز غاراي. توقّفنا بجانب خزان لمياه شبكة الري الممتدة تحت الأرض. انحنيت أرضًا لأشرب ونظرت حولي. كانت الملابس الممزقة وشرائط العمامات تتدلّى من أغصان الشجر. تلوّنت الأرض بالبارود الأسود، وامتلأت الأحواض الجافة بالدماء، وتناثرت الأشلاء البشرية المتفحمة في كل مكان. كانت الساعة الواحدة فجرًا، وبدا كل شيء هادئًا.

أذكر أنني شعرت بالغثيان عندما اقتربت من المياه. كان كل شيء أشبه بحلم.

(١) الكاريز هو نظام لإدارة المياه، يستعمل لتوفير إمدادات من المياه يمكن الاعتماد عليها للمستوطنات البشرية أو للري في المناخات الحارة القاحلة ونصف القاحلة.

(٢) يتحدّر الملّا عبد الغني من محافظة قندهار، وكان قائداً معروفاً في «مهالجات». حارب بشكل رئيسي مع حزب السيّاف «حركة الاتحاد الإسلامي».

قبل يومين، استشهد ثلاثة وعشرون مقاتلًا من قوات الحاجي بباي في كمين روسي في هذا الموقع. انتصبت واقفًا، وما إن تحركت حتى صُوِّبت طلقتا بي كاي[1] باتجاهي، وسمعت أزيزهما على مقربة من أذني. ثم أُطلق رشق ناري آخر، فأصيب نازار محمد[2]، ومير حمزة، وسقطا أرضًا. أما أنا فاخترقت طلقة بي كاي أخرى سترتي عند الخصر. كان الروس يطلقون الروشانداز[3] وقذائف الآر بي جي. اكفهر الجو بدخان القذائف والغبار، وانفجرت القنابل حولنا. للحظة شعرت أن يوم القيامة قد حلّ. كان نازار محمد والملّا مير حمزة قد صرعا. وتذكرت أنهما يحملان قذيفتي آر. بي. جي. فالثالثة كانت بحوزتي، والرابعة حملها الملّا نصراللّه[4]. أما شاه والي الذي كان يرافق جرّارنا، فاستشهد هو أيضًا. وأُصيب الملّا عبد الغني وعبد الغفّار وكان الدم يسيل من خصري. أطلقتُ قذيفتي باتجاه الضوء الذي يشغل على ما يبدو قمة سطح في قرية مجاورة. أصابت القذيفة سطح منزل؛ فأضاءت القرية كلّها. وحين ظهرت ألسنة النار في السماء، حملت قذيفة آر بي جي ثانية.

كان الروس على بضعة أمتارٍ فقط منّا؛ ولكنّ قنابلهم جميعها لم تُصبنا، بل مرّت فوق رؤوسنا. وبعدَ تلك القذيفة التي أطلقتها على المنزل، توقّفوا عن إطلاق النار. حلك الظلام، وهمدت النيران فاغتنمنا الفرصةَ للتراجع. وكنّا قد رجعنا حوالي عشرة أمتار إلى خمسة عشر، حينَ عادَ الروس لإطلاق النار؛ فانبطحنا، وتقلّبنا باتجاه الحفر. تبادلنا النظرات وأخذنا نفسًا عميقًا.

وفيما كان رفاقنا الشهداء مطروحين أرضًا إلى جانبنا، أطلقنا نيران

(١) الـ «بي كاي» هو مدفع رشاش سوفياتي ٧,٦٢ مم يزن حوالى ١٦ كلغ. ويصل مداه إلى ١٠٠٠ متر.

(٢) نازار محمد (من قبيلة البلوش) يتحدّر من سانجيزار. وكان صغيرًا جدًا، تكاد لحيته تنمو، حين بدأ الهجوم، الذي قُتِل فيه. (راجع الفصل الرابع).

(٣) الروشانداز هي مشاعل تستخدم لإنارة الأرض ليلًا ومعروفة أيضًا باسم روكسانا (راجع الفصل الثالث).

(٤) الملّا نصراللّه (من قبيلة أشكيزاي) يتحدّر من نلغام. خسر رجليْه الاثنتين في الجهاد. كان يُعالج في ألمانيا لكنه توفي بعد وقت قصير من وصوله إلى هناك.

الكلاشنيكوفات. وكان الروس لا يزالون هم أيضًا يطلقون النار ويقتربون منّا. لم يتبقَّ لنا سوى علبة ذخائر واحدة للكلاشنيكوف، وأخرى للآر. بي. جي. لاحظتُ الدبّابات تمرّ بين المنازل، فوجّهت الآر.بي.جي نحوها. ارتفع الدخان، وارتفعت معه شهب النار؛ فتوقّف الروس عن الإطلاق. هربنا من مواقعنا مبتعدين قدر المستطاع عن مواقع الكمين. لم نعلم ما حدث للجرّار الزراعي، وللناس الذين اختبأوا خلفه. وبعد مئتي متر تقريبًا، وقعت أرضًا؛ فقد كنت أنزف كثيرًا، ولم أستطع الابتعاد أكثر.

التفتَ إلى الملّا نصراللّه، وقلت له إنّني لا أستطيع المضي أكثر؛ وليس عليه أن يُخاطرَ ويأخذني إلى مكان آمن. طلبت إليه أن يترك معي كلاشنيكوفًا ويركض مسرعًا؛ فأبقى في الخلف أقاتلُ الروس حتّى الرمق الآخير؛ وأموتُ شهيدًا. بدأت من فوري أشرح له أنّني لن أستسلمَ للروس، حين رفعني من خصري، وحملني على كتفه؛ والكلاشنيكوف بيده الأخرى. بدا الزمن واقفًا وأنا أتدلّى عن كتف الملّا نصراللّه. حين وصلنا إلى الجرّار الزراعي، وجدنا المحرّك لا يزال شاغلًا؛ لكنّ السائق والمجاهدين الآخرين كانوا قد غادروا المكان.

لم يكن الملّا نصراللّه يعلم كيف يقود الجرّار، فطلبت إليه أن يضعني على كرسي السائق. وحين وضعني، راح الروس، الذين كانوا يُلاحقوننا، يُطلقون النّار. فأعمانا ضوء نيران الأسلحة؛ لكنّ قدرة اللّه هي التي ساعدتني على قيادة الجرّار والفرار. توقّفت لأصطحب من كان هاربًا من الروس. وحين وصلنا إلى قناة السلطان محمد، خارت قواي ولم يكن باستطاعتي تحريك أيّ عضلة من عضلات جسمي. فتولّى شخصٌ آخر قيادة الجرّار، حتى وصلنا فجرًا إلى قرية الحاجي حبيب. وفورَ وصولنا، قال لنا القرويّون إنّ الروس سيلحقوننا، وإننا لم نعد نملك الكثير من الوقت حتى يصلوا. فمضى بنا سكّان القرية إلى خربةٍ خارجَ القرية، حيث أنزلنا ذخائرنا، واختبأنا طوال النهار وتمّ إرسال الجرّار الزراعي إلى القرية. كما أتى طبيبٌ ليُداويَ جراحي، وذرقني حقنةً منعًا لحدوث أيّ التهاب. وقُبَيْل الظهيرة، راحت المروحيّات تحلّقُ فوقنا، واستطعنا رؤية الدبّابات تأخذ مكانها.

مضى الروس إلى القرية، وفتّشوها منزلًا منزلًا. فيما كانت دباباتهم تتحرّك باتّجاه الخربة من الغرب ومن الشمال. توقّفوا على بضعة أمتارٍ من مكان اختبائنا. كان الجميع متأهّبين للقتال، مهيّئين أسلحة الآر.بي.جي. حاولت أن أتنقّل وأهيّئ نفسي للقتال؛ لكنّني شعرت بالدوران، ولم يكن باستطاعتي رؤية شيء وفقدت بعدها وعيي. كان قد مالَ النهار يشارف على نهايته حين استيقظت؛ فسألت المجاهدين الذين كانوا بقربي عمّا حدث للدبّابات. فقالوا إنّها لم تقترب أكثر، بل ظلت مكانها لساعتين من الوقت، وغادرت من بعدها. وحين حلّ الليل، عادَ الجرّار من القرية، فحمّل المجاهدون الذخائرَ، ووضعوني في العربة.

وجدوا سائقًا آخر، وغادرنا قرية الحاجي حبيب، متّجهين نحو مخيّم القائد عبد الرازق، ووصلنا هنالك مساءً. لم يقوَ الجرّار الزراعي على الصعود باتّجاه بوّابة المخيّم؛ فترجّل منه المجاهدون وبقيت أنا. لكن سرعان ما راح الجرّار يتراجع نزولًا؛ فاضطرّ السائقُ إلى القفز خارجه وبقيت فيه إلى أن انقلب وطرت في الهواء، فهرع الآخرون لإنقاذي. كنت أرى كلّ ما يحدث؛ لكنّني لم أستطع التحرُّك. فأعادوني إلى أفغانستان، بعد مرور ثمانية أيّامٍ على رحيلي.

٥

صورٌ مريرة

في خضمّ الحرب، تمركز ما يزيد على مئة ألف جندي في أفغانستان[١]، ونزح ما يقارب مليون مدني إلى البلدان المجاورة، واستشهد حوالي مليون مجاهد[٢]. تميّزت أعوام الحرب الأخيرة[٣] بتصاعد حدّة الوحشية التي يمارسها السوفيات والقوات الأفغانية ضد المجاهدين، من قصف جوي ومعارك ساحقة.

كانت الحرب مسألة حياة أو موت. ولم يكن يفصل بين الاثنين سوى خيط الحظ. علقتُ تسع مرّات في الكمائن الروسية، وأنا أحارب، أو أتنقّل ذهابًا وإيابًا إلى الباكستان. انتشلني اللّه من براثن الموت المحتّم ثماني مرّات، وتعرّضت للإصابة مرّة واحدة. انفجرت بي إحدى القنابل مرّة في خوشاب على مقربة من موقع تمّ تمشيطه بالرّصاص بعد ثوانٍ قليلة. قُتل اثنان من أصدقائي في قذف بالهاون في نلغام، ونجوت بأعجوبة: كان الروس قد لغّموا أحد المواقع. ولمّا انفجر اللغم لم أُصب بأي أذى، رغم أنني كنت على بُعدِ أمتارٍ قليلة منه.

---

(١) راجع: Urban, 1990; Maley, 2002.

(٢) أشارت دراسة مرتبطة بعدد الموتى في حرب أفغانستان أنّ بين العام ١٩٧٨ والعام ١٩٨٧، ارتفعت الوفيّات غير الطبيعيّة في أفغانستان إلى ٨٧٦,٨٢٥ (Khalidi, 1991). وفي العام ١٩٩٥، قدّرت منظّمة الأمم المتّحدة أنّ عدد الأشخاص ذوي الإعاقة الجسديّة يصل إلى قرابة المليون ونصف المليون (WHO, 1995).

(٣) منحت الولايات المتّحدة في العام ١٩٨٥ المجاهدين ٢٥٠ مليون دولار بقدر كلّ سنوات التمويل السابقة منذ العام ١٩٨٠. وبين العام ١٩٨٠ والعام ١٩٩٢، منحت الولايات المتّحدة المجاهدين مجموع مليارين إلى ثلاثة مليارات دولار وقد قدّم المتبرّعون العرب تقريبًا المبلغ عينه (Coll, 2004: 102).

كنت في الخامسة عشرة، يوم انضممت إلى الجهاد للمرة الأولى، ولم أكن أعرف كيف أستخدم رشاش كلاشنيكوف، أو كيف أقود مجموعة من الرجال. لم أكن أعرف شيئًا عن الحرب. لكنّ الجبهات الروسية شكّلت ميدان تدريب قاسٍ تعلّمت فيه؛ فتولّيت، في مرّات عدّة، قيادة مجموعات في أباسباد ومهالجات وأرغنداب وخوشاب وسانزاري. وكانت القوّات الروسيّة تطوّقنا أحيانًا، كما حدث مرّة في مهالجات[1]. أوقع بنا الروس، وقطعوا المنفذ الوحيد بحزام أمني، وهم يطوّقوننا من الجبال ومن صحراء صوفي صاحب. لم يكن أمامنا مفرّ، ولم نكن نشكّلُ عددًا كبيرًا لخرق صفوفهم وفكّ الحصار. وبالرغم من أن قسمًا كبيرًا من قواتهم البرية تحرّك من بانا إلى ووكانو، فإننا واجهنا صعوبة بالغة للصمود في مواقعنا. لم نكن بعيدين عن جبهات المجاهدين في بانجواي وناخوناي وزالاخان، الذين كانوا قادرين على مدّنا بالعون. لكننا لم نكن نملك وسيلة للاتصال بهم، وشارفت ذخيرتنا على النفاد. كان الوقت يداهمنا، وقُتلَ تسعة مجاهدين من مجموعتي، وعشرة من مجموعات أخرى.

تفاقم الوضع، وبات من الواضح أنّنا لن نستطيع الصمود أكثر من دون الدعم والمؤن. كنّا بأمسّ الحاجة إلى المساعدة؛ فقرّرت، بالتشاور مع الملّا محمد صديق، أن أتسلّل إلى خطوط الجبهة، للخروج وطلب النجدة. كان لدي معارف في أوساط مجاهدي بانجواي. وهذا ما سوف يمكّنني من الحصول على الدعم الضروري. فأجمع قوّة عسكريّة وأعود بها لمهاجمة الطوق الروسي من الخلف؛ فأفتح ممرًّا لإخراج المجاهدين الجرحى.

ولكن ما السّبيل إلى الخروج؟ كان الحلّ الوحيد العبور مباشرةً من خلال الخطوط الروسية. تقرّر أن أذهب بمرافقة أحد أهالي القرى، وأدّعي أنني مزارعٌ في إحدى القرى المجاورة، فتّشني رفاقي بحثًا عن أيّة علامة قد تشير إلى كوني

(١) مهالجات هي منطقة مرتبطة بمدينة قندهار وقد تنافس عليها المجاهدون خلال الحرب. وكانت الحقول المزروعة وخيم الزبيب المجفّف بمثابة تضاريس ممتازة لمواجهة منخفضة إلى متوسطة الشدة.

مجاهدًا مقاتلًا، وأخذوها منّي. وافق أحد القرويّين أن ينقلني على درّاجته النارية لتخطّي الجبهة الروسيّة. وعندما وصلنا إلى ساربوزا[1] من شيلزينا[2]، خرج أحد الجنود الأفغان إلى وسط الطّريق، وشهر رشّاشه الحربي في وجوهنا.

صرخ الجندي عن مسافة ليست بقريبة «أهلًا بالأشرار[3]! لقد شاهدتك في البلدة حيث كان رفاقك يعملون على إعدادك». حاولت أن أشرح له أننا مدنيّون «انظر! هذه منازلنا»، وأنا أشيرُ إلى بعض المنازل أمامنا في الطريق. وأضفت: «نحن متوجّهون إلى ميرويس مينا، ولسنا نفهم عمّا تتكلم». بدا الجندي مرتبكًا، وأمرنا بالتّرجل عن الدرّاجة.

طعن ذراعي بقلمه، من دون أي إنذار، وراح يفتّشني. انكسر القلم وعلق قسم منه في ذراعي. سال الدم خارج الجرح، وتحوّل لون كمّي شيئًا فشيئًا إلى القرمزي الدّاكن. فتّشني بالكامل، ويعثر على شيء. أقسم السائق أنني أسكن في بلدته منذ زمن طويل. شعرت بالألم في ذراعي، وأمكنني رؤية رأس القلم داخل الجرح. كرّرت روايتي للجندي: أنني أسكن في بلدة غاني، ومنزلي هناك، وأن لا علاقة لي بالمجاهدين، فأنا مجرّد مزارع بسيط.

حين أطلق الجندي سراحنا، ركبنا الدرّاجة وانطلقنا. أخبرني لمّا ابتعدنا قليلا أن هذا الجندي يدعى بسم اللّه[4]، وأنّه معروف بوحشيّته. أخبرني أيضًا، على الرغم من ضجيج المحرّك، أن «الأشهر الماضية، شهدت مقتل ثلاثة وخمسين شخصًا برصاص أُطلقَ عليهم من الخلف»، وكان بسم اللّه هو المسؤول عن معظم تلك الحوادث.

---

(١) منطقة في غرب مدينة قندهار وفيها السجن الأساسي.

(٢) تعني كلمة شيلزينا حرفيًّا أربعين درجة وهي معلم تاريخي يعود إلى أوائل القرن السادس عشر حين غزا الأمبراطور المغولي بابور مدينة قندهار. تتألّف من غرفة صخريّة في أعلى الأربعين درجة وهي ملك أمبراطوريّة بابور.

(٣) «أشرار» هي كلمة يستخدمها الأفغان الشيوعيّون والسوفيات للدلالة على المجاهدين. وهي تعني حرفيًّا الأشخاص الذين يُسبّبون الفوضى.

(٤) بسم اللّه كان معروفاً بقسوته في ذلك الوقت، ولا تزال سمعته ترافقه حتى يومنا هذا في قندهار.

وصلنا بسلام إلى بانجاو والي، لكنني أذكر جيِّدًا شعور التوتّر الذي رافقني طوال الرحلة. لم نتعرّض إلى أيّ إطلاق نار. في جندرما[1]، شاهدنا المزيد من الجنود. فسلكنا طريقًا أطول لتجنّبهم. وصلت في اليوم نفسه إلى بلدة ميرويس نيكا في بانجواي، وكانت هي محطّتي الأخيرة. استغرق جمع المجاهدين ثلاثة أيام، وتمكّنت من استنفار ما يزيد على مئتي عنصر. في الليلة الثالثة، انطلقنا باتجاه زالاخان وتوجّهنا إلى أنغوريان وتيموريان. اقتربنا إلى صفوف العدو من ناحية الخلف، وشققنا طريقنا باتجاه الملّا محمد صديق، فهاجمنا مواقع حكومية عدّة؛ وخرقنا الطوق الذي فرضه الروس. بهذه الطّريقة، انقسمت القوات الحكومية الأفغانية وحلفاؤها الروس إلى مجموعتين. ألقى كثيرٌ من جنود العدو أسلحتهم، تحت وقع الصّدمة، ولاذوا بالفرار. تمكّنا من تأمين معبر آمن وسط الفوضى الدائرة، فأجلينا المجاهدين الجرحى وأخرجنا جثامين الشهداء. أثار هذا الهجوم الرعب في قلوب الأعداء؛ فتراجعوا وأنهوا الحصار على قارش.

▲▼▲

وقُبَيل انسحاب الروس من أفغانستان، قاموا بعمليّات في بانجواي ومايواند وداند وأرغنداب. كانت تلك محاولاتهم الأخيرة ليستعيدوا السيطرة على المحافظة؛ لكنّهم باؤوا بالفشل. حاول الرّوس، للمرّة الأخيرة دخولَ سانجيسار في محافظة بانجواي؛ لكنّ مجاهدي المنطقة اتّحدوا، وشكّلوا جبهة دفاعٍ واحدة لمواجهة الروس. كان خطّ الدفاع الأوّل والمعروف هو خطّ حفيظ اللّه آخوندزاده في سانجيسار، الذي تولّى قيادة مجاهدين أقوياء وذوي خبرة. وكان خطّ الدفاع الثاني خطًا جديدًا

(١) جندرما (من المصطلح الفرنسي Gendarmes) مركز للشرطة قرب ميرويس مينا (غرب قندهار)، تتألف من أربع أو خمس غرف فقط. تم إقفالها عندما استلمت «طالبان» السلطة، لكن حكومة كرزاي أعادت بناءها عام ٢٠٠١.

بقيادة المقدّم الراحل عبد الحي[١]. وانضمّت إلينا مجموعات أخرى صغيرة من المجاهدين.

واجهنا المدافع وقذائف المدافع ونيرانها وقصف أسلحة أخرى لثلاثة أيّام. حلّقت الطائرات في السماء، وهزّت مقذوفاتهم الأرض زارعةً الرعب في قلوبنا. اجتاحت الدبّابات بانجواي ولحقتها من ثمّ القوّات الأرضيّة. وعلى الرغم من قوّتهم الهائلة، واجه الروس وحلفاؤهم الأفغان مقاومةً قويّة. وبعدَ خمسة أيّام تقريبًا، أحاط الروس بمواقعنا من طريق نلغام، حتّى التلّة وكولك. وقُطعت الطرقات مرّة أخرى؛ فلم نتمكّن من الحصول على إمداداتٍ، ولم نستطع إخراج المصابين والشهداء.

نفد الطعام منّا، وبقي الخبز والتمر. حاولَ المولوي صاحب دنغر[٢] وهو المسؤول عن الأمور اللوجستيّة بين المجاهدين، أن يُمدّد استخدام موادّنا الاحتياطيّة القليلة قدرَ المستطاع؛ فكنّا نتلقّى ثلاث حبّات بلحٍ في الوجبة الواحدة. وفي كلّ يوم، يُسيطر الروس على أرض جديدة. رحنا نحن نحضّرُ لقتال عن مسافة قريبة فحفرنا خنادقَ خارج المنازل التي نمنا فيها. ثمّ نظّمنا أنفسنا في مجموعة جديدة قادها الملّا معز اللّه آخوند[٣] رحمة اللّه عليه. وكنّا ندعو قائدَيْنا خان عبد الحكيم[٤] وكرم خان «بالتوأمين». كان قائدُنا نحن كرم خان، أمّا قائد جبهة حافظ اللّه رحمه اللّه، فكان آخوندزاده خان عبد الحكيم. إنهما رجلان

(١) قُتل الرئيس عبد الحي (المعروف أيضا باسم توران عبد الحي أو لوي توران صاحب) في زانجياباد عام ١٩٨١. هو من قبيلة نورزاي وكان قد خاض في البداية معركة مع حزب حكمتيار الإسلامي ثم التحق في وقت لاحق بحزب الاتّحاد الاسلامي للسيّاف وكان شقيق نجيب اللّه.

(٢) كان مولوي صاحب دنغر من قبيلة نورزاي وقُتِل قبل انتهاء الجهاد. كان مسؤولًا عن كل الأمور الماليّة واللوجستيّة وعمل جنباً إلى جنب مع المولوي فيض اللّه آخوندزاده.

(٣) الملّا معز اللّه آخوند (من قبيلة نورزاي) يتحدّر في الأصل من ده راود (أوروزغان). وقُتِل في وقت لاحق مع الملّا باشا آخوند في شابيغا على أيدي الروس.

(٤) خان عبد الحكيم (من قبيلة نورزاي) قاتلَ جنباً إلى جنب مع المولوي فيض اللّه آخوندزاده.

بارعًا يمتلكان حسًّا تكتيكيًا رائعًا. ترأس الملّا محمد عمر آخوند[1]، الذي أصبح فيما بعد قائد حركة طالبان، جبهاتنا في الشمال. أما الملّا محمد عمر آخوند، والملّا معز الله، والملّا فدى محمد[2]، والملا عُبيد الله آخوند[3]، فهم القادة الأساسيون في معركة سانجيسار.

تابع الروس التقدّم: فأصبح بإمكاننا رؤيتهم من خنادقنا. ومع حلول بعد الظهر، باتوا يبعدون عنا مئة متر تقريبًا. كانت المعركة سريعةً؛ لكنّ القتال العنيف جعلَ ساحة المعركة مليئة بالجثث. حملنا رشّاشيْن من نوع بيكا وأسلحة خفيفة عدّة. أخذ خان محمد رشّاشًا والملّا محمد عمر آخوند الرشّاش الآخر. وتحوّلت المعركة إلى قتال جنبًا إلى جنب. وتطايرت القنابلُ فوق رؤوسنا. وتوصّل بعض المجاهدين إلى تحويل القنابل ورميها بالاتّجاه المعاكس. لكنّ أحدهم استُشهدَ، إذ انفجرت القنبلة بين يديه. تراجع الرّوس وبدأوا بقصف مواقعنا. وهزّت الانفجارات الأرض تحت أقدامنا، وعبق الهواء برائحة البارود، وملأ الدخان والغبار الأجواء. قصفت القوّات الجويّة مواقعنا فدُكّت المنازل والخنادق. واستُشهدَ أربعة مجاهدين وجُرحَ أربعة آخرون.

---

(١) وُلد الملّا محمد عمر (من قبيلة هوتاكي غيلزاي) في محافظة أورزوغان عام ١٩٦٢ تقريبًا. حارب مع حزب الحركة خلال الجهاد في الثمانينيّات واختير في نهاية المطاف كزعيم للطالبان، الحركة التي ظهرت في العام ١٩٩٤. يُعتقدُ أنّه على قيد الحياة إمّا في الباكستان وإمّا في أفغانستان.

(٢) الملّا فدى محمد (من قبيلة نورزاي) يتحدّر في الأصل من مدينة قندهار. كان قد خاض في البدء معركة مع حزب الحركة وبعد ذلك مثل الكثير من المجاهدين الآخرين التحق بحزب الاتّحاد لسيّاف. استشهد قرب هيرازي في الثمانينيّات.

(٣) الملّا عبيد الله آخوند (من قبيلة أليكوزاي) يتحدّر في الأصل من نلغام وكان معروفًا كونه مقاتلًا قويًّا وطبعه هادئ ويُمكن أن يكون قد وُلد في العام ١٩٦٨. كما شغل منصب وزير الدفاع خلال حكم طالبان. وخلال الجهاد في الثمانينيّات كان أمير جبهة الملّا محمد صادق آخوند. وعندما غادر كرم خان الجبهة، أخذ الملّا عبيد الله مكانه كقائد، ويحتمل أنه لا يزال على قيد الحياة. وهو واحد من كبار قادة حركة طالبان العاملين في الباكستان على الرغم من وجود تقارير موثوقة تشير إلى إلقاء القبض عليه في ٢٦ شباط/فبراير ٢٠٠٨ وأنه لا يزال في سجن باكستانيّ.

أصابت قنبلةٌ يد الملّا نجيب اللّه[1]؛ كما أنه فقد السمع. وتطايرت الشظايا والحجارة والخشب في الهواء. كان الملّا محمد عمر يبعدُ عنّي حوالي العشرين مترًا؛ فأصابه حجرٌ واقتلع عينَه. وسرعان ما امتلأت الغرف جميعُها بالمصابين. لكن أحدًا لم يفقد رباطة جأشه.

تذكّرنا جثث الشهداء، وهي ممدّدة على الأرض، بالمعركة الطاحنة التي تدور في الخارج. شغلَ الملّا محمد عمر نفسه بتضميد عينه. وفي تلك الليلة بالذات، أقمنا حفلةً رائعة. غنّى الملّا مرجان[2] رحمة اللّه عليه. ورافقنا صوتَه الحنون، ونحن نقرع على كل ما يقع بين يدينا. إنّني أذكر حتّى اليوم، الغزل الذي غنّاه الملّا محمد عمر آخوند:

لا دواءَ لدائي، كم هي قاسيةٌ الحياة بعدَك يا صديقي،
كـالـزهـرة كـنـتَ يـا صـديـقـي.. كـالـزَهـرة كنت.

استطاع الملّا نجيب اللّه أن يرفَهَ عنّا، على الرغم من إصابته. كنّا نحاول أن نكلّمه، ولكنّه لم يستطع سماعَ أيّ كلمة. كذلك أُصيبَ خان عبد الحكيم بقنبلةٍ، وهو قائد الجبهة الأخرى. الحمد للّه! كنّا نحن المجاهدين أشبه بإخوة! لم نقلق بشأن العالم، ولم نأبه لحياتنا؛ كانت نياتنا صافيةً، وعلى استعدادٍ للشهادة. وحين أنظرُ إلى الحبّ الذي جمعنا، أشعرُ وكأنّه حلمٌ بعيد. في اليوم التالي، غادرنا باتّجاه زانجياباد وإلى سيا شوي. استرحنا ليومين، فيما قوّات الحكومة والقوّات الروسيّة تتمركزان في باشمول.

بعث إلينا المجاهدون في باشمول برسالة استغاثة، فنهضنا من فورنا لنصرتهم.

---

(١) كان الملّا نجيب اللّه (من قبيل أشكيزاي) هو من بندي تامور (في مقاطعة مايواند في محافظة قندهار). وكان قد فقد سمعه لفترة مؤقتة في أحد الهجومات وقد يكون لا يزال على قيد الحياة ويواصل عمله كرجل دين في جنوب أفغانستان حتى يومنا هذا.

(٢) الملّا مرجان (من قبيلة أشكيزاي) يتحدّر في الأصل من دي ميرازاي (في بانجواي). كان يبلغ حوالي ٣٢ سنة في العام ١٩٨٧ وقد قيل إنه قتل في مهالجات خلال أواخر الثمانينيّات وعُرف بصوته الجميل في الغناء.

حمل الملّا عمر رشّاشه الحربي، وجهّز نفسه لمرافقتنا إلى باشمول، لكننا طالبناه بإصرار أن يمكث حيث هو. تجادل قليلًا مع الملّا الراحل معز اللّه؛ لكنّه اقتنع في النّهاية بعدم المجيء معنا. رحل الملّا عمر إلى نلغام، ومنها إلى الباكستان، لتلقّي العلاج. عادت المواجهات لتندلع في سانغيسار نلغام وفي النهر، وفي باشمول. تمكن العدو من تجميد حركتنا لثلاثة أيّام، قبل أن تضطرّهم الخسائر الفادحة إلى الانسحاب. روّت الدّماء المسفوكة كلّ شبر من الأرض المتنازع عليها. وانتقلت قوّات العدو لتتمركز في مهالجات، وسوف زالاخان وماشور. تمكّن هؤلاء من الصّمود بوجه الرّوس بفضل الدّعم الخارجي.

كان حصار أرغنداب[1] أكبر عمليّة شنّتها القوات الروسية في جنوب أفغانستان.

اتّجهت حوالي أربعة آلاف دبّابة عبر الجبال إلى الوادي الأخضر الخصيب، ودام القتال خمسة أسابيع. أتى المجاهدون من كلّ أنحاء الجنوب لحماية الإقليم في وجه الهجوم الرّوسي، واستشهد المئات. خسرنا سبعين مقاتلًا على جبهتنا وحدها. حارب الطّالبان جنبًا إلى جنب مع قبيلة اليكوزاي التي يقودها الملّا نقيب[2]. وفي النهاية تراجع الروس وسحبوا قوّاتهم إلى القاعدة الأساسية في المطار، وأبقوا على بعض نقاط التّفتيش على الطّرق الرئيسية والسّريعة الممتدّة من المخيّم إلى المطار. وقامت مروحيّاتهم بطلعات استطلاعيّة روتينيّة. وتمّ تفتيش جميع السيّارات المارّة في الليل والتي تعرّضت أحيانًا لإطلاق نار. وقام الرّوس بنصب الكمائن على طرقات التهريب الأساسيّة في الجبال الوعرة التي غالبًا ما كان يسلكها المجاهدون للتنقّل بين أفغانستان والباكستان.

هاجمنا هذه الحواجز الواحد تلو الأخرى وأجبرنا الرّوس على التّراجع تدريجيًّا؛

(١) لمعرفة المزيد عن حصار أرغنداب ومشاركة الملّا نقيب، راجع: Anderson, 2003: 151 - 82.

(٢) يُعرف الملّا نقيب وقبيلته أليكوزاي على نطاق واسع لمشاركتهم في الجهاد ولاسيما في منطقة أرغنداب. ويتمتّع مقاتلو قبيلة أليكوزاي بسمعة جيدة لصلابتهم وشجاعتهم ولكن طغت على هذه السمعة القسوة والإجرام.

فتحوّلت بعض أجزاء المنطقة إلى سيطرة طالبان. استمرّ الروس يهاجموننا من بعيد بالطائرات والمدفعيّة الثّقيلة، بينما انشغلنا نحن بتوسيع نظامنا القضائي. كان عمل المحاكم جيّدًا، وعملت على حلّ المشكلات القائمة بين الجماعات.

كان الملّا نك محمّد آخوند[1] وجهًا وطنيًّا بارزًا في تلك المرحلة. هو أحد أصدقاء الملّا محمّد عمر المقرّبين، خدم بشكل أساسي في منطقة واقعة قرب طريق باشمول، حيث جاهد على طريقته الخاصّة ضدّ الروس. كان يختبئ في مجرى المياه الموازي للطّريق، ويتنفّس الهواء المُخزّن في إطار درّاجةٍ ينزله معه إلى الماء، ويقصف من هناك أرتال الدبابات بقذائف الآر.بي.جي.

كره الرّوس ذلك الجزء من الطّريق، وكلّفوا سلاحهم الجوي بالقضاء على الملّا آخوند. وبالفعل تمكّنوا من ذلك. استشهد الملّا في قصف جوّي. ويحكى أنّه أخبر قبل موته أنّ الرّوس لن يجرؤوا على عبور تلك الطّريق حتّى بعد موته. دفن الملّا آخوند بجانب الطّريق، كما أوصى. وبعد ثلاثة أيّام انسحب الرّوس إلى قاعدتهم في صحراء ضراي. ولم يسلكوا تلك الطّريق إطلاقًا بعد ذلك!

▲▼▲

وقعت معارك عدّة كبيرة بين المجاهدين من جهة والرّوس وقوّات النّظام من جهة أخرى. لكنّ أيّا منها لم يكن بشدّة الهجوم الأخير، عام ١٩٨٨، على مطار قندهار الواقع بالقرب من خشاب. وحين قرّرنا شن الهجوم النّهائي، بدأ الرّوس بالعودة إلى قاعدتهم الأساسية، والتحضير للانسحاب. كان فصل الصّيف قد حل، والعنب في الدوالي لم ينضج بعد، في الوقت الّذي جمعنا فيه قوّاتنا. لا شكّ أن تلك كانت أكبر عمليّة عسكريّة أشارك بها، مع حوالي ستمئة من المجاهدين

(١) الملّا نك محمد آخوند (من قبيلة نورزاي أو غيلزاي) يتحدّر في الأصل من ده راود في محافظة أرزكان.

بقيادتي، وقيادة الملّا محمد آخوند[1]. تقدّمت على رأس ثمانية وخمسين مجاهدًا باتّجاه القاعدة من جهة الشّمال الشرقي، بينما هاجم الملّا محمد آخوند، مع سائر المقاتلين، المخيّم من جهة الشّمال. كان الرّوس يُحاربون بشراسة لم نعهدها من قبل. دام القتال ثلاثة أيّام وثلاث ليال. لم آكل فيها ولم أشرب، إذ وقع ذلك في شهر رمضان وأنا صائم. لم تتوقّف المعارك، بل استمرت طوال الليل.

نصحني العلماء أن أكسر صيامي، لكنّني كنت خائفًا من الموت في أي لحظة تحت وابل القنابل والقذائف المنهمرة علينا. ولم أشأ الاستشهاد وأنا لست صائمًا. في ثلاثة أيّام فقط، خسرت خمسين رجلًا من أصل ثمانية وخمسين، ودخل خمسون آخرون المعركة تحت قيادتي. هاجمنا أيضًا رجال دوستم[2] والقوّات الحكومية التابعة له. لم أشهد في حياتي كلّها معركة بضراوة الهجوم على خوشاب وخطورته وقساوته. واجهنا عددًا هائلًا من الأعداء، وكنّا قريبين جدًّا من المطار. راحوا يُلقون علينا أسهمًا وغمر طوفان من الجنود والحرب الأرض. أقبلت مجموعات المجاهدين من كلّ المنطقة، وتوسّعت العمليات العسكرية، وباتت تدور يوميًّا؛ فقُصفت البيوت، وقُتل السّكان، وتحوّلت الأراضي خرابًا.

تشتّتت قوّات النّظام والرّوس على جبهات عدّة. فعلى جبهة مهالجات، هجم عددٌ كبير من المجاهدين، ومن بينهم قادة كبار ومحاربون أقوياء، حاربوا

---

(١) كان الملّا محمد آخوند (من قبيلة أشكيزاي) قائدًا عسكريًا بارزًا خدم أيضاً مع طالبان بعد العام ١٩٩٤، ولكنّه قُتل في وقت لاحق في شوراب بُعيد محاولة إسماعيل خان لابعاد طالبان من هرات وردّهم إلى الجنوب. وكان الملّا محمد صديقاً مقرباً من لالا مالانج.

(٢) عبد الرشيد دوستم هو قائد من أوزبك سيئ السمعة لتبديل موقفه مرات عدّة خلال الحرب في أفغانستان. قاد خلال الثمانينيّات ميليشيا معظمها من قبيلة الأوزبك، وقاتلوا السوفيات إلا أنهم غيّروا موقفهم وتولّوا منصبًا في حكومة المجاهدين. وكانت ميليشياته الأكثر شهرة وطالما خشيتها القوات المسلحة الأفغانية في الثمانينيّات. وهو لا يزال يلعب دورًا بارزًا في الحياة السياسية الأفغانية سواء في كابول أو في الشمال.

جميعًا جنبًا إلى جنب، أذكر على سبيل المثال الملّا نور الدّين ترابي[١]، والملّا الرّاحل أحمد اللّه آخوند[٢]، والملّا عبد الغني آخوند[٣]، وغني خان آغا، وكثيرين سواهم. كلّفتنا المعارك الأخيرة ضدّ الروس غاليًا. في النهاية، أذكر منزلًا استشهد فيه عشرة مجاهدين. وكانت جثثهم متراصفة أرضًا. أتى الحاجي لطيف آخوند[٤]، المعروف في الصّحافة الغربية بلقب «أسد قندهار»، في اليوم نفسه، لتأبين الشّهداء.

كانت جثث الشّهداء مطروحة أرضًا كالخراف؛ فانهمرت الدموع على وجهه. وهو الذي كان يقود في ذلك الوقت الجبهة المشتركة. خاطب الحاجي لطيف الملّا برجان[٥] قائلًا: «ملّا صاحب! فلتخفِ اللّه! لا يجدرُ بك أن تضَحيَ بشبابنا في طالبان من أجل الروس»؟ أجابه الملّا برجان قائلًا: «الحاجي صاحب! ليس لدينا خيار آخر. إن لم نجاهد فسوف يستولي الروس على أرضنا. وإن جاهدنا فلا بدّ أن نقدّمَ شهداءً وخسائرَ». ولكنّ الحاجي لطيف لم يقتنع؛ فقال: «الملّا

---

(١) الملّا نور الدين ترابي (من قبيلة أشكيزاي) يتحدّر في الأصل من تيرين كوت (محافظة أورزغان) وقاتل مع حزب الحركة، والتحق في وقت لاحق بحزب الاتّحاد للسياف خلال الجهاد في الثمانينيّات. وقاد المئات من المقاتلين وعُيّن في وقت لاحق وزير العدل في عهد طالبان. ويمكن أن يكون لا يزال على قيد الحياة.

(٢) الملّا أحمد اللّه آخوند (من قبيلة كاكار) يتحدّر في الأصل من غوش خانا (في منطقة مهالجات في قندهار). شغل منصب مساعد الملّا غاوس، أحد أقوى القادة للقائد عبد الرازق. قُتِل في وقت لاحق قرب مطار قندهار.

(٣) كان الملّا عبد الغني آخوند (من قبيلة تراقي) قائدًا يتحدّر أصلًا من مدينة قندهار. ذاعَ صيته لاغتياله عناصر من الجيش الروسي وكان في الواقع أول من يقوم بذلك. وأصبحَ في وقت لاحق أميرًا في جبهته في محافظة قندهار ويمكن أنه لا يزال على قيد الحياة.

(٤) الحاجي لطيف (من قبيلة براكزاي) كان أحد أبرز الأسماء في جهاد الثمانينيّات في قندهار. هو والد غول آغا شيرزاي، الحاكم الحالي لننغرهار. وقد عُرف جيّدًا لقتاله في مهالجات في قندهار. لقد سُمّم الحاجي لطيف في ٨ آب/أغسطس عام ١٩٨٩، وقد حارب مع حزب معاذ الميلي للجيلاني.

(٥) الملّا برجان (من قبيلة كاكار) يتحدّر أصلًا من قرية تالوكان في محافظة بانجواي في ولاية قندهار. كان قائدًا بارزًا قاتلَ مع حزب حركات في جهاد الثمانينيّات ولكنّه قُتلَ في العام ١٩٩٦ بعدَ أن استولت حركة طالبان على كابول. وهناك شائعات كثيرة حول هُويّة قاتليه وغالبًا ما تدور حول تورّط المخابرات الباكستانيّة.

صاحب! لم أقل يجب ألّا نجاهد؛ لكنّني خائفٌ على طالبان وعلى العلامة؛ فهم نبضُ قلب وطننا الروحي، وعلينا حمايتهم. ومعظم المقاتلين في جبهتي يدخّنون الحشيشة، ولا يحلقون شعورهم، ولا يعرفون إلّا القليل عن الإسلام. وإن سمحت لهم، فهم مستعدّون للجهاد. فإن أبقيناهم هنا، فلن يدخلوا قوّات الحكومة. وإن قُتلوا هنا، فهم شهداء، وسيدخلون الجنّة. أمّا طالبان فلها دور أكبر في المجتمع».

واجتمع، لاحقًا، الحاجي لطيف بطالبان في لقاء للقادة بنلغام. وقد وصل الحاجي لطيف إلى الاجتماع بمرافقة شباب قذري المنظر، يدخّنون الحشيشة. كانوا شبّانًا في لباسٍ غربيّ، يحملون أسلحة الكالاكوف على أكتافهم. وكان الفرق بينهم وبين طالبان واضحًا وجليًّا. وقفوا خارج بابنا لشعورهم المشبّبة المصفّفة إلى الوراء. وسرعان ما تجمّع طالبان من حولهم، يحدّقون إليهم بدل من أن يُحسنوا استضافتهم.

وقد أبدى الحاجي ملّا علي محمد آخوند[1] قلقه من أولئك الشبّان الذين جمعهم الحاجي لطيف حوله، لأنهم يدخّنون الحشيشة؛ وأشكالهم تبدو كأشكال «صبية السينما»[2]؛ فخجل الحاجي لطيف، وقطع وعدًا بأن يأمرَ رجاله أن يحلقوا شعورهم. كما قالَ أنّه سيُعلّمهم سورة ياسين وتبارك وعمّ[3]؛ وتعهّد بكلّ إخلاص قائلًا: «سأجعلهم مثل طالبان». وحالما غادرَ الاجتماع، راحَ يعلّمُ رجالَه. ولكنّنا

(١) عُرف الحاجي ملّا علي محمد آخوند بالحاجي عمّار صاحب (من قبيلة أشكيزاي) وكان قائدًا (مع حزب الحركة) في جبهة للطالبان في زلخان خلال جهاد الثمانينيّات وكان رجلًا تقيًّا. وبعدَ أن تولّت حركة طالبان الحكم في أواخر التسعينيّات، تولّى منصب القنصل على معبر شامان. يمكن أن يكون لا يزال حيًّا.

(٢) يُعتبر أمرًا مخزيًا حتّى يومنا هذا أن يُدعى أحد ما «صبيّ السينما». فهذا التعبير قد يعني «رجل عصابة» أو «صبيّ عصابات» أو «جاهلًا».

(٣) كانت هناك عادة في الخطوط الأمامية للطالبان وهي قراءة سورة ياسين بعد صلاة الفجر وسورة النبأ بعد صلاة العصر، وسورة تبارك بعد صلاة العشاء. وكان طالب يقرأ السورة ويستمع الآخرون إليه.

سمعنا أن امرأة زارته وسألته: «ماذا تفعل الحاجي بابا[1]؟» فأجابها بأنه يريد أن يجعلَ رجاله كطالبان؛ فقالت له: «ولكن الحاجي صاحبَ! لن يُصبحوا من طالبان بهذه الطريقة. دعْهم، فهم يافعون، ولديهم رغباتهم. وفضلًا عن ذلك لم يتبقَّ لهم سوى يومين فدعْهم يمضونهما بسعادة». استطاعت هذه المرأة أن تجعلَ الحاجي لطيف يرجع عن قراره. والله أعلم!

(١) هو مصطلح الاحترام ويدل على الأقدمية.

٦

الانسحاب

استمرّ صراعنا مع السوفيات عشر سنوات؛ لكننا في النهاية، استطعنا هزيمتهم. أمست الحرب مكلفةً جدًا، وعرفت موسكو أنّها لن تستطيع إطالةَ الاحتلال. وكان المجاهدون قد انتصروا على أرض المعركة، وعلى الصعيد الدولي أيضًا. فمنذ أن بدأت روسيا بإرسال قوّاتها إلى أفغانستان في العام ١٩٧٩، أصدرت الأمم المتّحدة قرارات متتالية تُدين فيها العمليّة على أنها أعمال عنف ضدّ دولة ذات سيادة. وراح الصحافيّون يُسافرون من الباكستان إلى «الضفّة الأخرى» ليشهدوا على القتال. كما تمّ تشكيل مجموعات دعم في الولايات المتّحدة وأوروبا.

قام عدد كبير من الدول الغربيّة بدعم المجاهدين بشكل فعّال منذ بداية المعركة. وفي أواسط الثمانينيات، أصبح واضحًا أنّ الروس يُحاربون في معركة خاسرة؛ ذلك أنّ المجاهدين تمكّنوا من توفير الموارد الماليّة والأسلحة المتطوّرة. كما أدّت عزلة الاتّحاد السوفياتي إلى تزايد الضغط الداخلي على المواطنين والمحاربين القُدامى.

ونتيجة لكلّ تلك الأمور، أعلن الاتّحاد السوفياتي قرارَ انسحابه من أفغانستان في العام ١٩٨٨ كجزء من اتفاقيات جنيف، وتحت رعاية الأمم المتّحدة. وتمّ تعيين بابراك كارمال[١] مكان نجيب اللّه[٢]. ولم تتحقّق وعود كارمال بتحويل أفغانستان

---

(١) عيّن بابراك كارمال رئيس أفغانستان بين كانون الأوّل/ ديسمبر ١٩٧٩ وتشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦. وُلد في كابول وتوفّي في موسكو عام ١٩٩٦.

(٢) نجيب اللّه (من قبيلة أحمد زاي) جاءَ بعدَ بابراك كارمال وكان رئيسًا على أفغانستان من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٦ وحتّى نيسان/أبريل ١٩٩٢. وُلد عام ١٩٤٧ في كابول وكان شخصيّة بارزة في الحزب الشيوعي، حزب الشعب الديمقراطي الأفغاني، وعضوًا في فصيلة بارشام. وحين سيطرت حركة طالبان على كابول عام ١٩٩٦، قاموا بتعذيبه وأعدموه وبعدها عرضوا جسده علنًا.

إلى الجمهوريّة السادسة عشرة التابعة للاتّحاد السوفياتي. عيّن الكرملين نجيب الله وحكومة «دمية»، أو عميلة، مؤلّفة من مناصرين لها في كابول. وكان لنجيب الله صلاحيّات أقلّ من تلك التي امتلكها سلفه كما أنّه كان شابًّا. لكن، بصفته رئيسًا سابقًا لجهاز أمن الدولة، كان باستطاعته تأمين صعوده إلى هذا المركز.

في ظلّ تشكيل هذه الحكومة الجديدة، أعلن الروس قرار سحب قوّاتهم من أفغانستان. حين علمتُ لأوّل مرّة بذلك القرار، فرحت جدًّا. وبدا لنا أنّ الجهاد سينتهي، وأننا قد انتصرنا. لم أكن أعلم أنّني سأبقى حيًّا لأشهدَ اليوم الذي يُغادرُ فيه السوفيات أفغانستان. كنت على ثقة أنّني سأستشهدُ بإحدى رصاصاتهم، حتّى إنّني تمنّيت ذلك. ففي كلّ مرّة ذهبت فيها بمهمّة، كنت أثقُ أنّني لن أعود. ولكن على الرغم من عودتي، فإن أملًا جديدًا يشرق؛ فأجدُ نفسي أصلّي للّه أن يبقيني حيًّا، حتّى أرى أفغانستان دولة إسلاميّة حرّة تقودها حكومة إسلاميّة.

ولكنّنا بتنا نلاحظ العلاقة الهشّة التي توالف بين جماعات مختلفة من المجاهدين؛ ذلك أنّ جماعة منها باتت تلاحق أهدافها الخاصّة. ما أتى لاحقًا، على كلّ ما حاربنا لأجله، وشوّه اسمَ المجاهدين وكرامتهم، والجهاد بحدّ ذاته. وبدأت عمليات الروس تتراجع مع إعلانهم الانسحاب. فقد أوقفوا دوريّاتهم في الجبال والصحاري؛ كما غادروا المدن والطرق السريعة؛ ووجّهوا اهتمامهم وتركيزهم إلى المطارات والمهابط، حيث تمركز الجزء الأكبر من قوّاتهم. كما تابعوا الغارات الجويّة وعمليّات القصف.

ومع انسحاب روسيا، تحسّنت الحياة في القرى. لكن كان لهذا الانسحاب مساوئه. ففي العام ١٩٩٠[1]، راحت الولايات المتّحدة تخفّف من دعمها للمجاهدين؛ فبدأت تنفد أموال القادة وأسلحتهم؛ فراحوا يبحثون عن مصادرَ أخرى. وقد اتّجه الكثيرون إلى حكومة نجيب اللّه الجديدة طلبًا للمساعدة. حتّى

(١) في الفترة التي امتدّت من تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٨٩ وحتّى تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٩٠، خفّض الكونغرس مخصّصاته السريّة لبرنامج وكالة الاستخبارات المركزيّة السريّة الأفغانيّة بنسبة ٦٠ بالمئة أي إلى ٢٨٠ مليون دولار أميركي (Coll, 2004: 216).



أنّ بعض القادة كانوا يدفعون إلى مجاهديهم لكنّهم ما لم يؤمّنوا مدخولًا ثابتًا يحول دون أن يخسروا رجالهم.

وفي حين كان هؤلاء القادة يبحثون عن شركاء جدد لتمويل عمليّاتهم، بدأ نجيب الله بإدراج المجاهدين الأماميّين في المخابرات الأفغانيّة. وحين يتمّ قبولهم، يتلقّون أموالًا من الحكومة؛ فيُصبحون بذلك إمدادًا وهميًّا للاستخبارات؛ ولا يُشكّلون بعدئذٍ خطرًا على الحكومة.

أمّا الجماعات المتعاونة مع الحكومة الشيوعيّة؛ فبدأت تنفّذ عمليّات ضدّ جبهاتنا، نحن الذين كنّا لا نزال نتابعُ الجهاد ضدّ الشيوعيّين وفقَ أسسه الأصليّة. وبالمقابل كان حاكم قندهار، نور الحق عُلومي[1]، يمنح أموالًا هائلة لمجموعات مختلفة، تلقاء أن يشنّ بعضها على بعض هجمات معلنة سابقًا دون أن تسبّب أي خسائر بشريّة.

مع انحياز عدد كبير من القادة البارزين إلى جانب نجيب الله، أمسى قيام حكومة إسلاميّة أمرًا بعيد المنال. فعلى الرغم من انهزام الروس، فإن السلطة لا تزال في أيدي السوفيات؛ وذلك عبر شرائهم المجاهدين. وقد موّل الاتّحاد السوفياتي هذا التكتيك، على الرغم من اتفاقات جنيف التي تحظّر هذا الأمر. وبدأت العلاقة الهشّة بين طالبان وجماعات أخرى من مجاهدي قندهار أخرى تنهار.

▲▼▲

وعلى الرغم من ذلك، ومع جلاء آخر جندي سوفياتي عن قندهار عام ١٩٨٨، رحنا نحتفل من دون أن ينتابنا أي همّ أو قلق. فغنّى الملّا مرجان فرحًا، مسخّرًا غطاء فرن قديم كطبلة، في حين رقص الجميع رقصة أتان الشعبيّة. ولم نفقد الأمل في أن

(١) نور الحقّ عُلومي (من قبيلة باركيزاي) يتحدّر أصلًا من محافظة قندهار، وهو جنرال سابق في الجيش الشيوعي. كان حاكمًا على قندهار في الفترة الانتقاليّة في نهاية الثمانينيّات عندما أطلقت حكومة نجيب الله نظام «المال مقابل الامتثال» والذي قدّم فيه عُلومي مبالغ ضخمة من المال مقابل عدد أقلّ من المقاتلين المجاهدين.

يتشارك المجاهدون في القوّة ويشكّلوا حكومة إسلاميّة لكي نستطيع تكريم أمواتنا، وإشباع أيتامنا، وتعزية أراملنا. ولكنّ الحكومة الجديدة تمسّكت بالحكم.

أطلّ الرئيس نجيب اللّه على أثير الإذاعات، يتحدّث عن السلام والأخوّة. كما استشهد بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث للنبي محمد (ﷺ). وكانت رؤيته للمصالحة مسامحة لا مصالحة حقيقيّة. كان علينا نسيان ما حدث، ومحو ما حدث، من قتال واشتباك من ذاكرتنا. قال: «لم تفعلوا شيئًا ولا أنا أيضًا. كما دعا الأطراف كافة للانضمام إليه لتشكيل الحكومة معاً. كان لما قاله معنى ولكن كنّا نعلم أنّه ضعيف، وأنّ حكومته لم تمتلك القوّة أو الدعم لتدوم.

خفّفت حركة طالبان عمليّاتها، بعد أن خرج الروس من قندهار. وكثيرون مثلي، عادوا إلى دراساتهم الدينيّة، فيما هم يقودون بعض العمليّات ضدّ الشيوعيّين في المناطق النائية. تابعتُ والكثير من المجاهدين تعليم القرويّين وطلاب الدين في نلغام. ولكن سرعان ما قرّرنا الاستقرار في مكان آخر. فالقرية بعيدة عن الطريق الأساسيّة وأخبار الحكومة تستغرق أيّامًا لتصلنا. انتقلنا إلى قرية حوز مضاة وهي قرية على الطريق السريع، تقع فوق قرية وزير كلا باساو، وبدأنا العمل هناك. أقمتُ في الموقع الذي اخترناه للبناء؛ وساعدت في بناء المخيّم بأبراجه الأربعة. انتقلنا جميعنا من نلغام إلى مقرّنا الجديد الذي كان يُشبه المدرسة. في ذلك الحين، كنّا نملك عربتَيْن، فأجّرنا الجرّار الزراعي لتغطية كلفة البناء، والمواد الغذائيّة.

عقدت قيادة طالبان اجتماعاً[1] في صومعة الحبوب بقندهار. هذا المبنى الذي لا يزال قائمًا على المشارف الغربيّة للمدينة مليء بفجوات سبّبتها الصواريخ وقذائف الهاون. واجتمع القادة الأبرز ليناقشوا كيفيّة اقتسام المدينة بين طالبان والمجاهدين الآخرين، بعدَ أن غادرها الروس. وفيما كانوا مجتمعين، اتّجهت مجموعات أخرى من المجاهدين إلى قندهار. فالقادة الذين اصطفّوا مع حكومة نجيب، قرّروا إقصاء طالبان عن الإدارة الجديدة.

(١) تُشير تقارير وكالات الأنباء في ذلك الوقت أنّ الاجتماع قد عُقدَ في ١٤ نيسان/أبريل ١٩٩٢.

قسَموا إذًا المدينة. وفيما كان طالبان مجتمعين في صومعة الحبوب يتباحثون في ما قد يحدث لاحقًا، تمركز القادة في المدينة. كنت عائدًا على درّاجتي من الصومعة إلى ميروايس مينا، حين رأيت عشرات الرجال المسلّحين على الحواجز يدخلون المدينة. فعدت مسرعًا، قاطعت الاجتماع وقلت للقادة: «فيمَ أنتم منشغلون هنا، والحلفاء يحتلّون المدينة» لم يلاحظ أحدٌ هذا التعدّي الخفيّ. ولكن كان الوقت قد فات حين غادر القادة الصومعة باتّجاه المدينة[1].

شنّت طالبان عمليّات عسكريّة كثيرة ضدّ الروس؛ فهي تشكّلُ ركنًا أساسيًا من أركان الجهاد، والكثير من أتباعها ضحّوا بحياتهم وحافظوا على حياة الآلاف، لكنّنا تعرّضنا للخيانة. ولم يبقَ تحت سيطرتنا سوى ثكنات العائلة الروسيّة[2] في خارج المطار؛ وذلك بسبب المرحوم الحاجي ملّا يار محمد آخوند[3]. ومع ذلك، فإننا لم نشأ الاستمرار في القتال وعدنا إلى داره لمتابعة دروسه. واكتفينا بتمكّننا من طرد الروس من أفغانستان.

▲▼▲

سيطرت أحزاب المجاهدين على أفغانستان كلّها. أُجبرَ نجيب الله على الاستقالة، ولجأ إلى مجمّع الأمم المتّحدة في كابول بتاريخ ١٦ نيسان/أبريل

(١) أصبحَ غول آغا شيرزاي حاكمًا على قندهار؛ تولّى الملّا نقيب الله قيادة قاعدة الجيش؛ وسيطرَ أمير لالاي على المدينة وصولًا إلى بوابة عيد جاه كما سيطر على مصنع النسيج وورش العمل؛ سيطر الأستاذ عبدالحليم على مكاتب جهاز أمن الدولة وعلى مقرّ الشرطة والسجن؛ وسيطر سركاتب على منطقة باغبول والمنطقة المحيطة بصومعة الحبوب.

(٢) سكنت عائلات أعضاء الحكومة أو عناصر الجيش في ثكنات العائلة. وهي لا تُقارن في يومنا هذا بضخامة المجمّعات الجديدة حولها كأينو مينا. ولكن لا تزال بعض العائلات تعيش هناك وقاموا بشراء المنازل والأراضي من الحكومة ليبقوا هناك.

(٣) كان الحاجي ملّا يار محمد آخوند (من قبيلة بوبلزاي) قائدًا كبيرًا، حارب مع الحزب الإسلامي خلال جهاد الثمانينيّات. وبعدَ أن سيطر طالبان على الحكم، تمّ تعيينه حاكمًا على هرات وعلى غازني من ثمَّ، ولكنّه قُتل في غازني عام ١٩٩٩ أثناء لقاء. لم تُكشف هويّة قاتله وبقيت ظروف مقتله الذي شهدَ عليه الكثيرون غامضة.

١٩٩٢. وبعدَ أسبوعين، شكّل جهاز الاستخبارات في بيشاور حكومةً انتقاليّة، ترأسّها صبغة اللّه مجدّدي[١] لشهرين؛ ليتسلّم رئاسة الحكومة، من ثَمَّ، برهان الدين ربّاني[٢] لأربعة أشهر. وعلى الرغم من أنَ مدّة الأشهر الأربعة قليلة - إنَ الراعي لا يقبلُ أن يعملَ ما يقلّ عن أربعة أشهرٍ - فإننا قد توسّمنا في الأمرِ خيرًا وغمرتنا السعادة.

وذات يوم، كنت أستمعُ إلى إذاعة في كابول، هذه الإذاعة نفسها التي اتّهمت سابقًا مجدّدي بأنه خادم لجهاز الاستخبارات وللولايات المتّحدة؛ فدُهشتُ لما سمعته. كان ما سمعتُه تسجيلًا لمجدّدي. وقد شرح المراسل في مقدّمته ما حدث: «سيادة الأستاذ صبغة اللّه مجددي، قائد «جبهة ملي»[٣] ورئيس حكومة أفغانستان الإسلاميّة... وعلا صوت المذيع. كانت اللحظة تلك من أسعد لحظات حياتي. اختبرت لحظات سعادة كثيرة: رأيت مكّة والكعبة في زيارة حجّ عام ١٩٨٩؛ تزوّجت؛ اختبرت متعة التعلّم والمعرفة؛ تمتّعت بنعمة حفظ القرآن باللغة العربيّة؛ وتولّيت فيما بعد منصبًا في الحكومة. لكن ما من شيء يُضاهي فرحتي في ذلك النهار. في وقت شعرت فيه سعادتي الغامرة في أن شعبي سينال أخيرًا مطالبه؛ وأنّ تضحياتنا ومعاناتنا ومحاولاتنا، لم تذهب سدًى.

أذكر أنّ كل تلك الأفكار دارت في رأسي، وأنا أستمع إلى البثّ. لكنّ خطبة

---

(١) وُلد صبغة اللّه مجدّدي عام ١٩٢٥ في كابول. تعلّم في أفغانستان وفي جامعة الأزهر في القاهرة. قائد أحزاب المجاهدين الأبرز من بيشاور في الثمانينيّات وشغل مؤقّتًا منصب الرئيس في تموز/ يونيو ١٩٩٢. لا يزال يلعب دورًا في سياسة أفغانستان في كابول.

(٢) وُلد برهان الدين رباني في عام ١٩٤٠ في فايز آباد (محافظة بدخشان في شمال شرق أفغانستان). تلقى تعليمه في كابول وفي جامعة الأزهر في القاهرة، وعاد إلى أفغانستان في عام ١٩٦٨. وكان رئيس الجامعة الإسلامية أحد الأحزاب السياسية الكبرى في جهاد الثمانينيّات. شغل منصب رئيس أفغانستان بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٦، وحتى سيطرة طالبان على كابول. لا يزال يلعب دورًا في سياسة أفغانستان في كابول.

(٣) جبهة ملي أي جبهة التحرير الوطني في أفغانستان أنشأها صبغة اللّه مجدّدي خلال الثمانينيّات في بيشاور. كانت أكبر الأحزاب السياسيّة في الجهاد.

مجدّدي التي تلت المقدّمة، حملت الخيبة تلو الأخرى. أعلن أنّ القائد أحمد شاه مسعود[١] سيتولّى منصب وزير الدفاع. ومسعود متحدّر من بانجشير[٢]، وهو وادٍ شمال غرب العاصمة. قد يجدُ أيّ شخص في هذا التعيين مصدرًا محتملًا للنزاع أما أنا فلم أستطع أن أفهم كيف لهزرة مجدّدي أن يولي وزارة الدفاع لقائد على مستوى محافظة، بينما ترأس هو الحكومة شهرين فقط.

لماذا عيّن مسعود؟ لماذا اتّخذ قرارًا كهذا؟ علمتُ أنّ السيّد مجددي كان قائدًا جهاديًّا حاربَ بنفسه ضدّ الروس والشيوعيّين. لقد عانى وضحّى باسم اللّه، فلماذا أقدم على خطوة قد تزيد المعاناة؟ ماذا كان يدورُ في خلدِه؟ وفي لحظة، فرَّت سعادتي، وأصبحت عيناي حمراوَيْن من شدّة البكاء. وانهمرت الدموع على وجنتيّ وأمسى بكائي نحيبًا.

التفت إليّ بعضُ المجاهدين وسألوني: «لماذا تبكي في هذا اليوم السعيد؟ لقد حُرّرت أفغانستان وتحقّقت أمنياتُنا». فأجبتهم: أنتم على حقّ؛ لكنّني كنت غارقًا في الحزن ذلك الوقت؛ ورحتُ أفكّرُ في جميع أصدقائي الذين استُشهدوا.

هم أيضًا شاركونا أحلامنا وآمالنا؛ لكنّهم دفعوا الثمن الأغلى. ورحت أفكّر في الملّا مرجان الذي غالبًا ما تساءل عن وقتٍ يمكّنُه من التجوال في شهيدان شاوك[٣]، يستذكرُ انتصارَ المجاهدين. ولطالما قمنا بتلك الجولة معًا؛ لكنّه توفّيَ قبلَ أن تنتهيَ الحرب.

---

(١) أحمد شاه مسعود وُلد في بانجشير عام ١٩٥٣، كان واحداً من قادة المقاومة الأكثر شهرة في جهاد الثمانينيّات ضد السوفيات، ولعب دوراً بارزاً في السياسة وقتال التسعينيّات قبل اغتياله بأيام فقط من الهجمات على مركز التجارة العالمي في عام ٢٠٠١. شغل منصب وزير الدفاع عام ١٩٩٢، وقاد «تحالف الشمال» ضد طالبان في أواخر التسعينيّات. كان يعرف باسم «أسد بانجشير».

(٢) بانجشير وادٍ في شمال كابول مرتبطة عادة بقائد المقاومة أحمد شاه مسعود. والسكان فيها هم إلى حد كبير من قبيلة الطاجك، ومن السكان مَنْ تحوّل إلى الإسلام السني في أواخر القرن السادس عشر. وتقع بانجشير على مقربة من ممر سالانغ، وجعلها موقعها مثالية لمحاربة السوفيات، الذين لم يكونوا قادرين على السيطرة على الوادي.

(٣) شهيدان شاوك هي مستديرة في وسط قندهار ويحتوي المركز على تمثال للشهداء الذين ماتوا في المعركة ونُحت التمثال بين العام ١٩٤٦ والعام ١٩٤٨ (Dupree, 1977: 282).

وسرعان ما اندلع القتال بين مسعود وحكمتيار[1] في كابول. فطلب مسعود السيطرة الكاملة على المدينة؛ إلّا أنّ حكمتيار رفض ذلك بصفته رئيسًا للوزراء. انقسم الحزب الشيوعي القديم بين الخلقيس والبرشاميس. وعلى الرغم من أنّ التحالفات في حينها لم تكن واضحة، فإنّ الخلقيس اصطفّوا مع حكمتيار، بينما اصطفّ البرشاميس مع مسعود.... وسرعان ما وصل القتال إلى قندهار، حيث تصادم قادة العدوّ في المدينة.

سيطر الأستاذ عبد الحليم[2]، وهو قائدٌ في فصيلة السيّاف، على مديريّة الشرطة في المحافظة. لكنّ قوّات الملّا نقيب حوّلتها إلى ركام. وكان عبد الحكيم خان[3] القائد في تلك المعركة، التي دامت إلى يوم فراره. قُتلَ معظم الناس في مبنى المديريّة. وفرَّ الآخرون إلى ساربوزا، وإلى قاعدة الأستاذ عبد الحليم الرئيسة.

لم تتدخّل حركة طالبان في تلك النزاعات؛ وعاد الكثير منهم إلى ديارهم. وحوّل الملّا محمّد عمر قاعدةَ المجاهدين القديمة في سانجيسار إلى مدرسة. وفكّرتُ للحظةٍ أن أظلَّ هناك. لكنني شعرت أن الأمر صعباً لأنني بلا عمل.

(١) قلب الدين حكمتيار وُلد في قندوز عام ١٩٥٤، وهو قائد الحزب السياسي الحزب الإسلامي. عُرف في جهاد الثمانينيّات الذي تلقّى خلاله المجاهدون كميّة كبيرة من التمويل. كان بارزًا في أواسط الإسلام في أفغانستان بعد الاجتياح السوفياتي كما شغل منصب رئيس الوزراء في كابول في أيّار/مايو عام ١٩٩٢. اختفى عام ٢٠٠٢ ويُعتقد أنّه يختبئ في جبال شمال شرق أفغانستان ويقوم بعمليّات ضدّ الحكومة الأفغانيّة والقوات العسكريّة الأجنبيّة.

(٢) الأستاذ عبدالحليم (من قبيلة نورزاي) وُلد حوالى العام ١٩٦٠ وكان أحد أبرز القادة في جهاد الثمانينيّات في جنوب أفغانستان. وُلد في محافظة مايواند في ولاية قندهار واضطرّ إلى التخلّي عن منصبه عندما سيطر طالبان على المدينة. لا يزال يلعب دورًا في السياسة المحليّة وكان مستشار حاكم قندهار السابق أسد الله خالد.

(٣) عبد الحكيم خان (من قبيلة أليكوزاي) كان رجل قبيلة قويًّا ومجاهدًا من محافظة أرغنداب في محافظة قندهار، وكان واحدًا من القادة القلائل الذين حاربوا ضدّ طالبان في قندهار حين كانوا في السلطة. وكان القائد الأخير الذي وقف في وجه طالبان عندما استولوا على أرغنداب. عُرف في قندهار لثيابه الخاصّة فلم يلبس إلّا اللون الأزرق واعتاد ارتداء ثلاث قطع من الزيّ الأفغاني التقليدي فوق بعضها. قُتل في ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٨ جنبًا إلى جنب مع عشرات آخرين قُتلوا في هجوم انتحاري في أفغانستان.

فقرّرت أن أعود إلى زوجتي وأولادي. تزوّجت في العام ١٩٨٧، وانتقلتُ معها لنقيمَ إلى العيش مع والدها، في داه ميرازاي، حيث أنجبت. وبعد نقاشٍ دار بيني وبين زوجتي وأبيها، ارتأينا أن أبحث عن عملٍ. لم أعمل قط من قبلُ؛ ولم أكن أملك أيّ مال لبدء عمل جديد؛ فضلًا عن أنني لا أعرفُ ما أفعل. كانت أسرتي تقيم في الباكستان؛ وكان بإمكانها مساعدتي لإيجاد عمل؛ لكنّني لم أشأ مغادرةً أفغانستان. وعلمت أنّ ثمة منظمة أجنبيّة على طول طريق سلوات بانجواي، عثر فيها الكثيرون على عمل. ومضيتُ صباح اليوم التالي لأسجّل اسمي طلبًا للعمل.

أُعطيت مجرفةً لحفر القنوات المائية على طول الطريق. وبدأت العمل من فوري. حُدّد الأجر اليومي لكل شخص هناك بـ٢٥٠ ليرة أفغانيّة وسبعة كيلوغرامات من القمح. وتلك كانت المرة الأولى التي أعمل فيها، لرغبتي في كسب لقمة العيش لعائلتي، لذلك عملتُ بحماسة. وكان العمّال الآخرون يكفّون عن الحفر حين يصبحون بمفردهم، أو حين لا يراقبهم أحد. فكانوا يثرثرون ويطلبون إليّ أن أوقفَ الحفر. ونصحوني بألّا أتعذّب، وأتابع العمل، ما دمنا خارج الرقابة، وأن بمقدوري أدّعاء العملَ حتّى وإن كنت خاضعًا للرقابة. ومن الجدير ذكره أن ساعات العمل تمتدّ من الثامنة صباحًا وحتّى الواحدة ظهرًا.

ظهيرة يومي الأول، مرّ بنا الحاجي بهاء الدين، وهو شيخ قبيلة من قريتي كان تلميذًا وصديقًا لوالدي. رآني، وهو في طريقه من سلاوات إلى ده مراساي، أقفُ إلى جانب الرجال الآخرين؛ فأوقف سيّارته وترجّل منها وتوجّه إليّ، ربّت كتفي، وسألني قائلًا: «الحاجي ملّا صاحب، ما الأمر؟». سلّمت عليه فنظر إلى يديّ. لم يكن قد مرّ على عمليّة الحفر أكثر من نصف ساعة، لكنّ التقرُّحات أخذت تظهر على راحتيّ وتؤلمني. تلطّخت يداي بالدّماء لأنني لم آلف الحفر.

نظر إليّ والدموع في عينيه، وردّد: «هاتان اليدان لم تُخلقا للعمل». قال ذلك، وانتزع الرّفش منّي وأعادني إلى منزلي. وصلتُ، وما من ضيافة لدي لأستضيفه؛ فأكمل طريقه. لم يكن لدينا لا شاي ولا طعام؛ وفضلًا عن ذاك،

فإن طفلي، ابن الأشهر الستّة، كان مريضًا. غرقت في التّفكير محاولًا إيجاد حل لهذا الوضع المزري؛ وإذ بأحدهم يطرق بابي، ويناديني باسمي. كان نور علي، ابن الحاجي بهاء الدين، الذي يقف على الباب وبين يديه كيس من الطّحين. استأذنني لإدخال الكيس إلى المنزل. ولما انتهى، أخرج بعض النقود من جيبه وقدَّمها إلي قائلًا: «يوصيك والدي بأخذ هذا المال وتسيير أمورك في الوقت الحالي». عددتُ ستين ألف أفغاني، إنه مبلغ سخيٌّ للغاية آنذاك.

لن أنسى إطلاقًا الطيبة التي عاملني بها الحاجي صاحب. في اليوم التالي اصطحبت ابني إلى مدينة قندهار لاستشارة الطبيب. شاهدت الأستاذ عبد الحليم والملّا نقيب لا يزالان يحاربان، حين مررت في المنطقة المحاذية للسّجن. اعترضتنا مجموعة من الرّجال، ذوي المناظر القذرة وطلبوا إلى جميع الرّكاب الترجّل من الباص. أمرونا بحفر الخنادق، فتوجّهت إلى أحدهم، وأخبرته أنني أحمل طفلي المريض ابن السّتة أشهر، من دون أمّه، «ونحن في طريقنا إلى الطبيب». وتابعت طريقي. لكنّ الرّجل صرخ في وجهي، وأمرني بالعمل فقط، وبالامتناع عن التكلّم بأمور لم أُسأل عنها. وهدّدني بثلاثين رصاصة تخترق جسدي إذا تفوّهت بكلمة. شتمني وسألني لمَ لا أنضمّ إلى صفوف المجاهدين؟

بئس هؤلاء المجاهدون لم يجلبوا سوى العار والسّمعة السيّئة والإحراج للجهاد. لم أكن أعرف أحدًا في الباص؛ فسلّمت طفلي إلى رجل مسنّ قائلًا له: «يا أخي! سلّم هذا الطّفل إلى السائق، وسأعود أنا لأصطحبه متى انتهيت من هذا العمل الذي أرغموني عليه. وإن أصابني أيّ مكروه فالسائق يعرف قريتي وسيعيد الطفل إلى زوجتي». احتُجزنا في الدّائرة الواقعة بين المنطقة التي سيطرَ عليها الملّا نقيب والمنطقة التي سيطرَ عليها الأستاذ عبد الحليم. قُتل الكثير من المسافرين، أو اختفوا، على هذه الحواجز، حين كانوا يرغمون على العمل في حفر الخنادق، وفي مناسبات عدّة كان الأبرياء يتعرّضون لإطلاق النار من الجانبين، وتُرمى جثثهم أرضًا من دون احترام أو مراعاة للشعائر الدينية، ومن دون إعلام

ذويهم بما حدث. لم أكن قد وصلت بعد إلى المكان الذي يفترض أن أحفر فيه، حين شعرت بيد على كتفي وصوت ينادي: «آه، ملّا صاحب! ماذا تفعل هنا؟».

أخبرته أنني أجبرت على النزول من الباص والعمل في الحفر. لم يجبني، بل التفت إلى رفيقه وصرخ به «أيّها النّذل! ألا تستطيع تمييز المحارب الإسلامي؟ لقد أنزلت هذا الرّجل من الباص. انظر يا بنيّ! هذا الملّا صاحب، وهو محارب إسلامي من أيام الوجود الروسي وتجدر بك معرفته». ثم أوعز بعودتي إلى الباص، وتقدّم الرجل الذي أنزلني للاعتذار مني قائلًا: من أين لي أن أعرف من يكون العم؟ سررت بالنّجاة من هذه الأشغال الشاقة، وصعدت إلى الباص مجدّدًا. انطلقنا؛ وما كدنا نسير دقائق معدودة حتّى توقّف الباص من جديد، بوصولنا إلى هندو كوتاي. وجاء دور رجال الملّا نقيب، ليؤدّوا الواجب. صعد أحدهم إلى الباص، ألقى نظرة على الموجودين، ليقدّر كم شخصًا نزل منه.

لم يقل شيئًا. شاهدت رجلًا آخر من جماعة الملّا نقيب المرابطين على الحاجز، يحمل كيسًا من الفواكه. فلما انطلق الباص التفتّ إليه، وسألته «أخي، كم تريد ثمن كيس الفواكه هذا؟» ضحك وردّ قائلًا: «هذا حصيلة الخوّة التي نفرضها على الشاحنات التي تعبر الطّريق السّريع؛ فسألته عن الكميّة التي يأخذونها من كلّ شاحنة. أجاب: «عشرة أكياس». فقلتُ مستنتجًا: «إذًا أنتم تتحمّلون مسؤولية أمن هذه الشاحنات حتّى وصولها إلى الباكستان». أجاب: «لا يا أخي، هذه الضريبة تسمح لهم بالوصول إلى هزراجي بابا من دون خوف. بعد ذلك، يسيطر لالاي[1] على الطّريق ويأخذون حصّتهم بأنفسهم. ولا تبعدُ هزراجي بابا سوى ثلاثة كيلومترات أو أربعة عن هندو كوتاي. بهذا الشكل، لا بدّ أن تخسر الشاحنات معظم حمولتها عند مرورها على حواجز التّفتيش.

مساءً رجعت من المدينة ومعي ابني إلى المنزل. وأخبرت عائلتي أن أفغانستان

(١) أمير لالاي (من قبيلة بوبلزاي) هو في الأصل من «وايان» (مقاطعة شاه والي كوت). هو ابن عم الحاجي مير أحمد، انضم في الثمانينيات إلى الجهاد في «وايان». وهو الآن نائب في كابول.

لم تعد مكانًا آمنًا للعيش. ورغم أن حاكم مقاطعة بانجواي معلّم فدى محمّد[1] رجل صالح ومجاهد. فإن السفر عبر المدينة بات عمليّة محفوفة بالمخاطر وجالبة للمتاعب. كان المعلّم فدا رجلًا صارمًا كافح اللصوص والمقامرين وشاربي الخمر في مقاطعته. وقدّم إلينا العون بشكل دائم. لكن كم بمقدوره الاستمرار في حماية الإقليم في ظلّ الوضع القائم؟

ذات يوم من أيام العيد، قدِمَ الأستاذ عبد الحليم مع رجاله إلى المدينة، فنظّموا مباريات قتال بين الكلاب، وتسبّبوا بإفساد النّاس. منذ لحظة وصولهم، اشتبكوا مع قوات أمن المقاطعة، حتّى قبل أن يباشروا بممارسة القمار، وتنظيم مباريات قتال الكلاب. لكن سرعان ما تجمّع مجاهدو المنطقة، وتحوّلت التّسلية إلى مأساة؛ فجُرح وقتل كثير من رجال الأستاذ عبد الحليم، بينما لاذ هو بالفرار.

بعد هذه الأحداث، مضيتُ وعائلتي هربًا إلى الباكستان. تفادينا سلوك الطرقات الرئيسية. وعبرنا من خلال مسالك التّهريب، تجنُّبًا للعصابات المسلّحة التي اشتُهرت باحتجاز المسافرين وسلبهم واغتصاب زوجاتهم في جميع أنحاء جنوب أفغانستان. كان الأمن معدومًا وسلطة القانون غائبة. تشكّلت العصابات من المجاهدين السابقين واللصوص وقطّاع الطّرق، وتسبَّبت بنزف خطير في المجتمع الأفغاني.

تنفّست الصّعداء بوصولنا الباكستان من دون التعرّض لأي حادث. استقبلنا نسيبي عبيد اللّه في سومونغالي القريبة من كويتا. وقدّم إلينا غرفة لنبيت فيها. وكادت النقود التي أعطانا إياها الحاجي بهاء الدين تنفد. ووجدت نفسي مجدّدا في ضائقة ماديّة. فتحت في البداية حانوتًا صغيرًا بالمال الذي اقترضته من

---

(١) معلم فدى محمد (من قبيلة أليكوزاي) يتحدّر أصلًا من محافظة بانجواي وكان من أكبر القادة المجاهدين. وحارب مع الحزب الاسلامي في جهاد الثمانينيّات. وقاتل مع طالبان في مزار الشريف حيث أُلقي القبض عليه وأُرسل إلى سجن غوانتانامو. أُطلق سراحه إلى أفغانستان والآن يُحارب القوّات العسكريّة الأجنبيّة من الباكستان. قد يكون لا يزال على قيد الحياة.

أقربائي. لكنّه لم يحقق لي أي مدخول ورغم ذلك استأجرت بيتًا صغيرًا، وعدت إلى الدراسة والتّعليم.

وسرعان ما بدأت أنسى أمر أفغانستان. عملت في الاستثمارات العقارية، فكنت أقترض المال لأشتري قطعًا من الأرض، أبني عليها منازل ثمّ أبيعها. حين أنتهي من البناء أحقق ربحًا، أسدّد به ديوني وأشتري عقارات جديدة للاستثمار. أخذ اسمي التّجاري ينتشر في مجال البناء؛ كما تحسّن وضعنا الاقتصادي. عملت بكدّ وجهد، وكرّست كلّ دقيقة أصحو فيها للدراسة والعمل. ومكّنني عملي الناجح من الانتقال خلال فترة زمنية قصيرة إلى بيشاور، للتّعمّق في العلوم الإسلامية وإنهاء دراستي. في هذه المرحلة تحديدًا، بدأ يظهر اهتمامي بالسياسة.

٧

إجراءات متّخذة

في السّنوات التي تلت، انتقلت للعيش في الباكستان، لكنني غالبًا ما كنت أزور قندهار. في مطلع التسعينيات، مع سقوط حكم نجيب اللّه ووصول حكومة المجاهدين، بدت أفغانستان عرضة للتفتّت أكثر من أي وقت مضى. انطلقت شرارة القتال من كابول؛ وسرعان ما توسّعت لتحرق مناطق الجنوب. تحارب القادة المحليون، أمثال الأستاذ عبد الحليم والحاجي أحمد[1] والملّا نقيب، وغيرهم، داخل المدينة وفي المقاطعات المحيطة، سعيًا وراء المال والسلطة. وبلغ القتال من العنف ما جعل الحياة الطبيعية مستحيلة في ظل ذلك الوضع.

في إحدى رحلاتي، احتُجزت لستّة أيام في منزل غول أحمد في ديه خوجا، وهي منطقة تقع شرقي مدينة كابول، قبل أن أتمكن من متابعة سفري نحو المدينة، بسبب القتال الدائر. واحتجاجًا على سياسة القادة، الممعنة في القتل والتخريب، نزل سكان المدينة إلى الشارع بعد صلاة الجمعة. تظاهر الآلاف يومها، ومشوا في الشوارع انطلاقًا من عيد غاه دروازا إلى شارزو، وهي سوق أثرية في المدينة، يعود بناؤها إلى مئات السنين منذ عهد أحمد شاه بابا. أخيرًا اضطرت المسيرة إلى التوقّف في ساحة كابول دروازا، حيث قام بارو[2]، وهو

(١) كان الحاجي أحمد (من قبيلة أشكيزاي) ابن الحاجي مغاش. قاتل مع حزب مجدّدي خلال جهاد الثمانينيّات وكان أحد أهمّ القادة في جنوب أفغانستان في أوائل التسعينيّات. استولى ورجاله على مطار قندهار في تقسيم المحافظة الذي تمّ بعدَ سقوط حكومة نجيب اللّه.

(٢) كان بارو (من قبيلة بوبلزاي) قائدًا للمجاهدين، وحارب مع حزب سيّاف الاتّحاد الإسلامي ولكنّ سمعته سيّئة جدًّا في أيّامنا هذه في قندهار. عُرف بزواجه من الفتيات لشهر واحد فيأخذ مهر الفتاة من والدها ويطلّقها ويرفض ردَ المهر. شُنِقَ على يد طالبان في الأيّام الأولى بعدَ الاستيلاء على قندهار.

مجاهد سابق، بالتجمّع مع بعض الرجال، واتّخذوا وضعية الهجوم مستعينين بدبابة عسكرية.

بدأ بارو ومن دون أي إنذار، بإطلاق النار على المتظاهرين. قُتل العشرات وفُضّت المظاهرة. في الأيام التي تلت الحادثة، لم يبقَ منزل في المدينة لم يبكِ لفقدان أحد أفراده أو أصدقائه. حتى المشاركة في الجنازات باتت مستحيلة، لأن الشوارع والأزقة تحوّلت خنادق، وصارت المدينة ساحة حرب. في الليلة السادسة، اتّفق أطراف النّزاع على وضع حد لإطلاق النار؛ فخرج الناس من بيوتهم، لكنّهم ظلّوا متخوّفين من التوجّه إلى السّوق. تغيّرت المدينة: استحالت الطرقات خرابًا، وشوّهتها ندوب الرصاص. اسودّت الجدران بفعل البارود؛ وتحوَّلت المنازل ركامًا. انتشرت أشلاء الجثث في الشوارع والمنازل والساحات، وتلطّخت الجدران بالدّم. تعرّضت مئات المتاجر للنهب خلال المعارك. ورغم ذلك، ظلّ الناس ممتنين لبقائهم على قيد الحياة. قضيت ليلتي في قازي كاريز، وفي الليلة التالية وصلت إلى مدينة قندهار.

انتشرت الحواجز كالفطر في جميع أنحاء الجنوب. قطعت السلاسل المعدنية الطّرقات، وفرضت خوّة على مرور الأموال والبضائع في كل باص وسيارة وشاحنة تعبر الحواجز. في طريقنا إلى المدينة أوقفنا قرب ساحة سراي الحاجي لالك ماما، صبي صغير، بدا كفتاة عذراء في الخامسة عشرة من عمرها، يعتمر قبعة شامان[1] باهظة الثمن، ويحمل مسدّس ماراكوف ويدخّن سيجارة أل أم[2].

(١) قبّعة شامان هي قبّعة ملوّنة واجهتها مفتوحة يعتمرها الكثير من الباشتونيّين في الجنوب. وفي ذلك الوقت كانت موضة معروفة خصوصًا في محافظة قندهار.

(٢) كانت سجائر أل أم (LM) أحد الأصناف الأكثر شيوعاً حينها (بالإضافة إلى كنت Kent ونستون Winston). وغالباً ما لم تدخّنُ الشّخصيّات الكبيرة والقادة الكبار إلّا سجائر أل أم (المصنوعة في أمريكا).

طلب إلى سائقنا أن يعطيه شريط كاسيت للمطربة نغمة[1]. أجابَ السائق، «يا بني! بودّي إعطاؤك شرائط نغمة، لكنني لا أملك أيًا منها»، وأردف قائلًا «أنا لا أملك هذا الشريط، وليس لديّ أصلًا مسجّلة في سيّارتي. أعذرني!». استشاط الصبي غضبًا، ومدّ يده فانتزع مفاتيح الحافلة وأطفأ المحرّك، وتركنا ومضى. انتظرنا في السيّارة على قارعة الطّريق، ولم يأتِ من يسألنا ما الخطب. كان هناك ثلاثة رجال حليقي اللحى يقفون إلى جانب الصبي. تمتم سائق الحافلة بصوت خافت: «يا إلهي! كم هو مهين هذا الزمان الذي نعيش فيه! انظر ما فعل هذا الصبيّ. وما من أحد يستطيع أن يقف ويلقّنه درسًا!» لكن الصبي سمعه واستدار وقفل باتجاهنا وسأله عماً نطق به. توتّر السائق، وادّعى أنه لم ينبس ببنت شفة. فأخذ الصبي يكيل له الشّتائم، ويهينه، ويتطاول على شرف أمّه وشقيقاته.

ثم سحب مسدّسه ولقّمه؛ فتملّكنا الرّعب، وأخذنا نتوسّل إليه «السّلام! السّلام! لا تقم بذلك! بحقّ اللّه ماذا تريد أن تفعل بنا؟». لكن الصّبي ازداد اهتياجًا وشتمًا وغيظًا. اقترب الرجال الذين يرافقونه وأمسكوا بذراعه، وتوسّلوا إليه أن يضبط نفسه. اقترب أحد المرافقين ووقف على مقربة مني؛ فكلّمته بهدوء واختصار قائلًا: «يا أخي، انظر ترَ أن هذه الحافلة تقلّ ركابًا مسنّين ونسوة وأطفالًا، وهي تعترض وسط الطريق مسبّبة زحمة سير. أنتم تحاولون التفاهم مع هذا الصّبي، والأجدر بكم أن تصفعوه وتأخذوا منه المفاتيح. هو ليس بقائد. جرّدوه من مسدّسه. لماذا تتوسّلون إليه؟ أنتم أكبر منه سنّا ورؤية؛ وهذه الحادثة إهانة لنا جميعًا». حدّق إليّ الرجل، والعجز بادٍ على محيّاه، وقال «يا صاحبي

(١) مغنّيةٌ باشتونية شهيرةٌ من العصر السوفياتي، من مدينة قندهار، متزوّجة سابقاً من المغنّي الباشتوني الآخر الكبير في العصر نفسه وهو منغال من ولاية لغمان. انطلقت نغمة في مسيرتها المهنيَّة في جوقة المدرسة السوفياتية وأصبَحَت تغنّي فيما بعد مع منغال. ذهبَت من ثمَّ إلى الباكستان وسجَّلَت معظم أعمالها هناك. وتتَّصفُ لربّما إلى جانب نازية إقبال بالمغنّية الباشتونية الأكثر استحبابًا لدى سائقي سيّارات الأجرة في أفغانستان كما في مدينة كويتا.

الملّا، لا نستطيع أن نفعل شيئًا، وعلينا بالحذر. هذا الصبي ابن بارو[1]، وبارو يحبّه كثيرًا. إذا تعرّضنا له بالضّرب أو بالكلام، فسيغضب بارو». قضى الرّجال وقتًا طويلًا يكلّمونه ويتوسّلون إليه حتّى لان الصّبي أخيرًا فأعاد إلينا المفاتيح وسمح لنا بالمرور.

قضيت بضعة أيام في قندهار قبل العودة إلى الباكستان في سيارة أجرة عمومية. والطّريق مليئة بحواجز لم يفصل بينها سوى كيلومترات معدودة، بحيث عمل كلّ قائد أو عصابة على إقامة حاجز خاص وطلب الأموال والبضاعة لتسهيل المرور. ولا يزال النّاس حتّى يومنا هذا، حين يتذكّرون تلك الأيام، يطلقون عليها اسم طوباكيعان[2]، أي زمن الرجال المسلّحين.

فوق جسر ميل، أقام شاه باران[3] حاجزًا، جمّع فيه اللصوص من مخيّم اللاجئين في زانغال؛ ليعملوا على سلب المسافرين والتجّار. وباران هو أصلًا رجل مخادع سيئ السّمعة. كانت ملامحهم قاسية وبعيدة عن الملامح الإنسانية، بشعورهم القذرة المتدلية على وجوهم، وشفاههم البنيّة الغليظة وأسنانهم المصفرّة من جرّاء التدخين والحشيشة وتعاطي المخدّرات. وكانوا يرتدون عباءات صوفيّة ضخمة، ويجلسون القرفصاء في الشارع مع «شيلامهم»[4] الكبير. كانوا، كلّ بدوره، يمسكون بالأنبوب ويدخّنون. وسرعان ما يفقدون التركيز، ويبدأون بالتكلّم بلهجات غريبة.

---

(١) انتشرَت سمعةُ مجتمع مدينة قندهار السيّئة لممارسة أعضائه العلاقات المثليَّة مع القاصرين رغم أنَّ الأعداد المتورِّطة في ذلك صغيرةٌ بلا شكّ. وقد رأت تلك الممارسة بدايتها قبل الجهاد إلّا أنّها إزدادت شيوعاً في خلال الحرب الأهليَّة وبعدها.

(٢) من المثير للاهتمام أنَّ الكثير من سكّان جنوب أفغانستان عام ٢٠٠٩ يستخدمون المصطلح نفسه للإشارة إلى رجال الشّرطة العاملين في بلداتهم وولاياتهم.

(٣) كان شاه باران (من قبيلة أشكيزاي) مجاهدًا يحاربُ مع الاتّحاد الإسلامي برئاسة سياف إلّا أنّه بدّل موقفه ليقف مع الحكومة الأفغانيّة عندما ارتدّ عصمت مسلم عن الدّولة في النّصف الأوّل من عام ١٩٨٥. وقد وضع حاجز تفتيشٍ يديره لصوصٌ من مخيّم زنغال فأثار الخوف في نفوس الجميع.

(٤) «الشيلام» هو غليون أفغانيّ لتدخين التّبغ والحشيش وكان ذلك عادة في تلك الفترة.

توقّفنا مباشرة أمام الحاجز. لم يلحظ الحراس وجودنا، لكنّ أيًّا منّا لم يجرؤ على النزول ولفت نظرهم إلى وصولنا. كانت حركة المرور شبه معدومة؛ فجلسنا في السيّارة ننتظر بفارغ الصّبر أن ينتهوا من الثرثرة والتدخين. تطلّب الأمر ربع ساعة حتى تنبّهوا إلينا. نظر إلينا شاه باران، ثمّ التفت إلى رجاله، وقال لهم: «هيّا تحرّكوا، واسمحوا لأزواج أمّهاتنا هؤلاء بالمرور!». يا لنا من محظوظين، لأن شاه باران ورجاله غالبًا ما ينزلون الركاب من سياراتهم، يحلقون لحاهم، أو يجبرونهم على الإفطار. وفي بعض الأحيان يخطفون الصبية[1].

▲▼▲

في العام ١٩٩٢، عدت إلى أفغانستان، وعيّنت إمامًا لمسجد الحاجي خوشكيار آغا[2] في بلدة صغيرة يسكنها بالكاد عشرة أو خمسة عشر شخصًا، وتقع على الطّريق المؤدّية إلى مركز إقليم بنجاوي. شعرت بالهدوء والسلام، إذ كانت حياتي تمرّ بسهولة لم أعهدها من قبل؛ فتمكّنت من التفرُّغ لدروسي. تفاديت النزول إلى المدينة؛ ولم أتحرّك قط باتجاه المناطق حيث تقام الحواجز أو حيث تقع أماكن تجمُّع المجرمين والعصابات.

وكلّما احتجت شيئًا، أسأل شخصًا من مجموعتي إحضاره لي. وقتٌ قصيرٌ جمعني بأصدقائي في فترة الجهاد، الذين كنت، من وقتٍ لآخر التقيتهم، وهم يعبرون القرية. أمّا من تعوّدوا الذهاب إلى المدينة، فيعودون ومعهم أخبار الفوضى المنتشرة. وغالبًا ما تناهى إلى مسمعي دويّ القصف البعيد. أشعرتني هذه الأخبار بعدم الارتياح. ذكّرتني بالجهاد والتضحيات التي قدّمناها. بدا وكأنّ ما قمنا به بلا جدوى. لكنّي تسلّحت بالصبر، ونصحت مجموعتي بالمثل.

---

(١) يعني ذلك على الأرجح العبوديَّة الجنسيَّة.

(٢) كان الحاجي خوشكيار آغا (من قبيلة أشكيزاي) كبير قبيلةٍ في بلدةٍ قرب صالحان (في مدينة قندهار).

أتى اثنان من أصدقائي لزيارتي في المسجد، هما عبد القدّوس[1] وندا محمّد[2] وكلاهما مجاهدان. وقد حاربنا جنبًا إلى جنب خلال الجهاد. دعوتهم إلى العشاء وسهرنا حتّى وقتٍ متأخر وتكلّمنا. قال عبد القدّوس، الذي استشهد لاحقًا في شمال كابول،: «إنّ الحياة لم تعد تُحتمل؛ فلا مهرب من السرقة والنهب. وقد انتشر الشذوذ الجنسي والخيانة الزوجيّة في كلّ مكان. وبات الناس يتصرّفون من دون أي رادع أخلاقي». وقال عبد الرّازق: «ما العمل يا ملاّ صاحب؟ لقد ضللنا الطّريق».

لم تكن تلك المرّة الأولى التي يأتي بها أصدقائي القدامى وناس من قريتي لزيارتي. فقد سمعتهم يعبّرون لي لشهور عن عجزهم، وعن غياب أي شخص يمكنهم اللجوء إليه؛ فلا شرطة ولا محاكم لمساعدتهم. وأنا بدوري شعرت بالعجز، حين سمعتهم؛ وقد أثّر بي ذلك تأثيرًا بالغًا. كثيرًا ما تساءلت: واجبي الديني أن أتصرّف؟ هل يعد ذلك جزءًا من رحلتي للجهاد ضدّ الأفغان الذين خنقوا شعبهم من أجل المال والسلطة؟

كان رفاقي في عمر الشّباب؛ ولطالما استطاع جيلهم التحدّث بحرّية عن الظروف التي لا تُحتمل. لكنّه، في الوقتِ عينه، جيلٌ لم يفكّر في نتائج أي عمل أو تحرّك. طلبت إليهم أن يصبروا، وينتظروا؛ فاللّه عظيم، وقد يتغيّر كل شيء. لكنّ الشابّيْن عبد القدّوس ونادا محمّد قالا، إنهما لن يستطيعا الانتظار من دون الإقدام على أي شيء. فقد أقام القائد «صالح»[3] حاجزًا قرب منزليهما في «باشمول» على الطريق السريع الذي يصل قندهار بكابول. ولم يكن هو ورجاله

(١) كان عبد القدوس مجاهدًا تابعًا للحاجي الملّا محمد آخوند أتى أصلًا من باشمول. وقد قُتِلَ في سهول شومالي في شمال مدينة كابول في الهجوم المفاجئ الأوّل على طالبان في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩٦.

(٢) يعود أصل الملّا ندا محمد (من قبيلة أشكيزاي) إلى دي مرازاي (في مدينة قندهار) وهو قُتِلَ مؤخراً في سلوات (في قندهار) في خلال هجوم ليليّ أقامته على منزله قواتُ المساعدة الدولية لإرساء الأمن في أفغانستان التابعة لمنظمة حلف شمال الأطلسي.

(٣) يعود صالح (من قبيلة نورزاي) إلى بلدة تدعى دواه في مقاطعة بانجواي. قتل أعداداً من المدنيّين في حاجز التّفتيش الذي عُيِّنَ له على الطريق السريع الذي يصل قندهار بكابول كما كان لصًّا أثار الخوف حوله.

يزعجون المارّة ويسرقونهم فحسب، بل كانوا يغتصبون النساء أيضًا. خطّطا لكمين ضدّه على نهر «أرغنداب» فقد علما أنّ «القائد صالح» قد خطب فتاةً تسكن في «سبروان»، وتعوّد اجتياز النهر يوميًّا للقائها. وأزمعا أن يهاجماه قرب النّهر وأن يقتلاه. وبذلك، على ما قالا، يتخلص الناس منه.

اتسم المخطّط الذي وضعاه بالجدية؛ لذا استمعت إليهما حتّى النهاية؛ لكنني لم أستطع الموافقة عليه. عانى الأفغان في كلّ أنحاء البلاد من هذا الوضع؛ فقد انتشر القادة المنشقّون واللصوص في شوارع ومدن مقاطعة قندهار. لذا قلت لهما «إنّ قتل واحد منهم لن يحدث أيّ فرق». كما دقّقت أكثر بمخطّطهما، فقلت: «فلنفترض أنّكما قتلتما صالح، ألا تظنّان أنّ هناك آخرين غيره ينتظرون موته ليأخذوا مكانه ويستمرّوا بما يقوم به. وحين تعلم قبيلة صالح بأنّكما قتلتماه، أتظنّان أنّ أحدًا في قندهار سيحميكما من ثأرهم، أو حتّى رغبتهم في اقتيادكما إلى المحكمة الشّرعيّة؟» لم يستطيعا الإجابة عن أسئلتي، لذا جلسا صامتَيْن لفترة قبل أن يردّا: «ما العمل إذًا يا ملّا صاحب؟» فقلت لهما: «إنّ الأمر ليس بأيدينا الآن، إنّ الأمور الواجبة علينا هي مسؤوليتنا بالطّبع؛ لكن علينا أن نتوكّل على اللّه، فنحن لا نعرف شيئًا الآن، وقد تتغيّر الأمور إلى الأسوأ أو الأفضل».

كنا نناقش هذه المسألة، حين دخل «عبد المحمّد» إلى الغرفة، وهو شاب من مجموعتي. وصل لتوّه من المدينة؛ فدعوته لينضمّ إلينا وشرب الشاي. سألته عن الأوضاع في المدينة. فوجىء «عبد المحمّد» بسؤالي. فقال: «حج ملّا صاحب، لمَ تسألني عن الأوضاع في المدينة؟ كدنا نموت على الطريق منذ بعض الوقت!» سألته عمّا حدث، وهل وقع حادث سير. فأجاب: «لا، بل أتى لصّان على درّاجة ناريّة، وأوقفا سيارتنا، وصوّب أحدهما سلاحه نحونا، وفيما طلب الآخر إعطاءه ساعاتنا ومالنا». وواجه «عبد المحمّد» المسلّحَيْن، وصرخ في وجهيهما قائلًا: «ماذا تظنّان أنّكما فاعلان؟ أنتما تسرقان الناس في وضح النهار وبلدنا ينهار!» فطلبا إليه أن يصمت، إلا أنّه عوضًا عن إعطائهما ماله هاجم أحدهما. وفيما هما يتعاركان وسط الشارع، أوعز «عبد المحمّد» إلى بقيّة الرّكاب مهاجمة اللص الآخر؛ لكنّهم لم يتحرّكوا.

رفع الرّجل الثاني رشّاش الكلاشنيكوف لإطلاق النار على «عبد المحمّد»؛ لكنّه لم يستطع التصويب بشكل دقيق، لأنّ الرجلَيْن يتصارعان على الأرض. لم يكن بمقدوره إطلاق النّار على «عبد المحمّد» من دون المخاطرة بحياة صديقه؛ لذا تراجع وصرخ: «دعْه، وإلا سأقتلهم جميعًا». عندها، ارتعد الرّكاب، وطلبوا إلى «عبد المحمّد» أن يدع الرّجل؛ ففعل؛ وهرب اللصان على متن درّاجتهما الناريّة.

تحمّس الجميع لدى سماعهم القصّة؛ فبدأوا بالتخطيط للحاق بالرّجلين، والذهاب إلى منزليهما. بقيت صامتًا حتّى رحل «عبد المحمّد»؛ وحينها قلت: «أوّلًا نحتاج إلى المزيد من الرّجال لتشكيل قوّة قادرة على الصّمود والدّفاع عن نفسها. نحتاج إلى عدد كافٍ من الرّجال لمواجهة هؤلاء اللصوص. ولن تكون هذه المجموعة مسؤولة عن حماية نفسها فحسب بل حماية حقوق الناس. من الخطأ أن نركّز في مشكلاتنا فحسب. علينا أن نتشاور مع أصدقائنا لاستطلاع آرائهم، وإيجاد طريقة لدمج جميع الآراء كي ننجح». وقد وافقني صديقاي الاثنان الرّأي، لكنّهما قالا إن علينا البدء بالتنفيذ في أسرع وقت ممكن.

▲▼▲

بدأنا بمقابلة مجاهدين آخرين وعناصر من «طالبان» نعرفهم منذ أيّام الجهاد ضدّ السوفيات. وبعد بضعة أيّام، قرّرنا عقد اجتماع في «باشمول». حضر ثلاثة وثلاثون شخصًا الاجتماع الذي عُقد في المسجد، والذي ترأسه الملّا عبد الرؤوف آخوند[1]. استمرّت المناقشات لساعات؛ توصّلنا في نهايتها إلى خطّة عمل قضت بأن نطلب دعم المجاهدين و«طالبان»؛ وأن نتخلّص بمساعدتهم من القادة المنشقّين وحواجز الطرق. قررنا إرسال ثلاث مجموعات: الأولى تجتمع بالمجاهدين المتديّنين والشرفاء الّذين لم يشتركوا بالسرقة والنهب، الثانية تجتمع

(١) يعود أصل الملّا عبد الرؤوف آخوند (من قبيلة أليزاي) إلى مقاطعة كَجَكي (في ولاية هلمند) وهو كان قائداً مهمًّا جدًّا في طالبان له مسجد في باشمول. حارَبَ في فترة الجهاد في الثّمانينيات إلى جانب الحاجي محمد آخوند. وقُتِلَ في السّنين الأولى من حكم طالبان أي في العام ١٩٩٤ أو ١٩٩٥.

بـ «طالبان» ورجال آخرين شرفاء لكسب دعمهم أو على الأقل الحصول على وعد منهم بأنّهم لن يقفوا ضدّنا. أما المجموعة الثّالثة فمهمتها لقاء العلماء لاستشارتهم والحصول على دعمهم. وسعينا بالأخص للحصول على موافقة المولوي السيّد «محمّد باساناي صاحب»، وهو قاضٍ معروف يحترمه الجميع. وقد أملنا أن يصدر فتوى تدعم تحرّكنا قانونيًّا. كما اتّفقنا على اجتماع آخر في «باشمول» بعد أن تنهي كل مجموعة عملها، كي تقدّم تقريرها.

مضى شهر قبل الاجتماع الثاني. قدّمت المجموعة الأولى تقريرًا مشجّعًا، وبدا أنّ الكثير من المجاهدين مستعدّون لتقديم الدّعم. إلا أنّ المجموعة الثّانية عادت مع ردود فعل سلبيّة؛ فقادة «طالبان» رفضوا التعاون معنا حتّى أنّ بعضهم عارض مخطّطنا. أمّا جواب المولوي «محمّد باساناي صاحب» فكان إيجابيًّا؛ إلّا أنّه لم يوافق على مخططنا بأكمله. قرّرنا أن نبقي على الخطوط العريضة للخطة رغم انتقاداته. استمر الاجتماع، وطرح موضوع القيادة، وبدأ الحاضرون يناقشون صفات القائد الذي سيكون مسؤولًا عن المجموعة.

اقترح معظم الحاضرين أن أُعيّن قائدًا مؤقّتًا؛ لكنّني لم أعتقد أنّني الشّخص المناسب للمهمّة. وسبب ذلك أن القادة القدامى، حتى أولئك الذين لا يشاركون في النهب، لن يدعمونا بل، سيكونون أوّل الواقفين ضدّنا. لذا من الأفضل اختيار شخص غير معروف، ولا يتبوأ مكانة عالية؛ وبالتّالي ليس له أي علاقة سياسيّة سابقة مع أي من القادة. لذا، وبالاستناد إلى هذه الشروط، لم أعتبر نفسي مناسبًا للمنصب.

عندها قررنا تأجيل البحث في هذه المسألة، حتّى نكون قد بحثنا أكثر عن شخص يمتلك الصفات التي ذكرتها؛ فأرسلت مجموعات للقاء القادة المعروفين مثل المولوي عبد الصّمد[1]، الملّا محمّد عمر آخوند، الملّا عبيد

(١) يعود أصل المولوي عبد الصمد (من قبيلة خنداي) إلى ترين كوت (في ولاية أروزكان) رغم أنّ عائلته أتت أصلاً من مقاطعة أرغستان في ولاية قندهار. وقد تولّى بعد تسلّم طالبان السّلطة منصبَ حاكم مقاطعة سبين بولداك في قندهار أوّلاً ثمّ ترأس وزارة الكهرباء في قنَدهار ومن بعدها ترأس وزارة الزراعة في هلمند. ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

اللَّه آخوند، وغيرهم في «هلمند» مثل عبد الغفّار آخوندزاده[1]، القائد الملّا عبد الواحد[2]، المولوي عطا محمّد[3]. كنت جزءًا من المجموعة التي ذهبت للقاء الملّا عمر آخوند والملّا عبيد اللَّه آخوند، لأنني اقترحتهما، بالنظر إلى قدرات لكل منهما وصفات القيادة التي يمتلكانها.

مضيت برفقة الملّا ستّار[4]، والملّا عطا محمد، إلى سانجيسار، حيث يقع منزل الملّا محمد عمر آخوند. وكانت زوجته قد أنجبت صبيًّا، وكان يومها يقيم تلاوةً للقرآن في منزله. وقد دعا أصدقاءه وأئمة الجامع؛ فانضممنا إليهم وتلونا بعضًا من آيات القرآن. بعد ذلك، صلّينا وجلسنا لنأكل. حين رحل معظم الضيوف، ذهبنا إلى غرفة منفصلة، وأخبرنا الملّا عن اجتماعاتنا السابقة في باشمول، وعن مخططنا. أخبرناه أننا اقترحناه ليكون قائدًا مسؤولًا عن تنفيذ المخطط.

جلس يفكر لبعض الوقت؛ ثم بقي صامتًا قليلًا وهذه عادة من عاداته لم يغيرها قطّ؛ فهو يستمع دائمًا إلى الجميع بتركيز واحترام ولا يقاطع المتكلم أبدًا. وبعد أن ينتهي من الإصغاء، يعطي جوابه بأفكار منظمة ومترابطة. أخيرًا، وافق على مخططنا، واعتبر أنه ضروري. لكنه رفض قبول منصب القائد.

---

(١) يعود أصل عبد الغفار آخوندزاده (من قبيلة أليزاي) إلى زنداهور. اتَّصَفَ في خلال الجهاد في الثّمانينيات بأنَّه قائدٌ مهمٌّ جداً (مع حركة محمدي) على رأس ما بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ رجل مقسَّمين إلى ثلاثة فرقٍ يقاتلون تحت إمرته. وبعد دخول طالبان إلى ولاية هلمند في العامين ١٩٩٤ و١٩٩٥ تميَّز بكونه أحد القادة الكبار الذين قاوموا الحركة فتنازع معها مدّة أشهرٍ عديدةٍ قبل هروبه إلى الباكستان حيث قُتِلَ لاحقاً.

(٢) كان القائد الملّا عبد الواحد (من قبيلة أليزاي) قائدًا معروفًا في الحزب الإسلامي وإنتقل لاحقًا إلى الجمعية برئاسة رباني. احتل مركزًا بارزًا في حكومة طالبان ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٣) يعود أصل المولوي عطا محمد (من قبيلة أشكيزاي) إلى سنجين وقد حارب مع الجمعية كمجاهدٍ عوانٍ في الجهاد في الثّمانينيات. إلّا أنَّه قُتِل في كويتا (نتيجة اعتداءٍ لم تُعرَف هويَّة منفّذيه) في خلال حكم طالبان.

(٤) كان الملّا ستّار (من قبيلة غلزائي) مجاهدًا ارتقى ليصبح قائدًا في خلال حكم طالبان. قُتِلَ في إيرغاناك (قرب ولاية قندوز الشمالية) في خلال هجومٍ جويّ أميركي عام ٢٠٠١.

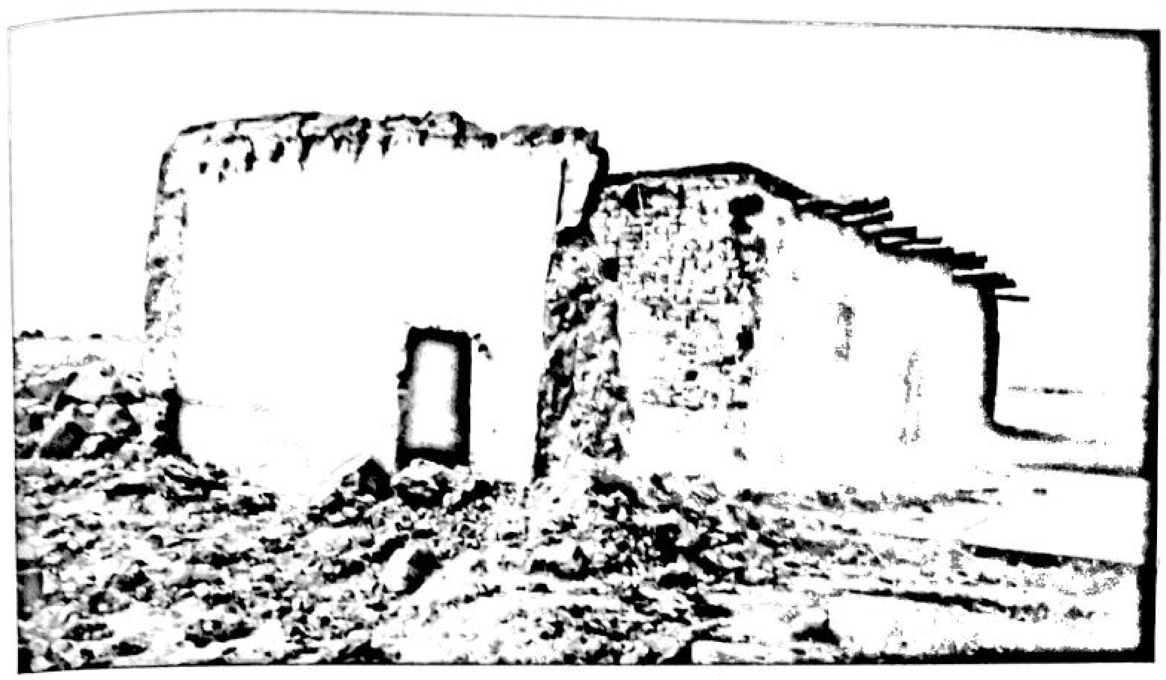
وتوجه بالسؤال إليّ وإلى الملّا الستّار: «لِمَ لم تقبلا هذا المنصب؟» فشرحنا له الأسباب التي أدّت بنا إلى الرفض؛ لكنه لم يبدُ مقتنعًا بما قلنا. واعتبر أن هذه العملية خطيرة؛ وسألنا عن الضمانات التي سيملكها بأن الرجال لن يتخلّوا عنه إذا صعبت المهمة. فأكدنا له أن كل المشتركين مجاهدون حقيقيون، وأن بعضهم من طالبان. بعد هذا الحوار، أخبرنا بأن ثمة آخرين اقترحوا عليه مخططًا مشابهًا. كان الحاجي «بشار»[1] رئيس مقاطعة «كشكينا فود» يشاركنا الرّأي ومستعدًّا لدعمنا.

قال لنا الملّا «محمّد عمر»: «سنبذل أقصى جهودنا»؛ فقد اعتبر أنّ من واجبنا معالجة مشكلات شعبنا قدر الإمكان، وندع الباقي للّه. واستطرد قائلًا: «في النّهاية كل شيء يعتمد على اللّه. سأستشير بعض العلماء، وسنقنع المولوي صاحب باساناي، ثمّ نرى ما نستطيع فعله».

عُقدت كل الاجتماعات، وأُجريت الاستشارات خلال فترة امتدّت من أربعة أسابيع إلى ستّة، بعد الاجتماع الأول في منزلي مع عبد القدّوس وعطا محمّد.

عُقد الاجتماع التّأسيسي بما سيعرف لاحقًا بطالبان، أواخر خريف عام ١٩٩٤. وقد تجمّع حوالي الأربعين أو الخمسين شخصًا في المسجد الأبيض في سانجيسار. وتكلّم خلال الاجتماع كلّ من المولوي صاحب عبد الصمد،

(١) وُلِدَ الحاجي بشّار (من قبيلة نورزاي) عام ١٩٦٤ في جنوب أفغانستان. قاتل في الثمانينيات ضدّ الاتّحاد السوفياتي مع حزب الاتّحاد الإسلامي برئاسة سيّاف ويُزعَمُ أنّه أصبح أحد المتاجرين بالمخدّرات الأكبر في العالم تحت إسم «باولو إسكوبار الأفغانيّ». رَبَطَته بالملّا محمد عمر وبطالبان علاقات قويّة ساعدته في زيادة تعاطيه تجارة الأفيون. وبعد إطاحة طالبان، حاول الحاجي بشّار أن يتّخذ موقفَ الولايات المتّحدة نفسه فسافر إلى نيويورك محاولةً منه لإثبات وفائه لها وأمضى عدّة أيّام في فندقٍ يقع في مانهاتن الدنيا يجيبُ على أسئلةٍ يطرحُها مأمورون حكوميّون أميركيون. تعاونَ الحاجي بشّار معهم آملاً أن يبرهن أنّه يأتي بمنفعةٍ أساسيّةٍ للحكومتَين الأميركية والأفغانيّة. إلّا أنّه تمّ توقيفُه فيما بعد بموجب تهمةٍ مختومة. وبعد محاكمةٍ قصيرةٍ في أواخر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٩، تقرّرَ أنّه مذنب أقامَ «تآمراً للمتاجرة الدّوليّة بالمخدّرات» وفي الأوّل من أيار/مايو ٢٠٠٩، حُكِمَ عليه بالسّجن المؤبّد.



المسجد الأبيض، سانجيسار، إقليم قندهار

الملّا محمد عمر آخوند، الملّا عبد الستار آخوند، والملّا شير محمد مالانغ[1]، ملخّصين مسؤولياتهم.

وعُيّن المولوي عبد الصمد أمير طالبان، والملّا محمد عمر قائدًا لها. وقد أقسم الجميع للملّا محمد عمر على القرآن بأن يقفوا إلى جانبه وأن يحاربوا الفساد والمجرمين. لم يتم وضع قوانين مكتوبة أو شعار أو اسم للحركة خلال الاجتماع.

لكننا قرّرنا أننا نتّبع قانونًا واحدًا هو الشريعة. ونحارب الرذيلة، ونشجّع الفضيلة، ونقف ضد كل من يؤذي وطننا. بُعَيد الاجتماع، أقمنا حاجزًا لنا في هوزي مودات على الطريق الرئيسية التي تصل هرات بقندهار؛ وبدأنا بتطبيق الشريعة في المنطقة المحيطة. كما أرسلنا مجموعات إلى القرى المجاورة لنُعلم

(١) كان الملّا شير محمد مالانغ (من قبيلة بوبلزاي) من قادة الملّا مالانغ خلال فترة الجهاد. خَدَم الملّا شير محمد في شورى قندهار أولاً بعد تسلّم طالبان السلطة في الجنوب في أوساط التسعينيات. وعُيّنَ من ثمّ حاكمًا على ولاية نيمروز وخدم بعد ذلك في الجيش. لا يزال اليوم على قيد الحياة على الرغم من اعتقاله وتوقيفه مدّةً طويلةً في القاعدة الأميركية في منزل الملّا محمد عمر السابق.

السكان بمن نكون، ولنجمع الخبز واللبن[1]. وكانت هذه المهمة من مسؤولية الملّا معصوم[2]. وكان كثير من أفراد طالبان معروفين ومحترمين؛ لذا تحمّس الناس للمساعدة.

في الليلة التالية، أعلنت البي بي سي[3] ولادة حركة جديدة في أفغانستان أنشأتها طالبان في سانجيسار. وبحسب التقرير الذي أذاعته البي بي سي، فإن هدف طالبان هو التخلّص من المجموعات المسلحة غير القانونيّة التي تسرق الناس. كما أعلن التقرير أن أعضاء طالبان لم يصدروا أي بيان رسمي أو إعلان. ولم يوافقوا على أي مقابلة صحافيّة. إلا أن وسائل الإعلام سرعان ما بدأت باختراع أسماء للحركة، مثل «حركة طالبان»، «الحركة الإسلاميّة طالبان»، «فصيلة طالبان»، أو بكل بساطة «الحركة». وعلى الرغم من أن طالبان اتخذت شكلًا واضحًا وأصبحت حقيقية لا يمكن نكرانها؛ فإنني كنت قلقًا لا سيّما بسبب القادة القدامى، الذين سيقفون ضدنا، ولن ينضم رجالهم إلى ما أصبح حركة وطنيّة. كان علينا إيجاد طريقة لدمجهم ضمن صفوفنا.

(١) يشربُ سكّان جنوب أفغانستان عادةً مشروباً من الحليب الحامض مع وجباتهم يدعى «شلومباي» أو لبن العيران. يُصنَع المشروب هذا من اللبن والماء والملح وتُضاف إليه أحياناً قطعٌ صغيرةٌ من الخيار.

(٢) يعود أصل الملّا معصوم (من قبيلة أشكيزاي) إلى طالقان في مقاطعة بانجواي في قندهار، وهو كان مجاهداً مع الملّا الحاجي محمد آخوند، ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٣) كانت إذاعة بي بي سي باشتو (BBC Pashtu) أحد مصادر المعلومات الأكثر احترامًا لدى سكّان جنوب أفغانستان. وكانت إذاعة بي بي سي خلال الثّمانينيات وبداية التسعينيات إذاعةَ الراديو الوحيدة التي تبثّ في المنطقة واعتُبِرَت تقاريرُها صحيحةً تمامًا. أمّا اليوم فانخفضت شعبيّة الإذاعة هذه في الولايات الجنوبيّة ويعود ذلك جزئيًا إلى العدد الكبير للإذاعات البديلة الذي ظهر منذ العام ٢٠٠١.

٨

البداية

عانينا من العوز في أيّام الحركة الأولى. كانت لدينا بعض الأسلحة، لكن افتقرنا إلى السيّارات والأموال. امتلكتُ درّاجة ناريّة وكذلك الملّا عبد الستار، وتبرّعت بالعشرة آلاف أفغاني[1] التي ادَّخرتها في منزلي كاملة، لحساب المجموعة. وضعنا درّاجتينا الناريّتين بتصرّف طالبان. لكنّ محرّك درّاجتي قد تعطّل في اليوم الأوّل، ما ترك درّاجة الملّا ستّار الرّوسية وسيلة النقل الوحيدة المتوفّرة للحركة. لم يكن في الدرّاجة عادم للغازات، فكان هديرها يُسمع على بعد أميال، عبر طرقات الجبال والممرّات الخلفيّة وأسميناها «دبّابة الإسلام».

بعد أن قام الملّا معصوم بزيارة القرى، توافد الناس إلى الحاجز الذي أقمناه ليروا طالبان بأنفسهم. غمر الأمل قلوبهم للمرة الأولى منذ سنوات، وسرعان ما انضمّ إلينا كثيرون ممّن دعموا قضيّتنا. أسبغ طالبان رونقًا على المنطقة، تمامًا كما يجمّل الزهر الصّحراء الأكثر قحطًا. في وقت قصير انضمّ إلينا العشرات من المتطوّعين. وفي الأيام الأولى لانطلاقة الحركة، بات عددنا يناهز الأربعمئة عضو. أُرسلت الدّعوات إلى الناس؛ فتقاطروا من كلّ أنحاء هلمند؛ حتّى أنّ البعض قدموا من الباكستان. وعمد كثير من رجال الأعمال والتّجار إلى التبرّع بالأموال لدعم الحركة.

(١) ما يعادل حوالي ٣٠٠ كيلوغرام من القمح في ذلك الحين أي وجبة غذاء وافرة لما بين ١٠ و١٥ شخصاً في أحد مطاعم قندهار الراقية.

ذات يوم، وصل أحد الرّجال إلى الحاجز يجرّ كيسًا من المال خلفه. قدَّمه إلينا؛ ففتحناه وبدأنا بعدّ النقود. فاق المبلغ التسعين مليون أفغاني، وهو مبلغ خيالي في تلك المرحلة، لم نكن نحلم في الحصول عليه. أدهشنا سخاء الرجل، فعرضنا عليه وصلًا بالأموال التي تبرّع بها والمعروف الذي صنعه؛ إلا أنه رفض قائلًا: «تبرّعت بهذا المال لوجه اللّه وحده. ولا أريد لأحد أن يعلم بما صنعت. لا حاجة إلى وصل، ولا أرغب في الإعلان عن اسمي». وأتى إلينا ناس كثيرون، تبرّعوا، كلٌّ بحسب إمكاناته.

تجوّلنا على امتداد الطّريق من مايواند إلى بانجواي. وانتقلنا من حاجز إلى آخر نبلّغ القادة والعصابات بوجوب إيقاف عمليات الابتزاز والتعرّض للمارّة. تجاهلَنا معظمُهم، بل قام بعضهم بتصعيد العقوبات الوحشيّة التي كانوا يمارسونها. كانوا يرسلون إلينا، مع كلّ سيّارة تعبر حواجزهم، رسائل تحمل الشتيمة وسوء المعاملة. أطلقوا علينا نعوتًا عدَّة، متسوّلين، أبناء مورا[1]، متوحّشين ذوي عمامات... كما تناهت إلى مسامعنا نعوتًا أكثر سوءًا وحقدًا.

كانت نقطة تفتيش دارو خان[2] هي الأقرب إلى نقطة طالبان، تليها ياقوت[3]، بسم اللّه[4]، بير محمّد[5]، صالح؛ وأخيرًا قيّوم خان[6]. هذا في مايواند وبانجواي، لكنّ ثمة مناطق أخرى عانت من أولئك اللّصوص المعروفين قطّاع الطريق الذين

(١) «مورا» هو الاسم الذي يُطلقونه على زوجة الملّا.

(٢) يعود أصل دارو خان (من قبيلة بوبلزاي) إلى كولك (قرب باشمول في بانجواي) وقد قاتل كمجاهدٍ مع الحركة إلّا أنَّه انتقل إلى الاتّحاد الإسلامي برئاسة سيّاف ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٣) يعود أصل ياقوت إلى كولك (في ولاية قندهار) ولم يكُن ياقوت معروفاً في قندهار إلّا بأنَّه مسؤولٌ عن حاجز تفتيشٍ.

(٤) بسم اللّه (من قبيلة أليكوزاي) يتحدّر أصلًا من باشمول، وقاد مجموعة صغيرة في جهاد الثمانينيات. ولكن لم يكن بارزًا في قندهار.

(٥) يعود أصِل بير محمد إلى باشمول وهو قادَ مجموعةً صغيرةً في خلال الجهاد في التسعينيات إلّا أنَّه لم يشكّل شخصيَّةً بارزةً في قندهار.

(٦) يعود أصلِ قيّوم خان إلى باشمول وهو قادَ مجموعةً صغيرةً جدًّا في خلال الجهاد في التسعينيات إلّا أنَّه لم يشكل شخصيَّةً بارزةً في قندهار.

يقومون بنهب المسافرين وابتزازهم. في ذلك الوقت، لم يسعَ طالبان إلى توسيع رقعة انتشارهم خارج هذين الإقليمين. وقد حصرنا اهتمامنا بأصدقائنا وجيراننا، وقرانا ومدننا. انتقل الوضع من سيّىء إلى أسوأ، بحيث بات من الضروري التّحرّك لفعل شيء ما، لكنّ أحدًا لم يحرك ساكنًا للوقوف بوجه شرّ القادة والعصابات. لم يكن بوسعنا سوى إبلاغ هؤلاء بوضع حدّ لتصرّفاتهم. لكنّهم رفضوا التجاوب مع نداءاتنا بإخلاء حواجزهم، فتدهور الوضع أكثر فأكثر.

لم تُجدِ المفاوضات. وكان علينا أن نبرهن للآخرين قدرتنا على الحسم في حالِ تجاهُل مطالبنا. قرّرنا في أحد الاجتماعات أن نهاجم حاجز دارو خان. فتوجّهت قوّة من عشرة أو أحد عشر مزوّدين بقذائف آر. بي. جي، وبعض رشاشات كلاشنيكوف إلى الحاجز، عبر قرية قريبة؛ بينما تقدّم فريق آخر عبر الطّريق. فهاجموا الحاجز من الاتّجاهين، وشعر عناصره بجديّة الموقف: لم يبقَ من مجال للتفاوض أو للتراجع لسبب وحيد، هو أنّهم أجبرونا على مهاجمتهم. وبعد أن قُتل بعض رجاله في تبادل إطلاق النّار، أخذ دارو خان يلتمس العفو بقوله: بحقّ اللّه! إنّ موتي لن يجديكم نفعًا. أنا مسلم جاهدت جنبًا إلى جنب معكم. امنحوني فرصة أخيرة لمغادرة هذا المكان، وسأمتثل لأيّ قرار تصدرونه إليّ. بكلماته هذه، تمكّن دارو خان من خداعنا، ولاذ بالفرار. لمّا رأى ياقوت وبسم اللّه وبير محمّد الهزيمة الّتي مني بها دارو خان، تركوا هم أيضًا نقاط التفتيش التي أقاموها، وانسحبوا من دون قتال. لكن، في مكان أبعد على الطريق، كان صالح يجاهر مفاخرًا بأنّه سيقضي على أبناء مورا وسيدمّرهم، وأنّ أحدًا من طالبان لن يخرج حيًّا.

كان صالح قائدًا لعدد كبير من الرّجال، بلغ المئات أحيانًا. ولم يكن وحيدًا، إذ دعمه قادة من المدينة أمثال الأستاذ عبد الحليم وسركاتب. وقد سرت شائعات بأنّهم يمدّونه بالعديد والعتاد. علم سركاتب والأستاذ بما حدث على نقطة تفتيش دارو خان والآخرين، وكانا يدركان أننا نتقدّم باتّجاههما ولا يفصلنا عنهما سوى صالح. فقررا دعم صالح سعيًا لإبقاء طالبان خارج المدينة. أرسلنا ثلاثة وفود إلى

صالح. وفي النهاية أمهلناه أربعًا وعشرين ساعة ليغادر هو ورجاله نقطة التفتيش، وإلاّ سنشن هجومًا عليهم. فلم يردّ. في اليوم التالي لانقضاء المهلة المحدّدة، لم نتلقّ من صالح أيّ جواب؛ فزحفنا نحوه. وزّعنا قوّاتنا على ثلاث مجموعات، قاد أكبرها عبد القدّوس وندا محمّد، وهما الصديقان اللذان قدما إليّ في المسجد قبل أشهر، وبحوزتهما مخطّط لقتل صالح بجانب النهر.

غطّينا كلّ الطرقات التّي يمكن أن يسلكوها للفرار. وقطعت إحدى المجموعات الطّريق المؤدّية إلى القرية، المجاورة. اقتربت قوّاتنا من ناحية الغرب؛ ففتح صالح النّار علينا، لكنّه سرعان ما توقّف، وحاول، هو ورجاله، الانسحاب باتّجاه القرية. ولم يكن يعلم أنّه يتوجّه مباشرة إلى الكمين الذي نصبناه؛ فوقع بين فكّي مجموعاتنا. حارب رجاله لساعة أو ساعتَيْن، قبل أن يفرّوا باتّجاه المدينة. هربوا وتركوا لنا مخزونًا كبيرًا من الأسلحة والذخيرة.

استولينا على القاعدة العسكريّة، واكتشفنا سريعًا جثّتي امرأتين عاريتين من هرات مرميّتين في حفرة خلف القاعدة. كنّا قد سمعنا من المسافرين أنّ صالحًا ورجاله تعوّدوا إرغام النّساء على النّزول من الباصات، والاعتداء عليهنّ. عرفنا لاحقًا أن تينك المرأتين كانتا مسافرتين من هرات إلى قندهار. كانت آثار الضرب والاغتصاب بادية على جسديهما. هالنا المنظر، وتملّك الغضب الجميع، وبات حينها جليًّا لكلّ النّاس صواب المهمّة التي تولّيناها. وتنامت شعبيّتنا، ودعمنا، في أوساط السكّان.

▲▼▲

أمّا الحاجي بشّار، مدير مقاطعة كشكينا خود، فقد سلّم منطقته إلى طالبان، رغم أنّ أحدًا لم يطلب إليه ذلك. وسبق له أن تبرّع بسيّارة تويوتا داتسن وشاحنة هينو. أمّا عبد الواصي[1]، وهو مجاهد شجاع وتاجر معروف، قاتل مع الملّا الرّاحل

(١) يعود أصل عبد الواصي (وهو من قبيلةٍ مجهولةٍ) إلى مقاطعة بانجواي وهو ابنُ غلام دستغير.

عبد الحي، فقد تبرّع بسيّارة لاند كروزر. والحاجي بشّار مجاهد قوي وقائد جبهة في حزب الجامعة[1] خلال الحرب ضد الرّوس ورغم أنّه أصغر منّا سنًّا، فإنه قد تميّز بالشّجاعة والكرم. كما أدّى دورًا أساسيًّا في الجهاد، وشارك معنا في معظم العمليّات العسكريّة. لذا كان مسرورًا حين سلّمَ منطقته. وما زلت أذكر كيف وقف في وسط سوق كشكينا خود وطلب أن يكون أوّلَ من تُطبّق عليه أحكام الشّريعة، إذ قال حينها: «أنا فخور بكوني أوّل من يضع نفسه تحت طوع الشّريعة بإرادته». كما سأل طالبان أن يتم حلق شعره[2] أوّلًا كدرس لسكّان منطقته.

بالإضافة إلى الحاجي بشّار، قدّم الملّا نقيب دعمه إلى طالبان. وهو قائد قبيلة أليكوزاي، وعُرف بمحاربته للروس في مقاطعة أرغنداب. واعتُبر من أقوى القادة في قندهار وقتذاك وربّما كان أقواهم على الإطلاق إذ لم يتغلّب أحد على قبيلته في القتال. وبالنظر إلى قوّته هذه، حاول كثير من القادة إقناع الملّا نقيب بالوقوف ضدّ طالبان، ومنعنا من دخول المدينة. لكنّه عوضًا عن محاربتنا، سلّمنا منطقة هندو كوتاي التي تقع داخل حدود المدينة، ولم نكن نتوقّع ذلك على الإطلاق. وهندو كوتاي قاعدتُه ضمن المدينة، وفيها تمركز معظم رجاله آنذاك.

انتشرت أخبار نجاح طالبان ودعم الملّا نقيب بسرعة. ممّا دفع المزيد من النّاس للانضمام إلينا. ولحق الملّا نقيب الملّا محمّد ربّاني آخوند[3] الذي انضمّ إلى طالبان. وبذلك أصبحت مقاطعة أدغستان الواقعة جنوب شرقي البلاد تحت سيطرتنا. وسرعان ما أصبحنا معروفين في كل أفغانستان.

(١) تميّز حزب الجامعة بأنّه أحد الأحزاب الأكثر شهرة وتمويلاً في خلال الجهاد في الثمانينيات. وقد انتسب إليه الكثير من القادة الأكثر أهمّيّةً في جنوب أفغانستان بمن فيهم الملّا نقيب اللّه والقائد عبد الرزاق (كلاهما من قبيلة أليكوزاي) وحبيب اللّه خان (من قبيلة أليزاي).

(٢) شكّل الشّعر الطويل التّصفيف الرائد في ذلك الحين وشكّل لذلك حلقُ شعر الرّأس علامةَ خضوعٍ وطاعةٍ شديدةً.

(٣) كان الملّا محمد رباني آخوند (من قبيلة كاكار) قائدًا في الحزب الإسلامي (في خليص) في خلال الجهاد في الثمانينيات فقاد ستّ مجموعات تضمُّ بمجموعها حوالي ١٢٠ مقاتلاً.

وفي يوم من الأيّام، قدم عزيز اللّه واصفي[١] ووالد حميد كرزاي[٢] إلى هندو كوتاي، لمحادثتنا. ولا أذكر إن كان حميد كرزاي معهم أم لا، لأنني لم أحضر الاجتماع. حينها جلست على سطح منزلٍ مُطل على الحديقة الأماميّة والإجتماع معقود في غرفة تقع تحتي. وممن شاركوا فيه كرزاي، واصفي، الملّا محمّد ربّاني، الملّا برجان. تكلّم الجميع بأصواتٍ منخفضة. ورغم أنّني لم أكن معهم فإنني قد استطعت سماع أجزاء من حديثهم. استنتجت أنّهم يناقشون بعض الخطط؛ لكنّ الملّا محمّد ربّاني والملاّ برجان لم يوافقا على ما قاله الباقون؛ لذا كانت أصواتهم ترتفع أحيانًا.

كما أتى عدّة ممثّلين عن الصّليب الأحمر ومنظّمات أخرى إلى هندو كوتاي. وزارنا الصحافيّون ومن حين إلى آخر. لكنّنا لم نكترث لأمرهم؛ فقد كانت طلباتهم كثيرة. طلب صحافي مرّةً محادثتي. ولأننا ممنوعون من التّحدث إلى الصّحافة؛ قلت له إن عليه الرجوع إلى القيادة. لكنه اعتبر ما قلته دعوة لطرح المزيد من الأسئلة عن قيادة طالبان. قلت له إنّ الملّا محمّد ربّاني والملّا برجان هما القائدان، وأنهما ليسا في القاعدة الآن. كما حاول صحافيون كثرٌ إيجاد من يحاورونه. ولكن طالبان حافظوا على خصوصيتهم.

▲▼▲

(١) دَعَمَ الكبيرُ القبليّ عزيز اللّه واصفي (من قبيلة أليكوزاي) عودةَ الملك السابق زهير شاه وزارَ أميركا في بداية التسعينيات إلّا أنَّه سكنَ في الباكستان بعد استلام طالبان السلطة.

(٢) يعودُ أصل حميد كرزاي (من قبيلة بوبلزاي) إلى كارز (في مقاطعة داند في ولاية قندهار) وقد وُلِدَ هناك في العام ١٩٥٧. أمّا والده فكان قائدَ قبيلته وشخصيّةً معروفةً (وخَدَمَ أيضًا كعضوٍ في البرلمان خلال حكم زهير شاه). وفي فترة الغزو السوفياتي، كان حميد يتابع دروسه في الهند. ثمَّ عملَ حميد في الباكستان ضابطَ اتّصالٍ للمجاهدين في خلال الثمانينيات. فكرَ في الانضمام إلى حكومة طالبان في العام ١٩٩٤ إلّا أنَّه راح في النهاية يحاولُ تجنيد المعارضة ضدّها. كما عملَ فترةً قصيرةً مستشارًا في شركة أونوكال للنفط إلا أنَّه اختيرَ بعد سقوط طالبان في العام ٢٠٠١ رئيساً للجمهوريّة في العام ٢٠٠٢ وانتُخِبَ لولايةٍ ثانيةٍ في العام ٢٠٠٤. ولا يزال يتولّى منصب رئيس جمهوريّة أفغانستان منذ آذار/مارس ٢٠٠٩.

برحيل صالح، استطاعت طالبان إخلاء كل حواجز الطرق، ومن دون قتال معظم الأحيان. وكان أحد هذه الحواجز يخضع لسيطرة نادر خان[1] ويقع على تقاطع شاه آغا. قرّر «نادر» المقاومة في بادئ الأمر؛ وأنذرناه ثلاث مرّات طالبين إليه الرحيل ولم يمتثلْ. لكنّه بمجرّد أن أحسّ بقرب القتال، هرب. وبرحيله، لم يبق من حواجز سوى تلك التي سيطر عليها سر كاتب عطا محمّد، والأستاذ عبد الحليم. وبدا لنا أنهما يملكان رجالًا أكثر من المجموعات الأخرى التي واجهناها؛ وأنهما أقوى منها.

حتّى ذلك الحين، كنّا نمرّ بحرّية عبر الأراضي الّتي يسيطران عليها؛ لكنّ العداء بيننا كان علنيًّا؛ وكانا يتصرّفان بعدائية كلّما مررنا في أراضيهما. ونحن لا هدف لنا سوى التخلُّص من كل المجموعات المسلّحة المنتشرة على الطرقات، ومصادرة كل الأسلحة الثّقيلة. لكنّ سر كاتب والأستاذ عبد الحليم رفضا تسليم أسلحتهما لطالبان. ونتيجةً لذلك، توتّرت الأجواء بين الملّا نقيب وسر كاتب. وراح القتال يدور بين قوتيهما يوميًّا.

حاولت طالبان مرارًا أن تقنع سر كاتب بالانضمام إلى قوّاتها؛ لكنّه كان يرفض في كل مرّة. كما أرسلنا ثلاثة وفود عرضت عليه سيّارات وأسلحة كلاشنيكوف والسماح له بالمرور عبر أراضينا مقابل رحيله؛ لكنّه أوقف أعضاء الوفود وسجنهم. تبيّن لنا حينها أنّنا أتحنا له كل الفرص الممكنة؛ لكنّ الأوضاع راحت تسوأ يومًا بعد يوم. بعد ذلك، تلقّينا تقريرًا فحواه أن سر كاتب ينوي اغتيال الملّا محمد عمر. وقضت خطّته بأن يهاجم موكب قائدنا على الطّريق الذي يصل منزله بالمدينة. لذلك اضطرّ الملّا محمّد عمر أن يتوقّف عن المرور بتلك الطّريق لأنها لم تعد آمنة.

توسّعت الحركة في جميع أنحاء قندهار، وفي مقاطعات عدّة في آن، حتّى

(١) يعود أصل نادر خان (من قبيلة أليكوزاي) إلى مقاطعة أرغنداب في ولاية قندهار وهو كان أخا زوجة الملّا نقيب الله، وهو قائدُ قبيلة أليكوزاي وكبيرُها. وعُرِفَ الرّجُلان بالعلاقة السيّئة بينهما. قُتِلَ نادر خان في كشكيناخود في العام ١٩٩٥ إلى جانب صديقَين له.

أصبحت ثلاث فصائل مختلفة تعمل بشكلٍ شبه مستقل الواحدة عن الأخرى. عندها، قرّر الملّا محمّد عمر ضرورة توحيد الحركة؛ فدعا الملّا محمّد ربّاني آخوند والمولوي عبد الرزاق[١] لاجتماع أقسم خلاله الاثنان على القرآن الكريم باتباع الملّا محمّد عمر. وبذلك توحّدت الفصائل الثلاث تحت قيادته.

بعد ذلك، نفّذنا هجومًا مفاجئًا على مركز مقاطعة سبين بولدان قرب الحدود الباكستانيّة؛ فأرسلنا شاحنات عدّة إلى السّوق الأساسية. وترجّلت قوّاتنا فجأة من الشّاحنات قرب مركز الشّرطة. يومذاك، سيطرنا على المقاطعة بأكملها في خلال خمس عشرة دقيقة فقط. وبعد هذا الهجوم هرب الملّا أخطر خان[٢]. أمّا رجاله، فانضم معظمهم الى طالبان، ورجع الباقون إلى منازلهم. وفي اليوم التالي، أخلينا مراكز محمد نبي[٣] من غرا وروت. وتقدمت طالبان إلى جسر ميل آتين من بولداك. أما الشاه باران، فقد سحب رجاله، الذين أدمنوا تدخين الحشيشة والغليون، من حاجز الطريق قبل وصولنا. بيد أن المنطقة الواقعة بين تختبول وبوزوسوكاي كانت تحت سيطرة منصور[٤] الذي استعد ورجاله للقتال وكنت حينها في هندو كوتاي.

وُضع تحت إمرتي خمسة عشر رجلًا. وطُلب إليّ أن أسيطر على منطقة ناريدالاي مكتب قرب مقر الأستاذ عبدالحليم؛ وأن أصد أي هجوم محتمل. وعلى

---

(١) كان المولوي عبد الرزاق (من قبيلة نورزاي) أصلاً من مقاطعة سبين بولداك في ولاية قندهار وكان قائداً كبيراً في الحركة خلال الجهاد في الثمانينيات وأصبح فيما بعد أمين السرّ المسؤول عن الماليّة لولاية هرات في خلال فترة حكم طالبان. ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٢) قاتل الملّا أخطر خان (من قبيلة نورزاي) إلى جانب الحزب الإسلامي في الجهاد في الثمانينيات. شغل مركز رئيس مقاطعة سبين بولداك في خلال فترة حكم حكومة ربّاني. ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٣) قاتل محمد نبي (من قبيلة نورزاي) في خلال الجهاد في الثمانينيات لكنّه لم يكن منتسبًا رسميًا إلى أيّ من «أحزاب المجاهدين» في الباكستان. ويُزعَم أنَّ الكثير من المدنيّين قُتلوا في حواجز التفتيش التي كان يديرُها هو وقد هرب إلى الباكستان بعد استلام طالبان السلطة.

(٤) كان منصور (من قبيلة أشكيزاي) أحد قادة عصمت مسلم. أدار حاجز تفتيش على الطريق السريع إلّا أنّه قُتِلَ في رجيستان وهو يقاومُ طالبان في ٣٠ تشرين الأوّل/أكتوبر ١٩٩٤ فكان أحد قادة الميليشيا الأوائل الذين أعدمهم طالبان شنقاً وعُرِضَت جثّته بارزةً قرب الطريق السريع لعدّة أيام.

الرغم من أنني لم أرد تولّي أي مسؤولية، وأنني قمت بعدة محاولات لتجنُّبها، فإن معركة قاسية دارت من جهة تختبول خلال ذلك الوقت؛ ممّا أجبرني على التصرُّف. في ظهيرة ذلك اليوم، أرسل سر كاتب والأستاذ عبد الحليم عسكرهما والدوشكا إلى تختبول، عبر ماهالاجات. استخفَّ رجال الأستاذ بقدراتنا، وراحوا يقولون للجميع: «إذا احتجتم إلى أقمشة لعمائمكم، فتعالوا غدًا، وخذوا كل ما أردتم من جثث رجال طالبان».

يومها، تمركزوا عند مدخل السجن بدبابتين ودوشكا[1]، في حين لم يكن بحوزتنا سوى آر. بي. جي واحد وبعض رشاشات الكلاشنيكوف. كانت أسلحتهم أكثر وأقوى من أسلحتنا، وكان علينا إحضار أسلحة أفضل سريعًا. عدت بسرعة إلى هندو كوتاي، لأحضر سلاحًا من عيار ٨٢ ملم. ورأيت الملّا نقيب والملّا برجان جالسَيْن معًا في القاعدة. وبعد التحية، شرحت المشكلة لـ «الملّا برجان». وقلت له إنّني بحاجة إلى سلاح من عيار ٨٢ ملم، لأن قوّات الأستاذ أتت على متن دبّابتين. فقال «الملّا نقيب»: «إنّ قلق رجل واحد يؤثّر أحيانًا على الجميع، يا طالب! لا تقلق! إذا أحضروا دبّابتين، فامضِ إليهم بثلاث!» قلت له: «لكنّنا لا نملك دبّابات يا ملّا صاحب»؛ فنظر إليّ وابتسم. وأشار إلى مبنى القوات العسكريّة قائلًا: «هذا المبنى مليء بالدّبابات، وكلّها بخدمتك». كنت ولا أزال ممتنًّا للملّا نقيب بخصوص كلماته المشجّعة في تلك المناسبة. بعدها، رجعت إلى موقعي.

أرسل رجال الأستاذ وفدًا ترأسّه رجل اسمه معلّم. أمرنا الوفد بالرحيل؛ فشرحت له أنّ الأوامر لدينا تقضي بتأمين المنطقة، وأنّ عليهم الرجوع إلى قادتنا. لكنّهم بدأوا بشتمنا، ورحلوا وهم يصرخون: «سنتعامل معكم غدًا!» بعد رحيلهم، بقينا نراقب الوضع جيّدًا، بانتظار أي حركة من تختبول. وعند السّاعة العاشرة من تلك الليلة، أتى مرسال ليبلغنا أنّ قواتنا سيطرت على تختبول؛ وأنّ مهمتنا تقتضي بتأمين الطريق ومنع أي شخص من دخول المدينة عبر سربوزا.

(١) صُنِعَ المدفع الرشاش الدوشكا في الاتحاد السوفياتي وهو يستطيع أن يطلق حتّى ٦٠٠ طلقةٍ في الدقيقة في نطاقٍ أقصاه ١٥٠٠ متر للأهداف البرّية.

عند منتصف الليل، اقتربت سيّارة من موقعنا آتيةً من تختبول استطعنا رؤية أضوائها، وهي تقترب ببطءٍ نحونا. ورغم بعد المسافة، سمعناهم يصرخون: «يا طالبان، لا تطلقوا النار! لا تطلقوا النار! أتينا للتحدّث معكم!». نكّسنا أسلحتنا؛ ورحّبت بهم. اتّضح أنّه الأستاذ عبد الحليم بنفسه قد أتى يسأل عن الملّا برجان. أجبته قائلًا: «هو ليس معنا، وربّما كان في هندو كوتاي». فقال إثر ذلك إنه يريد المضيّ إلى هناك للتحدّث معه أو مع أيٍ من قادة طالبان الكبار. فأجبته بأنّ الأوامر لديّ تقضي بألا أدع أحدًا يمر. فبدا متفاجئًا وقال: «أنا الأستاذ! حتى أنا ممنوع من المرور؟» فأجبته بأنّني أعرف من هو، وأنني رغم ذلك ليس بمقدوري أن أدع أحدًا يمر.

في بادئ الأمر، غضب الأستاذ. لكنه عندما لاحظ أنّ غضبه لم يفضِ إلى شيء، خفض صوته، وتكلّم بهدوء. ورغم كل محاولاته، لم نسمح له بالمرور؛ فقرر الرّحيل أخيرًا. إلا أنّه عاد بعد ساعة قائلًا إنّ لديه رسالة مهمّة، وإنّه صديق وخادم طالبان، بل كلب طالبان. ورغم كل ذلك، لم نسمح له بالمرور.

بعد رحيله، تذكّرت ما حدث خلال جهادنا ضدّ السوفيات والنّظام التّابع لهم في كابول. حينها، انقلب الأستاذ ضد العلماء باحثًا عن مصالحه الخاصة. وتناهت إلينا شائعات تقول إنّه لم يذكرنا إلا بالشتيمة. وتداول الناس أخبارًا فحواها بأنّه يسرق المدنيين، ويمنع المجاهدين من المشاركة في الجهاد المقدّس عبر سرقة أسلحتهم. كما سمعنا أنّه زوّد الحكومة بمعلومات عن قوّات المجاهدين، بل إنه ساعدهم مرات عدّة في أمور لوجستية. وليسَ خافيًا على أحد أنّ لديه صلات قويّة بجبّار[1]، وأنّه التقاه مرارًا. لذا قرّرت جهات طالبان

(١) أتى جبّار «قهرمان» (ترجمته الحرفيّة جبّار «البطل» وهو أحد الألقاب التي أطلقَها السوفيات أحياناً على المقاتلين الأفغانيّين) من قبيلة نورزاي وأدارَ ميليشيا ناجحةً جدًّا في جنوب أفغانستان في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات. يعود أصلُه إلى كردناي (في مقاطعة سبين بولداك) وقد انتشرت عنه سمعةٌ سيّئةٌ في ولاية قندهار اليوم تعود إلى أيّام إدارته الميليشيا. وهو يعيشُ اليوم في موسكو.

الست[1] التي تحارب ضد السوفيات الاجتماع في منزل «الملّا الحاجي محمّد عمر». ووصلنا إلى اتّفاق سريع قضى بأن نجرّد الأستاذ من سلاحه. وبطريقةٍ ما علم بأمر الاجتماع وبوقته ومكانه. وظهر فجأة من دون دعوة في بيت «الملّا الحاجي محمّد عمر»[2]، حيث كنا نجلس.

تفاجأ الجميع برؤيته. وصُدمنا حين جلس، وبدأ بالتكلم من دون أي عذر. وقال: «إنّ هذه فرصة جيّدة للجميع فكل المحترمين تجمّعوا هنا. أنتم قادة جبهات طالبان الست وعلماء محترمون. وأنا جندي متواضع بخدمتكم بل أنا ابنكم. وإنني أحرص على تنفيذ جميع أوامركم مهما تكن. إن أردتم سجني، فأنا مستعد؛ وإن أردتم قتلي، فأنا مستعد». جلسنا صامتين بعد كلامه، ولم يجرؤ أي منّا على الكلام. لقد قاطع الحديث ولم يعرف أحد كيف يرد على مقاطعته هذه. ظلّ جميع من في الغرفة صامتين لبعض الوقت. ولا زلت أذكر أنّني تساءلت عن الطّريقة التي علم بها بانعقاد الاجتماع. مَن أخبره؟ أبلغنا أن لا علاقة له مع الشيوعيين، وأنّه لا يسيء إلى النّاس ولا يعذّبهم. وقال إنّ أحدًا كان يكذب بشأنه آنذاك، قرّرنا أن نصدّقه.

لاحقًا، علمنا أنّ الأستاذ كان يتعاون مع السوفيات والحكومة الأفغانيّة. وكان لدينا إثبات بأنّه يتلقّى مُرتّبًا ثابتًا من كابول. كما هاجم الحج بشّار وقرى الصّحراء والطّريق بمساندة قوّات الحكومة المتمركزة في كشكينا فود. وكنت يومها هناك. وسمعت أحاديثهم عبر الجهاز اللاسلكي. وعادت ذكريات خيانته إليّ، حين كنت واقفًا مع رجالي في هندو كوتاي، وحين كان الأستاذ يحاول المرور.

مرّت تلك اللّيلة من دون أن يحدث شيء آخر يذكر. وعندما أشرقت الشمس،

(١) أدار جبهات طالبان الست الملّا برجان والمولوي عبد الصمد والملّا عبيد الله والحاجي الملّا محمد والملّا عبد الستار والملّا عباس. أمّا قادة الجبهات هذه فكانوا الملّا محمد صادق والملّا الحاجي محمد وفدا محمد وحفيظ الله آخوندزاده ولالا مالانغ (الذي عُرِفَ أيضاً بإسم أكبر آغا) والشهيد رحمة الله خان.

(٢) كان الملّا الحاجي محمد عمر قائداً معروفاً في منطقة باشمول حارَبَ إلى جانب الملّا برجان والملّا محمد حسن. وهو ليس نفسه القائد في طالبان الملّا محمد عمر (الذي لا يحمل لقب الحاجي).

اختفى هو ورجاله، بالإضافة إلى الدّبابات والسّيارات. وفي الليلة نفسها، سيطر طالبان على مطار قندهار. وبحلول الساعة التاسعة صباحًا، دخل رجالنا المدينة عبر بوابة «هرات»[1]. ولم يقاوم طالبان سوى بعض رجال غول آغا شيرزاي[2] في شكاربور بازار. أمّا باقي قندهار، فقد سقطت تحت سيطرتنا من دون إطلاق أي رصاصة. وبالمقابل خضعت المنطقة الواقعة بين باغي بول ومرواس مينا لسيطرة سر كاتب الذي احتجز رجاله الحاجي ملّا برجان آخوند والحاجي أمير محمّد آغا[3]. كما أغلقوا الطرق المؤدية إلى بانجواي.

آنذاك، وصلتني رسالة مضمونها أنّ أحد أفراد عائلتي مريض، وأنّ عليّ العودة فورًا إلى المنزل؛ فسلّمت القيادة إلى الحاجي الملّا عبد السّتّار آخوند، وصعدت إلى متن الباص. وحين اقترب الباص من مرواس مينا، رأيت عشرة رجال يقفون إلى جانب الطريق مع رشّاشات بي كاي وطلقات تلفّ أجسادهم. أوقف الرجال الباص وبدأوا بتفتيشه اقترب أحدهم ليسأل السائق إن كان معهم أي رجل من طالبان. جلست وأنا أرتعد، ورغم أنّ السائق قال إنّ كل الرّكاب من بانجواي، وأنّ لا أحد على متن الباص من رجال طالبان، فإنني خفضت رأسي، ونزعت العمامةَ عن رأسي ووضعت واحدةً تعود لراكبٍ آخر. يشهد اللّه أنّني خفت على حياتي وأنا جالس في ذلك الباص. ولكن وللّه الحمد، لم يلاحظ الرجال وجودي؛ وأكملنا طريقنا إلى بانجواي.

بقيت هناك فيما خسر سركاتب المعركة. أمّا مدينة قندهار، فقد سلّمها الملّا نقيب إلى طالبان بمحض إرادته. بعد ذلك، عُيّن الحاجي الملّا عبيد اللّه قائدًا

(١) تقع بوابة هرات في وسط مدينة قندهار بالقرب من قصر الحاكم.

(٢) يُشار إلى أنَّ القادة لم يستطيعوا ضبطَ رجالهم في كلّ حين.

(٣) يعودُ أصل الحاجي أمير محمد آغا (من قبيلة نصر) إلى جيلاهور (في مقاطعة أرغنداب في قندهار). قاتل أوّلاً مع الحركة في خلال الجهاد في الثمانينيات ثمّ انتقلَ إلى الاتّحاد الإسلامي برئاسة سيّاف. وقد تزوَّجَت ابنتُه من الملّا محمد عمر ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

لقوات قندهار، وعُيّن الملّا محمّد حسن[١] حاكمًا؛ وأخطر محمّد منصور[٢] قائدًا للقوّات الجويّة، والشهيد الملّا عبد السلام[٣] القائد الإقليمي للجيش. وقُسّمت سلطة إدارة الأقسام على أشخاص عدة. ونعمت المدينة بالسلام. وزالت حينها العادات القديمة كالاحتفاظ بالصبية، والخيانة الزوجيّة، والنهب، والحواجز غير القانونيّة، وسلطة السلاح. وعاد السكان إلى حياتهم الاعتيادية، ونعموا بالرضا لأول مرة منذ سنوات.

▲▼▲

بسقوط قندهار، بدأت طالبان تعيدُ تأسيس نظام القضاء في الجنوب فأنشأت محاكم عدّة. وبدأ القضاة بالبتّ في الخلافات. أمّا أنا، فقد عيّنني الملّا محمّد عمر لأكون مساعد المولوي باساناي صاحب في محكمته، وقد عُيّن قاضيًا في محكمة الاستئناف، وكانت مكاتبه في آرغ[٤] خلف الولاية[٥]. ولطالما عُرِف بأحكامه العادلة. فكل من جيء به إلى محكمته يتلقّى المعاملة نفسها والحكم نفسه حتّى وإن كان من أقربائه أو أصدقائه. فقد اتّبع أوامر اللّه وحكم الشريعة. وما زلت أذكر الكثير من القضايا التي حكم بها، وبخاصة قضيّتان.

(١) قاتل الملّا محمد حسن (من قبيلة بابور) مع الحركة خلال الجهاد في الثمانينيات. عُيِّنَ حاكمًا على قندهار في العام ١٩٩٤ بعد سيطرة طالبان على الحكم. ويبقى الالتباس فيما يخصُّ وجود شخصيَّةٍ أخرى باسم الملّا محمد حسن الذي حَكَمَ هو أيضاً قندهار (فيما بعد). ويُمَيَّزُ الملّا محمد حسن اللاحق هذا (الذي قاتَلَ هو أيضًا مع الحركة) بأنَّ له رِجلٌ واحدةٌ فقط وبأنَّه من قبيلة أشكيزاي.

(٢) يعود أصلُ أخطر محمد منصور (من قبيلة أشكيزاي) إلى بند التيمور (في مقاطعة مايواند في ولاية قندهار) وهو حاربَ كمجاهدٍ مع الملّا فيض اللّه آخوند والمولوي عبيد اللّه في خلال الجهاد في الثمانينيات. ولا يزال اليوم على قيد الحياة.

(٣) يعود أصل الملّا عبد السلام إلى شنرتو (في مقاطعة شاه ولي كوت في قندهار) وهو عُيِّنَ قائدًا للجيش بعد سيطرة طالبان على المدينة. حارَبَ كمجاهدٍ في خلال الجهاد في الثمانينيات إلى جانب الملّا شيرين في زيلاخان.

(٤) يُقال أنَّ «آرغ» أو قلعة قندهار بُنِيَت خلال أوائل القرن التاسع عشر وأنَّ حكّام قندهار سكنوها في فترةٍ معيَّنةٍ.

(٥) تقعُ الولاية وهي قصرُ الحاكم في وسط مدينة قندهار بالقرب من بوابة هرات.

كان هناك مكان قرب «باشمول» اسمه «تلّة شكر»، حيث نُفّذت معظم أحكام جرائم القتل. وحين كان أحد المدانين يُساق إلى الجبل لتلقّي عقابه، اقتضى دورنا تأمين المنطقة. «توان» على سبيل المثال، الذي عُرف أيضًا بقربان، ذبح رجلًا بدمٍ بارد مستخدمًا سكّينًا في قرية شارشاخا، وهي القرية التي قضيت فيها طفولتي. فأُحضر إلى تلّة شكر، حيث كان والد الضحية وعائلته ينتظران. حين وصل توان إلى الساحة الخالية، بدأ الناس بطلب السماح من والد الضحية، كما جرت العادة وشرح العالِم فضيلة التسامح، فيما عرض آخرون المال. وعرض بعض القادة تقديم خمسين رشاش كلاشنيكوف وبعض المال بالنيابة عن المحكوم. لكن كل ذلك لم يقنع والد الضحية بمسامحة الرجل. لذا أعطاه العاملون هناك سكّينًا، وأحضروا توان مكبّل اليدين والرجلين.

اقترب الوالد منه ببطء وهو يشمّر عن ساعديه. ركع أولًا على الأرض ثم صرخ: «اللّٰه أكبر!» ووضع السكين على رقبة توان ثم أرجعه، ورفعه نحو السماء وقال: «انظر! إن اللّٰه أعطاني هذه القوّة، لا أحد سيخلّصك منّي سوى اللّٰه، أنت قتلت ابني بوحشية من دون أي سبب شرعي. لذا وبالاستناد إلى الشريعة، أعطاني اللّٰه الحق بأن أنتقم لابني الحبيب أو أن أسامحك كرمى للّٰه. لكن التسامح يرضي اللّٰه أكثر من الانتقام. لذا أنا أسامحك كي يرضى اللّٰه عني؛ وهو سينتقم منك في يوم الحساب».

رمى الوالد السكّين جانبًا؛ وبدأ الناس بالتكبير، فيما أطلق البعض الرصاص ابتهاجًا. وانطلق الناس نحو الوالد لتقبيل يديْه وقدمَيْه. أما توان، فقد فكّ أحدهم وثاقه؛ لكنه عجز عن الحركة أو الكلام لمدة خمس دقائق. هنّأه الناس على الفرصة غير المتوقّعة التي حصل عليها. وأخبروه بأن عليه أن يكرّس نفسه للإسلام وعبادة اللّٰه. كما قال البعض له: «لقد أظهر اللّٰه الرحمة تجاهك، يجب عليك أن تندم على ما فعلت، وألا تعيد الكرة أبدًا». حينها، اقتنعت بأن الرجل لن يرتكب جريمة أخرى ثانيةً؛ لكنه سرعان ما ارتكب جريمة قتل. كما سمعت أنه قُتل وهو يرتكب جريمة سرقة، بعد فترة قصيرة.

من القضايا الأخرى التي حكم فيها المولوي باساناي، حادثة مقتل عائلة كاملة وضيفها على يد رجل يدعى محمّد نبي من مخيّم غردي جنغال. وقعت الجريمة في منزل العديل الأسبق للجاني، الملقّب بالبعجة. استُقبل نبي في منزل عديله استقبالًا حارًّا. وصل لزيارة العائلة ضيف آخر، وجلس الجميع للعشاء. حلّ الظلام؛ فقرّر الضّيفان النوم في المنزل المذكور، وحلاّ في غرفة الضّيوف، بينما انسحب أعضاء العائلة كلّ إلى غرفته. وعندما خلد الجميع إلى النوم، قام محمّد نبي، وهو جزّار محترف، وحمل ساطوره، وقطع رأس الضّيف النائم إلى جانبه في الغرفة. وتنقّل من ثم في أرجاء البيت فقتل جميع أفراد العائلة، واحدًا واحدًا؛ فكان مجموع الضّحايا إحدى عشرة: امرأة ورجلان وثمانية أطفال، أحدهم رضيع في الشهر السادس.

قبل أن يغادر المنزل، عمد الجزّار إلى تقطيع جميع الجثث أجزاء وأنزلها إلى الطابق السفلي. اعتقله المجاهدون لاحقًا في مخيم بانجواي ببالوشيستان؛ ونقلوه إلى قندهار حيث أقرّ بفعلته. لكنّه لم يصرّح إطلاقًا عن الدّافع الذي جعله يرتكب جريمته. خلال جلسات المحاكمة وفترة اعتقاله، كرّر محمّد نبي الطّلب بأن يُقتل. كان الأطفال يلاحقونه في أحلامه كلّ ليلة، وأطرافهم بين يديه، والدّماء في كلّ مكان. يأتون إليه كل ليلة، ويسألونه: لماذا قتلتنا بهذه الوحشيّة؟ وماذا ترانا فعلنا لك لنستحق ذلك؟ أصبح محمد نبي عاجزًا عن النوم. ولطالما عبّر عن ذلك لهيئة القضاة، قائلًا «قلبي مثقل جدًّا، ارحموني واقتلوني عاجلًا».

وبالفعل، حُكم عليه بالإعدام وتقرّر تنفيذ الحكم على ضفّة النهر بين كوشكاك ونلغام. تجمّع أقارب العائلة وأصدقاؤها وبعض المدعوين. وانتدبوا رجلين منهما ليقتصّا من الجاني المسؤول عن مقتل أفراد عائلتهم. كان الرجلان شقيقي إحدى الضّحايا. لم يطلب أحد الرحمة لمحمد نبي، حين وصل إلى ساحة الإعدام: لا الناس العاديّون ولا رجال الدين، رغم أن المولوي باساناي صاحب دعا العلماء للصلاة من أجله وطلب الرحمة له. ولم يأتِ أحد من أهل محمد نبي، أو أصدقائه لتسلُّم جثّته.

فذهبت إلى القاضي مولوي صاحب وطلبت الإذن بأن يصلي محمد نبي

ركعتين وأن يُلقَّن الشهادة. وبإذن من مولوي صاحب، توجّهت إلى محمد نبي. أبلغته أن الأقرباء قد وصلوا، وهم يريدون الثأر منه لما فعل. وهذا هو الوقت المناسب له ليتّجه نحو الكعبة ويصلّي صلاة أخيرة يشهد فيها لإيمانه. لكنّ محمد نبي نظر إليّ مباشرة وقال «اقتلوني الآن. لا أزال أرى هؤلاء الأطفال المقطوعي الأطراف بين يدي. أنا عاجز عن الصّلاة، وأي شهادة إيمان». تفاجأت، بل صعقت لردّ فعله. رجوته أن يعيد التّفكير ثانية بالموضوع. حاولت لبعض الوقت أن أقنعه بتغيير رأيه؛ لكن العبارة الوحيدة التي كان ينطق بها هي: «اقتلوني فحسب». في النهاية، طلب إليّ المولوي صاحب أن أدعه وشأنه. بقيت إلى جانبه أحاول إقناعه بالتوبة حتّى اللحظة الأخيرة، حين أطلق عليه أقرباء الضحايا النار فأردوه. قُتل دون أن يصلّي أو يتشهّد.

أصيب أهل الضحايا بحالة من النشوة لدى إطلاق النار، وبدأوا بالصراخ ورمي عماماتهم في الجو. أما أنا، فرأيت بمحمد برهانًا على أن الرجل المجرم يموت دون أن تكون له القدرة على الصلاة أو الشهادة. فما دام اللّه لا يهدي الإنسان، يبقى الإنسان عاجزًا عن سلوك الصراط المستقيم، على الرغم من اختباراته ومدى ألمه.

▲▼▲

مضى وقتٌ قبل أن أقرر الذهاب إلى ديلارام في مقاطعة فرح. كانت معظم قوات طالبان قد توجّهت نحو كابول، أو لا تزال منشغلة بالقتال في الشرق ضد إسماعيل خان، الذي حرَّك رجاله من الغرب باتجاهنا في آذار/مارس ١٩٩٥. كنت متمركزًا في سانغيلان حين صددنا هجومه الأول. وعندما حاول التقدّم مجدّدا، وجّهنا ضربة موجعة إلى قوّاته؛ فتشتّت من ديلارام باتجاه أبي خورما، وهي منطقة واقعة بين شينداند ونهر فرح. أصبت في ساقي خلال معركة أبي خورما؛ وأُرسلت إلى المستشفى الصيني[1] في مدينة قندهار لتلقّي العلاج.

---

(١) هو مستشفى مرويس في قندهار (يُعرَفُ أيضاً بـ «المستشفى الصينيّ» بسبب الدّعم والتمويلِ اللذين يتلقّاهما من الصّين). شكّلَت سابقاً الأرض التي بُنِيَ عليها حدائق زهورٍ ثمَّ بُنِيَ المستشفى في خلال ولاية أمان اللّه خان في أوائل القرن العشرين.

حين تحسّنت صحّتي، غادرت المستشفى، وتوجّهت إلى منزل المولوي باساناي، وأنا لا أزال ضعيفًا. ولم يكن جرحي قد تماثل للشفاء تمامًا، حين مضيت لزيارة المولوي صاحب. لم يأتِ هو لزيارتي منذ عودتي، وكنت أتساءل عن السبب: تراني أغضبته، أو خيّبت أمله في شيء؟ حين وصلت إلى مكتبه، كان القضاة جميعًا حاضرين هناك: الحاجي بابا، مولوي أحمد صاحب، مولوي عبيد اللّٰه صاحب[1]. وجميعًا يجلسون في المكتب مع مولوي باساناي صاحب، الذي حيّاني ببرودة لدى دخولي الغرفة.

بادرني بالقول: «عبد السّلام! لقد عملت معك لوقت طويل، ووضعت فيك ثقتي أكثر مما فعلت مع أي شخص آخر؛ فلماذا أصدرت رخصة عمل الحاجي أمان اللّٰه؟». اختلف الحاجي أمان اللّٰه مع أخيه، الحاجي إبراهيم، على أمور تختصّ بالعمل. كان الاثنان يملكان متاجر ومكاتب في قندهار، وكتّا، وكابول، وبيشاور. ولمّا اختلفا، قرّر مولوي باساناي تعليق الأعمال حتّى تعود الأمور إلى مجاريها. أصيب باساناي صاحب بقصْر في النظر، وبات شبه عاجز عن الرؤية، فقضيتُ قسطًا كبيرًا من وقتي معه، أراقب وأساعد في اتخاذ القرارات، وغالبًا ما كنت أنا من يكتبها له، ولم يكن عليه سوى التوقيع.

لم يكن المولوي يثق بالناس في ميدان عمله. وفي الفترة التي ذهبت فيها إلى ديلارام، وأقمتُ هناك شهرًا وأربعة أيام، شغل مولوي عبيد منصبي. وهو من كتَب ووقّع الترخيص الحاجي أمان اللّٰه الذي سُمح له بمتابعة عمله. ثمّ مُرّر المستند إلى مولوي صاحب الذي وقّعه وختمه دون أن يطّلع على مضمونه. عندما علم شقيق أمان اللّٰه أنه عاد لممارسة التجارة، أتى واشتكى إلى المولوي صاحب، وأرفق شكواه بنسخة عن الرخصة الأصلية، طالبًا أن يمنح هو أيضًا الحق بالمزاولة. ولمّا لم يكن مولوي باساناي على علم بأنه قد وقّع مسبقًا هذه الوثيقة، فقد أخبر شقيق الحاجي أمان اللّٰه أن الوثيقة غير صادرة عنه.

(١) هذا الشخص ليس عبيد اللّٰه الذي صار وزير دفاع طالبان، بل هو المولوي عبيد اللّٰه القاضي والمعلم الإسلامي من لوي ويالا (في مدينة قندهار). قد يكون لا يزال على قيد الحياة.

عندها، توجّه إلى مولوي عبيد اللّه الذي أنكر بدوره إصدار الوثيقة وادّعى أنني أنا المسؤول عن ذلك. حدث ما حدث وأنا في ديلارام، وحجّة غيابي جليّة جدًا لا لبس فيها. احتفظ مولوي باساناي صاحب بالمستند ليسألني عنه شخصيًا. لم أضع نفسي يومًا موضع شك بخصوص عملي. لكنّ وجودي يومها في ذلك المكتب أشعرني بأنني مذنب. وضعني مولوي باساناي موضع الاتهام ولم يتح لي الفرصة كي أجيبَ أو أدافع عن نفسي تجاه التهم الموجّهة إليّ.

فاجأني تصرُّفه وطريقة استقباله لي فقلت: «مولوي صاحب! لم أفعل يومًا ما قد يؤذي صيتك أو شرفك خلال السنوات الماضية، فلماذا أفعله اليوم؟ أنا لم أعلم بهذا الأمر ولا ناقة لي فيه ولا جمل!». نظر إلي حينها، وسحب المستند من الملف الخاص الذي تعوَّد أن يحمله معه، ومدّه إليّ، قائلًا: «ها هو المستند!». حين نظرت إليه، أدركت مباشرة ما كانت المشكلة. فجلبت عدسة مكبّرة حتى يتمكّن المولوي باساناي من قراءة المستند بنفسه. بعد أن أمعنت النظر في قراءة الورقة، رددتها إليه.

هنا بدا الاضطراب على مولوي عبيد اللّه، واقترح على مولوي باساناي أن ينسى الموضوع، فهو عديم الأهمية في نهاية المطاف، في حين أن هذه المسألة كانت في الواقع مهمَّة جدًا لي ولمولوي باساناي. خلال تفحّصه الورقة، سألته: «مولوي صاحب، أتظنّ أن هذا الخط خطي؟ تفحّص الكلمات والحروف، أنت تعرف خطّ يدي منذ أكثر من عشر سنوات. أأكون أنا من كتب هذه الرخصة أم شخص آخر؟». نظر مولوي صاحب إلى الحروف باهتمام بالغ، وأمعن النظر فيها جيّدا، قبل أن يجيبني. ثم أجاب بعد قليل «هذا ليس خطّك». عاودت سؤاله: «أتعلم من خطّ هذه الورقة؟». لم يستطع التعرّف إلى الكاتب، فأخبرته أن من كتب الرخصة يمسك بيده.. وقلت: «هذا عمل مولوي صاحب عبيد اللّه، الجالس قربك الآن».

استشاط مولوي باساناي غضبًا، واستدار نحو مولوي عبيد اللّه وأوسعه ضربًا

بكلتا يديه، حتّى أنّه ركله وطرده من مكتبه تحت وقع الشّتائم والضرب. بعد الحادثة، استقال عبيد اللّه من منصبه. وارتأيت أن من الأفضل أن أتوقّف عن العمل مع مولوي باساناي، إذ لم أرد أن أقع ضحيّة أحداث أخرى قد تلطّخ الصّيت الحسن الذي بنيته في السنوات العشر الماضية.

طلب مولوي باساناي إليّ العودة مرات عدّة؛ ووصل به الأمر أن يرسل الحاجي عبيد اللّه آخوند والحاجي عبد السّتّار آخوند لإقناعي، لكنني رفضت.

٩

القاعدة الإداريّة

لم أكن قد تماثلت للشفاء الكامل من إصابتي، حين انتصرت قواتنا على إسماعيل خان[١] ودخلت إلى هرات في مطلع أيلول/سبتمبر ١٩٩٥. كنت لا أزال في فترة النقاهة، فلم أتمكّن من المساعدة إلا بالقليل، من داخل مبنى المجلس العسكري، من خلال إنجاز بعض الأعمال اللوجستية، أو عملي في الإذاعة من وقت إلى آخر.

كنت أجلس في غرفة الإذاعة يوم اتّصل بي الملّا عمر، وطلب إلي المجيء إلى مكتبه. قال لي لدى وصولي: «عد إلى منزلك الليلة، ووضّب أغراضك؛ غدًا سنرحل. لم أسألْه لا عن الوجهة ولا عن المدّة. رجعت إلى المنزل، وضّبت بعضًا من أمتعتي، ورجعت إلى المركز في اليوم التالي. كانت بانتظارنا خمس سيارات جيب فانطلقنا قافلة واحدة إلى قندهار. وسلكنا الطريق عبر مايواند، وعبرنا نهر أرغنداب في وجهتنا نحو لاشكارغاه[٢]، في غيرشك[٣] توقّفنا في

(١) وُلد إسماعيل خان عام ١٩٤٦ في شنداند (قرب هرات). قاتل في غرب أفغانستان ضدّ السوفيات والتحق بحزب الجامعة الإسلامي. لعب دورًا مهمًّا في سياسة أفغانستان كوزير طاقة.

(٢) لاشكارغاه هي المدينة المركزية في هلمند، وكان عدد سكانها تقريبًا ٢١ ألفًا في أواخر السبعينيّات، وهو عدد أقل بكثير من عدد السكّان الحالي. بُنيت هذه المدينة في موقع بلدة قديمة يعود تاريخها إلى عهد السلطان محمود الغازني، كانت تشتهر بمكبس القطن الذي عملَ تحت إشراف شركة بوست، كما عُرفت بطبيعة نهرها والغابة في بولان. وكان هناك أيضًا مصنع حجارة ونجارة إذ اشتهرت هلمند بحجارة الروخان التي صقلها هذا المصنع.

(٣) كانت غيرشك قرية صغيرة في أيام طالبان عكس يومنا هذا ولكنّها اشتهرت بعدد سكّانها الذي تجاوز عدد سكّان لاشكارغاه في ذلك الوقت. تقع هذه القرية على الطريق بين هرات وقندهار.

القاعدة العسكرية الأساسية، حيث استقبلنا الملّا مير حمزة آخوند(١) بحرارة، وقدّم إلينا الطّعام والشّاي. بعد الغداء، حطّت مروحيّتان في حقل قريب، أقلّت إحداهما الملّا محمد عمر صاحب؛ وأقلّتني المروحية الثانية أنا والحاجي ملّا يار محمد آخوند (الذي استشهد لاحقًا).

أقلعت المروحيتان وتوجّهتا إلى الشمال الشرقي. فعبرنا هلمند وفرح في مقاطعة هرات. وحلّقنا فوق صحراء بكوى، وشاهدنا السهول في الغرب مع الجبال التي تبدأ من شرق الوسط. هبطت بنا المروحيتان في ساحة صغيرة قرب قاعدة هرات العسكرية. ونقلَنا موكبٌ إلى باغي أزادي(٢)، حيث تقع المضافة العائدة إلى الحاكم. كان بانتظارنا هناك عددٌ من الأشخاص! توجّهنا مباشرة إلى الاجتماع، حيث قام الملّا محمد عمر صاحب بتعيين بعض الأشخاص في مناصب حكومية مختلفة في هرات.

تسلّم الحاجي الملّا يار محمد(٣) حكم هرات، والملّا عبد السلام(٤) قيادة جيش هرات. وأصبح الملّا سراج الدين(٥) قائد فرقة عسكرية، ومُنح الملّا معز اللّه

---

(١) كان الملّا مير حمزة آخوند (من قبيلة نورزاي) من محافظة ده راود في محافظة أوروزغان وكان قائد محافظة غيرشك في أوائل حكم طالبان.

(٢) سمّى طالبان هذه الحرب في ما بعد باغي إسلامي (الحديقة الإسلاميّة). أنشئت في عهد الملك ظاهر شاه وسمّيت في البدء باغي شاهي (الحديقة الملوكيّة). عاش ظاهر شاه فيها وانتقل من ثمّ إلى هرات. وكانت ملتقى مسؤولين في الحكومة ومسؤولين رفيعي الشأن. وبعدَ سقوط النظام الشيوعيّ وانتصار المجاهدين، سُمّيت باغي أزادي (حديقة الحريّة) ولا يمكن أن يدخلها الناس العاديّون والحرس يحميها.

(٣) وجد سكان هرات الحاجي ملّا يار محمد أكثر اعتدالاً من باقي طالبان. فقد جرت مرة تظاهرة نسائية في المدينة، وراح طالبان يرشون المتظاهرات بالمياه من خراطيم الدفاع المدني. إلا أن الملّا يار، حين عرف بالوسائل المستخدمة ضد المتظاهرات أدانها ومنع استخدامها ضد النساء، وراح يتحدث بهذا الشأن من المسؤولين المحليين الكبار.

(٤) لم يكن سكّان هرات يحبّون الملّا عبد السلام. اعتُبر مستقلًّا من كابول ومن كلّ السلطات التي كان يتولّاها في تسلسل طالبان الهرمي. عانى ألمًا مزمنًا وصار مدمنًا على حقن بنتازوكين (الأفيونية).

(٥) كان الملّا سراج الدين (من قبيلة نورزاي) قائدًا صاحب نفوذٍ وترأس قوّات الحدود في حكم طالبان. واعتبره سكّان هرات القائد الأقسى في طالبان.

الذي استشهد فيما بعد مركز قيادة الشرطة الإقليمية. أما أنا فاضطلعت بمسؤولية المصارف. في اليوم الثاني، أدخلني الحاكم في أجواء وظيفتي الجديدة.

حكم إسماعيل خان غرب أفغانستان، وجعل هرات عاصمته، وهو الوحيد بين زعماء الحرب والحكام وقادة القبائل الذي اعتلى السّلطة في غياب نظام حقيقي، لكنّه لم يتوانَ عن خدمة شعبه. عُرف اسماعيل خان بلقب «أمير الغرب»، وقد أدار منطقته عبر منظومة من المؤسّسات في غياب حكومة مركزية. واستثمر أموال الضرائب التي فرضها على التجارة عبر الحدود الإيرانية، لتطوير المدينة والمناطق المحيطة. حين استلمت إدارة مصارف هرات، أجريت استطلاعًا للتدقيق في جميع الحسابات والممتلكات.

كان في هرات أربعة مصارف، يديرها المصرف المركزي. ومصرف أفغانستان المركزي، مصرف التجارة الباشتاني، هو مصرف وطني، يهتمّ بالصناعة والتنمية، ويمتلك احتياطات ماليّة مهمّة. لم يتأذّ النظام المصرفي في هرات، بل كان أكثر تطوّرًا من سائر الأنظمة المعمول بها في البلاد. وقد استخدم الناس الحسابات المصرفية والقروض على نطاق واسع، لتأسيس الأعمال، وتمويل الاستثمارات. امتلك المصرف المركزي الأفغاني في هرات لوحده احتياطًا يعادل ٤٠ مليار أفغاني، وثلاثمئة ألف دولار أميركي، فضلًا عن الروبيات الباكستانية. ووجدنا في خزائن المصرف عملاتٍ قديمة وذهبًا وفضة، وكمّية صغيرة من البلاتين.

كان الموظّفون المدنيون في المصرف من الناس العاديين، واتّصفوا بأن كلامهم كلام ثقة يعتمد عليه، ما سمح بإدارة المؤسسة بنجاح. لكن لم يخلُ المصرف من بعض عناصر المخابرات، ومعظمهم من الشيوعيين السابقين. في الأيام الأولى لوصولي، قَدم إلي جميع العاملين في المصرف وعملاء الوكالات الاستخباراتية، وعرّفوا أنفسهم. وشرح كلّ منهم وظيفته ومسؤوليّته، ما سمح لي بأن أعرف عن شقيق إسماعيل خان الذي يعمل أيضًا في المصرف.

كان السكان يزعمون أنه لا يزال على اتّصال بأخيه، ويسرّب له المعلومات. لكنّهم لم يمتلكوا أيّ إثبات على ذلك. وجدت من الطبيعي أن يأتي الموظّفون

إليّ ليعرّفوا عن أنفسهم. لكن الغريب أنهم كانوا جميعًا يبدأون حديثهم بتوجيه التهم إلى شقيق إسماعيل خان. ظننتُ في البداية أن إسماعيل خان ملك أكثر مما هو حاكم. وكانت مفاجأتي كبيرة، حين رأيت كيف أدار الناس ظهورهم له. واظب هؤلاء على زيارتي بشكل يوميّ في مكتبي. محاولين إقناعي بسجن شقيق إسماعيل.

تبيّن لي أن الوفاء لم يعد له أثر في نفوس البشر. وتحفّظت كثيرًا عن الثقة التي يمكن أن أضعها في أشخاص كهؤلاء. اتّصلت بمحمّد أنور[١]، شقيق إسماعيل خان، وطلبت إليه المجيء إلى مكتبي. بدا لي خائفًا ومرتبكًا من موضوع الاجتماع. رحّبت به، ودعوته لارتشاف الشاي. وأخبرته أن هدفي من اللقاء التعرُّف إليه، والتأكيد له أن أحدًا لن يتعرّض له، أو لعائلته بأي شكل من الأشكال.

قلت له حرفيًا: «محمد أنور، أنت شقيق إسماعيل خان، لكنّك أخ لنا أيضًا. صدّقني، نحن لا نضمر لك أي سوء. عد إلى عملك؛ وإن واجهت أي مشكلة فلا تتردّد في الاتّصال بي، سوف أبذل ما بوسعي لحلّها». تولّيت إدارة المصارف في هرات لسنتين تقريبًا. وخلال هذه الفترة، عمل محمد في المصرف كأي موظّف آخر، ولم أسمح لأي شخص بإزعاجه.

استمتعت بالحياة في هرات. يعود الفضل إلى إسماعيل خان بتطوير البنى التّحتية في المدينة. ورغم أن السكان أخافونا في البداية، فإننا لمسنا لديهم حسن الضيافة والودّ والحماسة في العمل لخدمة بلدهم. وتميّزوا بمسالمتهم وتقديرهم للتعليم. وعرفوا باحترام المبادىء والقيم. كما برعوا في إدارة الأعمال، وراعوا الكبار في السن؛ فحاول طالبان خدمتهم على أكمل وجه، محافظين على الأمن ومحترمين القانون.

قرّرتُ بعد حوالي السنتين أن أعودَ إلى المنزل؛ على أثر وصول رسالة من

(١) محمد أنور لا يزال على قيد الحياة ويعيش في هرات.

زوجتي تُخبرني فيها أنّ ابننا مريضٌ. فذهبتُ إلى الحاكم، وتوسّلتهُ أن يجد من يحلّ محلّي في المصرف؛ لكنّه لم يردني أن أغادرَ ولم يعيّن مديرًا جديدًا. ولكن على الرّغم من أنّني لم أحصل على إذن رسميّ في المغادرة، فقد تهيأتُ لمغادرة هرات. وعهدتُ بمسؤولياتي إلى نائبي، ومضيت بسيارة من المكتب قاصدًا البيت. وحين عدتُ إلى قندهار، أعدتُ السيارة إلى المكتب التابع للحكومة، وقصدت منزلي في الحاجي خشكيار كالا بالقرب من صالحان.

أردتُ أن أتوقّف عن العمل في إدارات الحكومة لفترة ما. وتطلّعتُ إلى المضيّ على خطى والدي؛ فأُصبحَ إمام جامع، حيثُ يصبح بمقدوري قضاء وقتي في التعلُّم وتعليم القرآن الكريم والإسلام. هذه هي الحياة التي أطمحُ إلى تحقيقها حتى اليوم. فهذا عملٌ لا صلةَ له بإدارة الأعمال في العالم، بل هو نداءٌ للكرامة العسكرية بعيدٌ عن مخاطر السلطة وتجاربها. ولطالما كنت في حياتي كلّها، وفي صغري أيضًا، سعيدًا في الدراسة، وتعلّم أمور جديدة. فالعمل في إدارات الحكومة يُعرّضُ حياتكَ للفساد والظلم. وفيه تولدُ مأساة البشرية.

▲▼▲

بعدَ أن عدتُ إلى هرات، قرّرتُ البقاء في البيت شهرًا، لأراجعَ حصيلة السنوات القليلة السّابقة، يوم نابَ عنّي أخي في المسجد، بعدَ أن أنهى دراستهُ وعادَ إلى المنزل. لكن، قبل عودتي إلى المسجد، أرسل إليّ الملّا محمد عمر سيّارةً لإحضاري، هو الذي أصبحَ آنذاك يُعرفُ «بأمير المؤمنين»[1]. جلسنا في مكتبه، وراح يسألني عن صحّتي وعائلتي؛ ثم قالَ لي: «من الجيّد أنّكَ توقّفتَ شهرًا عن العمل؛ فالراحةُ أمرٌ جيّد. لكن عليكَ العودة إلى العمل الآن».

أصبحت كابول ذلك اليوم بأيدي طالبان. وأرادني الملّا صاحب أمير المؤمنين، أن أتولّى إدارة وزارة الدفاع الوطنيّة. فكتبَ ورقةً رسميةً لتعييني. وعلى الرغم من

(١) راجع: Gannon, 2006.

أنّني لم أكن أُريد العمل مع الحكومة، فإنني لم أستطع أن أرفضَ طلبه. ذلك أنني قد أقسمتُ في سانجيسار أن أتبعهُ وأقفَ معه. فإذا أرادني في كابول، فلن أتوانى عن المضي إلى هناك. وضّبت أمتعتي، وودّعتُ أسرتي، وغادرتُ إلى كابول.

خلال وجودي في هرات، كان طالبان قد بلغوا العاصمة. وكان الملّا محمد ربّاني والملّا عبد الرّزاق قد نشرا الأمن في المدينة؛ فأنهيا القتال بين الحزب الإسلامي والقائد غلب الدّين حكمتيار، وأحمد شاه مسعود. وهذه المرّة الأولى التي أزور فيها كابول، كأيّ زميل لي في طالبان.

وجدت طالبان يباشرون تطبيق الشريعة: لم تعد النسوة يعملن في الإدارات الحكومية، وبدأ الرجالُ في المدينة يُطيلون لحاهم. ترافق ذلك مع رجوع الحياة في المدينة إلى طبيعتها. فرجعَ الناسُ إلى التسوُّق، وتحسّن الأمنُ على الصعيد اليومي، على الرغم من حظر التجوال الذي فُرضَ في بعض الأماكن. لكن قضى الكثير في القتال، وبات كثير من الأشخاص يعانون اضطراباتٍ نفسيّة. لم يبقَ إلّا القليل من الإدارة السابقة: فقد تمّ نهبُ معظم المكاتب، وعمّت الفوضى إدارات الحكومة. كما دُمّرت أجزاءٌ من المدينة دمارًا شاملًا؛ وأمست معظمُ الوزارات تحت الأنقاض.

ومن حُسنِ حظّي أن مبنى وزارة الدفاع بقيَ سليمًا. وحين وصلتُ، وتسلّمتُ مسؤولياتي، لم يكن هناك أيّ ميزانية. ولم يعلم أحدٌ ما قد تبلغه نفقات الوزارة. معظمُ المكاتب خالية؛ ذلك أن معظم الموظّفين كانوا على علاقات مع حلفائهم في الشمال؛ فهربوا من كابول. وهناك آخرون لم يعلموا أنّ الوزارة قد عاودت عملها فلم يأتوا إلى العمل. كان من الصعب عليّ أن أعملَ في كل تلك الفوضى، وأن أحاول الاستقرار في مدينةٍ جديدةٍ وغريبة عني. فبدوت وكأنني أتنقّلُ في حقلٍ للألغام، حين كان الموظّفون يتنازعون.

لكن على الرغم من أنني كنتُ جديدًا في هذه الوظيفة، فإنني نلت ترقيةً، وأصبحتُ نائبًا لوزير الدفاع. فكنتُ مسؤولًا عن الأمور الماليّة واللوجستية في الوزارة. وغالبًا ما مثّلتُ وزير الدفاع. وحين أُصيبَ الملّا عبيد الله، وزير الدفاع في مير باشا كوت، وهي محافظةٌ في كابول، وذهبَ إلى الباكستان للعلاج، نبتُّ

عنه لتسعةَ أشهرٍ، في حين اهتمَّ قائد الجيش الملّا فضل آخوند[١]، مع معاونَيْه الملّا خان محمد[٢] والملّا محمد نعيم آخوند[٣]، بإدارة الأمور العسكرية.

قمنا بتخصيص ميزانيَّتين للوزارة: الميزانية السنوية موّلها البنك المركزي، وكرِّست للمرتَّبات والأعمال الإداريّة، وأحيانًا لصفقات مع وزارات أخرى؛ وميزانية مستقلّة مُرسلةٌ نقدًا من قندهار، استخدمت لتأمين المستلزمات اللوجستية والبنزين ومتطلبات الجهات العسكرية. ذلك أن البنزين وحاجاتٍ أخرى لقوّات يجري توفيرها لطالبان عبر النقل الجوي. أما الجهات الأخرى في تاغاب ونجراب، وصولًا إلى نعمان وباباجان، وهي مناطق قريبة من كابول، فالمساعدات تصلها برًّا.

لكن في أواسط شهر أيلول/سبتمبر، حين وقعت باميان في أيدي طالبان، أمست الميزانية التي تلزم الجبهات في الأسبوع الواحد بحدود ٣٠٠ ألف دولار أميركي. وغالبًا ما نقصنا المال لذلك، لذا وُجبَ علينا ترشيد النفقات. وكان على وزارة الدفاع مُمثَّلة بوزير الدفاع ونائبه، أن توقّع على عمليّات تحويل الأموال. لقد اتَّبعنا هذه الآلية في الوزارة لنكون على علم بالأشخاص الذين حصلوا على المال، ولكي تكون الوزارة متّسمة بالشفافية. غطّت الميزانية الثانية أيضًا كلفة التنقّل، وميزانية المخابرات والضرائب والتكاليف اللوجستية لما يحتاجه بعضُ القادة الحلفاء للطالبان بالإضافة إلى التكاليف الطبيّة للموظفين.

▲▼▲

(١) كان الملّا فضل آخوند (من قبيلة كاكار) رئيس فيلق الجيش تحت حكم طالبان. يتحدّر أصلا من تيرين كوت (ولاية أوروزغان)، وكان قد قاتل باعتباره مجاهدًا خلال جهاد الثمانينيّات ولكنّه لم يكن مشهورًا بصفته قائدًا خلال تلك الفترة. تم القبض عليه في العام ٢٠٠١ بعد استسلامه مع ١٠ آلاف جندي من طالبان للجنرال دوستم، ولا يزال محتجزًا في سجن غوانتانامو.

(٢) الملّا محمد خان آخوند (من قبيلة أليزاي) يتحدّر في الأصل من محافظة بغران في ولاية هلمند. وكان قد حارب خلال الثمانينيّات باعتباره مجاهدًا وكان صديقًا للحاجي الريس من بغران. وقد قتل في حي شكردارا في محافظة كابول في العام ٢٠٠٠.

(٣) يتحدّر محمد نعيم آخوند أصلاً من أوروزغان. كان صديقًا للملّا غلام رسول (من محافظة بغران في ولاية هلمند). قُتِل محمد نعيم آخوند في المعركة النهائية في تخار في العام ٢٠٠١.

على الرغم من أننا وضعنا آلية فعّالة في الوزارة إلا أنّها واجهت العديد من المشكلات. فلطالما تذمّر الجيش من عدم كفاية المؤن. لكن أصعبَ المواقف التي واجهتها خلال عملي في وزارة الدفاع كان تداعيات خيانة مالك[1] لقوّات طالبان في الشمال. كان مالك قد دعا طالبان للانضمام إليه في حصنه الشمالي في مزار شريف وقد وصلت بعثة كبيرة إلى هناك وبعدَ وصولها إلى بول الخمري مرورًا بنفق سالانغ[2] في شمال كابول، انقلبَ عبد البصير سلنغي على طالبان؛ وهاجمهم في غلبهار وجبال السراج؛ وذلك في أوائل صيف ١٩٩٧.

تمّ إغلاق الطريق السريعة، وعلقَ حوالي ستة آلاف من طالبان محاصرين بين خنجان وبول الخمري. وكانوا يُواجهون العدوّ من كلا الطرفين: قوّات مسعود من طرف، وقوّات مالك وسيّد منصور نادري من طرف آخر. فقاتلوا حتى نفد منهم الرصاص. ولم يبقَ معهم أيّ مؤن؛ فقرّروا الانسحاب إلى بغلان كلاجئين لدى بشير بغلاني[3].

تمكّنَ طالبان، بدعم من مجموعاتٍ محلّية ومن قادة سابقين أمثال أرباب هاشم خان وعارف خان، من فتح طريقٍ إلى قندوز؛ وصمدوا أربعَ سنواتٍ، حتى استطاعت مجموعاتنا من الوصول إلى الشمال واحتلاله.

وكانت الطريقة الوحيدة لإمداد قندوز بالمساعدات هي عبرَ الجوّ. فكانت

(١) كان الجنرال مالك القائد الثاني لدوستم في شمال أفغانستان. قُتل شقيقه في حزيران/يونيو ١٩٩٦ وكان يعرف أنّ حياته مهدّدة. وقد اتّفق مع حركة طالبان أن يُسلّمهم الشمال ولكنّه تراجع عن موقفه فطرد وقتل قوات طالبان (تقرير منظمة العفو الدولية يقدّر عدد القتلى بحوالى ٢٠٠٠). وفي أيّار/مايو ١٩٩٧ كان قائدًا عسكريًّا كبيرًا في شمال أفغانستان لبضعة أشهر حتى منتصف تشرين الثاني/نوفمبر عندها أفادت التقارير أنه قد فرّ من البلاد.

(٢) بنى خبراء سوفيات ممر سالانغ والنفق وأصبحا قابلين للاستخدام العام في العام ١٩٦٤. يبلغ ارتفاع النفق ١١ ألف قدم وطوله ١,٧ ميل، هو نفق طويل ويُعدّ إنجازا هندسيًّا في ذلك الوقت. وغالبًا ما نُصبت هنا الكمائن للقوات السوفياتية خلال الثمانينيّات.

(٣) كان بشير بغلاني قائدًا ناشطًا في الحزب الإسلامي في بغلان. كما خدم كقائد طالباني بعدَ أن قضى عامًا في سجن قندهار. كان حاكمًا على محافظتي بدغيس وفرح في حكومة كرزاي. توفّي إثرَ ذبحة قلبيّة في نيسان/أبريل ٢٠٠٧.

الطائرات تُقلع من يرغنك، وتحطّ في مدرج صغير في قندوز؛ وهي تتعرّض لهجوم مستمرّ؛ فتُطلَق الصواريخ وقذائف الآر.بي.جي على الطائرة، وهي تقترب من المدرَّج. فأُسقط الكثير من الطائرات، واضطر بعضها إلى الهبوط الطارىء. وقد رفضَ كثير من الطيّارين معاودة الطيران. وفي بعض الأحيان، كانت الطائرات تعود إلى كابول، دون أن تهبط في قندوز. فقرّرنا إعطاء كلّ طيّار مستعدّ للطيران والهبوط في قندوز خمسة ملايين أفغاني[1] فوافق الجميع على القيام بذلك، حتى في الأوضاع الحسّاسة. فكانت هذه طريقة لإمداد طالبان في قندوز بالمؤن. وكانت الطائرات نفسها تنقل الجثث والمصابين في صفوف طالبان.

أمّا الطريقة الأخرى، فكانت عبرَ البرّ، مرورًا قربَ خطوط العدوّ؛ حيث أعطت مجموعاتنا الرّشى لقادة ورجال مسعود ومالك لكي يسمحوا لها بالمرور بشاحناتها المحمّلة طعامًا ووقودًا وموادّ أخرى. وهذا ما حدث أيضًا في تخار ومزار الشريف، فقد تمّ إعطاء الرشوة لقادة معروفين جدًّا. وكان الفيول أحد أهمّ الموارد المرسلة إلى قندوز.

عمد قادة طالبان في الشمال، لتأمين احتياجاتهم من الذخيرة، إلى التموّن من قادة العدوّ من ذوي المراتب المتدنّية. كان هؤلاء يقاتلون ضد طالبان في النّهار، بينما يفتحون في الليل مخازنهم لبيع السّلاح لنا. بهذه الطريقة، بات تأمين الرصاص والقذائف يسير الكلفة، ويتمّ على نحو منتظم وكافٍ.

في المقابل، على أرض المعركة، كان الدّور الحاسم في نجاح طالبان للملّا داد اللّه آخوند[2]، قائد طالبان في قندوز. يجمع من عايشوا تلك المرحلة على

(١) كانت خمسة ملايين أفغانيّة تُساوي تقريبًا ٦٠٠ إلى ٧٠٠ كلغ من الحنطة في ذلك الحين.

(٢) وُلد الملّا داد اللّه آخوند (من قبيلة كاكار) حوالى العام ١٩٦٦ في قرية اسمها منارة كالاي في محافظة شار شينو في ولاية أورغزون وهو متحدّر من عائلة كوشيّة ولكن سرعان ما انتقلت عائلته إلى ده راود (أوروزغان). كان فاعلًا في جهاد الثمانينيات وحليفًا قويًّا لقائد حركة طالبان الملّا محمد عمر. فقد رجليْه وهو يُحارب في غرب أفغانستان عام ١٩٩٤ ولكنّه لعب دورًا مهمًّا في المعارك التي وقعت وسط وشمال أفغانستان قبل العام ٢٠٠١. برزَ عام ٢٠٠٦ (خصوصًا في الوسائل الإعلاميّة الغربيّة) بصفته «سفّاح الجنوب» بسبب ظهوره في أشرطة فيديو يقوم فيها بقطع رؤوس من يُسمّيهم بـ «الجواسيس». قُتل على يد القوّة الدوليّة للمساعدة الأمنيّة في أيّار/مايو ٢٠٠٧.

الأمر الآتي: لو لم يكن الملّا داد اللّه، لكان مقاتلو طالبان الستة آلاف قد واجهوا الموت كما حدث في مزار الشّريف(١). كان هذا القائد بساق واحدة على أهبّة الاستعداد، ليقود العمليات المسلحة بنفسه في أي وقت، متقدّمًا رجاله في الصّفوف الأمامية، ومندفعًا في الهجوم على العدوّ. تميّز نهجه بالصّرامة، فلم يجرؤ أحد على التراجع أو الفرار من مسؤوليّاته.

كان يقول لرجاله: «استشهدوا كالرجال، ولا تسلّموا رقابكم للعدوّ! لا تقتلوا أنفسكم كما فعل الآخرون في مزار. تحلّوا بالشّجاعة والثّقة وبهما تنتصرون. إن أراد أحدكم القتال فالتراجع ممنوع، وإن انسحب أحد منكم، فسأقتله بنفسي».

كانت تهديداته تؤخذ على محمل الجدّ، خاصة بعد أن قام بالتصويب على عنصر من طالبان انسحب من أرض المعركة، وأصابه في رجله. ومنذ ذلك الحين لم يعد أحد يتجرّأ على التراجع دون أمر مباشر من الملّا داد اللّه. كان ذلك الرجل شابًّا شجاعًا، لم يعرف الخوف يومًا. ربّما وُجد آخرون مثله، لكنّه الوحيد الذي أبقى على رأس التحالف الشمالي، مسعود، في جبال بامير. لم يكن أحد من هؤلاء القادة قادرًا حتّى على مواجهة نبرة صوته.

▲▼▲

على الرغم من أن السنوات الأولى من حياة الحركة تميّزت بالعمليات العسكرية لتوسيع رقعة السّيطرة، فإن المفاوضات كانت دومًا تجد لها مكانًا في قلب استراتيجية طالبان، إذ شدّدنا على أهميّتها، وسعينا إلى تفعيلها، تجنّبًا للقتال مع مختلف القادة. وهذه الاستراتيجية استمرّت حتّى سقوط النظام في العام ٢٠٠١.

(١) مزار الشريف هي المدينة الأكبر في شمال أفغانستان، تبعد ٤٣٥ كلم في شمال غرب كابول. يبلغ عدد سكّانها تقريبًا ٢٠٠ ألف وهم من قبيلتيْ أوزبك وتاجيك. أصبحت المدينة مركزًا تجاريًّا كبيرًا في الثلاثينيّات وشهدت السبعينيّات نشوء مدينة مبنيّة على الطراز الحديث. أصبحت مدينة المزار قاعدة حيويّة لقوّات الاتّحاد السوفياتي والنظام الشيوعي في كابول وذلك بفضل قربها من الحدود مع الاتحاد السوفياتي. وبين انسحاب الشيوعيّين في العام ١٩٨٩ وانهيار حكومة نجيب اللّه في العام ١٩٩٢ صارت مدينة مزار الشريف شيئًا فشيئًا تحت سيطرة الميليشيات (الجامعة الإسلامية لربّاني وحزب دوستم).

وقد شاركت بنفسي مرّتين في محادثات السلام مع مجموعة مسعود، إحداهما معه مباشرة، والثانية مع مجموعة من ممثّليه.

في المناسبة الأولى، اتصل مسعود بأمير المؤمنين، وأبلغه أنّه يريد تذليل الخلافات بينهما عبر الحوار. تكلّما باختصار عبر الهاتف، وتمّ الاتّفاق أن أقابل مسعود للدخول في تفاصيل الأمور. ورغم معارضة عائلتي وأصدقائي، فقد توجّهت إلى بغرام، ومن هناك إلى منطقة تسمّى ساراك النَّوْ[1]، تقع تحت سيطرة مسعود ورجاله. نصحني الكثيرون بالتفتيش عن منطقة محايدة لإجراء المفاوضات. لكنّ كلّ المحادثات مع مسعود لإيجاد مكان آخر كان مصيرها الرفض، إذ كان يخشى أن يقع في فخ طالبان، فيقتلونه، أو يلقون القبض عليه فيما لو تمّ الاجتماع في أي مكان آخر. أخبرته أنني سألتقيه في بانجشير، وإن شاء اللّه نتوصّل إلى حلّ سلمي.

دامت المفاوضات قرب بغرام لمدّة أربع ساعات، قضيتُ معظمها أجيب عن أسئلة مسعود. غادرت كابول مع بعض الحراس منتصف الليل. وكان مسعود ورجاله بانتظاري على جانب الطريق. بسطنا عباءاتنا أرضًا في ليل لا ينير ظلامه سوى ضوء القمر. وجلسنا تحت شجرة في ما هو أشبه باللامكان.

عرض مسعود خطّته لتحقيق السلام، ومن ضمنها ترتيباته لتحالف عسكري مشترك. قبل انطلاقي لمقابلة مسعود، تناقشت والملّا محمد عمر حول نقاط الحوار. وأبدى لي تحفّظه عن موضوع التحالف العسكري. لم يكن الملّا عمر يمانع أن يمنح مسعود مراكز في القطاع المدني أو السياسي. لكنه كان يجد من الخطير مشاركته في السلطة العسكرية. فبرأي الملّا صاحب، سوف يولّد منح مسعود قوّة عسكرية مشكلات أكثر من تلك القائمة أصلًا. في المقابل شدّد مسعود على أهميّة المشاركة في القرار العسكري، وعزّز موقفه بحجّة أننا «قاتلنا في الجهاد المقدّس على حدّ سواء! فمن حقّنا أن نحصل على حصص متساوية في الحكومة».

(١) بُنيت هذه المنطقة (والطريق الذي يصل إليها) كمنفذ منفصل إلى بغرام حين كان نجيب اللّه في الحكم.

في رأي ملّا صاحب أنّنا «نحترم مسعود، وقد كنّا مجاهدين معًا وشاركنا معًا في الجهاد. لكن الاستراتيجية العسكرية تفرض علينا توحيد القيادة». أحد أولى البنود على جدول أعمال الاجتماع كان التحضير لتبادل الأسرى. لكنّ مسعود ربط الموضوع بالتفاهم على القضايا الكبرى؛ فانتهت المفاوضات دون أن نصل إلى أي نتيجة، سوى أننا اتّفقنا على متابعة المباحثات في المستقبل. وعندما شارفنا على اختتام الجلسة، أخبرت مسعود أنني، شخصيًّا كمجاهد، أحترم جهاده، الذي انخرط فيه أيضًا كل الشّعب الأفغاني.

قلت له: «لقد أخذ كل منا قسطًا من هذا الواجب المقدّس، كلّ بحسب طاقته. ويجدر بنا جميعًا أن نقدّم التضحيات. لكنني، كمجاهد، أرى أن المسألة مسألة وحدة. والوحدة لا تهتمّ بأمر من يتولّى القيادة ـ الشمال أو الجنوب ـ بل تعمل على وضع مصلحة الأمّة في جوهر كلّ القرارات. يتوجّب علينا اليوم أن نضع احتياجات بلدنا على رأس سلّم الأولويّات. بينما ستذهب أسماء المجاهدين الذين اشتهروا بالنزاهة والفضيلة إلى الظّل. ويكفي ما حدث حتّى الآن من خراب ودمار».

مرّت أشهر عدّة قبل أن أعود لألتقي من جديد ممثّلين لمسعود. كان الوضع قد تدهور، وبات مسعود رافضًا فكرة اللقاء الشخصي به. انتدبني الملّا صاحب لأترأس المفاوضات؛ أصطحبت مولوي آغا محمد[1] ومولوي عبد الحي[2]. جرت المحادثات في المنطقة العازلة التي أقيمت بين الخطوط الأمامية الفاصلة بين طالبان ومسعود. أرسل مسعود مولوي عطا اللّه[3] وشخصًا آخر، لم أعد أذكر اسمه، للقيام بالمفاوضات. كان الجو إيجابيًّا، لكن مشكلة جديدة نشأت هذه

(١) يتحدّر المولوي آغا محمد أصلًا من قندوز، وكان رئيس مكتب وزارة الدفاع خلال سيطرة طالبان. وكان يافعًا في ذلك الوقت.

(٢) تحدّر المولوي عبد الحي أصلًا من محافظة شوراباك في ولاية قندهار. قاتل مع المجاهدين خلال جهاد الثمانينيّات وقُتل في العام ٢٠٠٦.

(٣) المولوي عطا اللّه (من ولاية بانشجير) وكان أستاذًا دينيًّا. وبعدَ سقوط كابول عام ٢٠٠١، تولّى وزارة المعلومات والثقافة. وقد يكون لا يزال على قيد الحياة.

المرّة، وهي قضيّة العلماء. أراد رجال مسعود أن يناقشوا وضع العلماء، واقترحوا إنشاء مجلس مشترك للعلماء. تقضي الخطّة بأن يعيّن كلّ طرف خمسين عالمًا لكي تتحقق المساواة داخل المجلس. كان القلق باديًا في مواقف مسعود من أن يعيد التاريخ نفسه، وتتكرّر قصّة حبيب اللّٰه كلكاني ونظير خان. لذلك سعى إلى التمسُّك.

من ناحيتنا، بذلنا جهدنا لتفادي حصول أمور كهذه. فبرأينا المسألة سهلة. حاولنا أن نشرح لهم أن دور العلماء ينحصر في مناقشة الأمور الدينية والبتّ في أمور الشريعة التي هي من اختصاصهم. وهم، بالتالي، سيحرصون على أن تتماشى كلّ مشروعاتنا ومخطّطاتنا مع الشّريعة الإسلامية. فإن كانت جماعة مسعود تحاول تقسيم القوّة العسكريّة عبر تقسيم مجلس العلماء، فذلك دليل واضح على أن هدفهم من المجلس سياسي ولا يمتّ إلى الشّريعة بصلة.

وتابعت شارحًا لهم أن «تقسيم الجيش سيجرّنا إلى المزيد من الصّدامات وسفك الدّماء، وملّا صاحب لن يوافق على ذلك أبدًا». ومجدّدًا ربطوا قضيّة الأسرى بطموحاتهم السياسيّة. وعبثًا حاولت أن أردّ موضوع تبادل الأسرى وظروف الاحتجاز إلى واجهة النقاش، إذ لم يُبدِ الطرف الآخر أيّ اهتمام بالأمر. عندها تكلّمت بما أملاه عليّ ضميري، وقلت لهم إن الربط بين تبادل الأسرى والتفاهم السياسي أمر كيديّ ومجرّد من المنطق. لكنّهم أسقطوا النقاش بهذا الموضوع. ضمّت هذه الجولة حصّتين من المحادثات مع موفدي مسعود. وأدّى رئيس الأئمة في شاريكار دورًا بارزًا كوسيط في المرحلة الثانية من المفاوضات. لكنّها عادت فانتهت كالمرة الأولى دون أي نتائج ملموسة، عدا الأمل باجتماع مقبل.

من الأمور الغريبة التي لمستها أنّ الطرفَيْن اتَّفقا على أن الحرب ليست هي الحلّ، وأنها لم تخدم أيًّا من الطّرفين، بل أمعنت في تدمير البلاد. لم تخدم الحرب سوى أعداء البلاد. ولم تساهم الحرب الأهلية والفتنة الداخلية في حلّ أي من مشكلاتنا، بل تسبّبت، فوق كلّ ذلك، في انقسام القبائل.

كنّا نعلم جميعًا أن الشّعب الأفغاني قد تعب من الحرب؛ وأنه يفتّش عن السلام. لكنّ الحرب استمرّت رغم ذلك، وبدا مستحيلًا إيجاد حلّ لها. صحيح أن أطرافًا خارجيّة كانت تدعم الطّرفين وتُموّلهما، وتغذّي الصّراع الدّاخلي. لكنّ استمرار الحرب كان فعليًّا بسبب الأفراد الّذين انخرطوا فيها.

بقيت أعمل في وزارة الدّفاع لمدّة عام ونصف، وكان الأمر متعبًا لي. كُلّفت مهمّات أقلقت راحتي، إذ لم أعهدها على نفسي. عملت على التفتيش في سجلات الوزارة عن أسماء الشّيوعيين الأفغان الذين قُلّدوا ميداليّات الشّرف لقتلهم أفغانيين آخرين خلال الحكم الشّيوعي. وأَجريت تحقيقات حول أحداث شومالي[1]. لكنّ النّتائج التي صدرت لم تكن تُقنعني بتاتًا. هذا العمل الشاق المضني أثّر بي كثيرًا، ففضّلت الانسحاب. تحمّلت مسؤوليّاتي كاملة، سلّمتها بأمانة إلى خَلَفي، وعدت إلى منزلي.

(١) بحلول أيلول/سبتمبر ١٩٩٧، أدّى القتال بين طالبان وجماعة مسعود في شمال كابول إلى هجرة ١٨ ألف مدنيّ وسَمّمت طالبان الآبار ودمّرت قنوات الري في سهول شومالي (Rashid, 2002: 62). ولا يزال أفراد سابقون وحاليّون في طالبان يتنازعون حول هذا الدمار إلّا أنّ أقليّة من كبار حركة طالبان عارضوا التكتيك الذي اتُّبع في شومالي في ذلك الوقت.

١٠

المناجم والصناعة

بعد استقالتي من وزارة الدّفاع، قضيت ثلاثة أشهر في منزلي بكابول. اكتشفت في وقت لاحق أنّ أحد أصدقائي القدماء، مطيع اللّه إنعام[١]، كان يعمل في القسم اللوجستي بشربور؛ فقرّرت لقاءه والدراسة معه. ورغم سوء الأوضاع على مختلف الصعد، جرّاء مشكلاتي الماديّة التي لا تزال تقلق راحتي، فإنني شعرت بسعادة تفوق سعادتي وأنا في الوزارة. شعرت بأنني حرّ، ولا أحد يستطيع تعكير صفوي. لكنّ العودة إلى الحياة الطبيعية شكّلت لي تحدّيًا كبيرًا، وبخاصّة بعد السّنوات التي قضيتها في الحكومة. كان الأمر صعبًا على الصعيدين الاقتصادي والسياسي، بالنظر إلى أنني تركت عملي، وأصبح أمني الشّخصي مهدّدًا، في الوقت الذي تطلّعت فيه إلى عيش حياة عاديّة، كسائر البشر.

زارني الأصدقاء من وقت إلى آخر في منزلي الكائن مقابل مسجد وزير أكبر خان. واضطررت أحيانًا إلى اقتراض المال لتأمين حاجات عائلتي. تقوقعت بعض الشيء على نفسي، ووزعت جُلّ وقتي بين المنزل والصلاة في المسجد. وذات صباح، بعد أن أدّيت صلاة الفجر، وهممت بالعودة من المسجد، اقترب منّي رجل من طالبان، وقال لي: «سيأتي معاون صاحب لتناول الفطور في منزلك اليوم». ويقصد بمعاون صاحب الملّا محمّد ربّاني، نائب قائد طالبان.

---

(١) تحدّر مطيع اللّه إنعام (من قبيلة بختيار) من ولاية قندهار وأصبحَ ملّا بالتدريب. لم يُقاتل في جهاد الثمانينيّات.

عدت إلى المنزل، وقمت بتحضير الشاي والفطور. ووصل الحاجي معاون الملّا محمد رباني صاحب، مع شروق الشمس إلى منزلي. كان الرجل هادئًا ولطيفًا وحلو الحديث. جلس، واطمأنّ بتهذيب عن عائلتي وعملي وصحّتي، ثم سألني عن سبب غيابي عنه في الأشهر الثلاثة الأخيرة. اعتذرت عن عدم قدومي لزيارته، ومبرّرًا انشغالي بدروسي وعدم رغبتي في هدر وقته، ذلك أنني كنت أعلم بانشغالاته الكثيرة. قال الملّا محمّد ربّاني إنه ناقش وضعي مع ملّا محمّد عمر صاحب، وارتأيا ضرورة عودتي إلى منصبي في وزارة الدّفاع.

كان من الصّعب عليّ أن أرفض طلبه، لما أكنّ له من احترام بالغ. لكنّ موضوع عودتي إلى الوزارة كان مفروغًا منه في نظري. انتظرت حتّى أكمل حديثه، وجلست صامتًا لوقت طويل، حتّى وزنت كلماتي. قلت: «تعلم يا سعادة الحاجي معاون صاحب مقدار الاحترام الذي أكنّه لكم، لكنني أودّ أن أشرح لك الحقيقة بخصوص عملي. أنا أعتقد أنّ أمير المؤمنين ليس راضيًا عنّي في الوقت الحالي. لا أدري لماذا. ولا يهمّني هذا الأمر بالتّحديد؛ لكنّني لا أستطيع إطلاقًا العمل في جوّ كهذا. كما تعلمون، أنا لست من النّاس الذين يعملون لأجل المال أو المنصب أو الوظيفة. لذلك أحتفظ لنفسي بقرار العودة. لقد واجهت مشكلات عظيمة عندما كنت أخدم في وزارة الدّفاع. ولا تزال تلك المشكلات قائمة حتّى اليوم. وسيكون صعبًا جدًّا عليّ أن أعود إلى الوزارة لأواجه العقبات نفسها من جديد. لهذا السّبب، قدّمت استقالتي في المرّة الأولى. لقد تعبت. أريد أن أتابع دراساتي، ولا يهمّني إطلاقًا التدخُّل في شؤون العالم بعد الآن».

نصحني الملّا محمّد ربّاني أن أتسلّح بالصبر وطول الأناة. وعبّر عن أسفه للمشكلات التي واجهتني. قال وهو يغادر: «من الضروري أن نلتقي مجدّدًا» وأردف قائلًا: «عمّا قريب».

بعد أيّام قليلة، عاود الاتصال بي. وأبلغني بوجوب سفري إلى قندهار للقاء الملّا محمّد عمر، والتكلّم إليه بنفسي. لم أشأ الذّهاب. واختلقت الأعذار لتبرير تمنّعي، لكنّ الملّا محمّد ربّاني أصرّ عليّ قائلًا: «إن لم تذهب بنفسك، فسأضطرّ

إلى اصطحابك بنفسي». في اليوم التالي أقلّتني رحلة أريانا[1] المتوجّهة من كابول إلى قندهار. ومضيت لمقابلة الملّا محمد عمر. توجّهت من المطار مباشرة إلى مكتب الملّا صاحب المحاذي لمنزل الحاكم. دخلتُ، ولمحته جالسًا في غرفته، ومعه بعض الحرّاس الشخصيين. تبادلنا السلام. وفاتحني منذ اللحظة الأولى بالموضوع الساخن قائلًا: «عليك بالعودة إلى وزارة الدّفاع».

أخبرته أنني أرفض ذلك. لكنّه تجاهلني، وتابع مهدّدًا «ستعود إلى الوزارة، أو سأرمي بك في السجن». فكّرت مليًّا بما قاله قبل أن أتكلّم من جديد. نظرت إلى عينيه، وقلت له إنني لن أعود. لم أكن جاهزًا للعودة إلى وزارة الدفاع. ولو أراد أن يسجنني، فليفعل ما راق له. فوجئ الملّا محمّد عمر بهذا الرّد. ونظر إليّ، وهو لا يصدّق ما سمعته أذناه، وقال: «حسنًا، بما أنّك ترفض العودة إلى وزارة الدفاع، فستتولّى منصبًا في إحدى الوزارات المدنيّة». ثمّ سلّمني حوالة بقيمة ٤٠٠ ألف روبية باكستانية[2]، إذ بلغه أنني كنت رازحًا تحت ثقل ديوني. لكنّني اعتذرت، وأعدت المال إليه. طالبني بالعودة إلى كابول، حيث كان الحاجي معاون صاحب بانتظاري.

▲▼▲

كنت لا أزال غاضبًا حين قفلت راجعًا إلى كابول. لم أكن أرغب في العودة إلى الحكومة. لكنّ دخول السّجن لم يكن الحل البديل لمشكلتي، فضلًا عن أنني أقسمت في سانغيسار من قبل أن أقف إلى جانب الملّا محمّد عمر مهما تكن

(١) بدأت شركة طيران أريانا العمل في تموز/يوليو ١٩٥٥ فكانت تنقل الركّاب في رحلات داخل البلاد وخارجها. وقد دعم استثمار أجنبي مهمّ (من الغرب والشرق) هذه الشركة وسمح لها بالنموّ. إلّا أنّه وفي منتصف التسعينيّات شهدت شركة أريانا سمعة سيّئة وأصدر مجلس الأمن الدولي قرارًا يحظّر هذه الشركة من الطيران دوليًّا. كان ذلك في العام ٢٠٠٢ ولكنّ شركة الطيران لا تزال تتلقّى شكاوى بشأن سلامتها ومزاعم أخرى.

(٢) ٤٠٠ ألف روبية مبلغ ضخم في ذلك الحين. ويُمكن شراء منزل بثلاث أو أربع غرف بهذا المبلغ في ذلك الوقت أو سيّارتين تقريبًا من النوعيّة الأفضل.

الظّروف. بعد يومين من عودتي إلى كابول، عُيّنت في مركز نائب وزير المناجم والصّناعة. أصدر أمير المؤمنين مرسومًا بالتعيين، أذيع على الرّاديو. وخلال أيّام قليلة، دخلت الوزارة، وتولّى أعضاء إدارة الأعمال المستقلّة تعريفي بعملي الجديد.

كان مولوي أحمد خان صاحب[١] على رأس الوزارة حين تسلّمت مهمّاتي، ومولوي محمد عزّام علمي[٢] نائب الوزير الأوّل. جمعتني بالرجلين معرفة سابقة، وكلاهما من الطيّبين الأتقياء. تأقلمت بسهولة مع منصبي الجديد. وسرعان ما أخذت أستمتع بالعمل في الوزارة. أضفنا إلى وزارة المناجم والصّناعة وزارة الصّناعات الخفيفة. وغدت الوزارتان تشكّلان أكبر جسم حكومي للتنمية الاقتصاديّة في البلاد. وعلّق الكثيرون آمالًا عليهما لأداء محوريّ في مستقبل التنمية وإعادة الإعمار في أفغانستان. في المقابل كانت إمكاناتنا محدودة جدًّا، إذ كانت أقسام كثيرة من الوزارة الإقليمية تعمل بشكل مستقلّ، أو تذهب أموالها إلى الجيوب الخاصّة.

وقعت خلافات لا تُحصى بين حكّام الأقاليم والوزارات في العاصمة. حيث سعى الحكّام إلى السيطرة على مراكز الوزارات الإقليميّة، بينما كافحت الوزارات في كابول لإنشاء نظام حكم رسميّ. سيطر طالبان على ٩٠٪ من البلاد. لكنّهم لم يستطيعوا وضع حدّ للخلافات الداخليّة المستشرية على مراكز السلطة. فقد تصرّف حكّام الأقاليم بالسلطة وكأن كلًّا منهم مستقلّ عن الآخر. كما احتدم الخلاف بين الوزارات المركزية وهؤلاء الحكام على السّلطة. ولم تتداعَ تلك المشكلات بسقوط الإمارة الإسلامية في العام ٢٠٠١.

(١) كان المولوي أحمد خان صاحب المتحدّر أصلًا من محافظة زرمات في ولاية باكتيا مقرّبًا من نصرالله منصور، رئيس حزب «الحركة».

(٢) كان المولوي محمد عزّام علمي (من قبيلة توتاخل) من محافظة سيد كرم في ولاية باكتيا. كان يافعًا في ذلك الوقت ولم يُحارب في جهاد الثمانينيّات. قُتلَ إثر حادث سيرٍ في المملكة العربيّة السعوديّة عام ٢٠٠٦.

خلال أيّامي الأولى في الوزارة، عمدت إلى جمع المعلومات حول مسؤوليّاتي الحاليّة، قبل الشّروع بأي عمل. فموارد أفغانستان الطّبيعية تتركزّ شمالي البلاد. وفي ذلك الوقت، كانت المعامل الكيماويّة، ومحطّة التوليد الكهرمائيّة، وقطاع الغاز، ومصافي النفط، إضافة إلى معامل الإسمنت والفحم، ومعامل تنقية الرخام والأحجار الكريمة، ومناجم الفحم والملح وجميع الصناعات الثقيلة، مركزًة كلها في الولايات الشّمالية، وموزّعة على قياديّي الجهاد. وقد تعرّضت هذه المصانع للتدمير، وتوقّفت بسبب الحرب.

انخفض الإنتاج في مصنع كودو برق[1] في مزار الشّريف بنسبة ٨٠٪. ولم يهتمّ القادة المسؤولون عن هذه المعامل إلا باستغلال الثروات لمصالحهم الخاصّة؛ فأهملوا ترميم المصانع. فالسد الكهرمائي، مثلًا، مصمّم لإنتاج ١٨ ميغاواط من الكهرباء؛ لكنّ إنتاجيّته انخفضت إلى ٦ ميغاواط فقط. والأمر نفسه ينطبق على المعمل الكيماوي المصمّم لإنتاج ٤٠٠٠ كيس من الأسمدة، فبات ينتج ٧٠٠ كيس فقط. ومن الأمثلة الأخرى على الإهمال والطمع، أذكر آبار النفط في ساري بول. كان القادة المحليّون يتناوبون ليليًا على استخراج أقصى ما استطاعوا من نفط، غير آبهين للمعايير التقنية المعتمدة في مثل تلك العمليّات. كما تمّ حفر مئات الآبار في حقول النفط الشمالية، من دون أيّ اعتبار للآثار السلبيّة التي تجرّها تلك الممارسات.

عندما دخلت إلى الوزارة، كانت الآبار في حالة يُرثى لها من الخراب، جرّاء ما تعرّضت له من زلازل واهتزازات. كان قادة دوستم في ساري بول قد قاموا باستخراج النفط تحت ضغط مرتفع، ما تسبّب بتسرّب المياه إلى الآبار. وشعرنا باهتزازات أرضيّة نجمت عن الطريقة الخاطئة التي استخدمت في استخراج النفط، والتي سبَّبت تشقّقات في الطبقات تحت الأرضيّة. وانطبق الأمر نفسه على سائر المرافق التي أضحت في حالة يُرثى لها، فباشرنا بإعادة إعمار المجمّعات

(١) كان هذا المصنع محطّة لتوليد الكهرباء وإنتاج الأسمدة.

الصناعيّة. ورغم ضيق الموارد المتوفّرة لدينا، فإننا تمكّنّا من تحقيق تحسُّن ملموس خلال فترة زمنيّة قصيرة.

وعاد أمير المؤمنين وبوّأني مركزًا ثانيًا، لأصبح مديرًا عامًا للصّناعات في الشمال؛ فكنت أقضي نصف وقتي في الشمال؛ والنصف الآخر في كابول. وتحوّلت بالتالي همزةَ وصلٍ بين الأقسام الإقليميّة والوزارة المركزيّة. في بداية عهدي، طرحت مشكلات عدّة للحل، كانت إحداها مشكلة التواصل. فقرّرت توزيع أجهزة راديو على كلّ الولايات؛ وأدخلت جدولًا زمنيًا جديدًا يُفتَرض بموجبه على كلّ وحدة إقليمية أن تقدّم يوميًا، وفي ساعة محدّدة، تقريرًا بإنتاجيّتها.

عاد الإنتاج في ساري بول، خلال وقت قصير، إلى مستوياته السابقة، وانسحب الأمر نفسه على إنتاج الطاقة، ومعمل القرميد، ومصنع الثلج، وآبار النّفط. وجرى توسيع شبكة الغاز لتصل من شابرغان إلى مزار الشريف. وارتفع إنتاج الإسمنت، وتمّ ترميم المصانع القديمة وإعادتها إلى العمل على امتداد الشمال. وجرى توقيع عقود مع مستثمرين أجانب، لإنشاء محطّات تكرير جديدة.

▲▼▲

كانت الأعمال التّحضيرية لمدّ خطوط الغاز الدولية، عبر تركمانستان والباكستان وأفغانستان، قد بدأت. لكنّ الخطّة أعيدت، وطُرحت جانبًا، عندما فرضت الأمم المتّحدة عقوبات واسعة على البلاد في العام ١٩٩٩، بسبب النشاط المستمرّ لما أسموه بالإرهابيّين. ورغم ذلك، فإن وزارتنا قد تمكّنت من تحويل مبلغ ٣,٥ ملايين دولار أميركي إلى الخزينة الوطنيّة. هذه الأموال التي كانت من قبل تذهب إلى الجيوب الخاصّة.

يشكّل النّفط والغاز أهمّ ثروة كامنة في أفغانستان، ولا تقتصر أهمّيتهما على الحاجة المحليّة فهما مطلوبان عالميًّا. وفي الواقع، فإنّ الدّول الصّناعية الغربية ـ يقودها الاستهلاك اللامحدود في الولايات المتّحدة الأميركية ـ هي التي

تتطلّع إلى الحصول على موارد، بشكل مطّرد، لتلبّي احتياجات اقتصاداتها المعتمدة أساسًا على البترول. سعت أنوكال[1]، وهي شركة أميركية، إلى وضع يدها على الموارد الطبيعية من نفط وغاز في أفغانستان وتركمانستان. ودخلت في المنافسة مع شركة أرجنتينية تُسمى بريداس[2]. قدّمت بريداس العرض الأفضل، وحصلت بالتالي على العقد. بالمقابل احتفظت أنوكال، وبعض الشركات الأوروبية، بحقّ تكرير النفط الأفغاني. وقامت الإمارة الإسلامية في أفغانستان ـ وبخاصة نحن في وزارة المناجم والصّناعة ـ بالتفاوض الجدّي مع جميع الشركات. افتتحت بريداس مكاتب لها في كابول في آذار/مارس ١٩٩٧ ولاحقًا في قندهار بينما بدأت أنوكال بالأعمال الأوّليّة في مجمّعها الكائن في قندهار.

سعينا نحن، كأفغانيين، إلى بناء شبكة من العلاقات تمكّننا من تلبية احتياجات البلد، وتعزيز نموّه. فارتأينا أن تقسيم العقد بين الشركتين يخدم مصالحنا بشكل أفضل. لكنّ أنوكال أصرّت على توقيع عقد حصريّ لها. أعتقد أنها لم تضع في الحسبان أن الإمارة الإسلامية قادرة على التعامل مع الضغوط، في الوقت الذي وضعنا فيه مصلحة بلادنا على رأس أهدافنا وتعاملنا باستقلالية من هذا المنطلق. فأعطينا بريداس حصّة في المشروع، بينما عملت كل من الشركات الأوروبية كمقاول فرعي.

بدأ إنشاء محطّة التكرير في قندهار، بينما أظهر مسح بالأقمار الاصطناعية، أجرته شركة يونانية بقيمة مليون دولار، وجود كميّات ضخمة من النفط في قندهار وهلمند. تُرى هل جرّ تعنّت أنوكال الندم عليها، بعد أن ظهرت نتائج المسح التي أجريناها؟ أعتقد أن أنوكال تدرك أن الإمارة الإسلامية في أفغانستان تحتاج إلى الوقت لإكمال مشروعاتها، المعرّضة للإخفاق طبعًا بسبب سوء الإدارة. ثمّ

---

(١) أنوكال هي شركة للنفط والغاز تملكها الولايات المتّحدة وعملت بين العام ١٨٩٠ والعام ٢٠٠٥ (قبل أن تندمج مع شركة شيفرون). وقد عملت شخصيّات كثيرة مرتبطة بحكومة الولايات المتّحدة في شركة يونوكال (منهم حميد كرزاي وزلماي خليلزاد).

(٢) بريداس هي شركة أرجنتينيّة للنفط والغاز عملت في آسيا الوسطى منذ أوائل التسعينيّات.

جاءت الإدارة الأميركيّة، وفرضت العقوبات الاقتصادية على أفغانستان عبر الأمم المتّحدة، ما منع الشركات المهتمّة بالاستثمار من تنفيذ مشروعاتها.

من جهتها، بذلت إيران قصارى جهدها لعرقلة مشروعاتنا؛ فحاولت جاهدة زعزعة الاستقرار في أفغانستان، والتهويل على المستثمرين. وكانت في مسعاها هذا ترمي إلى تمرير خطّ الأنابيب في إيران بدلًا من أفغانستان؛ إذ تتشارك إيران في الحدود مع الدول الثلاث الآنفة الذكر. أبدى الرئيس الكازاخستاني، نور سلطان نزاربايبف[1]، معارضته لمشروع إيران، ودعم تنفيذ المخطط الأصلي الذي تمرّ بموجبه الأنابيب في أفغانستان. كان الرئيس الكازاخستاني مهتمًّا ببلدنا.

أذكر جيّدًا ما صرّح به خلال غداء عمل جمعنا في منزله. أعلن نزاربايبف أنّه سيمنح أفغانستان هديّتين: الأولى هي القوّة لبعض الأقاليم، والثانية احتفاظ أفغانستان بخطوط إمداد النفط والغاز في أراضيها، حتّى لو تطلّبت إعادة الاستقرار إلى البلاد سنوات عدّة. بالمقابل، عملت إيران على مساندة الحلف الشمالي عبر مدّه بالمال والذخيرة والدّعم اللوجستي في حربه ضدّ الإمارة الإسلاميّة.

▲▼▲

في فترة عملي داخل الوزارة، أنشأنا مناطق صناعيّة في كابول ومزار الشّريف وهرات وقندهار. ووافقنا على تخصيص موقع في جلال أباد يضمّ أكثر من أربعمئة مشروع بين صغير وكبير. اصطدمنا في مسيرتنا بمشكلة العلاقة المتوترة مع إيران والباكستان. فالسوق الداخليّة في أفغانستان ضيّقة، ولا بدّ من الاعتماد على الدول المجاورة لتصريف الإنتاج. وبالرغم من الجهود التي بذلناها لتطوير الصناعات الجديدة وإحياء المصانع القديمة، فإنّ التبعيّة الاقتصاديّة لإيران والباكستان ظلّت قائمة لاستيراد المواد الأوّلية للتصنيع. وشكّلت زيادة الضرائب

(١) تولّى نور سلطان نزاربايبف (المولود عام ١٩٤٠) رئاسة كازاخستان منذ العام ١٩٩٠. وصل إلى السلطة عام ١٩٦٧ وأصبحَ رئيسًا على كازاخستان المستقلّة في تصويت شعبي عام ١٩٩١. تمّ انتقاده لأنّه متعلّق بمنصبه، ولأنّه يقوم بتعيين أفراد عائلته في مناصبَ مهمّة.

التي فرضتها الدولتان على المواد الخام المستوردة منها ضربة لصناعتنا الناشئة، إذ رفعت كلفة الإنتاج في مصانعنا، ما جعل السلع المستوردة أقلّ كلفة من تلك المصنّعة محليًّا.

ساء الوضع مع دخول المُنتجات المستوردة إلى السّوق الأفغانيّة. وما إن بدأنا بإنتاج بعض السلع بأنفسنا، حتّى قامت الباكستان بتقديم إعفاءات ضريبية إلى الشركات الّتي تنتج سلعنا نفسها؛ ما هدّد بسحق الصّناعات الناشئة في أفغانستان. وفي حالات أخرى، قامت الباكستان باستعمال مواد أرخص ثمنًا لإنتاج سلع ذات نوعيّة أدنى من السلع التي ننتجها نحن، بهدف إغراق سوقنا. فإذا نظرنا إلى الأسمدة على سبيل المثال: نرى أن أفغانستان بدأت بزيادة إنتاجيّتها، وبدأت بتصنيع السماد الزراعي وفق تركيبة ٤٦٪ من النيتروجين. وفي الوقت نفسه عملت الباكستان وإيران على إنتاج سماد ادّعتا أنّه يضاهي سمادنا في النّوعية؛ لكنّه أرخص منه بأشواط. اختار المزارعون الأفغان استعمال السماد المستورد بأسعار منخفضة. وعندما أجرينا فحصًا للسماد الأجنبي في مختبراتنا بهدف التأكّد من تركيبته وجودته، وجدنا أن ما يسوّق على أنّه يحتوي ٤٦٪ من النيتروجين، لم يكد يحتوي سوى على ٢٠٪. أما المزارعون الأفغان فقد انتظرتهم عواقب وخيمة جرّاء استخدام السماد الأجنبي. فالنّوعية الرّديئة جعلت المحاصيل أكثر عرضة للآفات. كما انخفض الإنتاج بشكل ملحوظ عن مستوياته العاديّة السابقة.

علت أصوات الكثير من الأفغان تشتكي من نوعيّة السّمن والبلاستيك والحديد المستورد من البلدان المجاورة. كان بالإمكان إنتاج كل هذه المواد في أفغانستان لامتلاكنا الموارد الطبيعيّة الضّرورية. لكنّ ذلك يتطلّب استثمارات أكبر كثيرًا ممّا خطّطنا له كوزارة. وقد كنّا عاجزين عن تأمينها. بالمقابل تمكنّا من تطوير صناعة الفحم والملح ومناجم الرّخام. وطرحنا السلع في السّوق بأسعار منخفضة، غالبًا ما نافست الأسعار العالميّة. كما عملنا على تصدير الرّخام[1] إلى الباكستان، حيث

(١) يأتي بلاط الرخام من هلمند قرب لاشكارغاه في ذلك الوقت، وهو من أشهر الصادرات.

يتمّ تلميعه وبيعه من جديد مع قيمة مضافة مرتفعة. وفي وقت لاحق أنشأنا مصانع تلميع الرخام الخاصة بنا في قندهار وهرات وكابول وجلال أباد.

اتَّسمت ميزانية الوزارة بأنها متواضعة جدًّا، لا تسمح بالإقدام على أي شيء، خصوصًا إذا كان الهدف تطوير الصناعات الأساسيّة، ما يتطلّب موارد ماليّة ضخمة واستثمارات كبيرة. بلغت الميزانية السنوية لطالبان المخصَّصة لكلّ البلاد حوالي ٨٠ مليون دولار أميركي، خصّصت منها حصّة الأسد للإنفاق العسكري، ووُزّع الباقي على سائر الأنشطة؛ فوصلنا حوالي ٧٠ إلى ٧٥ مليار أفغاني، أي ما يعادل ٧ ملايين دولار في ذلك الوقت، استثمرناها في مشروعات تنموية.

بقي المبلغ المخصّص لنا بعيدًا جيّدًا عما كنّا في حاجة إليه للشّروع بأية عمليّة تنمية جديّة. كان ذلك كقطرة ماء تنزل على حجر ساخن، فتتبخّر من دون أن تولّد لها أثرًا. وبالنظر إلى التمويل الذي حصلنا عليه والوقت القصير الذي أتيح لنا، أستطيع القول إننا حقّقنا إنجازات مهمّة نسبيًّا. اعتمد نجاح برنامجنا أيضًا على الجهاز العامل في الوزارة؛ فالوزير ونائبه والمدير العام ومعهم الموظفون اندفعوا جميعًا للخدمة، وقدّموا أفضل ما عندهم لإنجاح المشروع. وتشكّل مجلس ماليّ ضمّ ممثّلين عن الوزارات المعنيّة المال والمناجم والصّناعة والنّقل، رأسه وزير التخطيط. كان المجلس يجتمع مرّة في الأسبوع لمناقشة الوضع الاقتصادي والمشكلات الرّاهنة، ويسعى لاستنباط الحلول المناسبة.

عملت في وزارة المناجم والصناعة ثمانية عشر شهرًا. استمتعت بمركزي هذا، وبرعت في أداء عملي، حتّى بات كلّ وزير يريدني أن أنضمّ إلى وزارته. وتلقّيت عروضًا عدّة للانتقال إلى رئاسة الوزراء، أو القيادة المركزية.

في النهاية، ارتأى أمير المؤمنين أن أتسلّم مسؤوليّة الإدارة المستقلّة للنقل. فأصدر قرارًا رسميًّا منحني بموجبه الصّلاحية لتغيير كلّ ما يلزم لتحسين القطاع. وتعدّدت المشكلات التي وجب عليّ مواجهتها. كانت إدارة قطاع المواصلات تتمّ عبر مكاتب محليّة موزّعة في كلّ المدن. وفي بعض المقاطعات تولّى طالبان إدارة الأقسام المحلّية وتقاسموا الأرباح، بينما خضعت مناطق أخرى لنفوذ القطاع

الخاص. لم يكن يوجد نظام واضح. وقد عجز سَلَفي عن إيجاد الحلّ المناسب. وحدث تضارب بين مصالح الشركات الخاصة وطالبان الذين سعوا إلى توسيع رقعة سيطرتهم. وكما جرت العادة في هذه المسائل، كان المواطنون العاديون هم الذين يدفعون ثمن هذه الخلافات، ويتحمّلون العناء من جرّائها، ما دفع الكثير منهم إلى مراجعة الإدارة المركزية في كابول سعيًا إلى حلّ المشكلة. من المعلوم أنّ هذه المشكلات الحادّة كانت تقلق الإدارة، وكنت على اطّلاع عليها حتّى قبل تسلّمي المنصب. ويشهد اللّه كم شعرت بالرهبة أمام تسلّمي هذا المركز.

تراني أقدر على إحداث التغيير الذي عجز عنه أسلافي؟ وكيف سأوفّق بين قادة طالبان المحلّيين ومتطلّبات النظام الاجتماعي؟ عندما تسلّمت مهامي الجديدة، قضيت أيّامًا أراقب وأدرس مختلف أبعاد المشكلة. سافرت إلى جميع دوائر النّقل الأساسية في البلاد، وأجريت المحادثات مع رؤساء الأقسام. وفي الوقت نفسه استمعت إلى اقتراحات الحلول، وخطط التطوير التي يأتي بها الموظّفون. لكن سرعان ما نشأت مشكلة أخرى. كان الفساد قد استشرى في القطاع، وتصاعدت الشكاوى من سائقين كثر.

تقليدياً، كان قطاع النقل يعتمد نظام مداورة ينظّم الخدمة بين السائقين؛ فيعطي لكلّ دوره. لكنّ الوكلاء أخذوا بالالتفاف على هذا النظام باستخدام أربع آليّات أو خمس، ويخصّصون الوظائف لأقربائهم وأصدقائهم، ويحرمون بالتالي سائر السّائقين من أدوارهم في العمل. وكان من الشائع أيضًا دفع الرّشى للحصول على عقود العمل. أجبر طالبان الوكلاء على تخفيض الأسعار، ما ساهم في تفاقُم الفساد، لأنّ الفاسدين سعوا إلى المزيد من العقود لتعويض خسارتهم. من المفترض أن يسير العمل على أسس العدالة والمساواة. لكن، وسط هذه الفوضى، تمكّنت قلّة من تحقيق الأرباح مسبّبة المعاناة للغالبية.

عندما عدت أخيرًا إلى كابول، حاولت الخروج بحلّ للأزمة. فبناء على ما رأيته في سفري عبر البلاد، اعتمدت مخرجًا ثالثًا يحقّق مصالح الوكلاء ومستوى مدخولهم؛ ويسمح بالمقابل بتوفير الخدمة الجيدة للمواطنين. فقرّرت لهذه الغاية،

إصدار قانون لتأميم كلّ وكالات النقل. وبذلك وضعت القطاع برمّته تحت سيطرة إدارتي المباشرة. وقمت باستخدام مديرين للأقسام مسؤولين عن وضع المدخول اليومي لأقسامهم في حساب مصرفي مركزي. وقد تمّ تسجيل كلّ هذه الدّفعات، ما عزّز نظام المداورة، وسمح لكلّ سائق بنيل حقوقه. كما أنشأنا مراكز لبعض المفوّضين المستقلّين، لكنّهم ظلّوا تحت وصاية طالبان.

ورغم ذلك فإن قسمًا صغيرًا من وكلاء النقل، ممَّن تربطهم علاقات مميّزة بموظّفي الدولة الكبار استمرّوا في تجاوز النظام. لكن الأكثرية ـ ٩٠٪ على الأقل ـ قد أجبروا على احترام القوانين الجديدة. بهذه الطريقة وضعنا حدًّا للوساطات والصداقات والعنف والرّشى داخل إدارتنا تلك، وسمحنا بإيجاد آلاف الوظائف في قطاع النقل، وتوقّف سيل الشكاوى. وبدأت مداخيل السّائقين والموظّفين الآخرين بالارتفاع. بالمقابل اشتكت بعض وكالات النقل الخاصة من أننا ألحقنا ضررًا بمصالحها.

جلب القانون الجديد الفائدة للجميع، لكنّ هؤلاء لم يهتمّوا إلاّ بمصالحهم الضّيقة، ما دفعني في ذلك الوقت إلى اعتبارهم لصوصًا معادين للنظام العادل، وللعدالة بذاتها. لذلك كان من الضّروري وضع كلّ الإدارات تحت وصاية الدولة. وللتخلّص نهائيًا من المشكلات المتنامية في قطاع النّقل، قمت بداية بفرض رقابتي على جميع قادة طالبان المحليين، ومن معهم من وكالات خاصّة. كانت المهمّة صعبة، وارتفعت عاليًا شكاوى قادة طالبان والوكلاء. أخبرنا البعض أن الناس لا يشتكون، لأنهم يتقاضون الأموال من الوكالات الخاصّة، بينما ادّعى البعض الآخر بأن الحصول على أموال الدولة أمر مشروع، لأنّهم حاربوا في الماضي من أجل بلدهم. ورغم كلّ هذه العقبات، فإننا استطعنا فرض النظام الجديد على الجميع، بالتساوي.

تكلّلت المرحلة الأولى من خطّتي بالنجاح، وبدا الشعب مسرورًا بهذا التغيير. وعندما أحكمت السّيطرة على الأمور، باشرت التحضير لخصخصة القطاع من

جديد. كانت فكرتي هي الآتية: مادام النّظام الجديد مستتبًّا، فسيكون من الأسهل للعملاء أن يلتزموه، ولمديرية النقل أن تراقب القطاع وتتحكّم فيه. تمكّنت خلال الفترة التي قضيتها في الوزارة من تنفيذ المرحلة الأولى من الخطّة.

ولم تمرّ ثلاثة أشهر على تدشين النّظام الجديد حتّى عيّنني أمير المؤمنين سفيرًا لأفغانستان في الباكستان.

١١

مَهمّة في غاية الأهميّة

في العام٢٠٠٠، كنت في طريقي إلى جلال أباد وكونار، بهدف تقييم قطاع النقل، عندما علمت أنني عُيّنت سفيرًا. كنا قد غادرنا كابول، من فورنا حين سمعت الإعلانَ عبر أثير الإذاعة. وكما حدث في تعييناتي السّابقة، لم يسبق لي أن ناقشت أمير المؤمنين في هذا الموضوع، لذلك أتى تعييني مفاجأةً.

ويشهد اللّه أنّني أحسست بالتّعاسة لاضطراري إلى مغادرة أفغانستان مُجدّدًا. في حينها، كان منصب السفير في إسلام أباد منصبًا يتمنّاه الكثيرون من طالبان؛ فالمرتَّب مُغرٍ، ومستوى العيش هناك أفضل مما هو في أفغانستان. ولكن على الرغم من أنّ الحياة رغيدة في إسلام أباد مقارنة بالحياة في بلدي الذي كان يعاني، فإنني لم أرغبْ في الرحيل.

كان للسفارة في «إسلام أباد» مكانة مميزة لدى وزارة الخارجيّة. في ذلك الوقت، كانت الأمم المتّحدة قد فرضت عقوبات[1] على أفغانستان بناءً على طلب الولايات المتّحدة. وشكّلت هذه العقوبات ضغطًا إضافيًا على العلاقات المتوتّرة أصلًا بين المجتمع الدولي والإمارة الإسلامية. لذلك كانت السفارة المجال الأوّل والأخير الذي أتاح لنا التواصل مع العالم؛ فقلّة هم الأجانب الذين أتوا إلى

(١) مجموعة العقوبات الأولى التي فرضها مجلس الأمن في الأمم المتّحدة كانت في تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٩٩٩ ولكن لم يكن لها تأثير. وفي ١٩ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٠، فرض مجلس الأمن عقوبات أكثر على طالبان (قرار ١٣٣٣) تتضمّن حظر أسلحة وبندًا ينصّ على إغلاق جميع مكاتب طالبان في الخارج.

أفغانستان. وكل الديبلوماسيّين الذين كانت لهم علاقات تجاريّة مع الإمارة درجوا على زيارة إسلام أباد.

الباكستان هي الوحيدة التي كان لها سفارة في كابول وقنصليّات في قندهار وهيلات وملالاباد؛ وقد تمّت معالجة كل شؤونها مباشرة في أفغانستان. أمّا الإمارات العربيّة المتّحدة والمملكة العربيّة السعوديّة، فقد اعترفتا ديبلوماسيًّا بإمارة أفغانستان الإسلامية لكنّهما لم تكونا قد افتتحتا سفارتَيْن لهما بعد؛ بل قامتا بجميع اتّصالاتهما مع وزير الخارجيّة الأفغانيّ في الباكستان. من جهةٍ أخرى، عيَّنت كل من فرنسا، وألمانيا، وبريطانيا والولايات المتّحدة ديبلوماسيّين رفيعي المستوى مسؤولين عن أفغانستان. لكنّهم أدّوا عملهم انطلاقًا من سفاراتهم في إسلام أباد، وحافظوا على علاقة وثيقة مع سفارتنا.

وبالمقابل، فإن العمل في الحقل الدّيبلوماسي من دون أي خبرة سابقة، وفي ظل أجواء مشحونة وهشّة، قد شكّل مهمّة صعبة جدًّا. كما أنني علمت بالأوضاع الصّعبة، وبالدّور الذي تؤدّيه سفارتنا في إسلام أباد خلال الأحداث. وكل ذلك أشعرني بالقلق لدى سماعي نبأ تعييني عبر أثير الإذاعة.

فور عودتي إلى كابول، مضيت إلى منزلي في الجنوب، وبقيت هناك لثمانية أيّام وحيدًا، أبحث عن طريقة لأتجنّب هذا المنصب. كتبت رسالة إلى الملّا محمّد ربّاني شارحًا مشكلاتي، والأسباب التي تمنعني من أن أكون سفيرًا كفؤًا. وأملت أن يساعدني ذلك، لأنني إذا لم أحظ بمساندة الملّا، فسوف يستحيل عليّ إقناع أمير المؤمنين بتعيين شخص آخر. لكن رغم أنّني بذلت ما في وسعي، فإن الملّا محمّد ربّاني والملّا محمّد عمر خذلاني، وأخبراني، أنّ الأوان قد فات وأنني عُيّنت رسميًّا؛ وأن مرسومًا قد صدر بهذا التّعيين. بالإضافة إلى ذلك، كانوا واثقين بأنّني سأتغلّب على المصاعب؛ وأنّني سأقوم بعمل جيّد كالعادة.

بعد أن تقبّلت فكرة حتميَّة تسلّمي للمنصب في إسلام آباد، قصدت وزارة

الخارجيّة لمقابلة عبد الرحمن زاهد[1]، نائب وزير الخارجيّة حينها. وقد بدا متفاجئًا بقدومي، وادّعى أنّه لا يعلم شيئًا عن تعييني.

قال زاهد إنّ المولوي وكيل أحمد متوكّل[2] ربما كان على علم بالمرسوم؛ لكنّه كان في قندهار في وقتها. وحين توصّلت أخيرًا إلى متوكّل عَبر الهاتف، سألته إن كان هو مَن اقترح اسمي للمنصب؛ فأجابني بأنّه هو فعلًا مَن اقترحه للملّا محمّد عمر؛ وأنّني قد أكون مرشّحًا جيّدًا لتولّي هذه المهمّة الصعبة. لكنّ الملّا محمّد عمر هو من اتّخذ القرار النهائي بتعييني. وقد أكّد لي ذلك الملّا محمّد عمر بنفسه بعد فترة من الوقت. أُصبت بخيبةِ أمل، وأخبرته بأن من المفترض أن يسألني رأيي في تولي هذا المنصب، قبل أن يوافق على تسميتي. وقلت للملاّ صاحب: لا أريد الذهاب إلى إسلام أباد، ولا أحسبني قادرًا على النجاح بمهمتي. سأكون شاكرًا لك إن تراجعت عن قرارك هذا. فأخبرني أنّ الأوان قد فات. لم يكن هناك من شخص آخر أشكي له همّي، فقبلت مصيري.

بحلول ذلك الوقت، كانت الباكستان قد وافقت على تعييني سفيرًا، وأصدرت لي تأشيرة دخول. وبمجرّد إصدار جواز السفر الديبلوماسي باسمي، علمت أنّ مصيري قد حُدّد. وفي اليوم التالي، سافرت إلى إسلام آباد على متن طائرة تابعة للأمم المتحدة، يرافقني المولوي، الذي توفر فيما بعد محمّد نبي محمدي، قائد حركة الانقلاب الإسلامي، وكان قد عاد من فوره إلى لوغر وكابول، لحضور جنازة ابنه الصغير. تحدّثنا طوال الرحلة. حيث أسرَّ لي ببعض تجاربه في الباكستان. وفيما كانت الطائرة تحط في المطار، وعدني بأنّه سيبذل كل ما في وسعه لمساعدتي.

▲▼▲

(١) عبد الرحمن زاهد يتحدّر أصلًا من خروار في ولاية لوغار. حارب خلال الجهاد في الثمانينيّات مع حزب «الحركة» لمحمدي.

(٢) لم يُعرف مولوي وكيل أحمد متوكّل (من قبيلة كاكار) والمتحدّر أصلًا من كشكيناخود في محافظة مايواند في ولاية قندهار كمجاهدٍ في الثمانينيّات؛ لكنّ والده عبد الغفّار باريالاي كان شاعرًا معروفًا في جنوب أفغانستان.

كانت تلك المرّة الأولى التي أركب فيها طائرة تابعة للأمم المتّحدة، والمرّة الأولى التي أزور فيها إسلام أباد. بعد أن حطّت الطائرة، مضيت بسيّارة صغيرة إلى منزل الشخصيات المهمّة في المدينة. ورحّب بي هناك مساعد في قسم البروتوكول في وزارة الخارجيّة الباكستانيّة، فضلًا عن المساعد الأول في السفارة الأفغانيّة. وبعد أن قدّموا لي الشاي، تلا المساعد في قسم البروتوكول خطبةً صغيرةً باللغة الإنكليزيّة.

عرّف عن نفسه قائلًا: «يا صاحب السعادة، أودّ أن أرحّب بك في جمهورية الباكستان الإسلاميّة، وأتمنّى أن تكون إقامتك هنا ممتِعة. إنّ الحكومة الباكستانيّة ووزارة الخارجيّة في خدمتك إن احتجت إلى أي مساعدة. نرجو أن تعتبر الباكستان وطنك الثاني. واعلم أنّك ستكون ضيفًا معزّزًا هنا». لا أذكر اسم ذلك الموظف، لكنّني أذكر أنّه من البنجاب. وبعد تلك الخطبة، مضوا بي إلى منزلي الجديد، مقر إقامة السفير الأفغاني، إلا أنّني بقيت في منزل الضيوف الخاص بالسّيد محمّد حقّاني[1] في الأيّام القليلة الأولى وهو السفير السابق، ولم يكن قد سلّم مهمّاته. لذا لم أتسلّم منصبي فورًا.

يقضي البروتوكول أن يتم تعييني رسميًّا بعد أن أقدّم أوراقَ اعتمادي للسّفير السابق. لكنّ المولوي السّيد محمّد حقّاني بدا على عجلة من أمره. وكان قد ودّعَ الرئيس الباكستاني السابق «رفيق طرّار»[2] قبل حفل الاستقبال والتسلّم والتسليم. وبتصرُّفه توقّف رسميًّا عن كونهِ ممثّل أفغانستان فيما لم أكن قد تسلّمت مهمّاتي رسميًّا. لكنني رغم ذلك، بدأت بالعمل فور وصولي، لكي أتعرّف جيّدًا إلى مهمّاتي وإلى سير العمل في السفارة. أمّا موظفو السفارة، وهم ديبلوماسيّون رسميّون، فضلًا عن بعض المحليين الذين بدوا كأفغان، فقد رحّبوا بي جيّدًا، وكانوا ودودين، وعرّفوني بالعمل الجديد.

(١) كان المولوي السيّد محمد حقّاني (من قبيلة أشكيزاي) شخصيّة بارزة في ذلك الوقت. كان يعيش في كويتا وهو ملاحق من قبل الحكومة الباكستانيّة والحكومة الأفغانيّة والحكومات الغربيّة لتورّطه في أنشطة عسكريّة في محافظة بانجواي في ولاية قندهار. وهو يتولّى حاليًّا منصبًا مهمًّا في طالبان.

(٢) تولّى رفيق طرّار رئاسة الباكستان منذ عام ١٩٩٨، حتّى العام ٢٠٠١. وُلد عام ١٩٢٩ وهو من الإخوان المسلمين.

التقيت رئيس الجمهوريّة أربع مرّات خلال الفترة الّتي كنت فيها سفيرًا. جرى اللقاء الأوّل في الحفل الذي تسلّم فيه أوراق اعتمادي والعُرف المتَّبع أن يبلّغ السفيرُ قبل أيام من الاجتماع الرسمي كي يحضّر نفسَه. وقد وصلتني الدّعوة قبل يومين فقط من الاحتفال. وورد في الدّعوة أنّ عليّ الحضور مع عائلتي والموظّفين في السفارة في تمام الساعة الثامنة صباحًا، للقاء رئيس جمهورية الباكستان. ذهبت برفقة ابني عبد العنان، وابن أخي حميد الله والقاضي حبيب الله فوزي[1]، وهو قاضٍ عملَ كمساعدٍ في السفارة، بالإضافة إلى المولوي عبد القادر صاحب[2]، الملحق العسكري. وفي تمام الساعة الثامنة، أوصلَنا قسمُ البروتوكول في وزارة الخارجيّة إلى القصر الرّئاسي.

كان بانتظارنا هناك عدّة عربات خيل ملوّنة ومزيّنة. أجلسوني في عربة الوسط وعُزِف النشيدان الوطنيان الأفغاني والباكستاني. وبعد الموكب الاحتفالي، التقيت الرّئيس في مكتبه. قدمتُ إليه أوراق اعتمادي التي أعطاني إيّاها أميرُ المؤمنين، وانتهت المراسم.

رحّب بيَ الرئيس مرّة ثانية، وتمنّى لي الأفضل. وأمل أن نتعاون معًا، وأن تتوطّدَ بين بلدينا علاقةٌ ثنائيّة مميزة. وبعد اعتراف الرئيس الرسمي، أصبحتُ رسميًّا سفيرَ إمارة أفغانستان الإسلاميّة لدى حكومة جمهوريّة الباكستان. بعد ذلك، دعيتُ جميع العلماء العاملين في السّفارة إلى منزلي للاحتفال بتعييني.

▲▼▲

بعد تسلّمي مهمّاتي رسميًّا، التقيت وزير الدّاخليّة عبد السّتار[3] للمرّة الثّانية

(١) القاضي حبيب الله فوزي يتحدّر أصلًا من غازني. قاتل في جهاد الثمانينيّات مع حزب الجيلاني. وقد يكون لا يزال على قيد الحياة.

(٢) يتحدّر المولوي عبد القادر صاحب من محافظة هيساراك في ولاية ننغرهار. قاتل في جهاد الثمانينيّات.

(٣) تولّى عبد السّتار وزارة خارجيّة الباكستان بين العام ١٩٩٩ و٢٠٠٢. وكان قد خدم من قبل في النمسا والهند والاتّحاد السوفياتي.

وتعرَّفت إلى وزير الدّاخليّة معين الدّين حيدر[١]. ويا ليتني علمت حينها أنَّ عليَّ لقاء رئيس وكالة الاستخبارات الباكستانيّة ورؤساء أقسام الوكالة أوّلًا. فقد علمت لاحقًا أنّ الوكالة تؤدّي دورًا مهمًّا في الحكومة الباكستانيّة. وألفتُ فكرة أنّ ممثّلي باقي الدّول قد اعترفوا بدورها المتنامي. وكان ضبّاط وكالة الاستخبارات قد أقاموا علاقة وثيقة مع أفغانستان، وأثّروا في السياسة الأفغانيّة حتى قبل الاجتياح السوفياتي. إلا أنّ الوكالة لم تكشف عن مدى تأثيرها وطموحها إلا بعد أن سبّب الروس انقلاب داوود خان على الشّاه ظاهر. وفيما ازدادت قوّة روسيا في أفغانستان، ازداد قلق وكالة الاستخبارات، وبدأت تشعر بالخطر أكثر فأكثر.

وفي محاولة منها لوقف السّوفيات، لجأت الوكالة إلى بعض القادة المجاهدين الذين سبق لهم زيارة الباكستان والذين كانوا جزءًا من المقاومة ضد النظام التابع للسوفيات من خارج أفغانستان. وفي الوقت الذي نفّذ فيه الروس انقلابهم في ساور[٢] بتاريخ العاشر من نيسان/أبريل عام ١٩٧٨ ضد حليفهم السّابق داوود خان، كانت الوكالة قد أقامت علاقات قويّة مع المقاومة؛ فزوّدتها بالمال حتّى ضاعفت مواردها الماليّة والعسكريّة.

اتّفقت دولٌ من خارجَ المنطقة مع الباكستان، وعبّرت علنًا عن قلقها حيال التأثير المتزايد للسوفيات في أفغانستان. أمّا الدّول العربيّة، فقد قدّم العديد منها الدّعم للباكستان بهدف وقف انتشار الشّيوعيّة. ففي عام ١٩٨٠، افتتح المجاهدون مقرًّا لهم في الباكستان تحت رقابة وكالة الاستخبارات. وحين قرّرت موسكو التدخّل، وأرسلت الجيش الأحمر لاحتلال أفغانستان، أصبحت الأمور في غاية الخطورة فسبّب وصول القوّات الرّوسيّة نزوحًا واسعًا للأفغان. وفي خلال بضعةِ

---

(١) تولّى معين الدين حيدر وزارة داخليّة الباكستان بين العام ١٩٩٩ و٢٠٠٢. كان سابقًا في الجيش الباكستاني والآن هو جنرال متقاعد في الجيش.

(٢) كان انقلاب ساور استيلاء ماركسيًّا على السلطة وقع في ٢٧ نيسان/أبريل ١٩٧٨ وأدّى هذا الانقلاب إلى حكم شيوعي دام ١١ عامًا.

أعوام، استقبلت الباكستان أكثر من مليونَي لاجىء أفغاني[١]. وما بدأ مخيّمات صغيرة للاجئين تحوّل إلى مدنٍ واسعة. وجرّدت وكالة الاستخبارات حملة واسعة لمساعدة المجاهدين في صراعهم. وبمساعدة الوكالة، توحّد المجاهدون، وأُجبروا على اعتماد استراتيجيّة موحّدة. واستمرّت الوكالة بأداء دور أساسي مع الفصائل الجهاديّة حتّى ظهور طالبان.

في ذلك الوقت، كان الموظّفون الصغار في الباكستان أشهرَ في أفغانستان مما هم في بلدهم الأم. وبصفتي ممثّلًا رسميًا لإمارة أفغانستان الإسلاميّة، كان من المهم أن أحافظ على استقلاليتي من وكالة الاستخبارات الأجنبيّة هذه؛ لكنّني لم أستطع تجنُّب تأثيرها تمامًا. وحاولت ألا أكون ودودًا جدًّا في تعاملي معها لئلا تستغلّني؛ وفي الوقت نفسه ألا أكون حادًّا جدًّا لئلا ترفضني. كما حاولت أن أعمل بشكل رسمي، وألا أخبّئ شيئًا. وقد تركّز معظم عملي في إقامة علاقة طيّبة مع وزارة الخارجيّة.

وفي يوم من الأيّام، دعاني مدير وكالة الاستخبارات الجنرال محمود[٢] إلى الغداء. كانت تلك دعوة رسميّة؛ لذا اصطحبت بعض موظّفي السّفارة. وكان الغداء في مقر الضّيوف في مبنى وكالة الاستخبارات براوالباندي. بدا لي أنّ الجنرال محمود ونائبه الجنرال جيلاني[٣] هما من البنجاب. وشاركنا الغداء ضباط عاملون في «المكتب الأفغاني» مثل الضابط فاروق[٤]، والكولونيل غول[٥]،

(١) في أوائل التسعينيّات، عاش أكثر من ستّة ملايين لاجئ خارج أفغانستان (Maley, 2002: 154).

(٢) كان الجنرال محمود أحمد في ذلك الوقت في العقد الخامس من عمره تقريبًا، ويتكلّم اللغتين الأوردو والإنكليزيّة. كان مديرًا عامًّا لوكالة الاستخبارات حتّى ٨ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١ حين تقاعد. قد يكون لا يزال على قيد الحياة. كان في واشنطن في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر وعمل مع الحكومة الأميركيّة في متابعة الاعتداءات في نيويورك وواشنطن.

(٣) كان الجنرال جيلاني في مقتبل العمر ولم يكن يُتقن لغة الباشتو.

(٤) الضابط فاروق باكستاني باشتوني في العقد الرابع من عمره، وكان طويل القامة.

(٥) كان الكولونيل غول في الخامسة والخمسين من عمره تقريبًا، وهو باشتوني طويل القامة. شارك في القافلة الشهيرة التي سافرت من الباكستان في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤ باتّجاه تركمانستان.

والرائد حمزة والرائد ضياء[1]. وبدا لي أنّ رئيس المكتب الأفغاني من الباشتون.

كانت تلك المرّة الأولى التي أجتمع فيها بموظّفي الوكالة، وأوّل مرّة أدخل مقرّهم. ورغم أنّهم حاولوا لاحقًا حل نزاعنا في أفغانستان، فإنني بقيت بعيدًا عنهم؛ فالعمل السرّي هو من أكثر الأشياء الّتي أبغضها في حياتي. فأنا أرى في التجسّس والعمليّات السريّة أمورًا غير شريفة. وعلى الشخص أن يكونَ مختلفًا جدًّا ليمارس مهنةً قذرة كتلك.

وما زلت أذكر أنّهم حاولوا التقرّب منّي مرّات عدة، حين كنت مدير وزارة الدّفاع بالوكالة في كابول. وقد عرضوا عليّ الكثير من الأشياء، لكنّني لم أفكّر جدّيًا بكل هذا قط. وعلى مدار الوقت الذي عملت فيه في وزارة الدّفاع، لم أسمحْ لهم سوى بشيء واحد، وهو زيارة لحلّ نزاع بين القبائل. حينها، سلّموني رسالة تبلّغ عن نزاعات بين القبائل كانت تحدث على الحدود في مقاطعة باكتيا جنوب شرق البلاد. في الحقيقة، كانوا يريدون أن يسيطروا على أراضٍ أفغانيّة ليوسّعوا حدودهم قرب «باكتيا». لكنّ الحدود ظلت كما هي، واستطعنا أن نصل إلى حل داخلي لهذا النّزاع.

وخلال الوقت الذي عملت فيه سفيرًا، لم أُبدِ موافقتي على أي عرض من الوكالة أو رفضي له؛ بل حرصت على استخدام عبارات مبهمة، لا تلزمني بأي أمر. وكان من مصلحة البلدين أن تجمعنا علاقة جيدة. فالأجواء العدائية ستلحق الأذى بنا معًا. وبالمقابل، فإن نشوء علاقة جيّدة سيفيد أفغانستان كثيرًا؛ ذلك أنها كانت آنذاك بلدًا استنزفتها الحرب والنزاعات الداخلية.

وكان على البلدين أن يقيسا بحرص معادلة الربح والخسارة، بالإضافة إلى القيم المشتركة والأوضاع الثقافية والسياسية والاقتصادية والجغرافية المشتركة، التي زادت أهميتها عن الاختلافات. ولا ينبغي أن تُحدّد العلاقات المستقبليّة بناءً على النزاعات السابقة بين الأفراد أو الدول. بل إن مصلحة البلد هي التي تشكّل

(١) الرائد ضياء باكستاني باشتوني في منتصف العقد الرابع من عمره.

دليلًا لكل القرارات السياسية، ولاسيما القرارات التي تخصُّ بلدًا مجاورًا. كما يُفترض أن تعتمد العلاقة الثنائية على التطوُّرات الاقتصادية والثقافية والاستقلال والاحترام المتبادل.

باختصار، لا ينبغي وسْم دولة بأنها عدوة أو صديقة، بل إن التعامل معها يجب أن يكون مبنيًّا على سياسات معتدلة، تعتمد على المبادىء الأخلاقيّة. فالسياسة التي اتّبعتها طوال حياتي، خلال عملي كسفير وفي حياتي الخاصة، استلهمتها على الدوام من مبادىءُ الإسلام واحترام الدول الأخرى. وتلك كانت سياستي الخارجية.

١٢

مبادئ دبلوماسيّة

كأيّ بلدين متجاورين تعَدَّت العلاقة بين السّفارة الأفغانيّة ووزارة الخارجيّة في الباكستان الحدود المتعارف عليها للعلاقات. فليس ما يجمع أفغانستان والباكستان مجرد حدود مشتركة فحسب، بل هما تتشاركان في الثقافة والدّين والأعراق واللغات نفسها.

وجاء غزو الاتحاد السّوفياتي ليوطّد هذه الصّلة أكثر فأكثر، إذ عَبَر حوالي ثلاثة ملايين أفغاني الحدود إلى الباكستان بحثًا عن ملجأ. ولكن هذا العدد الكبير من اللّاجئين شكل أعباء على السّفارة الأفغانية وعلى وزارة الخارجية الباكستانيّة. حتى غدا توفير الأمن وتنظيم السّكن وتنظم اعتقال المجرمين من المهمّات الملحّة. ناهيك بوجوب التعامل مع التجار الذين يستوردون السلع التجارية عبر الباكستان وإيران. فتجارة الفواكه والحبوب ومنتجات سواهما بين الباكستان وأفغانستان، سبّبت المزيد من العراقيل، لا سيّما بموضوع الأمن في المناطق الحدوديّة. وكان التعامل مع وزارة الخارجيّة، وهي المرجع الرّسمي للسّفارة، يُشعرني بالارتياح، ولاسيما مع توفُّر إمكانيّة اللجوء إلى المسؤولين هناك عند مواجهة أي عرقلة أو مشكلة مع وزارات أخرى.

وبالتالي تؤمّن لنا وزارة الخارجيّة بعد مناقشتها المسائل العالقة إمكانيّة الاتصال بالوزارة المعنيّة. فللوزارة مكتب تابع لأفغانستان، مع إدارة مختصَّة، ندير

من خلالها كل الرّسائل الخطّية. ولطالما التقيت مدير مكتب آسيا عزيز خان[1]، وهو باشتوني عمل سابقًا في أفغانستان وبالنظر إلى تجربته الشخصية بدا مطّلعًا على مختلف المشكلات التي نواجهها.

كنت أجتمع أحيانًا مع نائب الوزير، بل مع الوزير شخصيًّا لمناقشة قضايا محدّدة. وغالبًا ما ينصحني عزيز خان بالتعامل مباشرة مع وكالة الاستخبارات الباكستانية في بعض المسائل الخاصة. ولكم تعذّر علي استيعاب المنطق الذي يعمل على أساسه عزيز خان ووزارة الخارجية. ففي إحدى المرات طلب إليّ الحضور إلى مكتبه. وعندما وصلت قال لي إن رجلًا يريد أن يقابلني، يُدعى عبد الصمد حميد[2].

كنت قبل يومَيْن من الموعد على بيّنة من أن عبد الصمد قد وصل إلى الباكستان، وأقام في فندق ماريوت في إسلام آباد. سألت عن رقم غرفته لأزوره وأدعوَه إلى منزلي لتناول العشاء في اليوم نفسه الذي دعاني هو فيه. لطالما تمنّيت أن أقابله، فهو شخصيّة معروفة ومحترمة في أفغانستان. إلاّ أنّ طلب عزيز خان قد جعلني أبدّل رأيي. بادئ الأمر، تظاهرت أنني لا أعرف عبد الصمد، وسألت عزيز خان عنه، وعن منصبه: هل هو وزير أم مفوّض هنا في الباكستان؟ فوجىء وسألني «أيُعقل أنّك لا تعرف مَن يكون؟» وأضاف قائلًا: «إنه شخصية معروفة في أفغانستان. وشغل منصب نائب رئيس الوزراء من قبل!». انتقدني على جهلي لذلك، ومعرفة القليل عن بلدي. أما أنا فأجبته بصبر: «يا سيدي عزيز خان! بالطبع أعرف من يكون. وهو أيضًا يعرفني على ما يبدو! وإن اطلاعي على بلدي أفغانستان ليس اطلاعًا خجولًا. لكن لِمَ لم يتّصل بي مباشرة؟ فهو يعلم أين مقرّ السّفارة! لِمَ لجأ إليك كوسيط؟ أعلم جيدًا أنه معروف ومحترم، ولكنه من أفغانستان!».

---

(١) عزيز خان دبلوماسي؛ لكن يجب عدم الخلط بينه وبين الجنرال الباكستاني المتقاعد الذي خدم في الجيش بين عامَي ١٩٦٦ و٢٠٠٤.

(٢) تولّى عبد الصمد حميد منصبَ نائب رئيس الوزراء في عهد زهير شاه وكان بعد العام ٢٠٠١ قد اشترك في عمليّة روما ولكنّه ترك بعدَ فترة قصيرة من انضمامه. قد يكون لا يزال على قيد الحياة ولكنّه قد يكون عجوزًا.

وبعد انتهاء هذا الحديث مع عزيز خان، قرَّرت عدم تلبية دعوة عبد الصمد حميد. كنت لأتفهَّم لو أن شخصًا آخر تصرَّف على هذا النحو أي مستعينًا بوزارة الخارجية. ولكني لم أكن في حاجة إلى تلقّي دعوة من عزيز خان. فلم يكن ما جرى هو الطريقة المناسبة لذلك.

جمعتني بوزير الخارجية عبد الستار لقاءات عدّة، وعرفت فيه الرجل الصادق والتّقي. وقد أعرب أمامي عن قلقه على أفغانستان. قال لي «إن دولًا كثيرة لديها شكوك حيال هذا البلد. وإننا في حاجة إلى إيلاء أهداف هذه الدول المزيد من الاهتمام؛ عليك أن تكون أكثر فاعلية في جهودك الدبلوماسية؛ عليك معالجة هذه المسائل، ولا سيما المتعلقة بأميركا. يجب أن تجتمع مع دبلوماسيين أكثر، وتفسّر كل شيء لتوضيح المسألة». لكنَّه في بعض الأحيان بدا لي أنه هو أيضًا لم يفهم كيف يتعامل مع أفغانستان. في إحدى المرّات طلب إليه السّفير الرّوسي تنظيم لقاء معي. وعلى الرّغم من أنه لم يذكر ذلك، فإنني شعرت بأن لقاء في وزارة الخارجيّة مع السفير الروسي لن يكون في مصلحة بلدي. حينها قلت لعزيز خان: إنه لشرف لي لقاء السفير الروسي في مكان محايد مع مترجم. وأصرّ عزيز خان على عقد محادثات في وزارة الخارجيّة والمشاركة فيها. وقلت لهم إنّني لست مهتمًّا، ولم يُعقد الاجتماع قط.

جرت محادثات ثلاثيّة بين أفغانستان والباكستان وأميركا، أدارتها الباكستان. أمّا أنا فلم أكن على علم بالأمر، ولا حتى وافقت عليها. وأوضحت الباكستان للدبلوماسيين الأميركيين أن غيابي دليلًا واضحًا على عدم رغبة طالبان بالتفاوض. لكنّني لم أعلم بالاجتماع إلا بعد أيام من انعقاده، وأعلمني به أحد رجالي. مع أنني أبلغت سفير الولايات المتحدة مرارًا بوجوب اتّفاقه معي شخصيًّا، أو مع السفارة الأفغانيّة مباشرة، وعدم محاولة حلّ مشكلاته مع أفغانستان عن طريق الحكومة الباكستانية أو إدارتها. وشدّدت أن «الباكستان ليست وسيطًا نزيهًا. وسوف تعمد إلى السيطرة والتلاعُب بأي حديث تشارك فيه».

عمَّمتُ هذا التوضيح على جميع الدبلوماسيّين والسفارات الأخرى، وعلى

الأمم المتحدة. لكن عندما وصلتني توصيات من طرف ثالث عن طريق الإدارة الباكستانية، لم أقدّم إجابة مباشرة، بل شدّدت على أن الاتصال بي مباشرة شرط أساسيّ إذا كان المطلوب ردًّا رسميًّا. ففي مناسبات عدّة، اعتمدت حكومات أخرى على الإدارة الباكستانية لمعرفة آرائي حول قضايا محددة. لكنني تحفَّظت حول تورُّط الباكستان كثيرًا، لأن تدخّلها غالبًا ما يعني أن الأمور لن تتحسَّن.

تم ذات يوم القبض على صحافي فرنسي في أفغانستان وعلى الأثر طالبت حكومة فرنسا بإطلاق سراحه. ولكن بدلًا من التفاوض مباشرة معنا، اختاروا إرسال مسؤولين من وزارة الخارجية الباكستانية. حينها أبلغت ممثّلي فرنسا أن على حكومتهم الاتصال بي مباشرة. استغرق الأمر ثلاثة أيام قبل أن يتصل بي السفير الفرنسي، ويتم بذلك تسليم الصّحافي على الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة.

وكان المسؤولون الباكستانيون يُدركون جيّدًا المبادئ الدبلوماسيّة العامّة. ولكن يبدو أنهم يعتقدون أننا هنا في السفارة لا نمتلك الحنكة الكافية، لأن حياتنا بسيطة. وفضلًا عن ذلك، كانت أميركا تضغط على الباكستان، وعلى غيرها من البلدان، لمنع أي اتصال مباشر بنا، في مسعى دبلوماسي لعزل إمارة أفغانستان الإسلامية. حتى عندما كنت أجتمع بمفردي مع المسؤولين الباكستانيين، كانوا يخشون أن يتنصّت عليهم أميركي من وراء الباب. كانوا بالتالي يتحدثون بحذر وبفائق الاحترام والتقدير عن الأميركيين. ويشيرون إلى الرئيس بوش اللعين باسم «معاليه»، وإلى كولن باول بِـ «الصاحب». أذكر جيدًا كم أزعجتني تلك التعابير.

▲▼▲

على الرغم من أننا تعاملنا في معظم شؤوننا مع وزارة الخارجيّة، فإنّنا ألفْنا أيضًا التعامل مع وزارة الداخلية. ويعود ذلك إلى عدد الأفغان الكبير في الباكستان، الذي بسببه نشأت مشكلات أمنية متعلّقة بالمساجين اللاجئين، وتجاوزات الشرطة المحليّة، والتّجارة عبر الحدود. وكان معين الدين حيدر، وهو جنرال في الجيش، وزيرًا للداخليّة. وهو شيعيّ، ويقع على عاتق وزارته جميع شؤون الشرطة والأمن

داخل الباكستان. وكم من لاجىء أفغانيّ قصد السفارة لتقديم شكوى عن مضايقة الشرطة له. حتى الزّوار لطالما تعرّضوا للمضايقة خارج السّفارة.

هذا ما دفع رجال الشرطة إلى الانتشار في الشوارع التي تؤدّي إلى السفارة لسرقة الأفغان بعد أن ينقضوا عليهم مثل الذئاب. ومع أنني قدّمت شكوى إلى وزارة الداخلية، وحتى إلى وزارة الخارجية، لكن الوضع لم يتحسَّن. وكان الرّد، كالعادة، بيانًا رسميًّا يؤكّد أن الشرطة الباكستانية لم تزعج اللاجئين الأفغان، بل تحميهم. أي أنهم اعتبروا شكواي عارية من الصحة.

دعيت ذات يوم شيوخًا وعلماء من مخيّمات اللاجئين الأفغان إلى اجتماع في السفارة لمناقشة قضايا عدة. وفي طريقهم إلى السفارة، أوقفتهم الشرطة، وسلبت منهم أموالهم، على الرغم من أنهم يحملون هوياتهم التي تدل على أنهم لاجئون. وعندما أُطلق سراحهم ووصلوا إلى السفارة، أخبروني بما حدث معهم بغضبٍ أثّر بي كثيرًا، لأنهم كانوا شيوخًا أجلّاء. صحبتُ آنذاك شيخًا منهم وغادرنا السفارة. وقصدنا من فورنا المكان الذي احتُجزوا فيه، حيث شاهدنا ضابط الشرطة لا يزال هناك في انتظار ضحايا جدد. أوقفت السّيارة وأمرته بالدخول. وبعد أن حاول الهرب أمسكت به وأجبرته على دخول السيارة. أعدت المال الذي سرقه قبل قليل ومضيت من فوري إلى وزارة الدّاخلية. في طريقنا إلى الوزارة لم ينفكّ الضّابط يتوسّل إليّ لأدعه وشأنه طالبًا الغفران، وواعدًا بأنه لن يكرّر فعلته. لكنني، رغم ذلك، سلّمته إلى وزارة الدّاخلية. أردت أن أثبت لها أن هذه الاتهامات لم تكن من دون أساس، وجعلتها ترى بأم عينيها ما كان يواجهه الأفغان كل يوم. لكن وزارتي الخارجية والداخلية وجّهتا إليّ الانتقاد والاتّهام بانتهاك القانون الدبلوماسي.

خلال فترة تولّي منصب السفير في إسلام آباد طُلب إليّ مساعدة المواطنين الأفغان الذين يحتاجون إلى علاج طبّي في الخارج، عبر تزويدهم بتأشيرات الدخول. ومنهم ملاح سراج الدين القائد العسكري في وزارة الدفاع، وكان في طريقه إلى ألمانيا. أقام في دار الضيافة وبحوزته العشرة آلاف دولار المخصَّصة لرحلته وللعلاج الطبّي. ويوم عزم على ارتياد المسجد للصلاة ائتمن أحد

المسؤولين الماليِّين في الدار على أمواله. وما إن غادر إلى المسجد المحليّ للصلاة، حتى أتت الشرطة المحلية، التي كانت على علم بوصوله، وبالمبلغ الذي يحمله، وأجبرته على ركوب سيارة، واختطفته. آنذاك اتصل بي أعضاء حركة طالبان الآخرون المقيمون في دار الضيافة؛ وأفادوني بأن مجموعة من الرّجال يرتدون زي الشرطة انتظروه خارج المسجد وخطفوه.

إثر ذلك اعتراني خوف من أن يتعرّض للتعذيب أو القتل على أيديهم. فاتصلت على الفور بوزارتَي الدّاخليّة والخارجيّة. ولكنه ظهر قبل المباشرة بأي إجراءات.

وكانت الشرطة قد فتّشته وضايقته قبل أن ترميَه خارج المدينة. مما لا شك فيه أن هذه مسألة إرهاب. لذلك حرصنا على متابعة التحقيق والتطوُّرات في وزارتَي الدّاخلية والخارجيّة. لكن الصحافة استغلّت هذه الحادثة، واتهمت صحفٌ كثيرة سراج الدين بالاعتداء على صبي باكستاني. وعندما ارتفعت حدّة هذه الاتهامات بات من الأفضل إسقاط القضيّة، بدلًا من تسليط الضوء عليها والسّعي إلى القبض على الخاطفين. وأكّدت وزارتا الداخلية والخارجية تقرير الشرطة، وستّرت على رجال الشرطة. وبما أنهم لم يُلاحقوا، فقد واصلوا بالتالي استهداف الأفغان.

وفضلًا عن ذلك قُتل شابٌ كان في طريقه إلى ألمانيا. حيث استهدفته الشرطة وطاردته وهو على طريق المطار برفقة زوجته، تقلّهما سيّارة أجرة. لم نعرف بالتحديد ما بحوزته من مال، لكن زوجته كانت ترتدي مجوهرات باهظة الثمن. فلابد أن رجال الشرطة قد لاحظوا الأساور والقلائد وقرّروا سرقتها. فأوقفوا سيّارة الأجرة، وأمروا السائق بالتوجّه إلى سيّارتهم. عندما ركب ضباط آخرون السيارة أدرك الشاب ما كان يحدث، وقفز من سيارة شرطة المتحرّكة. فضُرب رأسه، وأُصيب بجروح بالغة. أما رجال الشّرطة فاستولوا على المجوهرات من زوجته ولاذوا بالفرار.

في الباكستان يتّفق سائقو سيّارات الأجرة مع الشرطة. فمتى علم السائق بأن مع الراكب مالًا، يتعمَّد المرور بنقطة تفتيش للشرطة، ويومىء إلى رجالها، الذين يُقدمون على سرقة الراكب. عندما رأت المرأة زوجها ملقى على الأرض

ينزف، صرخت من شدة اليأس إلى أن سمعها أحد المارّة، وأخذ زوجها إلى المستشفى حيث توفّي متأثرًا بجروحه. اتّصلت امرأة بالسفارة. ونحن بدورنا قدّمنا شكوى رسميّة إلى وزارتَي الداخليّة والخارجيّة. تمّ لبعض الوقت اعتقال رجال الشرطةِ المرتكبين؛ لكن سرعان ما أُطلق سراحهم من دون عقوبات. كما أنهم لم يدفعوا أي فدية للمتضرّرين. لا تنفكّ مثل هذه الحوادث تتكرّر في جميع أنحاء الباكستان. ففي مخيمات اللاجئين بين إسلام آباد وروالبندي، تنتظر الشرطة خارج المساجد أثناء وقت الصلاة، وتخطف كل من بدا عليه الثراء، وتعتقله لأخذ فدية.

لكن المشكلة لم تقتصر على رجال الأمن الأفغان بل تعدّتها لتشمل التجار ورجال الأعمال الأفغان الذين كانوا يواجهون المتاعب. ولما كانت أفغانستان بلدًا غير ساحلي فإن وارداتها مُجبرة على المرور بإيران والباكستان. وفي هذا السّياق، تنصّ الاتفاقيّات الدوليّة على عدم إخضاع هذه الواردات للضّريبة في بلدان العبور. ومع ذلك فإن الباكستان خرجت عن القانون الدّولي، وفرضت عقوبات على عشرات من البنود التجارية. وأوقفت السلع التّجارية الأفغانية في ميناء كراتشي، حتى فقدت سلع كثيرة منها صلاحيتها، مما أسفر عن خسائر بالملايين. لكننا تمكّنا من الحصول على بعض هذه السّلع وإسقاطها من قائمة العقوبات، كالمواد الغذائية وغيرها. علمًا أن رجال الشرطة الباكستانيون يستخدمون هذه المكيدة ذريعة للحصول على فدية.

إن ما يفعلونه من تأخير واردات التجار الأفغان، وجعلها تخضع لقيود، والإفراج عنها بعد تلقّي فديات من رجال الأعمال، أصبح بمثابة عملهم اليومي. وتشكو الباكستان من أن السلع المستوردة لم تُستهلك في أفغانستان، بل تُهرَّب إلى الباكستان؛ وأن السّلع التي تباع في السوق السوداء بدأت تؤثر في الصناعات الباكستانية. ولم يكد يخلو يوم من مثل هذه المشكلات. صحيح أنني تمكّنت من حلّ بعضها إلاّ أن بعضها الآخر لازمني طوال فترة تولّيّ منصب السّفير. فازدادت هجمات رجال الشرطة الباكستانيين على الأفغان، وتراكمت المشكلات ليس فقط

في إسلام آباد، بل في جميع أنحاء البلاد، وصولًا إلى بلوشستان. وعلى الرغم من أن السفارة لا تتمتع بسلطة رسميّة فإن اللاجئين ظلوا يلوذون بنا طلبًا للمساعدة.

قرّرت مرّة الاجتماع بمحافظ بيشاور، لمناقشة مشكلات اللاجئين في محافظته. فسافرت إلى بيشاور، والتقيته في منزله. وهو بدوره رحّب بي ترحيبًا ملكيًّا. لكن، عندما بدأتُ بطرح بعض القضايا، اعترض قائلًا «إن أفغانستان أصبحت تتمتّع بحكومة وأمن، وإن شعبك قادر على العيش في وطنه، وعليه أن يعود. فنحن لا نستطيع حمايته بعد اليوم». بدا كلامه قاسيًا وغير مسؤول ككلام يصدر عن رجل عسكري، ومختلفًا عن السياسة الرسمية للحكومة المركزيّة.

ومع ارتفاع عدد الحوادث باطراد، قصدت وزارة الداخلية ثانيةً، واشتكيت من الوضع. التقيت هناك الوزير، وشرحت له حالة اللاجئين الأفغان في الباكستان ثانيةً، والحوادث الأمنية المتزايدة، وسلوك الشرطة. وبعد حديث معه دام ساعة، أجابني بشكل غير متوقع قائلًا: «إن سلوك الشرطة هنا لا يقتصر على اللاجئين، بل يشمل الجميع في هذا البلد. وهم لا يستهدفون جماعة معيّنة، بل كل شخص ثري وغير قادر على حماية نفسه؛ وبالتالي هذه مشكلة عامة وليست محدّدة».

اعترتني آنذاك الدهشة وأجبته قائلًا: «أنت رئيس قوات الشرطة وتقول لي إنك عاجزٌ حيال ذلك! فلمن إذًا أقدّم شكواي؟» أراني قائمة بالرجال المطلوبين من الباكستان ويعتقد أنهم في أفغانستان[١]؛ يتصدّر القائمة سيف الله أخطر[٢] والمولوي محمد قاسم[٣].

---

(١) قام عريف أيّوب السفير الباكستاني في كابول في ٦ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ بتقديم ملاحظات لخطبة يجب أن تُقدّم في «مؤتمر المبعوثين» في وزارة الخارجيّة الباكستانيّة في ١٨ و١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ قدّر فيها أنّ عدد العرب في أفغانستان هو أكثر من خمسمئة في فترة جهاد الثمانينيّات وأنّه بقي في أفغانستان ٥٠٠ من قبيلة شيشين و١٠٠ من قبيلة يوغور و١٠٠٠ من قبيلة أوزبك و١٠٠ من قبيلة طاجيك و١٠٠ من بنغاليس و١٠٠ من موروس و٥٠٠٠ باكستاني. (Judah, 2002: 74).

(٢) عُرف سيف الله أخطر بأنه مجرم من الجنسيّة الباكستانيّة.

(٣) كان المولوي محمد قاسم باكستانيّ ورئيس حزب حركة المجاهدين (جماعة إسلاميّة متشدّدة تعمل في الأساس في كشمير).

ألقيت نظرة سريعة على القائمة، وأضفت قائلًا: «أعتذر منك يا جنرال، لكن يجب أن تُعطي هذه القائمة لمن هو معني».

رمقني بنظرة من دون أن يفهم قصدي، وعلّق قائلًا: «أنت ممثل أفغانستان هنا في الباكستان، والرّجال في هذه القائمة في أفغانستان؛ فإلى مَن ألجأ إذًا؟».

أجبته: «لا تزعج نفسك يا جنرال الجأ إلى الحكومة التي هي داخل حكومتكم، أي وكالة الاستخبارات الباكستانية ISID؛ فإليها تنتمي هذه القائمة».

لكنه اعترض قائلًا: «هذه القائمة لا تخصّ وكالة الاستخبارات الباكستانية». وأضاف: «لماذا تتحدّث معي بهذه الطّريقة؟».

أجبته «زارني أمس سيف اللّه في مكتبي بإسلام آباد، عندما كان مولوي محمد قاسم يشارك في مراسم دستربانديّ[1] في مدرسة على تقاطع I-7. وكان برفقته خمسة حراس شخصيين مسلّحين. رأيته بنفسي. حتى أنه ألقى كلمة خلال حفل الافتتاح. فكيف يمكنني أنا أن أسلمه إليكم؟ وكيف يمكنك المطالبة بأولئك الرجال من أفغانستان، بينما يتحركون بحرية في إسلام آباد وهم مسلّحون؟ فهل تعتقد أن طلبًا كهذا يُقدَّم إلى أفغانستان منصفٌ وعادل؟».

إثر هذه الكلمات بدت عليه معالم الصدمة. بدأ العرق يتصبب من جبهته، وردَّد: «ما تقوله غير ممكن!». لكنّي أجبته: «صدّقني إن ما أقوله صحيح». ومنذ ذلك الوقت لم يعد يسألني عن لائحة المطلوبين.

لم يكن معين الدين حيدر ليعرف أن الباكستان دولة ذات وجهين. عندما تولّى منصبه انحصر أول اهتماماته في اضطهاد الشيعة أبناء عقيدته، من خلال التعامل مع من ظلمهم. إلا أن بعض العناصر في الإدارة، عملت على تغطية المسألة، وقالت له، إن معظم أولئك الأشخاص في أفغانستان. وعلى الرغم من أنه كان وزيرًا للدّاخلية، وكانت دائرة الاستخبارات بإمرته، وكذلك قوة الشّرطة في الباكستان، فإنه لم يكن على يقين بما يجري.

(١) هي مراسم واحتفالات تخرّج طالب من المدرسة الدينيّة. يلفّ المتخرّجون عمامة تقليديّة وتتمّ هذه المراسم في جميع أنحاء العالم الإسلامي وإن لم يرتدِ الطلّاب العمامة دائمًا.

أقلّتنا في إحدى المرّات معًا طائرة خاصة إلى قندهار. تجادلنا آنذاك كثيرًا حول مسائل دينيّة وسياسيّة. وقال إن رجال الدّين لا يستمدون مطالبهم لا من الشريعة ولا من القرآن الكريم. وأعرب عن اعتقاده بأنهم كانوا يفرضون قواعد دينيّة صارمة على الشعب. وعندما سألته أن يعطيني مثالًا على ذلك، قال إن الوضوء يوضح وجهة نظره؛ ذاكرًا أنه لم يرد في القرآن الكريم؛ ولكن رجال الدين لا يزالون يفرضونه على الناس.

سألته: هل قرأت القرآن الكريم وتعرف معانيه؟ فأجاب «نعم، بالطبع! أنا مسلم، ورجل متعلّم». عند ذلك قلت: «أنا لا أقصد مستوى ثقافتك، بل أقصد أن تعليقاتك بيّنت لي أنك غير ملمّ بالقرآن الكريم. وبصفتي مسلمًا، أنصحك بعدم اتخاذ مسائل الله ورسوله(ﷺ) بسذاجة». لكنه لم يقتنع. سألت قائد الطائرة عن قرآن فلبّى. فتحت القرآن على الآية التي أمر بها الله المسلمين بالوضوء. قلت له إن نقطة الخلاف الرئيسيّة لم تكن الوضوء بحد ذاتها، بل هناك خلافات قائمة بين الشّيعة والسنّة. فالسنّة يعتقدون بوجوب غسل القدمين. أما تفسير الشيعة لواحدة من الكلمات المكتوبة فيقوم على أن القدمين يجب أن ترطّب فقط، أو أن تمسح بواسطة اليدين. واقترحت عليه أن يتعمّق في القرآن الكريم قبل إبداء رأيه.

كان معين الدين حيدر شخصيّة صريحة. فعند مناقشة بعض القضايا كان يتكلم بجديّة فائقة. لكن يبدو أحيانًا أنّه يبعد كل البعد عن أسس السياسة الدّاخلية للباكستان. وغالبًا ما كان يستمع إليّ، بل يتّفق معي حول مسائل كثيرة، منها مسألة السّجناء الأفغان، ووجوب قيام وزارة الداخلية في الباكستان بتشكيل لجنة مشتركة بين أفغانستان والباكستان لزيارة جميع السّجناء الأفغان في الباكستان، ومراجعة ملفّات قضاياهم. وإذا نالوا البراءة، يفرج عنهم. كما يجب اتخاذ قرار مستقلّ يدين المذنبين. ولكن كل هذا تأجّل النظر فيه بسبب أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

يتطلّب عملي كسفير أكثر من مجرّد التعامل مع الحكومة الباكستانيّة. فمن أجل تعزيز مصالح الإمارة الإسلامية لم أعتمد فقط على الوزارات، بل أقمت شبكة علاقات جيدة مع الأحزاب السياسيّة والشخصيّات المعروفة وغيرهم من الدبلوماسيين. ارتأيت ليس فقط التّعامل مع الحكومة، بل المشاركة في الحياة السياسيّة، ومناقشة القضايا المتعلّقة بأفغانستان، وباللاجئين الأفغان في الباكستان.

ولتعزيز علاقات أفغانستان بالدّول الأجنبية عقدتُ اجتماعات ومناقشات مع سفراء ودبلوماسيين من مختلف أنحاء العالم. وزرت الجمعيات الخيريّة، والأمم المتحدة، وعقدت مؤتمرات صحفيّة. كما التقيت ممثّلي الأحزاب السياسيّة في الباكستان، ناهيك بشخصيات معروفة، وعلماء وتجّار، وغيرهم. كل ذلك في سبيل تعزيز التعاون، وإقامة المزيد من الروابط بين بلدينا، وللفت الباكستانيين إلى مسائل تهمّهم بقدر ما تهمّ الأفغان.

خلال فترة عملي كسفير التقيت جماعات مثل الباشتونخوا[1]، وجامعة علماء الإسلام[2] وبارلوي[3]، وبانجبيريان وسباه الصحابة، وأعضاء من الشيعة، وسواهم من جماعات دينيّة وسياسيّة أخرى. لكنني لم أتدخّل في شؤونها الدّاخلية، أو في النزاعات الدائرة بينها. وإذا ما تطرّقت تلك الجماعات إلى مناقشة القضايا المتعلقة بالعلاقات القائمة بينها، كنت أنصحها أن تتحلى بالصبر، وأوضح لها أنه ليس لي أي مصلحة في التّدخل.

وكانت علاقاتي بمختلف طبقات المجتمع الباكستاني مهمّة للسفارة. ومن الواضح أن العلاقات كانت تختلف من مجموعة إلى أخرى. فالإمارة أقرب إلى

---

(١) إنّ «الباشتونخوا» هو اسمٌ أطلقه الباشتونيّون القوميّون على الدولة المقترحة التي تنشأ من أجزاء من الباكستان وأفغانستان. وفي العام ٢٠٠٨، كان هذا الاسم اقتراحًا بديلًا لمقاطعة الحدود الشماليّة الغربيّة.

(٢) جامعة علماء الإسلام هو حزب سياسي في الباكستان أنشئ عام ١٩٤٥. إنّ أفراد هذا الحزب يتبعون تقليد الديوبنديّة. ومن الشخصيّات البارزة في هذا الحزب مولانا سامي الحقّ ومولانا فضل الرحمن.

(٣) بارلوي هي حركة سنية معروفة (جنوب آسيا في الأساس) التفّت حول أحمد رضا خان في القرن التاسع عشر. وهناك عداوة تاريخية بين بارلوي والديوباندين والسلفيين.

علماء الإسلام وإلى حزب الشعب[1] والجامعة الإسلامية، إذ تجمع فيما بينها الكثير من القواسم المشتركة ووجهات النظر، فضلًا عن اللغة والمصالح الإقليمية الموحدة... كذلك كان البلوش والباشتون يتشاركون في الثقافة والتاريخ، وكانوا أقرب إلينا من البنجاب والسند.

لكننا حاولنا قدر المستطاع أن نحافظ على علاقات جيدة مع الجميع. فالكثير من العُلماء وأعضاء حركة طالبان، تابعوا دروسهم في الباكستان. وأقاموا صداقات مع علماء من الباكستان. لكن حزب الباشتونخوا التابع لمحمود خان[2] كان الحزب الوحيد الذي غالبًا ما هاجمنا، ووقف في وجه العلماء. وعلى الرّغم من أن حزب عوامي[3] الوطني التابع لوالي خان[4] شبيهٌ بالباشتونخوا، فإننا التقينا بضع مرّات لمناقشة بعض المسائل.

دعاني مرّة بعض أعضاء حزب عوامي الوطني، للمشاركة في واحدة من جلسات العمل الخاصة بهم، للردّ على أسئلة حول حركة طالبان. وناقشنا الكثير في ذلك الاجتماع. كما أجبت عن أسئلة كثيرة حول الباشتو والباشتون. حينها اعتقدت أن الأسئلة لن تنتهي أبدًا. وحاولت أن أشرح لهم أن الباشتون ليسوا وحدهم من يشغلون حيّزًا من تفكيرنا؛ ذلك أن أفغانستان لا تقتصرعليهم فحسب، وأن القبائل الأخرى التي استقرَّت هناك شكّلت جزءًا من البلاد، مثلها مثل حركة طالبان. وبصفتي سفيرًا من حركة طالبان، فقد عملتُ وزملائي على دعم الأخوّة بين المسلمين من دون استثناء. إذ لا يهمّ إلى أيّ قبيلة أو بلد أو طائفة تنتمي. فالتعصُّب يحدّ من عَظَمة الجماعة.

(١) حزب الشعب الباكستاني أنشأه ذو الفقار علي بوتو في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٦٧. قريب من عائلة بوتو وكان قائد الحزب دائمًا من العائلة.

(٢) محمود خان أشكيزاي (المولود عام ١٩٤٨) هو باشتوني قوميّ من كويتا في الباكستان.

(٣) حزب عوامي القومي هو حزب قومي علماني باشتوني في الباكستان يقوده أسفنديار والي خان.

(٤) والي خان (المولود عام ١٩٤٩) يتحدّر أصلًا من شرزادا (قرب بيشاور) وهو رئيس حزب عوامي القومي. عارضَ طالبان وتمّت محاولة استهدافه مرّات عديدة ومؤخّرًا في هجوم انتحاري في تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٨.

ينتمي إلى حركة طالبان أشخاص عدّة من المجموعة الإثنية نفسها. وهذا ما جعل الناس يعتقدون أن تراث القبائل مهمٌّ للحركة. ولكن هذا، في الواقع، مُجرَّد مصادفة. فالحركة بدأت حيث ولدت القبيلة. وعلى الرغم من دور القبيلة في إنشائها فإنها لم تعد فاعلة فيما بعد.

بعد هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، عُقد اجتماعٌ مشترك بين أفغانستان والباكستان في مجلس الدّفاع بإسلام آباد، حضرته جميع الأحزاب الباكستانية السّياسيّة، منها حزب الشعب والرابطة الإسلاميّة. ومع أننا لم نلتقِ بشكل مباشر، فإن الاجتماعات عُقدت بين كبار مسؤولي الأحزاب السّياسية، بما في ذلك شخصيّات مشهورة، مثل شودري شوجات حسين[١]، وأجاسول الحق[٢] وغيرهما.

وبالتّالي جمعتنا علاقات جيدة مع جميع الأطراف الإسلامية والدينيّة، لا سيّما تلك التي أُنشئت باسم الجهاد، أو التي أيّدته. كما عملنا مع جماعة علماء الإسلام التابعة لفضل الرحمن[٣]، وجماعة علماء الإسلام لمولانا سامي الحق[٤]، والجماعة الإسلاميّة[٥] للقاضي حسين أحمد[٦]، وأحزاب سواها، كحزب شاه أحمد

(١) شودري شوجات حسين (المولود عام ١٩٤٦) هو باكستانيّ من الإخوان المسلمين. تولّى منصب رئيس وزراء بين شهر حزيران/يونيو وآب/أغسطس ٢٠٠٤. كما كان سابقًا وزير داخليّة بين العام ١٩٩٠ والعام ١٩٩٣.

(٢) أجاسول الحق هو ابن ضياء الحق (الرئيس الباكستاني السابق). وُلد عام ١٩٥٣ وكان وزير الشؤون الإسلاميّة في الباكستان بين ٢٠٠٤ و٢٠٠٧. وهو من الإخوان المسلمين.

(٣) مولانا فضل الرحمن (المولود عام ١٩٥٣) هو رئيس فيلق من الحزب السياسي جامعة العلماء الإسلام. تعاطى السياسة الباكستانيّة وكان عضوًا في الجمعيّة الوطنيّة وترشّح ضدّ مشرّف للرئاسة.

(٤) مولانا سامي الحق (المولود عام ١٩٣٧) مستشار في مدرسة الحقّانيّة في الباكستان وكان قد تولّى هذا المنصب بعدَ وفاة والده عام ١٩٨٨. غالبًا ما يُشار إليه أنّه «والد طالبان» إشارة إلى عدد طالبان الأفغان الذين تخرّجوا من مدرسته. وهو مدير فيلق في حزب جامعة العلماء الإسلام.

(٥) حزب الجماعة الإسلاميّة هو حزب سياسي باكستاني مهمّ. أنشأه السيّد عبدالله مودودي في لاهور في آب/أغسطس ١٩٤١ ويدعو هذا الحزب إلى إنشاء دولة إسلاميّة في الباكستان.

(٦) القاضي حسين أحمد (المولود عام ١٩٣٨) باكستاني رئيس حزب الجماعة الإسلاميّة. انضمّ إلى الحزب في العام ١٩٧٠ وكان عضوًا فاعلاً منذ البداية. انُتخب في مجلس الشيوخ الباكستاني في العام ١٩٨٦ لست سنوات.

نوراني صاحب[1]، وحزب الدكتور أسرار أحمد. وعنى هذا التعاون الوثيق أن حركة طالبان تتمتع بشعبيّة كبيرة في جميع أنحاء الباكستان. في ذلك الوقت، اعتقدت أن حوالي ٨٠٪ من الشعب الباكستاني كان يدعم إمارة أفغانستان الإسلامية. لكن نظام الرئيس الباكستاني برويز مشرف الدكتاتوري عارض هذا التعاون؛ كما قلق المسؤولون الباكستانيون من الدعم الشعبي لأفغانستان. وأعربوا عن معارضتهم علنًا، مع أن جميع نشاطاتنا كانت ضمن القانون، ولم توجّه ضد أي شخص أو بلد.

أِلفتُ السفر بحريّة إلى كل زاوية من الباكستان، لتلبية دعوات ناس من كراتشي ولاهور وكويتا وبيشاور. وغالبًا ما اجتمعت بصفة غير رسميّة مع الأحزاب الدينيّة والسياسيّة، وشيوخ القبائل والعلماء. كما سافرت إلى المناطق القبليّة في الباكستان، حيث يعيش معظم البشتون. وبقيَتْ كل رحلاتي سريّة لرفع الشبهات، وتجنُّب نشوء أي مشكلة مع الحكومة الباكستانية. وكان المسلمون في جميع أنحاء الباكستان مهتمّين بمقابلتي وبمقابلة ممثّلي حركة طالبان. وكانوا متلهّفين إلى معرفة الكثير عن الحركة، وعن إمارة أفغانستان الإسلامية، فطالت المناقشات، وتبادلنا الأفكار. كما دعوني إلى اجتماعات عُقدت بمبادرة من شخصيات سياسيّة ودينيّة. وشاركت في مؤتمرات دوليّة، كمؤتمر قرطبة[2] وديوباند[3]، والتي حضرها ملايين المسلمين من جميع أنحاء العالم. شرحت فيها الوضع في أفغانستان، وعملت على تعزيز الوحدة بين المسلمين.

وشاركت في مراسم دسترباندي. ولكن من بين جميع المؤتمرات التي

(١) شاه أحمد نوراني صاحب (١٩٢٦ ـ ٢٠٠٣) والمعروف أيضًا بنوراني ميان، كان عالمًا في الإسلام من الباكستان وهو الذي أسّس جامعة العلماء الباكستان وشارك في تأسيس مجلس الأمل.

(٢) يُعقد مؤتمر قرطبة كلّ عام في لاهور (قرب منسيراه) ويُنظّمه حزب الجماعة الإسلاميّة. ويدوم عادة ثلاثة أيّام وتُناقش فيه مسائل سياسيّة ودينيّة.

(٣) عُقد مؤتمر ديوباند في بيشاور من ٨ إلى ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠١. وحضره نصف مليون ممثّل ونظّمه حزب جامعة علماء الإسلام برئاسة مولانا فضل رحمن. وتمّ في هذا المؤتمر إصدار قرارات عبّرت عن قلق حول وجود جنود أميركيّين في المملكة العربيّة السعوديّة. وقد تمّ قراءة تصاريح للعقيد القذافي والملّا محمد عمر وأسامة بن لادن أمام الحضور.

حضرتها، كان مؤتمر ديوبند الأعزّ على قلبي. فقد عُقد بمبادرة من مولانا فضل الرحمن، زعيم علماء الإسلام؛ وتم في مكان يبعد أربعة كيلومترات أو خمسة غرب مدينة بيشاور. ونظّمته جماعة الطلبة الإسلامية، وحضره ما يقارب مليونَي مسلم. ومع أنني لم أحضر منه سوى يوم واحد، فإنني ألقيت كلمة باسم إمارة أفغانستان الإسلامية، وعرضت رسالة مسجّلة من أمير المؤمنين على الجمهور. وحضر المؤتمر أيضًا شخصيّات كثيرة بارزة في أفغانستان تضمّنت وزراءَ ونوّابًا. وكان من المفترض أن يحضر مولوي عبد الكبير[1]، عضو مجلس الشورى القيادي. لكن حكومة الباكستان منعته. وكم مرّة حُذِّرت من السفر إلى المناطق النائية من البلاد، حيث الأمن مفقود، ولاسيما بعد ١١ أيلول/سبتمبر، وبعد هجمات أميركا القاسية على أفغانستان.

▲▼▲

تُعزى المشكلات التي نشأت بين أفغانستان وحكومة الباكستان إلى برويز مُشرَّف[2] بعد أن استولى على السلطة بانقلاب عسكري نفّذه عام ١٩٩٩ مؤكِّدًا في البداية نيّته في إقامة علاقات جيّدة مع أفغانستان. حينها رحّب بزيارة محمد رباني، وقدّم إليه الدعم. وأطلق عليه لقب أخلص حاكم لأفغانستان حتى الآن، والشقيق الجيد للشعب الأفغاني. والله وحده يعلم مدى صدقه.

في الواقع، كان مُشرَّف بحاجة إلى إقامة علاقة جيدة مع حركة طالبان، بالنظر

(١) مولوي عبد الكبير (من قبيلة سافاي) يتحدّر أصلًا من زدران (باكتيا). كان حاكمًا على جلال أباد خلال حكم طالبان وهو أيضًا رئيس المنطقة العسكريّة الشرقيّة. ويرد في لائحة الأمم المتّحدة «لحظر السفر» أنّه وُلد بين ١٩٥٨ و١٩٦٣. وتداولت وسائل الإعلام الإخباريّة أنّه أُلقي القبض عليه في الباكستان في تموز/يوليو ٢٠٠٥ ولكنّ مصادر أخرى (منها مصادر الملّا محمد عمر) تنفي ذلك وهو الآن قائد طالباني في المنطقة الشرقيّة (محافظات ننغهار، لاغمان، كونار ونورستان). يُقال إنّه حضر «اجتماع الإفطار» الذي استضافه ملك السعوديّة في مكّة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٩ والذي تمّت فيه محادثات مع طالبان.

(٢) برويز مشرّف (المولود في دلهي عام ١٩٤٣) كان رئيس الباكستان (٢٠٠١ ـ ٢٠٠٨) بعدَ انقلاب ١٩٩٩ الذي أطاح برفيق طرّار.

إلى الوضع السّياسي الدّاخلي في الباكستان. آنذاك، اكتسبت وكالة الاستخبارات الباكستانيّة المزيد من القوة، واعتُرف بها رسميًّا في إدارة حركة طالبان. كما حظيت حركة طالبان بتأييد واسع في أوساط الشعب الباكستاني. وكان مشرَّف بحاجة إلى دعم الناس، ووكالة الاستخبارات الباكستانية على حدّ سواء إذا ما أراد البقاء في السلطة. ويقول البعض إن انقلاب مشرَّف، وانهيار حكومة نواز شريف، ما كان ليحدثا لو لم تكن حركة طالبان ذات نفوذ واسع. لذلك رحّب مشرَّف بمحمد رباني، مُعربًا عن حُسنِ نيّاته، وعن أمله في دعم من حركة طالبان، وبالتالي دعم الشعب الباكستاني.

وربما كان لمُشرَّف أسبابٌ أخرى أيضًا. فهو رجل علماني يرى في الإسلام أداة سياسيّة فحسب، واعتقد أنَّه من خلالها يستطيع استخدام طالبان لبسط سلطته. إلا أنّه لم يرَ حركة طالبان يومًا كحركة دينيّة تريد إنشاء دولة إسلاميّة. ولكنه اعتقد أنها مجموعة من الأفراد لديهم هدف سياسيّ، ودينهم ليس سوى وسيلة لجذب الناس. وقد يكون لتدهور العلاقات بين الباكستان والهند أيضًا دورٌ في قراره. فهو لا يستطيع أن يتحمّل المشكلات من الجهتين في آنٍ. ذلك أن باكستان قد شاركت في الحرب شرقًا، نتيجة لحركة الجهاد التي سعت إلى وضع «الباكستان أوّلًا».

لكنَّ موقفه من حركة طالبان سرعان ما تغيّر. فعندما دعا مُشرَّف أمير المؤمنين على المجاهدين إلى الباكستان، لم يُلبِّ دعوته، لأنه لم يشأ السفر إلى الباكستان. ثم طلب مُشرَّف أن يُدعى إلى قندهار للقاء أمير المؤمنين، من أجل مناقشة صفقة مع الولايات المتّحدة فحواها تسليم أسامة بن لادن[1]؛ لكن أمير المؤمنين رفض،

(١) قضى أسامة بن لادن وقتًا في جنوب شرق أفغانستان في جهاد الثمانينيّات وبعدها انتقل إلى السعوديّة والسودان قبل أن يعود إلى شرق وجنوب أفغانستان في العام ١٩٩٦ حيث نظّم هجومات إرهابيّة عديدة على الولايات المتّحدة منها هجوم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. ولا يزال عناصر طالبان السابقون والحاليّون يتنازعون حول الدور الذي لعبه بن لادن في هجوم ١١ أيلول/سبتمبر. ويقلق عناصر قيادة طالبان حول إذا ما كانوا متّهمين بأنهم كانوا على علم بتخطيط بن لادن وأنهم بالتالي مشاركون في الجريمة. هذا رأي أدلى به الملّا ضعيف.

ووجّه رسالة إلى مُشرَّف مؤكدًا له أنه مُرحَب به كقائد لبلد مجاور يُناقش معه قضيَّتي الأمن والاقتصاد وسواهما من القضايا. أما قضيّة أسامة بن لادن، فلا تعني سوى أفغانستان والولايات المتحدة الأميركية. ومناقشة أمر مماثل مع الباكستان قد يؤدّي إلى تدهور العلاقة بين البلدين الجارين. لذلك ألغى مُشرَّف رحلته إلى أفغانستان.

وممّا زاد من التوتُّر في العلاقات طَلبُ وزيرَي الداخلية والخارجية في الباكستان رسميًّا من إمارة أفغانستان الإسلامية تسليم أفرادٍ فرّوا إلى أفغانستان. وعندما سافر وزير الداخلية معين الدين حيدر إلى كابول وقندهار للتحدُّث مع أمير مؤمنين المجاهدين بشأن إيواء المجرمين المزعومين، عاد خالي الوفاض؛ لأن مشكلة باكستان كانت داخليّة، وليس لها أي علاقة بأفغانستان. ذلك أن الذين اعتُقد أنهم في أفغانستان، كانوا يتجوَّلون بحريّة في الباكستان. بل كان بعضهم يحمل أسلحة مُرخّصة من قبل حيدر مُعين الدين نفسه. غير أن أفغانستان لم تبلّغ الباكستان بذلك مباشرة، بل أوضح أمير المؤمنين أن هؤلاء الأشخاص ليسوا في أفغانستان.

وسبق للباكستان أن قدّمت قائمة مؤلّفة من ٢٧ فردًا مشتبهًا في أن يكونوا قد لجأوا إلى أفغانستان. وأفادت إمارة أفغانستان أن أولئك الأفراد ليسوا في أفغانستان، وأن من المتوجَّب تنظيم تبادل المطلوبين على أساس اتفاق ثنائي يُعقد بين البلدين. وأحطناهم علمًا بأن الباكستان أيضًا كانت تؤوي مواطنين أفغانًا مطلوبين. وينبغي أن يتم تبادل المطلوبين في إطار يفيد كلا الطرفين. لكن الباكستان لم توافق على عقد مناقشات للتوصُّل إلى توافق قانونيّ.

ومما زاد في تعقيد الأمور محاولة مُشرَّف منع تدمير تماثيل بوذا في باميان، ودفاع حيدر الذي استند إلى الإبقاء على أهرامات مصر، محاولًا بذلك مقارنة التماثيل مع الأهرامات. وأرسل مُشرَّف وفدًا إلى قندهار، لكن بعد فوات الأوان.

في بداية عام ٢٠٠١، وصلت رسالة من أمير مؤمنين المجاهدين إلى

السفارة[1]، مُوجَّهة إلى الرئيس مُشرَّف، مع تعليمات بأن يتسلّمها شخصيًا. أمّا أنا، فقد اتصلت بوزارة الخارجيّة الباكستانية، وأبلغتها أن لدي رسالة سريّة من أمير المؤمنين المجاهدين مُوجَّهة إلى الرئيس مُشرَّف. في ذلك الوقت لم أكن أعرف مضمون الرسالة، وكنت أؤدي واجبي. قيل لي آنذاك أن أسلّم هذه الرّسالة إلى مقرّ إقامة الرئيس. وبعد يوم من تسليمها، أعادتها وزارة الخارجيّة إليّ طالبةً ترجمتها. ذلك أنَّها كُتبت بالباشتونية، ولم تزوّد بأي ترجمة إلى اللغة الأوردية أو الإنكليزية. وبالنظر إلى أن الرّئيس مُشرَّف لا يتكلم الباشتو ولا يقرأها، فقد قمنا في السّفارة بترجمتها إلى الإنكليزيّة.

جاء في الرسالة، إن أمير المؤمنين دعا الرّئيس مشرَّف إلى تطبيق الشّريعة الإسلامية، وجعل حكومة الباكستان إسلامية. مشدّدًا على أهمية الدور الذي قد تؤدّيه حكومة مماثلة. ولكني لا أزال أجهل لماذا أُعيدت هذه الرسالة إلى السفارة لترجمتها. فالباكستان ليست دولة غربية، وهي تألف لغة البشتون وثقافتهم، فضلًا عن وجود أكثر من ١٨ مليون باشتوني يعيشون في الباكستان، ويعمل الكثير منهم في الحكومة ووزارة الخارجيّة. بعد أن ترجمت هذه الرّسالة، قدّمتُ التّرجمة مع النسخة الأصليّة إلى وزارة الخارجيّة. وكان لهذه الرسالة تأثيرٌ بالغ؛ فمشرّف أعلن عن هذه الدّعوة في بيان رسميّ أمام وسائل الإعلام وأشار إلى أن أمير المؤمنين يعتقد أن زوجة مُشرَّف ستؤيّد ذلك. وسرعان ما أدرك مُشرَّف أن طالبان ليست مجرَّد مجموعة من الأفراد لها دوافع سياسيّة، ولكنها تسعى إلى تنفيذ حكومة إسلاميّة. وهذا كان بمثابة لعنة عليه.

خلال فترة عملي كسفير، التقيت مشرَّف أربع مرات. أُولاها في مراسم تولّي منصبي، والثانية عندما سلّمت رسالة أمير المؤمنين. والتقينا للمرّة الثالثة في كراتشي، حيث كانت الباكستان تعرض معدّاتها العسكريّة من أنظمة دفاعية مختلفة وأسلحة ومعدّات استخبارية من بينها صواريخ «غوري». وحضر المعرض

(١) للمزيد من المعلومات، راجع: Judah, 2002: 5.

ممثلون حكوميون ودبلوماسيون من جميع أنحاء العالم. وانتهى الحدث مع تجربة إطلاق أحد الصواريخ، تلاه احتفالٌ كبيرٌ في منزل الحاكم. وتلاقينا للمرَّة الرابعة في كراتشي، وقد أحسستُ خلالَ اللقاء الأخير، أن مُشرَّف قد تغيَّر، وبدا لي مُتعبًا، وبدت عيونه غارقة، وبشرته فاتحة. آنذاك توقّف عن الادّعاء، وأظهر لي وجهه الحقيقي. وسوف يظهر فيما بعد كيف أن عداءه لإمارة أفغانستان سيعود بالسوء على كلا البلدين.

ظهر هذا الحقد في كتابه «الباكستان قبل كل شيء!»[1] وقد بات يُتاجر بإخوته المسلمين في أفغانستان. كما أنه با ع الناس من أجل المال بعد ١١ أيلول/ سبتمبر. انتهت معظم أعماله تلك في غوانتنامو، بعد أن ترك بقعة سوداء في تاريخ الباكستان، فقد كان الشعب يطالب بإسقاطه بعد أن خان الإسلام، وبعد أن أثار كتابه الكثير من الانتقادات، وسيبقى برهانًا حسيًّا على ما فعله.

---

(١) راجع: Musharraf, 2006.

١٣

ارتفاع حدَّة التوتُّر

كانت الباكستان قبل ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ بمثابة قذيفة فارغة. إذ نشأت فيها حكومة داخل الحكومة؛ وأصبحت هي القوة الحقيقية في البلاد. حاول مُشرَّف قيادة البلاد؛ لكنه واجه صعوبات تتعلَّق بالسلطة الداخلية، تاركاً وكالة الاستخبارات الباكستانية تُهيمِن على الحكومة المُنتخَبة كلما رأت ذلك ضروريًّا. وهي إدارة مخابراتية عسكريّة يرأسها قادة الجيش الباكستاني، وتنطوي على مدنيّين وعسكريين وتقوم بعمليات الاعتقال والإفراج. وأحيانًا، تنفّذ اغتيالات في أماكن بعيدة عن حدودها، مثل أفغانستان والهند وإيران.

وفضلًا عن ذلك، تدير شبكة من الجواسيس في كل البلدان، وتجنّد سكّانًا محليّين للقيام بمهمّات سريّة. ويتلقّى أفرادها التدريب في مختلف المجالات، من تقنيات التجسّس إلى المتفجّرات. كما وضعت أشخاصًا في البلدان الأجنبية متستّرين في مهن معيَّنة كأن يكونوا ملّاحين وتبليغيين[١] ورجال أعمال ومجاهدين؛ أي المهن التي لها تأثير قوي داخل البلاد وخارجها.

كلّنا نعلم أن الذئب والخروف يشربان الماء من النهر نفسه. لكن، منذ بداية الجهاد، توغَّلت جذور وكالة الاستخبارات الباكستانية عميقًا في أرض أفغانستان،

(١) جماعة التبليغ هي جمعيّة من رجال الدين تضمّ أتباعًا بارزين في جنوب آسيا والعالم المسلم. أنشأها مولانا محمد قندلاوي وهو عضو بارز في حركة ديوباندي. إنّ عناصر جماعة التبليغ لا يهتمّون بالقضايا السياسيّة ويرون مهمّتهم كأنّها دعوى. يجتمعون كلّ عام في تجمّع كبير في الباكستان وغيرها.

تمامًا كالسرطان الذي ينتشر في جسم الإنسان. لذلك قدّم كلّ حاكم في أفغانستان شكواه. لكن ما من وسيلة أجدت للتخلُّص منها. وقد سعت وكالة الاستخبارات الباكستانية إلى انتقاء أفراد من جميع طبقات المجتمع لتجنيدهم؛ ومنهم من يعمل في الوزارات والسفارات والمُحافظات. أما أنا، فحاولت دائمًا أن أبقى بعيدًا عن المرمى لتجنُّب أي صراع، ولئلّا أصبح هدفًا لهم. فبينما كنت أعمل في السفارة، زارني عُلماءُ كثيرون، وسواهم من مُدَّعي التقوى. لكنهم في الحقيقة جاءوا فقط لإقناعي بالانضمام إلى وكالة الاستخبارات الباكستانيّة.

بقيت مُخلِصًا لمبادئي، وحاولت تجنُّب مَن حاولوا خداعي لأدخل وكالة الاستخبارات الباكستانية. بالإضافة إلى أنّني تلقَّيت مرّات ومرَّات دعوات من قادة في وكالة الاستخبارات الباكستانيّة، لكنّني اعتذرت، وبقيت بعيدًا عنهم، مدّعيًا أن لدي التزامات مسبقة، أو أنني لم أكن على ما يرام. وفي المرّات القليلة التي لبَيتُ فيها دعواتهم كنت حذرًا على الدوام. ولطالما عرضوا عليّ المال، إلا أنني لم أقبل أيّ رشوة. لأنني إذا وقعت في شباكهم مرَّة واحدة، فسوف أبقى أسيرًا لهم إلى الأبد. هذه هي عادة جميع وكالات الاستخبارات في مختلف أنحاء العالم. لقد لاحظنا أن كلَّ مَنِ انضم إلى وكالة الاستخبارات المركزية، أو الكي. جي. بي، أو وكالة الاستخبارات الباكستانية، أو الهيئة العامة للاستعلامات وغيرها، لا يزال عالقًا حتّى الآن؛ لكنه يعمل بأسماء وألقاب مختلفة.

ألفتُ أن يتقرَّب مني مسؤولون من الإدارات والوزارات الأخرى، لمعرفة المزيد عن الشؤون الراهنة والمشكلات القائمة في السفارة وفي قندهار. وكانت وكالة الاستخبارات الباكستانيّة تؤكد دائمًا أنّها تدعمني وتدعم السّفارة في أيّ قضيّة أو مشكلة تتعلّق بمُشرَّف، أو الوزارات الباكستانيّة، محاولةً إقناعي بأن من مصلحتي ومصلحة أفغانستان أن نعمل معًا. لكنّني واصلت تقديم الأعمال الرسمية كافة من خلال وزارة الخارجيّة. إذ كانَ مسؤولو الاستخبارات الباكستانية في معظم بعثات الباكستان الدبلوماسية إلى أفغانستان.

رافقت وفودًا باكستانية في رحلاتهم إلى أفغانستان. مضيت أول مرّة مع معين حيدر الدين إلى قندهار لمناقشة قضيّة المجرمين الذين تعتقد الباكستان أنهم يختبئون في أفغانستان؛ وكانت قضيّة أسامة بن لادن هي هدفه الرئيسي. أمّا الرحلة الثانية، فتمحورت حول قضية تحطيم تماثيل بوذا في باميان وقد أراد حيدر التسويف في العملية من أجل كسب مزيد من الوقت للمفاوضات. وفي البعثة الدبلوماسيّة الثالثة، سافر وفد من العلماء، منهم اللواء محمود أحمد، إلى قندهار، للاجتماع مع أمير المؤمنين. لكنه لم يشارك في المناقشات. لست متأكدًا مَن كان متورِّطًا، لكنَّه بقي صامتًا خلال المحادثات.

أتذكَّر جيدًا ما قيل حول تحطيم التماثيل، حيث حاول حيدر إقناع أمير المؤمنين على المجاهدين بتأجيل تحطيمها، وكان محمود يجلس إلى جانبي. وبدا واضحًا أن حيدر يمثّل مُشرّف والحكومة، في حين كان محمود يتّبع أجندته الخاصّة. عندما تحدّث حيدر إلى أمير المؤمنين، بدا أكثر بلاغة من الآخرين؛ ذلك أنه وزن كلماته بعناية. وأثار مخاوفه بشأن خطط الأميركيين قائلًا: «يجب اتخاذ قرار، مع أنني متأكّد بنسبة ٨٠٪ من أن الأميركيين سيهاجمونكم. يجب أن تُفكّروا: هل أنتم قادرون على الدفاع عن أنفسكم؟ وإذا كنتم تعرفون كيف، فأنا شخصيًّا لا أعرف إمكانياتكم!». كان هو الوحيد الذي يشعر بالقلق بشأن الأميركيين. ولم يبدِ أي شخص آخر قلقه إزاء قضية أسامة. وعندما كان حيدر يتحدّث انحنى محمود باتّجاهي وهمس ساخرًا: «عمّ يتحدث هذا الحمار؟». فأجبته: لا شيء، لكنّني قلت في نفسي: كم هو عظيم الفرق بين هذَيْن الرجُلَيْن.

على الرّغم من أن الباكستان والمخابرات الباكستانية تحافظان على علاقات وثيقة مع طالبان، فإنّهما قد أيّدتا بالمقابل العلاقات مع معارضتنا. فقد عمدتا إلى مساعدة قادة يعملون ضدنا قبل ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، وبعده؛ ومنحِهم إذنًا لحمل السلاح وتنظيم أنفسهم سياسيًّا. كان بعض القادة العسكريّين، أمثال كرزاي

وعبد الحق[1] والملّا مالانغ[2] وغول آغا شيرازي، على اتّصال مباشر بأميركا، وكانوا يعملون مع وكالة المخابرات المركزية ومكتب التحقيقات الفيدرالي. بالإضافة إلى أنهم تلقَّوا مساعدات ماليّة من خلال السفارة الأميركية. كما تمتَّعوا بحرية كبيرة وامتيازات في الباكستان. لكنَّهم من دون دعم الولايات المتحدة لما تمتَّعوا بمثل هذا التأثير.

عاش مجاهد سابق في شارع F-10-3، أي بالقرب من مكان الضّيافة الخاص بالسفارة. وبذلك تمكّنّا من متابعة أنشطته عن كثب. ووضعنا معدّات مراقبة لتسجيل مكالماته الهاتفية، كما تتبَّعنا تحركات رفاقه. واستنتجنا أن منزله لم يعرف الهدوء يومًا. وكان يزوره كل يومين أو ثلاثة رجالٌ من المخابرات الباكستانية. وفي بعض الأحيان، جمع منزله زعماء المعارضة وقادة الحزب الإسلامي، لتبادل وجهات النظر مع تحالف الشمال الذي يقوده أحمد شاه مسعود، المعارض الرئيسيّ لحركة طالبان. ومن خلال هذه المراقبة أدركنا أن أموالًا كانت تمرَّر لدعم تحالف الشمال.

التقت وكالة الاستخبارات الباكستانية والتحالف الشمالي على الأقل مرَّتين: مرة في بيشاور في مكاتب الاستخبارات الباكستانية، ومرة في دار الضيافة الخاصَّة في إسلام آباد. أمّا أنا فأبلغت إمارة أفغانستان بهذه التحرُّكات. وعندما علمت أن وكالة الاستخبارات الباكستانية قد أبرمت اتفاقًا بين أميركا وإيران والتحالف الشمالي، للتصدّي لحركة طالبان، سافرت من فوري إلى قندهار. وأفدتُ الملّا أنّ العداوات المتزايدة بين أفغانستان والباكستان يجب أن تتوقَّف. «نحن لسنا فقط دولتين مُجاورتيْن ولكننا نتشارك الثقافة نفسها. لذلك نحن في حاجة إلى تفاهم

---

(١) يتحدّر عبد الحق (من قبيلة أحمد زاي) من ننغرهار. وُلِدَ قرابة العام ١٩٥٩. حاربَ خلال الجهاد في الثمانينيّات، وكان ينتمي إلى الحزب الإسلامي. نُفي في ٢٦ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١ إثر محاولة له لمقاومة طالبان.

(٢) يتحدّر الملّا صالح محمد مالانغ (المعروف بالملّا مالانغ) من بدغيس على الرغم من أنّه تعلّم في قندهار. حارب بصفته قائد مجاهد في الحزب الإسلامي في جهاد الثمانينيّات وهو الآن عضو في مجلس النوّاب يُمثّل محافظة بدغيس.

من أجل الشعب». وأخبرته أن لديَّ براهين قوية على أن الباكستان تتفاوض مع أميركا وإيران وتحالف الشمال في مؤامرة ضد إمارة أفغانستان.

بدأتُ بتوكيل أشخاص داخل حكومة الباكستان من شأنهم أن يعطونا معلومات عن خطط تلك المؤامرة. ومع أننا حقَّقنا تقدُّمًا ملموسًا، وتمكّنا من توسيع شبكتنا من المُخبرين في الحكومة ووزاراتها، فإنّنا لم نستطع تحديد أهداف الباكستان. وعمدتُ في السّفارة إلى الاستغناء عن مجموعة موظّفين وأحللتُ محلّهم أشخاصًا لهم علاقات وثيقة بوكالة الاستخبارات الباكستانية، آملًا أن أخفّف من عزيمة قادة طالبان وكلّ من يتعامل معهم بهدف التواصل المباشر مع الاستخبارات الباكستانيّة والمخابرات المركزيّة فيخاف أولئك من أن تعلمَ سفارتي بخيانتهم بعد أن تقرّبت من الاستخبارات الباكستانيّة. وتأكّدنا من أن هؤلاء الأشخاص يعلمون أننا مطّلعون على اتصالاتهم مع أجهزة الاستخبارات الأجنبية، وأننا نرصد تحرُّكاتهم. وكانت وكالة الاستخبارات الباكستانية تُصدِر تصاريح وتراخيص تسمح للسيارات بعبور الحدود إلى أفغانستان. ولكي تكون معرفة مَنْ يعبر الحدود تحت السيطرة، اتّفقت مع وكالة الاستخبارات الباكستانية على وجوب أن يمرّ كل أفغاني بالسفارة أوّلًا، مما يتيح لنا فرصة نسخ وثائقه وإرسالها إلى قندهار.

وفي حين كانت المشكلات مع الباكستان تتفاقم يوما بعد يوم، واجهت أفغانستان آخر أزمة ديبلوماسية، عندما أمر مولوي عبد الولي[1]، وزير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بتحطيم التماثيل القديمة والشهيرة لبوذا في باميان، مُحوّلًا إياها إلى ركام، تحت أنظار العالم. وقد عارضت الحدث وفودٌ وديبلوماسيون من جميع أنحاء العالم فجرَّدوا حملة ضد أفغانستان بعد أن تسرّب إليهم خبر التحطيم. وأرسلت منظمة اليونسكو، وهيئة الأمم المتحدة المسؤولة حفظ المعالم التّاريخية، ٣٦ رسالة اعتراض.

وكانت الصين واليابان وسري لانكا البعثات الدبلوماسية الأكثر نشاطًا. إذ

(١) يتحدّر المولوي عبد الوالي أصلًا من سيا شوي (قندهار) ولكنّه لم يُحارب في جهاد الثمانينيّات. قُتلَ صيف ٢٠٠٦ في باشمول وهو يُقاتل الجنود الكنديّين.

طلبت الصّين وقف الاستعدادات لتحطيم التماثيل فورًا. واقترحت سري لانكا أن تُنقل التماثيل من أفغانستان لإصلاحها. وقد زارني في إسلام آباد الزعيم الديني للطائفة البوذية في سري لانكا، طالبًا إلي السفر إلى أفغانستان، ولكنّي رفضت طلبه. أما اليابان، فتكبّدت العناء الأكبر، وقدّمت اقتراحين، بعد أن أرسلت الحكومة اليابانية إلى الباكستان وفدًا برئاسة رئيس الوزراء الياباني ووزير الشؤون الثقافية، بالإضافة إلى ستّة وزراء. وكانت اقتراحاتهم مماثلة لاقتراحات سري لانكا، فك التماثيل قطعة قطعة، ونقلها إلى اليابان ليُعاد تجميعها. أما الاقتراح الثاني، فكان تغطية التماثيل بكاملها، بطريقة يتعذّر على أحد أن يعرف أنها كانت هناك يومًا.

كما قدّمت اليابان المال، واقترحت أن تنظر حركة طالبان بالاقتراح، وعرضت أن تدفع ثمن التماثيل إذا قبلت حركة طالبان خطّتها. واستمر الاجتماع مع الوفد الياباني لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. وشدّد اليابانيون على أن الأفغان هم أجداد ديانتهم؛ لذلك يتوقّعون منّا الحفاظ على الآثار التاريخية والدينية. ولكنني علّقت على سذاجة رأيهم المستغرب، لمجرّد التفكير بأن الأفغان أسّسوا البوذيّة. ووضّحت لهم أن الأفغان قد تطوّروا، وأدركوا أن البوذيّة دين باطل ودون أي أساس، وتبعوا ضوء الإسلام. وبما أنهم تبعونا سابقًا، فلمَ لم يتبعونا عندما وجدنا الدين الحقيقي. وفضلًا عن ذلك، فإن تماثيل بوذا منحوتة من الحجر بأيدي بشر، وليس لها أي قيمة حقيقية، فلم هم حريصون على حفظها؟ لم تعجبهم أسئلتي، وأشاروا إلى أن الكعبة في مكّة المكرمة صنعتها أيادٍ بشريّة من الحجر وليس الله من بناها. ومع ذلك يقصدها ملايين الحجّاج المسلمين كل عام. لم أجادلهم طويلًا؛ ولكنني وعدتهم بأن أقدّم اقتراحاتهم إلى السلطات الأفغانية.

كان توقيت تحطيم الآثار حرجًا وصعبًا عليّ. إذ لم يكن باستطاعتي فعل أي شيء لإرضاء الوفد. بل إن تفجير التماثيل قد رفع توتُّر علاقات أفغانستان الخارجيّة. ولم يكن لي أي دور في القرار المتعلّق بالتماثيل، ولم يستشرني أحدٌ. وعلى الرغم من أنني كنتُ مقتنعًا بأن تحطيم التماثيل جزءٌ من تطبيق الشريعة،

فإنني اعتبرتُ مسألةَ التماثيل أكثر من مسألة دينيّة وأن تحطيمها لم يكن ضروريًّا وأن توقيتَه سيّيء. ولكن حالما حُطّمت التماثيل، عانت الإمارة من خسارةٍ كبيرة.

▲▼▲

تسلّم الحاجي ملّا محمد ربّاني قيادة إمارة أفغانستان الإسلاميّة بعدَ أمير المؤمنين. وخلال فترة الجهاد، كان نائب القائد عبد الرازق في الحزب الإسلامي. وقد عُرِفَ بشجاعته وإيمانهِ وسطَ مجاهدي قندهار وزابول. فهو من قادَ رجالَهُ في المعارك ضدّ الروس، منفّذًا عمليّات عدّة خلال سنين طوال. ومنذ العام ١٩٩٤، دخلَ محمّد ربّاني حركة طالبان؛ وسرعان ما أصبحَ أحد قادتها المحترمين. فعُيِّنَ رئيس مجلس الشورى، وأصبح بعدها رئيس مجلس الوزراء. لكن، في العام ١٩٩٩، بدأت صحّة محمد ربّاني تتدهور، فاضطرَّ إلى السفر إلى الإمارات العربية المتّحدة للعلاج.

وقد أظهر الكشف الطبّي أنّه يُعاني من سرطان في الكبد لا يزال في مراحله الأولى. فأتى خبراء علم الأورام من لندن إلى الإمارات المتّحدة، ليُجروا له عملية. وعلى الرغم من نجاحهم فإنهم لم يستطيعوا إزالة الخلايا السرطانية تمامًا. لم يُشفَ نهائيًّا من العمليّة. وكان في حاجةٍ إلى حقنٍ كلّ أسبوع، تبلغ كلفتها ٣٥ ألف روبية باكستانية؛ وذلك لتخفّف من آلامه.

كان محمد رباني يتلقّى العلاج أربع مرّات في السنة، في مستشفى شوكت. وقد عاش سنَتين بعد أن خضع لعمليّة في دُبي. وفي أحد الأيام، مرضَ فجأة، وتدهورت صحّتهُ؛ فأسرعَ إلى إسلام آباد برفقة أخيه مولوي أحمد ربّاني، وصديقٍ مقرَّب به يُدعى حاجّي وحيد اللّه. استقبلتُهم في المطار مع بعضٍ من رجال الأمن الباكستانيين؛ ومضيتُ بهم إلى مستشفى سيمجي. وبقيتُ هناكَ ساعةً قبل أن أعود إلى مكتبي. تواصلتُ مع سفارة الإمارات العربية المتحدة، لتساعدني على نقل محمد ربّاني إلى الإمارات للمعالجة. كما تواصلت مع سفارتَي بريطانيا والولايات المتّحدة، طلبًا للمساعدة.

كان ردُّ السفارة الإماراتية سريعًا. وصرّحت أنها على استعدادٍ لنقله إلى الإمارات. وسوف تُرسِل طائرةَ إسعاف من فورها. فهم المسؤولون في السفارة خطأ أنّ برهان الدين ربّاني رئيس حزب الجامعة هو المريض لكنني حين أرسلتُ جواز سفر محمّد ربّاني إلى السفارة، اكتشفوا أن المريض هو الملّا محمد ربّاني، وليسَ برهان الدين برهاني. فاتّصل بي السفير، وقالَ إنّهُ سوف يُرسل الأطباء، الذين أجروا العملية للملّا محمد ربّاني، إلى إسلام آباد.

وصل الأطباء في اليوم التالي وفحصوه، ثمّ اتصلوا بي وأبلغوني أن السرطان قد انتشر. وسبق لهم أن أعلموا الملّا محمد أن السرطان سوف ينتشر بعدَ سنتين من العمليّة. كما أبلغوني أنّ السرطان قد شلّ عمل أعضاءٍ عدّة في جسمه كالرئتيْن وغيرهما. ونصحوني بألّا أنقله، إذ لم يتبقَّ له سوى أيام قليلة، تجاوز الثمانية. ولم يعد له أي علاج لا في الإمارات ولا في أي دولة أخرى. فطلبتُ إليهم أن يُعلموا أخاه بالأمر لأنني لم أستطع إخبارَهُ.

أما بريطانيا والولايات المتّحدة، فلم تستجيبا لطلبي قط. وعلى الرغم من أن الأطباء قد أعلمونا أن لا علاج له، فإننا تابعنا البحث عن العلاج في بلدان أخرى، وهيأنا حاجّي محمد رباني لتلقّي العلاج خارجًا؛ ولكنّه قال لنا: «لا تتعبوا أنفسكم، فأنا لن أُشفى. أعلم ذلك».

قامَ بزيارته الجنرال محمود، رئيس المخابرات الباكستانية، وجيلاني، وموظّفون آخرون، حين علموا بحالته من أطباء في مستشفى شوكت خانوم. وراحت حالُه تسوء يومًا بعد يوم. وبدا من الواضح أنّه لن يتعافى. إذ أصبحت السوائل تتجمّع حولَ أعضائه الدّاخلية، ووُجب على الأطباء أن يُخرجوها يوميًّا.

وبدأت أعضاؤه تتوقّف عن العمل تدريجيًّا. وكما توقّع الأطباء، توفيَ في اليوم الثامن، عند الساعة الثامنة والنصف صباحًا.

إنّا للّه وانّا إليه راجعون.

قدَّم إليّ في ليلته الأخيرة نصيحة، رسخت في ذهني منذ ذلك الوقت. كان موعدُ صلاة العشاء قد حان عندما رنّ هاتفي؛ فخرجتُ من الغرفة كي أجيب لئلّا

أزعجه. استغرق الاتصال وقتًا أطول ممّا توقّعتُ؛ تحدثتُ قرابة نصف ساعة. وحين عدتُ، كانوا قد أنهوا الصلاة. ظلّ الملّا محمد ربّاني يؤدّي واجب الصلاة حتى الرمق الأخير. وعندما رجعتُ إلى الغرفة، أشار إليّ كي أقترب منه، وكنتُ أجدُ صعوبةً في سماع كلامه. سألني: « لِمَ لم تصلِّ معنا؟ » فأخبرتهم بأن الهاتف قد رنّ وأنني خرجتُ لئلا أُزعجهُ؛ وأن الاتصال استغرق وقتًا طويلًا فلم أستطع الصلاة معهم، كما أنني لم أكن أعلم أنهم سيصلّون جماعةً.

فنظر إليّ وقال: «حين يحلّ موعد الصلاة، لا تنشغل بمسائل أخرى؛ فالوقت المخصّص للّه أهمّ كثيرًا من الوقت الذي تخصّصه للآخرين».

ثم قال لي: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

هو لم يصلِّ قط بمفرده، وكان بغاية التواضع وهو يصلّي. وتلك هي كلماته الأخيرة لي. وحين توفّاه اللّه، كنت في منزلي وأعلموني بذلك هاتفيًّا. لكنني حين وصلتُ إلى المستشفى كانوا قد أخذوه إلى المشرحة غير أن ذلك لم ينفع، لأن جسمهُ ظلّ دافئًا. رحتُ أغسل جثّته وأنظرُ إليه. وقد شوّهت جسده الرصاصات الروسيّة التي أحدثت فيه ثغرات كثيرة. صحيح أن اللّه قد خلّصه من تلك الرصاصات. بيد أنه مات من السرطان. ولاحقًا في هذا النهار، نقلت طائرةٌ تابعة للأمم المتحدة الجثمان إلى قندهار، حيث وُوري الثرى.

١٤

قضية أسامة

يقع مكتب الأمم المتّحدة المركزي في إسلام آباد بالباكستان. وهو مسؤول عن تنسيق الحركة على الحدود مع أفغانستان. ترأس فرانسيسك فيندريل[1] ذلك المكتب، وكان مبعوث الأمين العام للأمم المتّحدة آنذاك، كوفي أنان.

وقد شاركت في المكتب نفسه منظّمات أخرى لمفوضيّة الأمم المتّحدة للاجئين ومنظّمات المعونة الإنسانية. في ذلك الوقت، تحكّمت الأمم المتّحدة بالرحلات الجوّية بين إسلام آباد وأفغانستان. وظل ديبلوماسيّو الإمارة الإسلاميّة يستخدمون رحلات الأمم المتّحدة، إلى أن فرضت عقوبات جديدة، ولم يعودوا يستطيعون إلى ذلك سبيلًا. وقد عملت الأمم المُتَّحدة على المحافظة على بناء علاقة جيّدة بين أفغانستان والسفارة. وَسُجّلت زيارات عدَّة للمسؤولين الأفغان. وفي كل مرّةٍ، يزورهم فيها مسؤولٌ خارجيّ، يحدّدون ضمن برنامجه موعدًا لزيارة سفارتنا. ولكنّني أظنّ أن زياراتهم المتكرّرة تلك، هي التي أوقعتنا تحت وطأة ضغوطٍ عدّة.

وفي أحد اللقاءات مع فرانسيسك فيندريل في مكتبهِ، تحدّثَ بحماسةٍ عن تسليم أسامة بن لادن إلى الولايات المتّحدة. وأشارَ إلى أن من المتوجّب أن يحترمَ

---

(١) هو دبلوماسي إسباني (متقاعد حاليًا)، وُلد عام ١٩٤٠. ترأس بعثة الأمم المتحدة الخاصّة إلى أفغانستان (٢٠٠٠ ـ ٢٠٠١). كما كان المبعوث الخاصّ للاتّحاد الأوروبي في أفغانستان، ٢٠٠٢ ـ ٢٠٠٨.

طالبان قرارَ الأمم المتَّحدة. لم يكن قرار تسليم أسامة بن لادن بيد الأمم المتَّحدة. ولم يكن ذلك من حقّها. لكن الولايات المتّحدة كانت تضغط عليها. فقلتُ لفيندريل في حينها إنني لستُ في موقع يخوّلني أن أقرّر بشأن أسامة بن لادن. لكن فضولي دفعتني لأسأله: لِمَ ينبغي لإمارة أفغانستان الإسلامية أن تُسلّمه إلى الولايات المتّحدة. كان الرجل مطلوبًا في الولايات المتّحدة ولكن أفغانستان لم توقّع أي اتفاقية رسميّة مع الولايات المتّحدة تسمح بتسليمهما أشخاصًا مطلوبين. وكيف له هو ممثل الأمم المتّحدة التي يُفترض أن تكون «غير منحازة»، أن يدعمَ طلبًا من دون أي صفة قانونية؟ لم يُجب عن سؤالي؛ لكنّه قال لي: «اسمع! إن القرار محسوم، فإن لم تسلّموه قريبًا فستأخذه الولايات المتّحدة بالقوّة».

لم أشكّ أن الولايات المتّحدة تتحضّر لحرب، وأنَّ الأمم المتّحدة تساندها. ولكنّني لم أعلم متى ستبدأ بتنفيذ هجومها؛ وكيف. فقلتُ: «قد تلجأ الولايات المتَّحدة إلى الحرب؛ ولكنّها لن تحقّق أهدافها. والحربُ ستدمّر إدارتها وإدارتنا، وتسيل الدماء، وترتفع وتيرة القتال، وتقعُ أفغانستان في حربٍ مع نفسِها ومع العالم».

ولكن لم يُنصت إليّ أحدٌ.

سافرَ فيندريل مرّاتٍ عدّة إلى أفغانستان، والتقى أمير المؤمنين في قندهار. وحين زارَ كوفي أنان الباكستان، أقام في فندق الماريوت، حيثُ التقى وزير خارجيّة أفغانستان مُتوكّل، والتقى أيضًا وفدًا من السفارة. أنان، هو أيضًا ركّزَ على مسألة تسليم أسامة بن لادن إلى الولايات المتّحدة ومثوله أمام المحكمة. ولطالما مثّلت الأمم المتّحدة موقف الولايات المتّحدة، ولامت أفغانستان، على الرغم من أنَّ الأمم المتّحدة تدّعي «عدم الانحياز».

وتعدّ تصريحات الأمم المتّحدة حول المخدّرات في أفغانستان مثالًا بارزًا على انحياز هذه المنظّمة. وقد ورَدَ في أحد التقارير التي رُفعت إلى الجمعيّة العامة اتّهامات وشائعاتٍ لا أساس لهما في الصحة. فلقد قرّرت حركة طالبان وضع حدّ لزراعة الخشخاش وتصنيع الأفيون في جميع أنحاء أفغانستان. لكنّ

التقرير الذي صدر لاحقًا اتّهمهما بالعمل على رفع سعر تلك المواد عالميًا، عبر إيقاف الإنتاج وتخزين كميّات من الأفيون الخام. استطاع التقرير أن يؤثّر سلبًا في الموقف الجماهيري العالمي، ويشوّه التجربة الرائدة التي قامت بها حركة طالبان بالقضاء على إنتاج المخدّرات، ما عجزت عنه كلّ الأنظمة سابقًا، وحتّى يومنا هذا.

بالإضافة إلى ذلك، أخرجَتْ مسائل كثيرة أخرى إلى الضوء ليست في إطارها الصّحيح، كالثأر وغيره من المبادئ الإسلامية المعمول بها في الإمارة الإسلامية. ووصلت تلك القضايا إلى الأمم المتّحدة، على أنّها عمليّات قتل وحشية تجري على يد الحركة. يعدّ الثأر، في الإسلام، من حقوق عائلة الضحيّة، خصوصًا في حالات القتل. وبالرجوع إلى تلك القوانين، فإن أقارب القتيل هم وحدهم مخوّلون منح القاتل العفو، أكان رجلًا أم امرأة. هكذا تطبّق الشريعة.

ومن الأمثلة الصّارخة على تشويه الحقائق في الإعلام قضيّة المرأة المدعوّة زامينا، التي قتلت زوجها بنفسها، واعترفت بالجريمة. وقد نُفّذ الحكم في الملعب البلدي بكابول، نفّذه أقارب زوجها. لا أعلم كيف تسرّب فيديو الحادثة ووصل إلى الأمم المتّحدة. فما كان من الأمم المتحدة إلا اتّهام طالبان بقتل النسوة البريئات دون أي ذكر لتفاصيل المحاكمة، أو الجريمة التي أُدينت بها المرأة.

وفي مناسبة أخرى، صدر تقرير عن الأمم المتّحدة يتّهم طالبان بتجنيد صبية قاصرين في المؤسسة العسكريّة للقيام بعمليّات الحراسة والدفاع عن الخطوط الأمامية. وقد اصطحبْنا إيريك دومول، ممثّل الأمم المتّحدة، إلى الخطوط الأماميّة. وعبثًا حاول التفتيش، فلم يجد هناك أي صبي قاصر أو حتى صغير السن. وعمد بعد زيارته إلى كتابة تقرير ثانٍ[1] للأمم المتّحدة يوضح فيه ما ورد في التقرير الأوّل.

(١) للمزيد من المعلومات، راجع:
http://www.unwire.org/unwire/19991202/6099_story.asp
http://www.globalpolicy.org/security/issues/afgnst.htm.

في كلّ مرّة تستخدم فيها حركة طالبان سلاحها الجوّي، تتّهمها الأمم المُتّحدة باستهداف الأبرياء. ومن سخرية القدر أن تتناسى الأمم المتحدة أعدادًا لا تُحصى من الضحايا الذين سقطوا في السنوات الماضية على أيدي قوّات المساندة الأمنية الدولية وقوات حلف شمال الأطلسي. ولمّا احتجز طالبان ستّة أجانب بتهمة التبشير بالمسيحيّة، رغم أنّهم، وهم ينجزون معاملات تأشيرات الدخول قد وقّعوا تعهُّدات الامتناع عن أي نشاط سياسي أو ديني، قامت الأمم المتّحدة بفرض عقوبات على أفغانستان، بلد الثمانية والعشرين مليون مواطن، بسبب ستّة أجانب خالفوا نظامًا سبق لهم التعهّد بالتزامه. كان هناك أميركيّان من ضمن المحتجزين، فأسرعت الولايات المتّحدة بالإعلان عن أنّهما قد اعتُقِلا بشكل مخالف للقوانين. فكُتبت تقارير كثيرة وافتُعلت أحداث سرّعت الدّخول في الحرب، ووضعت أفغانستان والطالبان في موقف حرج دوليًّا. حتّى الأمم المتّحدة تبدّلت؛ فصارت مجرّد أداة تستخدمها بعض الدول لمحاربة بلدان العالم الإسلامي كأفغانستان والعراق.

لقد مررتُ في ذلّ تلك الظروف وبعض من أصدقائي لا يزال يمرّ فيها. كنّا مجرّدين من جميع حقوقنا: لا حقوق للإنسان في معتقل خليج غوانتانامو، ولا تفسيرات لما يجري، ولا زيارات للأهل والأصدقاء. لا شيء البتة، عدا هذا التآكل البطيء للأمل بالخروج، الذي ينهش روحك، ويجعلك تعتقد أن ما تعيشه لن ينتهي أبدًا. وحتّى اليوم، لا تزال الأمم المتّحدة، التي فرضت العقوبات على أفغانستان، ساكتة عمّا يجري، بل داعمة لما تفعله أميركا على مرأى من العالم أجمع.

▲▼▲

بعد تصاعُد حدّة الأحداث، واشتداد العزلة على أفغانستان، باتت قلّة من الدّبلوماسيين تطالب بالاجتماع في قندهار وكابول. وبات عمل السفارة أشبه بوزارة الشؤون الخارجية، حتّى صار التّمييز بين المؤسّستين مستحيلًا. ورغم أنّ دولًا كثيرة لم تعترف بشرعية الإمارة الإسلامية في أفغانستان، فإن عددًا كبيرًا من الدّبلوماسيين استمرّوا في زيارتنا بشكل دوريّ أو مناقشتنا في مشكلة ما تختصّ

بأفغانستان. تعلّمت الكثير من الدّبلوماسيين الأجانب الذين قدموا لزيارة السفارة، وكنت أحادث البعض منهم على نحو منتظِم.

قابلتُ جميع السّفراء، ما عدا السفير الروسي، وقد ربطتني علاقات وثيقة بالكثيرين منهم. عهدت في بعضهم التهذيب وسعة الاطلاع. في حين أنني لم أحتفظ من بعضهم الآخر بأي ذكريات محبّبة كسفراء ألمانيا وبلجيكا والكويت والمملكة العربية السّعودية إلى أفغانستان. أما السفير الباكستاني، فكان رجلًا محترمًا ومثقّفًا.

لمست في سفيرَي ألمانيا وبلجيكا التحجُّر والتكبّر وقلّة التهذيب. ناهيك بأنهما كليهما طويلان، عريضا المنكبين، ومشبعان بالأحكام المسبقة. وقد انصبّت اهتماماتهما على مناقشة أوضاع النّساء. أما السفير الكويتي، فكان رجلًا شديد الاعتداد بنفسه، له شاربان أصفران، يتمحور حديثه حوله هو نفسه، ويقلّل من اعتبار الأفغانيّين. لطالما دعم الكويتيّون أميركا. ومن سمعهم في ذلك الوقت يتكلّمون عن أميركا وبوش، لظنّ أنّ أرواحهم متعلّقة بهما. أما السفير السّعودي، فبدت عليه مظاهر الشباب وشدّة الحماسة والإكثار من المطالب.

غالبًا ما كان يتكلّم عن أسامة بن لادن. وذات يوم، زرته في مكتبه لمناقشة مشكلة الحجّاج الأفغانيّين. لكنّه، ما إن تطرّقنا إلى المسائل الجديّة، حتّى غيّر الموضوع الذي جئت لأجله، وأخذ يتحدّث عاليًا عن أسامة بن لادن لوقت طويل. فاجأني تصرُّفه؛ فذكّرته غير مرّة بهدف زيارتي، وأنّني لم آت لمناقشة قضيّة بن لادن التي تخرج عن نطاق صلاحياتي وتتعلّق بأشخاص آخرين. لكنّه لم يشأ الإصغاء. يبقى أنّ أكثر سفير مدعاة للشّفقة والتعاطف هو سفير فلسطين الممزّقة بالحرب، وهو رجل لطيف، شأنه شأن باقي سفراء العالم الإسلامي. ولا بدّ من الإشارة إلى أن معظم سفراء الدول غير الإسلامية كانوا ممن يحترمون الأسس الدبلوماسية، ويحرصون على إقامة أفضل العلاقات مع السفارة، رغم المعوّقات التي فرضها عدم الاعتراف الرسمي.

أجرينا محادثات مع سفارات الصين وفرنسا وبريطانيا وغيرها، حول القضايا

الراهنة أو مسائل محدَدة. وحين اختطفت طائرة أيرباص تابعة لخطوط أريانا الجويّة، وهبطت في بريطانيا، قصدني السفير البريطاني، وطلب محاكمة الخاطفين في بريطانيا. لكنّ الإمارة رفضت طلبه. كانوا يريدون أن يدلي الطيّارون بشهاداتهم كشهود عيان؛ ومرّة أخرى رفضت الإمارة. فألحقت بريطانيا نفسها بالحلف مع أميركا حول قضيّة أسامة بن لادن، ما رفع الضغط على أفغانستان.

أما سفير الصين، فكان الوحيد الذي يقيمُ علاقاتٍ جيّدة مع السفارة وأفغانستان. وقد طلبَ السفر إلى أفغانستان ومقابلة أمير المؤمنين، فتولّيتُ تدبير الرحلة وتسهيلها. سافرَ أولًا إلى كابول فلقي ترحيبًا حارًّا. ثمَّ سافرَ بعدها إلى قندهار لمقابلة الملّا محمد عمر.

عبّرَ السفير عن قلق حكومتِهِ إزاءَ الشائعات التي تُفيدُ بأنَّ إمارة أفغانستان الإسلامية تُساعدُ المسلمين في شينشيانغ، وهي دولةٌ إسلاميّة سابقة. أمّا الآن فهي جزءٌ من الصين وتشهدُ أحيانًا صراعًا مسلّحًا بين مجموعات إسلامية مُقاوِمة والحكومة المركزية. فطمأنه الملّا محمد عمر أن أفغانستان لا تتدخّل في شؤون الصين الداخلية، ولا تسمح لأي مجموعة أن تستخدمَ أراضيها للقيام بأي عملياتٍ تدعمُ ما يحدث في شينشيانغ.

واتّضحَ أن هذه الزيارة قد روت غليل السفير الذي كان أوّل سفير أجنبي غير مسلم يزورُ الملّا محمد عمر صاحب. وبعد الزيارة، قام فرانسيسك فيندريل أيضًا بلقاء الملّا محمد. لقد عملنا جاهدين لنذلّل العقبات، ولنحسّن علاقات أفغانستان الخارجيّة وتخطّي الخلافات. ولكن على الرغم من جهودنا، كانت الأوضاع تسوءُ يومًا بعدَ يوم. فراحت العقوبات تصعبُ وتزيد. وتحوّلت العلاقات من سيئة إلى أسوأ، وعطّلَتِ الأحداث الجهود التي كنّا نقومُ بها. فبتنا ننحدرُ إلى أن وصلنا إلى أحداث ١١ أيلول/سبتمبر التي قلبت العالم رأسًا على عقب.

اتّسمت العلاقة التي تجمعنا بالأميركيّين بأنها الأكثر تعكيرًا. وشغلت مسألة أسامة بن لادن محور لقاءاتنا المتكرّرة. وأفضت طلباتهم إلى الكثير من المشكلات. وقد تمّت لقاءاتنا المتعدّدة في سفارتنا أو في سفارتهم. حين عُيّنتُ

مبعوثًا لأفغانستان، كان وليام ميلام[1] السفير الأميركي، وزميلته بولا تيدي، مسؤولة الشؤون السياسية في السفارة.

حينَ انتُخبَ الرئيس جورج بوش عام ٢٠٠١، عيّن سفيرًا جديدًا وطاقمًا من الموظفين في إسلام آباد.

وقد تمّ تعيين كبير موهابات[2]، الذي يحملُ الجنسيتين الأفغانية والأميركية كخليلزاد[3]، في منصبٍ بإسلام آباد. وساهم موهابات في تسهيل المحادثات؛ وأدّى دورَ الوسيط بين الأميركيين والأفغان.

وقد ألحّت الولايات المتّحدة على أفغانستان أن تسلّم أسامة بن لادن أو تنقلَهُ إلى دولةٍ مستعدّة لتسليمه. لكن حركة طالبان طالبت بمحكمة تحفظ كرامة بن لادن. وسبّبت هذه المسألة تحديدًا شرخًا كبيرًا بين البلدين[4]، حتى أنني لساعاتٍ كثيرة ناقشت هذه القضيّة مع السفير في مكتبِهِ بعد انتهاء ساعات العمل.

توصّلت إمارة أفغانستان الإسلامية إلى ثلاثة حلولٍ، وشرحتُ لهُ مطوّلًا في تلك الليلة الحلول الآتية:

أولًا: إذا كانت الولايات المتّحدة تجدُ أن أسامة بن لادن هو الذي يقف وراء التفجيرات في نيروبي وتنزانيا، فعليها أن تقدّم الأدلّة الداعمة لهذا الادّعاء،

(١) تولّى وليام ميلام (المولود في أريزونا الولايات المتّحدة) منصبًا ديبلوماسيًا إلى أن تقاعدَ في تموز/يوليو ٢٠٠١. تولّى منصب سفير في الباكستان بين آب/أغسطس ١٩٩٨ وتموز/يوليو ٢٠٠١. وهو الآن باحث كبير في السياسة في مركز وودرو ولسون في العاصمة واشنطن ومؤلّف كتاب *Bangladesh and Pakistan. Flirting with Failure in South Asia.*

(٢) كبير موهابات أفغانيّ وأميركيّ الجنسيّة. كان من قبيلة زدران ويتحدّر أصلًا من باكتيا. وكان تعيينه في السفارة الأميركيّة مؤقّتًا ويقتصر على تمرير رسالة معيّنة كما هي الحال مع أسامة.

(٣) كان زالماي خليلزاد (المولود في مزار الشريف عام 1951) سفير الولايات المتّحدة في أفغانستان (٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٥)، وسفير الولايات المتّحدة في العراق (٢٠٠٥ ـ ٢٠٠٧) وسفير الولايات المتّحدة لدى الأمم المتّحدة (٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٩). وهو لا يزال يُشارك في المسائل الأفغانيّة.

(٤) تجدرُ ملاحظة أنّ بن لادن لم يكن يُعتبر مهمًّا كما اعتُبر مؤخّرًا إلّا أنّ اسمه على لائحة العشرة المطلوبين في الولايات المتّحدة (وذلك بعدَ تفجير السفارتين الأفريقيّتين عام ١٩٩٨). وقد أمر الرئيس كلينتون بإطلاق صواريخ على أهداف في أفغانستان عقب هذه الهجمات.

وتعطي كلَّ ما لديها من معلومات لمحكمة أفغانستان العليا. بذلك تُخضِعُ إمارة أفغانستان الإسلامية أسامة بن لادن للمحكمة. وإن أقيم الدليل الكافي فسوف تحكم عليه وتُعاقِبهُ بحسب الشريعة الإسلامية.

ثانيًا: إذا لم توافق الولايات المتّحدة على الحلّ الأول، لأنها لا تعترف من الأساس بالإمارة الأفغانية الإسلامية أو لأنها لا تؤمن باستقلاليّة محكمة أفغانستان العليا وعدم انحيازِها، تقترح أفغانستان أن تتشكّل محكمة جديدة يترأسها مدّعون عامّون من ثلاث دول إسلاميّة، وتتمّ المحكمة في دولةٍ إسلامية رابعة. فتستطيعُ الولايات المتّحدة إذًا أن تقدّمَ أدلّتها إلى هذه المحكمة وترافع... ضدّ أسامة بن لادن. ستكون أفغانستان شريكةً للمحكمة وستحرصُ على حضور أسامة بن لادن للإجابة عن الأسئلة، وللردّ على الادعاءات. فإن لم يستطع أسامة الدفاع عن نفسه، فيُعدّ مذنبًا، ويُعاقب على أعمالِهِ.

ثالثًا: إذا كانت الولايات المتّحدة لا تثقُ بمحكمةٍ تديرها ثلاث دول إسلامية، ولا تعترف بمحكمة أفغانستان العليا، فنحن سنضبطُ نشاطات أسامة كلها. سنحجب عنه كلّ وسائل الاتّصال، وستعمل أفغانستان على منعه من استخدام أراضيها لإجراء عمليات تستهدف دولًا أخرى.

رفضت الولايات المتّحدة اقتراحاتنا الثلاثة، وأصرّت على تسليم أسامة بن لادن من دون شروط. ووعدت بمحاكمته محاكمة عادلة ونزيهة تجري في أميركا، ويحاسب فقط إن وُجد مذنبًا. لم يكن واردًا عند أفغانستان أن تستجيب لطلب الولايات المتّحدة. وقد شرحنا وبرّرنا موقفنا هذا على النحو الآتي: أوّلًا: لا موجبات قانونيّة بين البلدَيْن لجهة تبادل الأسرى. ولم يتمّ توقيع أيّ اتّفاقيّة مشابهة بين الدولتين. ومن المتعارف عليه في حالات كهذه أن تتمّ محاكمة المتّهم في البلد الذي يتمّ فيه إلقاء القبض عليه.

لم تحترم الولايات المتّحدة الاعتراف المتبادل بسيادة دولتينا، وأصرّت أن تحاكم بن لادن على أراضيها من دون التشاور مع أي دولة أخرى. لم تدرس حتّى إمكانية إجراء المحاكمة في محكمة لاهاي الدّوليّة. ولو جرى ذلك، لاستحوذت

المحاكمة على حدّ أدنى من الاستقلالية والنزاهة، ولشكّلت مخرجًا لائقًا للأزمة بين البلدين.

عارضت الإمارة الإسلامية تسليم أسامة بن لادن لسببين أساسيين: أوّلهما أن تسليم أي مشتبه به إلى أميركا، سيمكنها بطبيعة الحال، من فرض سيطرتها على العالم؛ وهذا الأمر يهدّد استقلال جميع الدول وسيادتها. وثانيهما أن طلب أميركا هذا، ورفضها كلّ الاقتراحات التي قدّمتها الإمارة، يوحيان بأنّ لا عدالة في العالم الإسلامي، وأن لا صفة شرعية للسلطات الإسلامية لفرض العدالة والقانون بين الشّعوب. وهذا يعارض الإسلام نفسه ونظامه الساعي إلى حماية حقوق النّاس ومعاقبة المجرمين.

لم نتوصّل إلى أي حلّ لهذا المعضلة، رغم اقتراحات حلول كثيرة نوقشت؛ لكنّها لم تخرج إلى العلن. ومنها اقتراح إنشاء محكمة مشتركة تتمثّل فيها أميركا وبعض الدّول الإسلامية. وقضى اقتراح آخر بإجراء المحاكمة في محكمة لاهاي الدولية. لم تتّخذ هذه المحاولات منحى جدّيًا في المناقشات، بالنظر إلى إصرار الولايات المتّحدة على تسليم أسامة بن لادن لنظامها القضائي. وأوضحت أنها قد تلجأ إلى استخدام القوّة إذا لم تتجاوب أفغانستان مع طلبها.

قدِمت كريستينا روكا[1]، وزيرة شؤون غرب آسيا في الإدارة الأميركية، إلى إسلام أباد وطلبت مقابلتنا؛ فاجتمعنا في ٢ آب/أغسطس في السفارة الأميركية في إسلام أباد. عبّرت المسؤولة عن اهتمام بالغ بأسامة بن لادن دون سواه، وضربت في حديثها بكلّ مبادئ الدّبلوماسيّة، إذ عبّرت كلّ كلمة تفوّهت بها عن تهديدٍ، أكان صريحًا أم مُبطّنًا.

تحوّل الاجتماع صراعًا خطابيًّا قاسيًا. وقد اجتمعتُ أربع مرّات بالسفير الأميركي لمناقشة مسألة أسامة بن لادن، من دون التوصّل لحل. رغم أننا حاولنا تحسين العلاقات بين بلدينا، ورغم العلاقة الشخصية الطيبة التي جمعتنا، فإن

(١) عملت كريستينا روكا في مديريّة العمليّات في وكالة الاستخبارات المركزيّة منذ العام ١٩٨٢ ورُشّحت إلى منصب وزيرة شؤون خارجيّة في جنوب آسيا في نيسان/أبريل ٢٠٠١. وتُشير بعض المصادر إلى أنّها كانت مشاركة في تمويل المجاهدين وتسليحهم ضدّ السوفيات في الثمانينيّات.

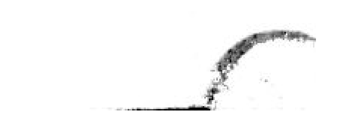
لقاءاتنا لم تفضِ إلى نتيجة، ذلك أنّ اتّخاذ القرار لم يكن بأيدينا. فقد ارتبطت اجتماعاتنا وقراراتنا وأجوبتنا كلّها بأشخاص آخرين، هم الذين يقرّرون لذلك، واتّسمت كل أنشطتنا المذكورة بالسلبيّة.

ذات صباح، اتّصل بي السفير الأميركي، وطلب مقابلتي في اليوم نفسه (يتوتّر الأميركيّون أحيانًا جرّاء أمور بسيطة). كنت متعبًا، وفي طريقي إلى المنزل لأخذ قسط من الراحة؛ لكنّه أصرَّ على اللقاء بأسرع ما يمكن. بعد صلاة العصر، قدم السفير إلى منزلي، مصطحبًا بولا تيدي. بدا قلقًا ومتوتّرًا، ولم يكد يدخل المنزل حتّى شرع بالحديث قائلًا: «تشير تقاريرنا الاستخباراتية إلى هجوم كبير يحضّره أسامة بن لادن على أميركا. لهذا أتيت إليك في هذه السّاعة المتأخّرة. عليك إقناع السّلطات الأفغانية بالحؤول دون حدوث الهجوم».

نقلت هذه المخاوف مباشرة إلى الإمارة. وكان يجدر بي أن أبلّغ القيادة المركزيّة عبر وزارة الشؤون الخارجية. ولكن بالنظر إلى الزيارة العاجلة، تذكّرت ما جرى مع قائد الحدود خلال عهد ظاهر شاه[1]، ورأيت أن من الأفضل كسر البروتوكول الرسمي. بعد ثلاث وعشرين ساعة تلقّيت رسالة ردّ من قندهار إلى السفير تقول الآتي: «ليس لدى أفغانستان نيّة إيذاء الولايات المتّحدة، لا الآن ولا مستقبلًا. لن نتغاضى عن أيّ هجوم يستهدف الولايات المتّحدة، ولن نسمح باستخدام الأرض الأفغانية للتخطيط أو للتدريب على أي شيء من هذا القبيل». كانت رسالة مطمئنة بيّنت بوضوح موقف الإمارة. وترجمت الرسالة بنفسي، ومرّرتها إلى السفير الأميركي مرفقة بالنص الباشتوني الأصلي. لكنّ ذلك لم يخفّف من الشكوك الأميركية.

قابلت السفير الأميركي للمرة الأخيرة عندما أتى لوداعي. أخبرني كم يقدّر

(١) في هذه القصّة الملفّقة، خرقت طائرة باكستانيّة محاربة المجال الجوّي لجنوب أفغانستان في السبعينيّات. كتب قائد الحدود الأفغانيّة الملتزم احترام البروتوكول رسالة طارئة إلى كابول منتظرًا تعليمات حول كيف يجب أن يتصرّف. وصلته رسالة بعدَ ستّة أشهر إذ إنّ نظام البريد كان بطيئًا جدًّا وكانت الرسالة تقول «أطلق النار عليه».



العلاقة الدّبلوماسيّة الجيّدة التي بنيناها، وأبدى من جديد مخاوفه حول المستقبل والأحداث المقبلة التي ستجلب علينا المصائب. كان مقتنعًا أن أسامة بن لادن يشكّل تهديدًا لأميركا، وأنه لن يوقف حربه ضدها، وبالمقابل، لن تتساهل الولايات المتّحدة بعد اليوم في مواجهة خطره وتهديداته. وتابع قائلًا إن الوقت قد حان لإيجاد حلّ لهذه المشكلة، وإلا فستفلت من أيدينا. وبالرّغم من العقوبات التي فرضتها أميركا على أفغانستان عبر الأمم المتّحدة وكلّ الخطوات الديبلوماسية التي اتّخذتها لعزلنا، فإن المخاوف من أسامة بن لادن ظلّت قائمة. نوقش هذا الموضوع دون كلل في اجتماعات مغلقة لا تُحصى. وقد وصل الأمر بأميركا حدَّ إسقاط كلّ مطالبها الأخرى، والاعتراف رسميًّا بالإمارة الإسلامية، شرط تسليم بن لادن.

عندما وقعت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ في مركز التجارة العالمي والبنتاغون، وصل كلّ شيء إلى حائط مسدود، وانقلب العالم رأسا على عقب. خرجت عمليّة المفاوضات عن مسارها، وجلسنا نترقّب ما سيحدث بعدها.

١٥

أحداث ١١ أيلول/سبتمبر وتداعياتها

كانت الساعةُ تقارب السابعة أو الثامنة مساءً، وكنتُ في منزلي أنتظرُ أن يقدِّم العشاء حين دخلَ إليَّ رحمة اللّه مسرعًا. بدا القلقُ عليه، وقال لي بوجهه الشاحب: «ضعيف صاحب، هل شاهدتَ الأخبار على التلفاز؟» فأجبتُهُ: «لا، ماذا يحدث؟». فقال: «أدرِ التلفاز، يجب أن ترى ما يحدث في الولايات المتّحدة، إنها على نار!».

لم أملك في حينها تلفازًا، وكان للسفارة شاشة تستخدمها لمتابعة الأخبار. أمّا أنا فكنت أتابع الأخبار عبرَ الصحف وتقاريرها.

كان رحمة اللّه أخا أحمد راتب بوبال، جاري من قبيلة البوبولزاي، القبيلة نفسها التي ينتمي إليها حميد كرزاي. مضينا معًا إلى منزل رحمة فقير، حيث تجمّع الكثير من الناس، بينهم زملاء لي في السفارة. وشاهدنا أحد مباني مركز التجارة الحالي في نيويورك يحترق.

كانت النيران تندلع والسحب السوداء تغطّي المبنى. وسرعان ما اصطدمت طائرة أخرى بالمبنى الثاني، واخترقته كالرصاصة؛ فتطايرت ألسنة النيران من الجوانب كلّها. ورمى الناس بأنفسهم من النوافذ لتفادي النيران، فانطرحوا أرضًا كالحجارة. كان مشهدًا مرعبًا، ورحتُ أنظرُ إلى اللقطات وأنا لا أصدّقُ عينيّ.

تسارعَ ذهني في التفكير بعواقب هذا الهجوم، وأنا أشاهد ذلك الحدث. وفي تلك اللحظة بالذات، علمتُ أنّ أفغانستان وشعبها الفقير سيعانيان من جرّاء ما

حدث في الولايات المتّحدة. ستسعى الولايات المتّحدة إلى الانتقام، وستتوجّه إلى وطننا المُزعزع.

اغرورقت عيناي بالدموع بمجرّد التفكير بذلك. لكنّ مَن كانوا حولي نظروا إليّ بتعجّب وسألوني عن سبب حزني.

في الحقيقة، شَعر بعضهم بسعادة غامرة، وراح يهنّىء أحدهم الآخر، ويتصافحان بالأيدي. وهذا ما رفع من وتيرة قلقي. كنتُ قلقًا حيالَ المستقبل.

كيف يُمكنهم أن يكونوا بمثل هذه السطحيّة؟ كيف يمكنهم أن يكونوا سعيدين بهذا الحدث؟ ألم يفكّروا في تداعياته؟

رمقتهم بنظرة، وسألتهم: «من برأيكم ستلوم الولايات المتّحدة على ما حدث الآن؟ من سيواجهُ غضبَهم؟» فقالوا إنهم لا يعلمون على من سيقَعُ اللوم، وإنهم لا يرون سببًا للقلق حيال ذلك الأمر فالولايات المتحدة في نظرهم هي العدو، وهيَ من فرض علينا العقوبات وهاجمنا بالصواريخ. وما ارتَسم ورمز إلى اشتعال هذه القوّة بالنيران شكّل سببًا وجيهًا لكي يحتفلوا.

لم أتحدّث معهم لفترة طويلة بعدَها. لكنّني شعرتُ بحاجة إلى قول ما آمنتُ به ووثقتُ بحدوثه. مسحتُ دموعي وقلتُ: «لا أريدُ أن أقنعكم أو ما إلى ذلك. لكنّني أقول لكم إنكم ستتذكرون هذه اللحظة، في هذه الغرفة ومع زملائكم، لأننا سنضطر إلى دفع ثمن ما جرى اليوم. سوف تنحي الولايات المتّحدة باللائمة على أسامة بن لادن، ضيف أفغانستان كما يعلم الجميع. ولا شكَّ في أنّها ستشنُّ هجومًا على أفغانستان بسبب ألمِها ممّا حدث اليوم. وقد تضرب الولايات المتّحدة قريبًا وقريبًا جدًّا.

«أوَلَيس بن لادن العدوّ الأول للولايات المتّحدة؟ أوَلَيس هو من حمّلته وزر الأحداث الصغيرة والكبيرة التي وقعت في السابق؟

«وترى الولايات المتّحدة، أن أي اتّهام يوجّه إلى العالم الإسلامي، سيُخوّلُها التدخُّل في شؤون البلدان الإسلامية ويَدعمُها في ذلك باقي العالم. ويشكّلُ أسامة

بن لادن كبش محرقة للأميركيين؛ فهو يجعلُ جدولَ أعمالهم أوسع. كما تحتاجُ الولايات المتّحدة أن تغطّي أخطاءها وإخفاقاتها، لذلك تُسخّر أُناسًا كأسامة بن لادن لتضلّل العالم. أنا أخشى أن يقول إنّه هو وراءَ الاعتداء، ويُعطي الأميركيين الدليل الذي يبحثون عنه، بغضّ النظر عن كونه متورّطًا في هذا الهجوم أم لا. لم يكن من السهلِ أن تتحكّم بما سينطُق به أسامة. كما أن الولايات المتّحدة لن تسكت على أحداثٍ مماثلة، بل ستتّخذ الإجراءات اللازمة».

ثمّ ذكّرْتُهم بالحرب العالميّة الثانية، حين شنّت القوات الجويّة اليابانيّة هجومًا مفاجئًا على الأسطول الأميركي في بيرل هاربور. فقد تضرّرَ الأسطول كثيرًا، ولحقت بالولايات المتّحدة خسائرَ جمّة، ما حدا بها إلى الانتقام حيث هاجمت اليابان من دون تردّد بقنبلتين نوويتين «الطفل الصغير» و«الرجل البدين». لقد رمتهما في هيروشيما وناغازاكي؛ فمات عشرات الآلاف بانفجار القنبلتين. وقلتُ لهم إنني واثقٌ أنّ الولايات المتّحدة سَتَجتاحُ بلدنا بالحدّةِ نفسِها. فقد سبّبَت إمارة أفغانستان الإسلاميّة إزعاجًا كبيرًا للولايات المتّحدة. والآن باتَ العالم كلّه يقفُ ضدَّ أفغانستان. وشرحتُ لهم أنّ ذلك ما جعلَ الدمعَ يغزو عينيَّ.

لكنّ كل مَن كانوا حولي لم يشاركوني ذلك القلق، بل أصرّوا أنّ معظم ما قلتُهُ كان خاطئًا. واستشهدوا بمثلٍ باشتوني فحواه: «انظر أين وقع الهجوم، وانظر أين تدورُ الحرب».

كانوا يظنّون أن الولايات المتّحدة، أبعدَ ما يكون عن الانتقام؛ فعدتُ إلى المنزل قلقًا ممّا قد يحدث في الأشهر التالية.

▲▼▲

حين عدتُ إلى المنزل، اتصلتُ بسهيل شاهين[1]، مسؤول الشؤون السياسية في

(١) قاتلَ سهيل شاهين (من قبيلة توتاخل) والمتحدّر أصلا من سيّد كرم كمجاهدٍ في الثمانينيّات.

السفارة. ناقشنا ما حدث، واتفقنا على صيغةٍ معيَّنة نظهرُ فيها موقفنا للصحافة. وقرّرنا أن نصدرَ بيانًا للإعلام في الصباح التالي.

كان الوقتُ متأخرًا حين خلدتُ إلى النوم؛ ولكنَّ الهجومَ حرم عينيَّ النوم. وراحت اللقاءات مع السفير الأميركي التي أَجريناها منذ أشهر تلاحقني. كانوا يتحدّثون عن هجومٍ أفغاني كبيرٍ على الولايات المتّحدة؛ لكنني لم أصدّقْهم آنذاك.

في تلك الليلة، لم يغمض لي جفنٌ. وبقيتُ أستذكرُ الأحاديث كلّها. كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحًا وأنا أتأمل في السقف، حين رنَّ هاتفي فجأة. ألقى عليّ طيّب آغا[1] التحيّة من مكتب الإمارة الإسلاميّة في قندهار، وقالَ لي إنَّ الملّا محمّد عمر، أمير المؤمنين، يُريد محادثتي وكأنهم هم أيضًا لم يستطيعوا أن يناموا بعدَ كل تلك الأحداث. حيّاني الملّا صاحب، ثم سألني عن الهجمات، وعمّا إذا علمتُ شيئًا جديدًا عنها. فأخبرتُهُ عن المشاهد التي رأيتُها، وأبديتُ قلقي ومخاوفي. فشرحَ لي الملّا محمد عمر الموقف الرسمي الذي ستتّخذه الإمارة الإسلامية. دام الاتّصال ربع ساعة تقريبًا، خلدت من بعدها إلى النوم.

في الصباح الباكر مضيت إلى السفارة، ونصحتُ فريقي بمتابعة الأخبار عن كثب. وكانت صحيفتا «داون» و«ذي نايفون» الباكستانيتان قد نشرتا قصصًا من مختلف أنحاء العالم، تظهرُ ردودَ الفعل عمّا حدث في الولايات المتّحدة. حدّدْتُ مؤتمرًا صحافيًّا عندَ الساعة العاشرة. وقبلَ أن يحين موعده، اتّصلَ بي الوزير السابق وكيل أحمد متوكّل ليستوضح عن الموقف الرسمي الذي اعتمدته أفغانستان وممثّلوها في الخارج.

أصدرنا بيانًا صحافيًّا هذا نصّه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. نحنُ ندين بشدّة الأحداث التي وقعت في

---

(١) كان طيّب آغا (من قبيلة ناصر/سيّد) أحد نوّاب الملّا محمد عمر، يتحدّر أصلًا من جلاهور في أرغنداب في قندهار. قاتل مع حرب «الحركة» و«الحزب الإسلامي» خلال جهاد الثمانينيّات. هو شقيق القائد المعروف لالا مالانغ.

السفارة. ناقشنا ما حدث، واتفقنا على صيغةٍ معيَّنة نظهرُ فيها موقفنا للصحافة. وقرّرنا أن نصدرَ بيانًا للإعلام في الصباح التالي.

كان الوقتُ متأخرًا حين خلدتُ إلى النوم؛ ولكنَّ الهجومَ حرم عينيَّ النوم. وراحت اللقاءات مع السفير الأميركي التي أجريناها منذ أشهر تلاحقني. كانوا يتحدّثون عن هجومٍ أفغاني كبيرٍ على الولايات المتّحدة؛ لكنني لم أصدّقْهم آنذاك.

في تلك الليلة، لم يغمض لي جفنٌ. وبقيتُ أستذكرُ الأحاديث كلّها. كانت الساعة قد قاربت الواحدة صباحًا وأنا أتأمل في السقف، حين رنَّ هاتفي فجأة. ألقى عليَّ طيّب آغا[1] التحيّة من مكتب الإمارة الإسلاميّة في قندهار، وقالَ لي إنَّ الملّا محمّد عمر، أمير المؤمنين، يُريد محادثتي وكأنهم هم أيضًا لم يستطيعوا أن يناموا بعدَ كل تلك الأحداث. حيّاني الملّا صاحب، ثم سألني عن الهجمات، وعمّا إذا علمتُ شيئًا جديدًا عنها. فأخبرتُهُ عن المشاهد التي رأيتُها، وأبديتُ قلقي ومخاوفي. فشرحَ لي الملّا محمد عمر الموقف الرسمي الذي ستتّخذه الإمارة الإسلامية. دام الاتّصال ربع ساعة تقريبًا، خلدت من بعدها إلى النوم.

في الصباح الباكر مضيت إلى السفارة، ونصحتُ فريقي بمتابعة الأخبار عن كثب. وكانت صحيفتا «داون» و«ذي نايفون» الباكستانيتان قد نشرتا قصصًا من مختلف أنحاء العالم، تظهرُ ردودَ الفعل عمّا حدث في الولايات المتّحدة. حدّدْتُ مؤتمرًا صحافيًّا عندَ الساعة العاشرة. وقبلَ أن يحين موعده، اتّصلَ بي الوزير السابق وكيل أحمد متوكّل ليستوضح عن الموقف الرسمي الذي اعتمدته أفغانستان وممثّلوها في الخارج.

أصدرنا بيانًا صحافيًّا هذا نصّه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. نحنُ ندين بشدّة الأحداث التي وقعت في

---

(١) كان طيّب آغا (من قبيلة ناصر/سيّد) أحد نوّاب الملّا محمد عمر. يتحدّر أصلًا من جلاهور في أرغنداب في قندهار. قاتل مع حزب «الحركة» و«الحزب الإسلامي» خلال جهاد الثمانينيّات. هو شقيق القائد المعروف لالا مالانغ.

الولايات المتّحدة في مركز التجارة العالمي والبنتاغون. ونشاركُ جميعَ من خسروا أقرباءهم وأعزّاءهم الأسى والحزن. ويجبُ أن يحاكم المسؤول عن هذه المأساة. نريد أن يُحاكَموا. كما نريد أن تتوخّى الولايات المتّحدة الحذر في خطواتها».

أرسلنا نسخةً من هذا البيان إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد، ولكنّ الأوان كان قد فات. أمست الولايات المتّحدة في ظلّ هذا الرعب والإرهاب أكثر تعلّقًا بالثأر، وراحت تبحث عن الانتقام.

▲▼▲

أمسى الوضعُ مأساويًا، خصوصًا بعد أن ظهر جورج بوش على التلفاز في اليوم الذي تلا الهجوم، متأثّرًا جدًّا ومعبًّأ بالكراهية ومرتعبًا، تشي برعبه سترته الواقية كملابس الجنود. لم ينتظر التحقيقات لتظهرَ أيَّ إثباتٍ أو دليل، بل أعلنَ أنّ أسامة بن لادن هو المسؤول عن هجوم ١١ أيلول/سبتمبر. وقالَ إنهم يُريدون أسامة بن لادن حيًّا أو ميتًا. كانت إمارة أفغانستان الإسلاميّة توفّر ملجأً لبن لادن، لذلك تعدّ شريكةً ومسؤولةً عن هذه الجريمة.

عمد الوزير السابق مُتوكّلي بعد يومين إلى معارضة التصريحَ. لكنّ الولايات المتّحدة ظلّت متخوّفة من هجوم آخر يجتاحُ البلاد. وراح بوش يجولُ في سماء الولايات المتحدة ضمن القوّات الجويّة كلاجئٍ غير قادرٍ على الهبوط، إلّا في الاجتماعات الطارئة، أو لدى إدلائه بالتصاريح الصحافية المهمّة. أمّا أمكنة الاجتماعات فلم تكن معروفة. وكانت وكالات الأمن الأميركية تحفظُه. وفي كلّ مرّة يُطلُّ فيها بوش على الشاشة، يظهرُ وكأنّه قد فقدَ صوابه. وتراجعت الأوضاع في أفغانستان بسرعةٍ، وخصوصًا بعدَ أن أعلنت الأمم المتّحدة دعمَها للولايات المتّحدة، وطالبت أفغانستان بتسليم بن لادن.

أمّا العالم الإسلامي، فبدّد غضب الولايات المتّحدة عبرَ الابتعاد عن طريقها من دون التدقيق في التفاصيل. وبدا الأمرُ وكأنَّ يومَ القيامة قد اقترب. واصطفّ

العالم كلّه مع الولايات المتّحدة، وأمست أفغانستان في عزلةٍ. لكن، على الرغم من أنّ إمارة أفغانستان الإسلاميّة قد اتُّهمت بتلك الهجمات، فإنها لم تغيّر من سياستها. فقد أعلنت أن لا دليل كافيًا، وأن ثمة نقصًا في البراهين، كما فعلت سابقًا بعد انفجارَي نيروبي ودار السلام[1].

شُدّدت العقوبات على أفغانستان، وسرت شائعات عن وقوع حرب، وازدادت يومًا بعد يوم. أمّا الولايات المتّحدة فكانت تُرسلُ بعثاتها إلى بلدان العالم لتحصُلَ على دعمها.

كما وصلَ الرسميّون إلى إسلام آباد مرّاتٍ عدّة ليطلبوا دعم الباكستان، ولكنّهم قرّروا أن يبتعدوا عن أفغانستان. فهم فضّلوا العزلة قبلَ أن يشنّوا حربًا. وراحت طلبات الأميركيين تزداد يومًا بعد يوم. إذ بدأوا باتّصالٍ يدور حولَ تسليم أسامة بن لادن؛ ولكنّهم سرعان ما طالبوا بتشكيل حكومةٍ ديمقراطيةٍ لتأمين حقوق الإنسان والمرأة. وأصبح لديهم طريق إلى أي موقع في البلاد، ليجروا عمليّات بحث.

حاولتُ بأقصى جهودي أن أحلَّ الأمر عبرَ وسائل سياسيّة، آملًا أن أتفادى حربًا؛ فلجأت إلى التكلّم ومناقشة الأمر. كنتُ أعرف عنوان البريد الإلكتروني للرئيس بوش، فراسلتُهُ. وقد سبق لي أن هنأتُهُ على فوزِهِ في الانتخابات الرئاسيّة. لكنّ ذلك لا يعني أنني كنتُ سعيدًا بفوزه. وتساءلت عن الغاية التي تحثّني أصلًا على تهنئةِ رجلٍ يُشكُّ في شخصيته على الصعيدين الإسلامي والسياسي. ولكن بعد ١١ أيلول/سبتمبر، حاولتُ أن أبدأ حوارًا مع البيت الأبيض والرئيس بوش، آملًا أن نستطيع التواصل؛ فنتفادى كلّ ما يحدث الآن. كان الرئيس كلينتون قد هيّأ لموقف الولايات المتّحدة من أفغانستان؛ ذلك أنه قد أرسلَ صواريخ كروز وفرض عقوبات دوليّة على أفغانستان.

(١) في ٧ آب/أغسطس ١٩٩٨، تمّ تفجير سيّارتين في الوقت عينه في نيروبي (كينيا) ودار السلام (تنزانيا) في موقع سفارتي الولايات المتّحدة. قُتل المئات وبعدها أُضيف اسم بن لادن على لائحة المطلوبين في الولايات المتّحدة.

كتبتُ رسالةً إلى الرئيس بوش والبيت الأبيض باسم الشعب الأفغاني؛ وصوّرتُ لهما ما نعانيه من جوع وجفاف ومسألة اللاجئين، وذكرتُ التفاصيل كلّها حولَ ما تسبّبت به الحرب في المجتمع الأفغاني من أعداء عدّة وانقسامات وخسائر جمة وفوضى واقعة. طلبتُ إليه أن يتوخّى الحذر، وأن يفكّر في ما قد تخلّفه الحرب، وأن يتفادى أخطاء الماضي نفسها. فإذا تابعت الولايات المتّحدة في الطريق نفسه، فسوف تتحمّل مسؤولية كلّ ما يحدث.

كتبتُ الآتي: «لا شك في أن الولايات المتّحدة هي القوّة العظمى في العالم. ولا شكّ في أنّ أفغانستان قد خسرت في العقدين الأخيرين كلّ ما تملك. نحن لا نملك أي قوّة، اقتصاديةً كانت أم سياسيّة، وجيشنا منهمك بالمحافظة على المناطق التي تعمُّها الفوضى، فكيف له أن يواجه الولايات المتّحدة؟ كما أنّ أفغانستان قد أنهكها الجهاد، والحرب الأهليّة منذ عُشر سنواتٍ. نحن لا نريد الحرب ولا نملك القوى الكافية».

ونصحتُ الرئيس بوش أن يختار الحوار والمحادثات عوضًا عن الحرب. وقد بعثت نسخة عن رسالتي إلى السفارة الأميركية في إسلام آباد، وإلى أعضاء البرلمان الأميركي كلّهم، وإلى الكونغرس. حاولت أن أنبّههم من مغبّة الحلّ العسكري، وتأثيره في الولايات المتّحدة وأفغانستان. كما اتصلتُ في الوقت نفسه بمستشار بوش والمولود في أفغانستان زلماي خليلزاد، الذي قلتُ له إن عليك بصفتك أفغانيًّا الحيلولة دون اندلاع حربٍ في أفغانستان، وينبغي أن تبذل قصارى جهدك لمنع حدوث ذلك. لطالما تحدّثتُ مع خليلزاد على الهاتف من جلال أباد، وأنا مغادرٌ إسلام آباد، لئلا تتنصّت الباكستان على أحاديثنا. قلتُ له إن على الولايات المتّحدة أن تتحدّث مباشرةً مع أفغانستان من دون التركيز على الباكستان. فطالبان لا يستمعون إلى الباكستان، ولا ينفّذون قراراتها. وفكّرتُ بصفتي وسيطًا في أن الباكستان لن تخدم لا الولايات المتّحدة ولا أفغانستان. ولكنّ بوش استمرَّ في عنادِهِ، ورفضَ أن يصغي إلى المنطق.

وتجدر الإشارة إلى أن سفارتنا لم تغلق من فورها في إسلام آباد، على الرغم من أن الباكستان كانت تطيعُ بوش. كان بإمكان مُشرَف أن يُغلقها في اليوم الذي وقع فيه الاعتداء؛ إلاَ أنّ الأمم المتحدة والولايات المتحدة لم تشاءا إغلاق الطريق الوحيدة الذي يُفضي إلى أفغانستان مباشرةً. لكنَ الباكستان أيضًا قد طالبت أفغانستان بتسليم بن لادن إلى الولايات المتّحدة.

قرأتُ مؤخرًا قصّةَ حياة مُشرَف[1] التي يصوّر نفسهُ فيها بطلًا وقائدًا عسكريًّا شجاعًا. كتبَ أنه لا يخاف سوى الله، وأنّه لن يموت إلّا بإرادة الله. ولكن قد يصلحُ هُنا نقض ذلك؛ فالمسلم يعلم ويؤمن أنَ اللّه القدير هو وحدَهُ واهب الحياة وهو وحده يأخذها. وفي مكانٍ آخر من كتابه، يقول إن الرئيس بوش قد هدَّده في الفترة التي تلت الاعتداء. وتابع قصّة حياته قائلًا الآتي: لو لم تتدخّل الباكستان «لعاد العصر الحجري». وتابع مُشرَف قائلًا إن الخطرَ الذي عاش فيه أجبرهُ على السماح للولايات المتّحدة بإقامة قواعد عسكرية في الباكستان تستطيع من خلالها تفجير الأراضي الأفغانية وقلب منازلها رأسًا على عقب.

فكيف لشخصٍ يدّعي أنه يخاف اللّه، أن ينحني أمام تهديدات بوش، وهو يعلم أنّ أفغانستان وشعبها، نساءً وأطفالًا وكبارًا، هي ضحيّة القذائف والقنابل؟

اتّصلت بي الاستخبارات الباكستانية قبل أشهر من الهجوم الذي شنّتهُ الولايات المتّحدة. وذات مرّة، أتى موظفان في جهاز الاستخبارات الباكستانية إلى السفارة، ليستعلما الوجهات السياسيّة المختلفة لحكومة إمارة أفغانستان الإسلامية. كنتُ أعلمُ هدف زيارتهما فزوّدتهما بالهيكل التنظيمي لإدارة أفغانستان، وادّعيتُ بأنني لا أعرف هيكليّة الجيش أو تنظيمه. فشكَ الموظفَان في ذلك، وتابعا يسألانني عن الجيش ولكنّني أكدتُ لهم أنّني لست الشخصَ المناسبَ للحديث في هذا الموضوع.

(١) راجع: Musharraf, 2006.

وفي مرّة أخرى، طلبت منّي عناصر الاستخبارات الباكستانية زيارتهم في مكتبهم المركزي؛ فأجبتهم أنني لا أستطيعُ القدوم؛ لكن يُسعدني أن ألتقيهم في وزارة الخارجيّة. وقلتُ لهم إن بمقدورنا التحدّث هناك في أي مسألة عالقة. ثمّ طلبوا إليّ القدوم إلى دار ضيافتهم فرفضتُ مرّةً أخرى. في النهاية، زارني الجنرال محمود وكان الجنرال جيلاني والبريغادير فاروق برفقته؛ فرحّبتُ بهم في منزلي.

لم يكونوا في جوّ يتقبّلون فيه المزاح. وبادر في الجنرال محمود قائلًا: «نحن نعلم أنّكَ على يقين بما سيحدث في المستقبل القريب؛ ونعلم أنّكَ واثقٌ بأنّ الباكستان ستنضمّ إلى المجتمع الدولي وتساند الولايات المتّحدة ضدّ أفغانستان. ولربّما ظننت أنّ ذلك يناقض الإسلام ومبادىء الجيرة. ولربّما شككت في كلّ تلك الأمور، لذلك لم تأتِ لزيارتنا في مكتبنا المركزي. وها قد جئنا لنبلغك أمرين: الأول، هو وجود تقارير تُفيد بأنكم تخطّطون لاغتيال الرئيس مُشرّف. وهُنا أحذركم بأننا سنجهض أي خطة تعدّونها لذلك. وأنصحكم أن توقفوا عملكم على أي خطة إن كان الأمر صحيحًا. والثاني أمر معرفتنا، نحن وأنتم، أن الولايات المتحدة يُرجّح أن تشن هجومًا على أفغانستان. وهنا أيضًا نريد أن نؤكد لكم أنكم لن تكونوا وحدكم في هذا الجهاد ضدّ الولايات المتّحدة، بل سنكون معكم».

استمعتُ إليهم بصبرٍ. وحين أنهوا كلامهم قلتُ لهم بكلّ هدوء: «إن كان أحدهم يُخطّط لاغتيال مشرّف فأحسبُ أن ذلك مسألة باكستانية داخليّة ولا علاقة لي بها. ذلك أنني لا أملك لا الوسائل ولا الإمكانيّات لاغتياله». وقلتُ لهم بصوتٍ ساخر لا يجدر بكم أن تورّطوا الإمارة في خططكم.

وتابعت القول: «ثانيًا، إن كانت الولايات المتّحدة ستشنّ هجومًا على أفغانستان، فأنتم تعلمون أكثر مني، أيّ مطارات وأراضٍ سوف تُسخّر لمهاجمتنا. سنرى لاحقًا كم أفغانيًا سيستشهد في هذه الحرب. ويا أيّها الجنرال، سوف تكون أنت مسؤولًا عن سفك الدماء والموت، حين تتعامل مع الولايات المتّحدة. وسوف تُحاسب في هذه الدنيا وفي الآخرة. وستكون عدوّ أفغانستان الأول»

وقبل أن أنهيَ جُملتي، قاطعني الجنرال جيلاني وراح يصرخ. لكنني، على الرغم من غضبه، تابعتُ موجّهًا حديثي إلى محمود. قلتُ له: «انتظر يا جنرال! أنت تتحدّث عن الجهاد في حين أن الأميركيّين يستخدمون قواعدكم الجويّة، ويجولون في فضائكم، ويقومون كما وردَ في تقرير جهاز استخباراتكم، بمهاجمة أفغانستان. يجدرُ بكم أن تخجلوا من أنفسكم ومن لفظ كلمة «جهاد». أوَلا تخافون الله حين تحدثونني عن الجهاد؟ لماذا تريدون أن يجاهد الأفغان؟ لماذا لا تجاهدون في بلادكم؟ هل الجهاد فرضٌ على الأفغان فقط، أيها الجنرال؟! أرجوك لا تحدّثني عن دعمك لأمر نعارضُهُ من الأساس!». وارتفعت وتيرة غضبي. وحين نظرتُ إلى الجنرال محمود، وجدته غارقًا في الدموع وجيلاني يجهش في البكاء، وقد لفَّ ذراعيه حولي كالمرأة. لم أكن واثقًا بردود أفعالهم. وبعد لحظات، استأذنونني وغادروا.

راحت الباكستان تبعثُ بإشارات متناقضة. ففي الوقت الذي أكّد فيه الجنرال محمود لي هجوم الولايات المتّحدة، أكّد القنصل الباكستاني في قندهار العكس. وقيل إن الكلام عن شنّ هجوم هو فقط للحدّ من غضب الشعب الأميركي. كما أن ثمة جنودًا مسلمين في الجيش الباكستاني من مستشاري الرئيس مشرّف، قالوا لنا إن الكلام عن هجوم هو أبعدُ من أن يكون حقيقيًّا. ولما كانت لنا علاقاتٌ مع وزارتي الداخليّة والخارجيّة الباكستانية في تلك الأيام.

حاولتُ أن أبقى مطّلعًا على كل الخطط والبرامج التي تنفّذ. حتى أنني طلبتُ موعدًا مع الرئيس مُشرّف شخصيًّا، بواسطة معارفي في وزارة الخارجيّة؛ إلاّ أنه رفضَ طلبي.

علمتُ ببعض خطط الحرب وجهود الولايات المتّحدة لتشكيل تحالف، وهذا ما أقلقَ الملاّ محمد عمر. فقد حضّرت الولايات المتّحدة، بالتعاون مع جهاز الاستخبارات الباكستاني، خطة لشنّ هجوم بالصواريخ على مكان إقامة الملاّ محمد عمر وأسامة بن لادن، كخطوةٍ أولى من حملتهم. وسيُشكّل هذا الهجوم جزءًا من عمليّة عسكرية واسعة تضمّ قصفًا جويًّا تنفّذه القوّات الأميركيّة الجويّة

والبحريّة. ووفقَ الخطّة، يتحرك حلفاء أفغانستان الذين سيتلقّون مساعدةً ماليّة وماديّة من الولايات المتّحدة. ذلك أن معظم القادة الذين انضمّوا إلى الولايات المتّحدة الأميركية كانوا من محافظات الشمال.

كنّا نعلمُ من هم أعداؤنا، ونعلم أن تنفيذ هجوم الولايات المتّحدة على أفغانستان سوف يعتمد على أمثال أولئك القادة. ومنهم عبد الحق ومالك زارين[١]، حليفا الولايات المتّحدة في الشرق. كان الأول قائدًا مجاهدًا ومناهضًا لحركة طالبان يتحدَّر من مدينة نانغرهار، أما الثاني، فهو قائدٌ في محافظة كونار وينتمي إلى قبيلة مشواني. ومنهم أيضًا بادشاه خان زدران[٢] وهو قائدٌ باشتوني من محافظة باكيتا كان قد قاد عمليّات في الجنوب، مع عدد من القادة الصغار: حميد كرزاي، غول آغا شيرزاي، حميد آغا[٣]، وآخرون قد يوجدون في الجنوب. ولكن لم تتمكّن الولايات المتّحدة والباكستان من إيجاد حلفاء في الجنوب الغربي.

سافرتُ إلى قندهار لزيارة الملّا محمد عمر، أمير المؤمنين، في منزله الجديد. وقدّمتُ إليه كلّ المعلومات التي حصلت عليها خلال الأسابيع القليلة الماضية حولَ ما كانت تحضّرُ له الولايات المتّحدة من عمليات. لم يصدّق الملّا محمد عمر تفاصيل ما قلته له، وقال إن الولايات المتّحدة لن تشنّ هجومًا من دون سبب وجيه. وقال إن حكومة أفغانستان لن تقوم بأي خطوة إضافية حيال ذلك الموضوع إن لم تَقُدْ واشنطن تحقيقًا رسميًا وتقدّم أدلّة قاطعة تُدين فيها بن لادن وأشخاصًا آخرين متّهمين باعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر.

(١) مالك زارين يحمل الجنسيّتين الأفغانيّة والباكستانيّة هو قوميّ وشيخ قبيلة حارب بصفته قائدًا في كونار.

(٢) بادشاه خان زدران (من قبيلة زدران) يتحدّر أصلًا من باكتيا وهو يُعرف بـ «دوستم جنوب الشرق». بعد ١١ أيلول/سبتمبر عمل مع حكومة كرزاي وكان حاكم باكتيا بين ٢٠٠١ و٢٠٠٢. انتخب نائبًا في البرلمان عام ٢٠٠٥.

(٣) حميد آغا (من قبيلة سيّد) قاد ٣٠٠ إلى ٤٠٠ رجل في جهاد ضدّ السوفيات. قاتل خلاله مع حزب جيلاني. هو يتحدّر من نلغام.

كان الملّا محمد عمر يظنّ أنّ احتمال هجوم تشنه الولايات المتّحدة لا يُجاوز العشرة في المئة فقط. ولكنّني قلتُ له، بحسب ما أصبح لديّ من معلومات، إن الولايات المتّحدة ستقوم حتمًا بشنّ هجوم على أفغانستان؛ وإنني متأكدٌ من نشوب هذه الحرب. وأمست الولايات المتّحدة والباكستان على وشك إيجاد اتفاقٍ تقرّران فيه مصير أفغانستان.

حاولت الباكستان جاهدةً أن تتعامل مع عملاء شيوعيين وقادة مجاهدين سابقين، بينما راحت الاستخبارات تسهّلُ عملية التواصل للولايات المتّحدة؛ فتعرّفها بحلفاء محتملين لمساندتهم في الحرب على إمارة أفغانستان الإسلاميّة. وكانت الولايات المتّحدة مستعدّة أن تدفع للقادة كي يتعاونوا معها؛ ولم تتوانَ عن إنفاق ملايين الدولارات على الهواتف وأمور أخرى من دون حساب. حتّى أنها موّلت موظّفين في السفارة الأفغانيّة في إسلام آباد كي يجمعوا لها المعلومات. وبذلك غدت جهود الولايات المتّحدة تعود على الباكستان بالكثير من الأموال والموارد. جهّزت الباكستان القواعد العسكرية في السند وبالوشستان لكي تستخدمها الولايات المتّحدة. وسرعان ما أصبحت تلك القواعد العسكرية تعجّ بالأسلحة والذخائر لشن الحرب على أفغانستان. وتشاركت المخابرات الأميركية والباكستانية المعلومات حول مسائلَ عدّة منها تفاصيل حول قادةٍ في القوّات الأفغانية يخدمون في الجيش الأفغاني، وفي القواعد الجويّة.

ومن ناحيةٍ أخرى، كان للمخابرات الباكستانية جدول أعمالها الخاصّة لتحصل على مكاسب استراتيجية في أفغانستان؛ فهدفت إلى جمع القادة المجاهدين وتنظيمهم في المناطق الحدوديّة وفي الباكستان كلّها؛ فتمكّنت من جمع أولئك الذين لم يُشاركوا في أي عملية منذ انتهاء الحرب في الثمانينيات. وراحت بطريقة سرّية تدسّ قادةً في القوات العسكرية التابعة لإمارة أفغانستان الإسلامية بغية إسقاط حكومتنا. وأخيرًا، أجرت الباكستان محادثاتٍ سرّية مع التحالف الشمالي لمناقشة المستقبل السياسي والعسكري للبلاد. رأت الباكستان في قادة التحالف الشمالي قادةً مستقبليين لأفغانستان؛ ينالون حصّة في أيّ حكومة جديدة؛ ويصبحون مهمّين للولايات المتّحدة، فتعتمد عليهم ردحًا طويلًا من الزمن.

كان كلّ شيء يشير إلى اندلاع حرب في القريب العاجل. وكلّما أصبحت أعرف أكثر عن الموضوع، تأكّدت من أننا لن نستطيع تجنّب هذه الحرب. أدارت لنا الباكستان ظهرها، هي التي كانت شقيقتنا فيما مضى. واختبأ العالم وراء الرئيس بوش. علمت أنّ الأيّام الهادئة شارفت على الانتهاء وأن على إمارة أفغانستان الإسلاميّة أن تُواجه عدوًّا قويًّا في معركة حياة أو موت.

▲▼▲

ذات صباح من تشرين الأول/أكتوبر، أخبرتني سلطاتٌ عليا في الباكستان أنّ الاجتياح سيبدأ في الليلة الآتية. ذلك أن القوّات الأميركية قد انتشرت في قواعد الباكستان الجويّة وراحت طائراتها تحلّقُ في أجوائنا. كما حطّت حاملات الطائرات الأميركيّة، بالإضافة إلى مئات الطائرات وصواريخ الكروز، في الخليج العربي. وكانت طائرات استخباراتيّة من دون طيّار، تابعة للولايات المتحدة، تتجسّسُ على أفغانستان؛ وقد انفجرت إحداها في مزار الشريف.

كما سلّم السفير الأميركي في الباكستان[1] برويز مُشرّف ملفًا سرّيًّا يحتوي على أدلة حول اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، وحول التآمر المزعوم بين طالبان وتنظيم القاعدة؛ فأصبح لدى الجنرال حجّة لتعامل حكومته مع الأميركيّين، لاجتياح أفغانستان. ويبقى الأمرُ لغزًا، لماذا تُقدّم الولايات المتحدة هذا الدليل إلى الباكستان وليس إلى أفغانستان؛ فقد سبق لحكومتنا أن طالبتها بتلك الملفّات. لكن في الحقيقة، لم تكن تلك الملفات سوى اعترافات لعربيّ يُدعى علي، وتدّعي الولايات المتحدة أن له علاقة باعتداءات دار السلام. وقد اختفى بعد أن تمّ حقنه بموادّ كيميائية، وأصابه مسّ من الجنون، سبّب ذلك إحراجًا كثيرًا لبرويز

(١) وندي ج. شامبرلن (المولودة في العام ١٩٤٨) كانت سفيرة الولايات المتّحدة في الباكستان بين ١٣ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ و٢٨ أيّار/مايو ٢٠٠٢. عملت في مفوضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين وفي برنامج الشراكة البيئيّة المشترك بين الولايات المتّحدة وآسيا وكانت رئيسة مركز الأبحاث: معهد الشرق الأوسط.

مشرّف، بل دمّر سمعته. أوصلتُ المعلومات كلها إلى القيادة العامة. وقلت لهم إن عليهم تحضير أنفسهم لهجوم في الليل.

في اليوم التالي، شعرتُ بالتوتر، وكنت في حالة ترقب، فحاولتُ أن أعرف ما الذي يجري. كانت الساعة العاشرة مساءً، حين اتصل بي القائد المسؤول في فيلق قندهار، الملّا أخطر محمد عثماني[1] رحمه الله. أخبرني أن قاعدة قندهار الجويّة تستهدف في هذه اللحظة بالصواريخ. فسألته: «هل تمّ إعلام أمير المؤمنين بالأمر؟» فأجابني بأنه بات يعلم. ثم قال لي: «انتظر، إن الصواريخ تستهدف منزل أمير المؤمنين!». كان يُريد إخباري بالمزيد إلا أن الاتصال قد انقطع.

ما أقلقني هو احتمال مقتل الملّا محمد عمر. ذلك أنّ بعض السلطات الباكستانية قد طمأنته بعدم شن أيّ هجوم. وهو لم يأبه للمعلومات التي أفدناه بها. لكن لم تكن نية تلك السلطات أن تطمئنه، بل أن تخفي عنه نيّات الولايات المتحدة والمؤامرة السرّية التي تُحيكها لقتله. كنتُ لا أزال أفكر في الأمر، حين رنّ جرس الهاتف، لكن هذه المرة من كابول، والمتصل هو الملّا عبد الغفار[2]، رئيس فرع الاتصالات في وزارة الدفاع. قال لي: «يتمّ ضرب قاعدة كابول العسكرية بالصواريخ». ثم حوّلني لأكلّم الوزير الملّا عبيد الله، الذي سبق أن زوّدته بخطة الحرب، واستمع إلى نصائحي. فتكلمت معه بالكلمات المقتضبة الآتية: «ليس هذا هو وقت أسرّة الحرير والقصور الفخمة. امضِ، وابحث عن مكان آمن، ولننتظرْ مشيئة اللّه»؛ ثم أقفلت الخط.

جلست لفترة وجيزة واضعًا رأسي بين يديّ أفكرُ بما قد يحدث، وكم من الوقت ستبقى أفغانستان تحترق بالنيران؟ ثم عزّيت نفسي بمَثَلِ الرجل وجعبتِهِ:

---

(١) لم يكن الملّا أخطر محمد عثماني (من قبيلة أشكيزاي) معروفًا خلال الجهاد في الثمانينيّات. كان قائد الجيش في قندهار حين كان طالبان في الحكم بعدَ ١٩٩٤.

(٢) الملّا عبد الغفار (من قبيلة بوبلزاي) يتحدّر أصلًا من سانجين في هلمند وكان شابًّا يافعًا حين عملَ في الوزارة (يستبعد أن يكون قد حارب في جهاد الثمانينيّات).

إن قلقتُ كثيرًا خسرت كلّ شيء. وقلت لنفسي: لا وقت لديك لتجلس وتشعر بالقلق؛ فذلك لن يفيدك بشيء، والأفضل لك أن تبدأ بالعمل.

لم يكفّ الهاتف عن الرنين. الجميع يريدون أجوبة، الناس والصحافيون، لكنني لم أجب، بل اتصلتُ بشاهين، وقلت له: «بدأت الحرب، اتصل بالصحافيين جميعهم، لنجيب عن أسئلتهم دفعة واحدة». وفي منتصف الليلة الأولى، عقدت مؤتمرًا صحافيًّا.

كانت هذه بداية الحرب.

▲▼▲

قبل أن يبدأ الهجوم، عُزلَ موظفو الاستخبارات الباكستانيّة الذين قاموا بزيارتي. فأُرسلَ الجنرال جيلاني إلى مايوالي[1]، وتسلّم الجنرال عمر رئاسة الاستخبارات الباكستانيّة بدل الجنرال محمود. ولم أعلم شيئًا عن الجنرال محمود من ذلك الوقت.

وأفاد تقرير سرّي، أن الاستخبارات الباكستانيّة أحرقت ملفات حول أفغانستان سبق للولايات المتحدة أن طلبتها كما أعلمتِ الاستخباراتُ الباكستانيّة الملّا صاحب أن هدف الأميركيين الأول هو قتله وقتل قائد طالبان. حتى أنها قد نصحت الملّا صاحب بأن يلوذ بمكان آمن.

نفى بعضُ الموظفين الباكستانيّين هذه المعلومة قائلين إن الولايات المتحدة ستستمر بالضغط على أفغانستان عبر تدابيرَ عسكرية؛ ولكنها لن تشنّ أيّ هجوم، وهي لم تحضّر لأيّ اجتياح. بقي الملّا محمد عمر في منزله، وغضّ النظر عن الخطر الذي قد يلحق به. كنتُ قد أعلمته شخصيًّا عن نيّة الولايات المتحدة شنّ حرب، وأريته بعض الخرائط والأدلة. لكنّ قندهار اعتبرت تقاريرنا خاطئة. فكان الملّا صاحب مقتنعًا أن الولايات المتحدة لا تملكُ سببًا وجيهًا لشنّ هجوم على أفغانستان؛ واعتبر أنّ احتمال وقوع حرب ضئيل جدًّا.

(١) تقع مايوالي في البنجاب في الباكستان.

زارني الجنرال عمر بعدَ يومين من بدء القتال وبجعبتِهِ طلبان. قال: بصفتي القائد الأعلى وممثل طالبان، عليّ المشاركة بفصل أعضاء طالبان «المتشدّدين» عن «المعتدلين». وزاد قائلًا أن ذلك سيُساعدُ طالبان ويحفظها. لكنَّ ما كان في نيّته حقًّا هو أن يُقسّم طالبان لإضعافها. وطلبَ إليّ أن أتسلمَ قيادة طالبان المعتدلة ضدّ أمير المؤمنين. وأكد لي أنهم سيدعمونني ماليًّا ولوجستيًّا. هذا الاقتراح تعملُ عليه إدارة الولايات المتحدة الجديدة برئاسة أوباما. وقد سبق لبوش، بالتعاون مع بريطانيا وكرزاي محاولة تنفيذ الخطة ذاتها لسبع سنوات. فهم يظنون أن وجودَ طالبان مرتبطٌ بالمال والسلطة. في الحقيقة، ترتكزُ حركة طالبان على إيديولوجيّة إسلاميّة تقاتلُ في سبيل الجهاد وتحت مبادىء الإطاعة والإصغاء والحوار. وفكرة تقسيمها إلى معتدلين ومتشدّدين إنما هو هدفٌ غيرُ مسؤولٍ ولا فائدة تُرتجى منه.

أما الطلب الثاني للجنرال عمر، فهو أن أكفَّ عن التكلم في الإعلام، وأن ألغي المؤتمرات الصحافيّة المقرّرة في السفارة.

كان عليَّ، قبل أن أدلي بأي تصريح عام، أن أقدّمَ البيان الصحفي إلى الحكومة الباكستانية، لتمارس عليه الرقابة التي توائم حاجاتها. وبعدَ أن أنهى الجنرال عمر كلامَهُ غادرَ مع مرافقه. لم أردَّ عليه وتابعتُ عملي. تفهّمت ما نصحوني بفعله، ولكنني لم أفهم أي فائدةٍ يجنون إذا انقسمت طالبان، وما هي نتائج ذلك عليها وعلى الملّا صاحب. وقد احتفظت بهذه المعلومة لنفسي.

▲▼▲

كنتُ أعقد مؤتمرًا صحافيًّا كلّ يوم في تمام الساعة الرابعة من بعد الظهر، لأخبرَ العالم بما يحدث في أفغانستان: أُقدّمُ معلوماتٍ عن الوضع العام أو عن أحداثٍ معيّنة، كما أجيبُ عن أسئلة الصحافيين. تلقيتُ اتصالات متعدّدة من عزيز خان في وزارة الخارجية، يطالبني فيها لزوم الصمت.

في الساعة الثالثة من بعد الظهر، أقومُ بجمع المعلومات من مختلف أنحاء أفغانستان. وفي الساعة الثالثة والنصف، أطبعها، وأقدّم نسخة منها إلى

الاستخبارات الباكستانية. وقبلَ أن يعودَ هو إلى مكتبه، أعقدُ مؤتمرًا صحافيًا. وبهذه الطريقة، كنتُ أنشرُ الأخبار قبل أن تستطيعَ الاستخبارات الباكستانيّة القيام بأي شيء.

أرسلت الاستخبارات إليّ ثلاثة إنذارات رسميّة تفيدُ بأن المعلومات كانت تصلهم في الوقت نفسه الذي كنت أعقدُ فيه المؤتمر الصحافي. قدّمتُ إليهم اعتذاراتي، وقلتُ لهم إن التقريرَ قد وصلني من أفغانستان عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، وصحّحته، وأرسلته إليهم بعد ثلاثين دقيقة. كنت أعتذرُ منهم عن التأخير الواقع متحجّجًا بنقص المعلومات، أو بتغيّب مترجمي أو بتأخّر المسؤول في طباعة التقرير على الآلة الكاتبة. واستطعتُ عبر تلك الطرائق أن أتصدّى لكل محاولةٍ يقومون بها لوضع رقابةٍ على كلامي.

تابعتُ عملي حتى مع التهديدات الدائمة التي تلقيتها. وحين وقع مزار الشريف بأيدي تحالف الشمال، ألحّت الاستخبارات الباكستانيّة لأتصل بوزير الدفاع الملّا عبيد اللّه وحاكم قندهار الملّا محمد حسن آخوند وأطلب إليهما المجيء إلى الباكستان. فأخبرتُ جهاز الاستخبارات أنني لا أستطيع الاتصال بهما بهذه البساطة فهما أرفع مني مرتبة كما أنني لا أريد لهما المجيء إلى الباكستان لثقتي المتناهية بأن الاستخبارات سوف تعتقلهما.

استمرّت الاستخبارات تتّصل بي كل بضع دقائق وتسأل إن كنت أبلغت الملّا عبيد اللّه آخوند أو الملّا محمد حسن آخوند. فأجيبُ بأنني تكلّمت معهما وحذّرتهما من القدوم إلى الباكستان لاحتمال توقيفهما. لم أثق يومًا بأيّ من الوعود التي قطعتها الباكستان. كان من الصعب في تلك الأيام أن أتنقل في إسلام أباد، وأنجز عملي من دون أن يمنعني أحدٌ من ذلك، أو من دون أن أخسر أوراق اعتمادي.

كنت أقضي معظم أوقاتي ألاحقُ الأحداث، وأتابعُ الأوضاعَ الدوليّة وما يحدث في أفغانستان. وآخرُ شخص من الاستخبارات الباكستانية التقيته كان

العقيد إمام[1]، الذي عرفهُ الأفغان جيّدًا أيّام الجهاد ضد الروس، وهو الآن يشغلُ منصبَ القنصل في قنصليّة الباكستان بهرات. وقد تمّ ترحيله من أفغانستان بعدَ أن بدأت الولايات المتحدة هجومها. لم تثق طالبان به؛ وأُجبرَ على مغادرة البلاد رغم محاولته البقاء في قندهار.

طلب إليّ موعدًا؛ فتقابلنا في السفارة. وبعدَ أن تبادلنا السلام، راحتِ الدموع تنهمرُ على وجهه ولحيته البيضاء، حتى أنه لم يستطع أن يتكلم. ثم قال فجأة: «اللّٰه أعلم ما قد يحدثُ في أفغانستان. لكنّ الملامة تقع على الباكستان. فكم قامت بأعمالٍ وحشيّة ضدّ جارتها! والآتي أعظم! وراح يلومُ مُشرّف الذي محا عقدين من التعاون والمعاناة والصداقة، وأزال مجدَ الجهاد. يجبُ على الباكستان أن تخجلَ، وليسَ مُشرّفًا». ثم راح يبكي من جديد قائلًا إنهم لن يستطيعوا تعويضَ ما فعله مُشرّف، وهم الذين سيتحمّلون عواقبَ فعلته ليس في الدنيا فحسب، بل في الآخرة أيضًا. ثم غادرَ ولم ألتقِ من بعدها، أيّ موظفٍ في الاستخبارات الباكستانية، إلا حين أتوا وألقوا القبض عليَّ، علمًا أنهم كانوا يُراقبونني عن كثب. ما فتئت ثلاث درّاجات نارية تلاحقني وتقفُ خارجَ السفارة وخارجَ منزلي ليلًا نهارًا.

هذه هي الحكومة في الباكستان. أمّا الشعبُ فهو مختلفٌ تمامًا. ففي جميع أنحاء البلاد خرجَتْ مظاهرات عنيفة مناهضة للولايات المتحدة، وجرت اشتباكات يوميّة بين الشرطة والمتظاهرين أدّت إلى مقتل بعض المواطنين. حاولت الباكستان جاهدة أن تقمع الاحتجاجات. فزجَّتْ في السجنِ أشخاصًا كثيرين، من بينهم شخصيّات دينيّة. لكنّ التظاهرات استمرّت في التزايد.

قدم آلافِ المتطوّعين إلى سفارتنا في الباكستان ليشاركوا في الحرب. وسافرَ آلاف آخرون إلى أفغانستان عبرَ بلوشستان والإقليم الحدودي الشمالي الغربي

(١) العقيد إمام كان باكستانيًا قوميًا عُرف في جنوب أفغانستان خصوصًا في الثمانينيّات على أنّه القناة الرئيسة لعبور تمويل الولايات المتّحدة والسعوديّة إلى المجاهدين في كويتا. كان مسؤولًا عن دورات التدريب وتوزيع الأموال والموارد، وعرفه أغلب القادة في جنوب أفغانستان.

من أجل الانضمام إلى لواء المتطوّعين. وعبَرَ عشرة آلاف جندي خطّ دوراند في ميرام شاه.

حاولت الحكومة في إسلام آباد منعَ شعبها من الذهاب. لكنّ وضعَ الباكستان كان مهتزًّا. ولم يعد باستطاعة الحكومة أن تسيطر على الأوضاع. كنتُ هناك، وحين واجهت الكمّ الهائل من المتطوّعين، تحدّثت عبر شاشة التلفزيون، وقلتُ: إننا لا نريد أن يمضي الناسُ إلى أفغانستان بل نحن في حاجة إلى جهاد ماليّ. لم يفلح الأمر، إذ استمرّ الناس في اللجوء إلينا، يحفّزهم حماسهم الإسلامي.

١٦

الحقيقة الصّعبة

في أشهر الحرب الأولى، سجّلتُ أربع إطلالات إعلامية عبر شاشة التلفزيون. وفي الإطلالات الأربع، وجّهت الرسالة نفسها: يا إخواني وأخواتي المسلمين! كما تعلمون جيّدًا، يعمدُ الأميركيوّن إلى مهاجمتنا مستخدمين القنابل والصّواريخ الموجّهة عن بعد. لن ينفعَ التجمُّعُ في فرق كبيرة على الأرض، لأنّ ذلك يجعلنا هدفًا سهلًا للطّائرات، ويوقع المزيد من الضّحايا. لا نريد المزيد من الخسائر. كما أن سقوط الضّحايا يشكّل خسارة أليمةً لنا. لذلك، ومن الآن فصاعدًا، لا نريد إرسال المزيد من النّاس إلى أفغانستان حفاظًا على سلامتهم، بل نحن في حاجة إلى دعمكم المادّي.

تصاعدت المشاعر التضامنيّة تجاهنا في العالم العربي والدّول الإسلامية الأخرى. ووفد إلى السفارة، متطوّعون كثُرٌ للذهاب إلى أفغانستان. لم تُجدِ محاولاتنا لثني أولئك عن التقدُّم في مسيرهم، فكان الآلافُ يعبرون الحدود كلّ يوم. وبلغ العدد في أحد الأيام خمسة آلاف شخص. وأعربت مئات الآلاف من الجماهير عن استعدادها لبذل حياتها نصرة لقضيّتنا.

في كلّ مرة يقصدني أحد الإخوة المسلمين لأساعده على دخول أفغانستان، كنت أنظر إليه، من رأسه إلى أخمص قدميه وأسأله عن حياته وعمله وسلوكه. أتى إليّ شبّان من ذوي الطلعة البهية والبنية القوية، وطلبوا دعمي. استفسرت عن دوافعهم وعن المشاعر التي قادتهم إليّ. بدا من الصعب جدًّا إقناعهم بطريق آخر

يحقّقون فيه تطلّعاتهم، ويعيشون إيمانهم وعقيدتهم. وتمنّيت لو أن لنا جيشًا من هؤلاء الشّباب الورعين للدفاع عن عقيدة الإسلام خدمة للهدف الصحيح. ومن المحزن أن نرى اليوم جيوش العالم الإسلامي تحارب الإسلام نفسه.

بعد بدء الهجوم، أخذ النّاس يجمعون التبرّعات لمساعدة الإمارة. تقاطروا من أنحاء الباكستان لجمع الأموال وتقديمها إلى أفغانستان مباشرة، أو عبر مكاتبنا في كراتشي ولاهور وكويتا وبيشاور. امتلأت الخزائن بالمبالغ الضّخمة. وكنا نعطي كلًّا من المتبرّعين إيصالًا يبيّن الغاية الّتي ستنفق فيها الأموال: التربية وغوث اللاجئين ومساعدة الأيتام. فكلّ الأموال التي حصلنا عليها استخدمت لهدف محدّد.

تبرَّع بعض النّاس بمئة روبية باكستانية، بينما تبرّع آخرون بمليون. ولم يكن ذلك ليشكّل فرْقًا. فكلٌّ منهم يُقدّم بحسب مقدرته، وجميعهم، تحرّكهم حريّتهم وتضامنهم معنا. ولم تبخل بعض الأخوات المسلمات من تقديم مجوهراتهنّ ومقتنياتهنّ الأخرى. جمعنا الذهب بالكيلوغرامات. وغدونا نخزّن الشراشف والأحذية، وكلّ الاحتياجات الأخرى في السّفارة. ولا تزال عاطفة الإخوة المسلمين تجاهنا ورغبتهم في المساعدة، مطبوعة في ذاكرتي حتّى اليوم.

ذات صباح، قدِم شابٌّ لمقابلتي فاستقبلته في مكتبي. وهو رجلٌ باشتونيّ من مقاطعة الحدود الشّمالية الغربية. دعوته إلى الجلوس؛ فأخبرني أنّ زوجته أتت بصحبته، وهي تودّ التكلّم إليّ أيضًا؛ فوافقت. وما هيّ إلا دقائق حتّى عاد الرجل ومعه امرأة ترتدي البرقع[1]. قالت بكلّ تهذيب «مرحبًا». وعلى الرغم من أنّ وجهها كان مغطّى بالكامل، إلا أنني شعرت من نبرة صوتها بالدمع يترقرق في عينيها.

خاطبتني قائلة: «سعادة السفير، في منزلي ممتلكات كثيرة أريد تقديمها إلى

(١) رداء تلبسه معظم النساء في جنوب الباكستان وهو رداء فرضه طالبان في التسعينيّات. ويُسمّي الأفغان البرقع عادة «شادور». اللون الأكثر شيوعًا للبرقع هو الأزرق سماوي ودرجات البني والأخضر وحتّى الأحمر.

ما يرضي الله. وسمعت من الملا أن أفضل التقدمات هي الأعز على القلب. وأعزّ ما أملك المجوهرات التي قدّمها إليَّ والدي وزوجي بمناسبة زفافي. لذلك أريد أن أقدّم هذا العقد الذّهبي لله. أضعه بين يديك، لتكون شاهدًا على عمل الرحمة هذا يوم القيامة، وتكون مسؤولًا عن إنفاق هذا المبلغ لصالح المجاهدين».

أخرجَتْ عقدًا ذهبيًّا جميلًا وأعطتني إياه. وفكّ زوجها ساعة الرولكس من معصمه ووضعها فوق العقد. تأثّرت جدًّا بهذه التضحية من جانب الأخت الباشتونية، فانعقد لساني، وبالكاد تمكّنت من النطقِ. فصلتُ تقدمتهما عن التقدمات الأخرى، وسلّمتها إلى مجاهدينِ أثق بأمانتهم. عرفت أنني سأكون مطلوبًا للشّهادة يوم الدّينونة. وكثيرًا ما أفكّر في الحياة الثانية، وأعلم أنني ما دمتُ أحمل الإيمان بالله في داخلي، فسوف تسهل كل مصاعبي. ليمنحني الله أن ألتقي هذه الأخت وزوجها مجدّدًا في الجنّة. آمين.

في يوم آخر، وبينما كنت في الطريق إلى مكتبي، اقترب شاب وصبيّة من سيارتي، فطلبت إلى السائق التوقّف؛ وأنزلت زجاج السيارة لأسأل عمّا يريدانه. بادر الشاب قائلا «إنه اليوم الثالث الذي نأتي فيه لزيارتك. في كلّ مرّة نقف وننتظر أمام المكتب لكنّ ازدحام الزائرين يمنعنا من الوصول إليك». فطلبت إليهما الدخول. ومنذ لحظة وصولهما أجهشت المرأة بالبكاء، وتبعها زوجها. كان الجوّ ملبّدًا بالحزن، فغلبني البكاء أنا أيضًا. يبدو أن قلبي قد أُثقل إلى درجة أنني وجدت ذلك المبرّر المناسب لأنفجر باكيًا.

بكينا طويلًا. وعاد الرّجل ليتابع بعدها قائلًا: «برويز مشرّف والحكومة الباكستانية لطّخا اسم الباكستان بعار لن يُمحى أبدًا. لقد دمّرا رابطة الأخوّة التي طالما جمعتنا بالأفغانيين خلال الجهاد ضدّ السوفيات، يوم كنا نؤوي اللاجئين وندعم المجاهدون. لا أعلم كيف سأجرؤ، كباكستاني على النظر في عينيك الآن. نحن آسفون. لم يكن ذلك القرار قرارنا. نحن مسلمون».

ثم أخبراني أنهما يقيمان في لاهور، وأنّهما أقدما على بيع كلّ ممتلكاتهما، حتى أن المرأة قد باعت كلّ صيغتها. «وتحدّث الرجل قائلًا: «بحوزتنا ٢٥٠ ألف

روبية[1]، لهذا نحن هنا، نريد أن نقدّم هذا المبلغ إليك. هذا كلّ ما استطعنا فعله. ثمّ تابعت المرأة قائلة: «لي ابنة تبلغ من العمر عشر سنوات، وكنت قد أوصيت الصّائغ بصناعة أقراط خصّيصا لها. حين أخذت مجوهراتي للبيع نسيت أمر تلك الأقراط. لكن في اليوم الذي توجّهنا فيه إليك، تنبّهت للذهب يلمع في أذني ابنتي، فجلبت الأقراط معي لأقدّمها إليك خدمة للّه». أصررت كثيرًا على إعادة الأقراط إلى ابنتهما، أصررتُ بحقّ، لكنّ إصرار المرأة على تركها لي بدا أكبر. وهكذا غادرا.

▲▼▲

حين سقطت كابول في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠١، قررت الانتقال إلى قندهار. لم تصادف يومها قيام أي رحلة جوية من إسلام أباد إلى كويتا، فذهبت إلى بيشاور، ومنها أقلّتني الطّائرة إلى كويتا. تقدّم جميع مسافري الطائرة وطاقمها لإلقاء التحيَّة عليّ، الواحد تلو الآخر. وأخيرًا أقبلت امرأة، كانت قد تراجعت كي تفسح المجال لسائر المسافرين، وتوسّلت إلى المسافر الجالس قربي كي يدع لها مكانه؛ وجلست بقربي. ثمّ انفجرت بالبكاء واعتذرت، وطلبت أن تطرح عليّ بعض الأسئلة. أذكر أنها عرّفت عن نفسها، لكنّني بعد كل تلك الفترة، لا أستطيع تذكّر اسمها.

قالت المرأة: «يا سيّد ضعيف، أنا طبيبة وأملك عيادتين خاصّتين، عيادة في بيشاور والأخرى في كويتا، أقسّم وقتي بينهما. أنا متزوّجة وعندي ابنة. وأعمد عادة إلى تقسيم مدخولي ثلاثة أقسام، مهما يكن المبلغ الذي أحصّله». وبعد عمليّة حسابية قدّرت أن يكون مدخولها بضعَ مئات من آلاف الروبيات.

وتابعت المرأة «أنا أقدّم نصف ما أتقاضاه للطّالبان دعمًا لعمل اللّه، وأقسّم النصف الآخر إلى نصفين نصف أنفقه على معيشتنا، ونصف أهبه لمن يستحقّ

(١) ٢٥٠ ألف روبية تُعادل ٣٠ ألف كلغ من القمح في ذلك الوقت.

من مرضاي. منذ شبابي، حفظت الصلوات اليوميّة، وأنا أتلو القرآن الكريم كلّ صباح. ورغم ذلك كلّه، فإنني أشعر بضعف شديد، فهل تستطيع مساعدتي؟».

أجبتها: «ولِمَ لا؟ سأعمل ما بوسعي عمله».

فقالت المرأة: «لطالما اعتبرت أن طالبان هم المجموعة الوحيدة، في هذا الزمن، الذين يعملون لخدمة دين اللّه، وتحقيق شريعته على الأرض، وكانوا هم من أوصل الشريعة إلى أفغانستان. ولمّا بدأ الأميركيون بالهجوم على أفغانستان، فكّرت بداية أن ذلك قد يكون مفيدًا لطالبان. لكنني أرى اليوم أنّهم يتعرّضون للهزيمة. استشهد الكثير منهم، وسقطت عاصمة الأفغان. فأخذت أسأل نفسي: أين يكون اللّه يا ترى؟ ولماذا لا يساعد طالبان؟ لماذا فعل ذلك بهم؟ وأنا الآن عاجزة عن الصلاة. لا أريد ذلك بكلّ بساطة. أنا خائفة من تلاشي إيماني. تتنازعني مختلف الأفكار، ولا أعرف ما العمل». أنصتُ إلى قصّة المرأة، محاولًا إيجاد أجوبة عن تساؤلاتها. شعرتُ بالأسف عليها؛ ولكنّني رحتُ أفكّرُ: ربما كانت هذه حال الكثير من الناس.. فاللّه يجرّبُنا. حاولتُ أن أعزّيها قدرَ المستطاع قبلَ أن تحطّ الطائرة. عرفتُ الكثيرَ من القصص المماثلة التي تستحقُّ أن تُكتب؛ ولكنّني مع الوقت نسيتُ معظمها.

هذا ما حدث في الباكستان، لكنّ الوضعَ نفسه كان ينسحب على العالم الإسلامي كلّه. وهذا ما أقلق المسلمين؛ فراحوا يدعموننا بالمال وبالأفراد.

في ذلك الوقت، تلقّيت اتّصالات عدّة؛ ولكنّ أحدًا لم يكلّمني بل كان الجميع يجهشون في البكاء.

ذات يوم، اتّصل بي مسلم عربي مرّات عدّة؛ ولكنّه، في كلّ مرّة أقول له «مرحبًا»، يبدأ في البكاء، فأغلقُ الهاتف، إلى أن استطاع التكلّمَ مرّةً، فسألني ألّا أغلقَ السمّاعة. وعدتُه أن أسمعه، سمعتُ صوتَ زوجته تبكي، وهو يحاول مرارًا أن يتكلّم بصوتٍ واضح. قالَ لي إنّ العواطفَ اجتاحت زوجته، وهي الآن لا تأكل ولا تشرب بل تبكي طوالَ النهار. كان هو وزوجته يحملان الجنسيّة الفلسطينيّة؛

وقد طلبَ إليَّ أن أتحدّثَ إلى زوجته؛ فحاولت تعزيتها على الرغم من أنّها لم تستطع التكلّم، وأنّني لم أسمع سوى صوت بكائها. استشهدتُ بآيات من القرآن الكريم وبحديث النبي محمد (ﷺ). ثمّ عاودَ الرجل الاتّصال بي بعدَ ثلاثة أو أربعة أيّام. لقد أرادَ أن يشكرني؛ وقالَ لي: «أصبحت زوجتي في حالةٍ جيّدة، بعدَ أن تحدّثْتَ إليها».

استمرّت الحربُ في أفغانستان حتّى الأسبوع الثاني من تشرين الأوّل/ أكتوبر وما زلتُ ألتقي سفراء عدّة. لم تعد المملكة العربيّة السعوديّة والإمارات العربيّة المتّحدة تعترفان بحكومة طالبان، وطردتا ديبلوماسيّينا من أراضيهما. ولم يعترفْ أحد بإمارة أفغانستان الإسلاميّة سوى الباكستان.

▲▼▲

عدتُ إلى قندهار قبل يومين من شهر رمضان المبارك في الخامس عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، لأتحدّث مع أمير المؤمنين عن إمكانيّة محادثات بين أفغانستان والولايات المتّحدة. واقترحت قطر أن تتوسّط بينَ طالبان والولايات المتّحدة كي توقفَ القتالَ القائم بينهما. غادرتُ إسلام أباد في سيّارتي اللاند كروزر، وراحت الاستخبارات الباكستانيّة تلاحقني على طول الطريق. قطعتُ حدودَ شمان، وخشيت ألاّ تسمح لي الباكستان بالعودة.

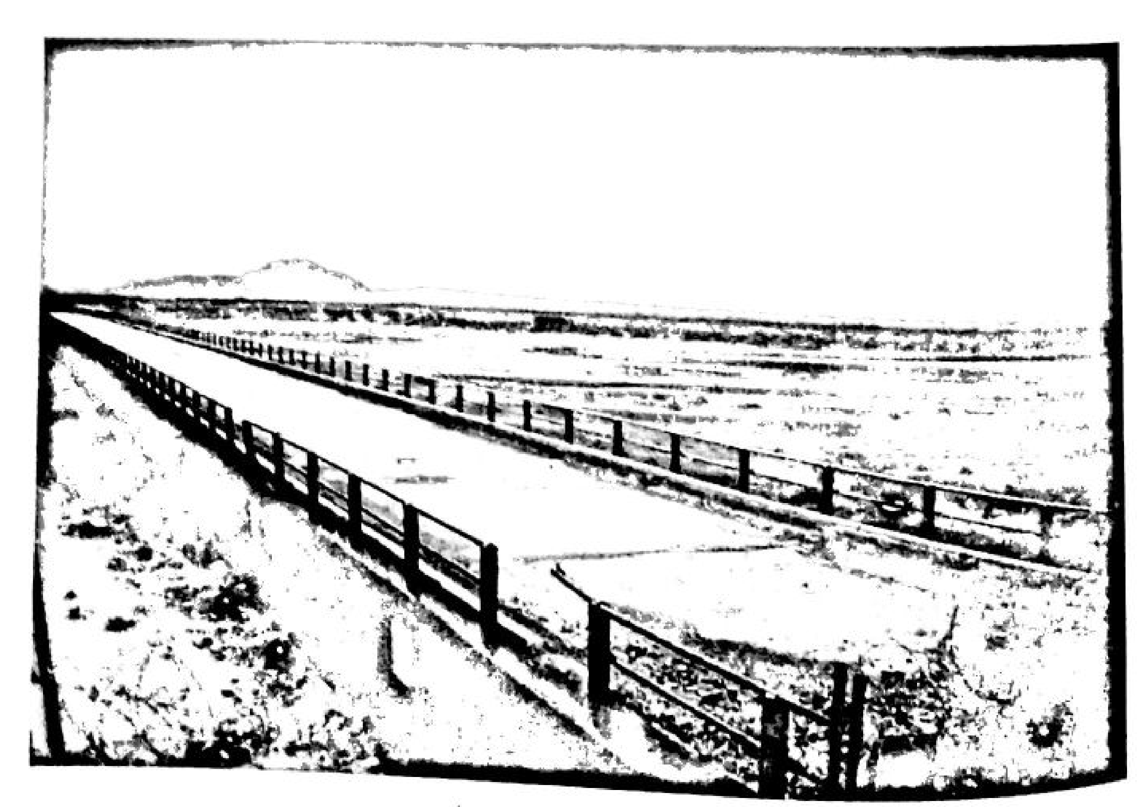
حين وصلتُ إلى قندهار، كانت المدينة كلّها تغرق في الفوضى. لم يمرّ على سقوط كابول سوى يومَيْن؛ وقد عمّ الحزن كلّ من بقي في قندهار. توجّهت من فوري إلى القيادة العامّة التي اتّخذت مقرًّا جديدًا داخلَ المدينة. لقد أردت أن أقابلَ الملّا محمد عمر.

لم يكن في مكتبه فانتظرتُه قليلًا. بعدَ أن غادرتُ بساعةٍ، قصفت القوّات الجويّة الأميركيّة المقرّ فدُمّر المبنى. ولكن لحسن الحظّ لم يُقتل أحد. لاحظَ الملّا محمد عمر أنَّ الهجوم تلا خروجي من المبنى؛ فشكّ في أنّني مراقب، وارتأى أن من الخطير أن يلتقيَني.

كنتُ في طريقي إلى منزل الملّا محمد عمر القديم المهجور الذي يقع خلف مدرسة للجهاد، حين سقطت قذيفة بالقرب من سيّارتي فتعطّل إرسال هاتفي بتأثير ذبذبات القذيفة. بعدَ الهجوم الثاني، تأكّد الملّا محمد عمر أنني ملاحَق؛ ربّما كان مُحقًّا وربما كانوا يتعقّبونني من خلال جهاز إرسال هاتفي؛ اللّه أعلم. ولكن بعدَ أن تعطّل هاتفي، لم تسقطْ أي قذيفة على مقربة منّي. وبعدَ دقائق قليلة، بثّت وكالة أنباء روسيّة «إيتار ـ تاس» أنّ سفير طالبان في الباكستان قد قُتل في تفجير استهدفَ قندهار. وردَ الخبر في ملحقٍ صغير؛ لكنّني أعلم لماذا صرّح الروس بذلك.

ورغمَ أنّني لم ألتقِ الملّا محمد عمر، فإنني مرّرت له رسالةً عبرَ طيّب آغا.

غادرتُ قندهار في اليوم الثالث من رمضان، وعدتُ إلى كويتا. رافقني بعضٌ من إخوتي في طالبان حتّى جسر أرغستان. أوقفت السيّارةَ هناك وودّعت أصدقائي. ثمّ استدرتُ نحو قندهار ورحت أصلّي:



جسر أرغستان، قندهار

أيّتها المدينة الجميلة، في أحضانك حبونا ونحن صغار. اللّه أعلم متى سنلتقي من جديد.. اللّه أعلم ماذا سيحدث بك وماذا سيحلُّ بي. ولكنّني أعلم أنّ الغيابَ سيطول. أخشى ألّا أمرّ من هنا لوقتٍ طويل، وأخشى أن تحرقَ نيران الحربِ أرضك الجميلة ومنازلك وحدائقك.

سخرَ منّي رفاقي في طالبان، وسألوني لمَ أبدو جادًّا؟ ولمَ أتصرّفُ بغرابة؟ ولكنّني لم أُجبْهم البتة. عادوا هم إلى قندهار؛ ومضيتُ أنا باتّجاه الحدود عند سبين بولداك.

لم أحصل عند الحدود الباكستانيّة في ويش على تأشيرة الدّخول إلّا حين أمست الساعة التاسعة. وصلتُ إلى كويتا في وقتٍ متأخرٍ، وقضيتُ الليلة في القنصليّة التابعة لنا. وفي صباح اليوم التالي، توجّهتُ إلى المطار، وعدت فورًا إلى إسلام أباد.

حين وصلتُ إلى مطار إسلام أباد، أحاطني عددٌ كبير من الصحافيّين، ورحت أجيبُ عن أسئلتهم كلّها. وعلى الرغم من أنّني كنت مسافرًا بجواز سفري الدبلوماسي، فإن رجال الشرطة قد أصرّوا على تفتيشي. إذ وصلتهم تعليماتٌ بتفتيش الجميع من دون استثناء. وقالوا إنّ الوضع سيّيء في الباكستان.

عدتُ إلى إسلام أباد في العشرين من تشرين الثاني/نوفمبر؛ ووصلتني في ذلك الحين رسالة من وزارة الخارجيّة الباكستانية تقول فيها إنها «لم تعد تعترف بإمارة أفغانستان الإسلاميّة»؛ ولكنها سمحت لي، أنا وزير أفغانستان «بالبقاء في الباكستان إلى أن تنتهي حالة الطوارئ في بلادي». وأذكرُ أنها استعملت آنذاك عبارة «إلى وقتٍ أنسب». كما أمرتني الحكومة الباكستانيّة أن أتوقّفَ عن التكلّم إلى الإعلام. وراحت المخابرات الباكستانيّة تلاحقني أينما ذهبت. فقد رُكنت سيّارة «لاند كروزر» ودرّاجة ناريّة أمام منزلي، لتلاحقاني كلما غادرت. ولكن على الرغم من ذلك، فإن الزائرين لم يكفّوا عن مقابلتي في منزلي.

▲٧▲

وبعدَ يوم من بدء التفجيرات، زارني طبيبٌ باشتوني في منزلي، وقال للحرّاس المرابطينَ أمام باب المنزل إنّه قد استُدعي لأنّني مريض. وأبلغني أن الوقت قد حان لأغادر، وأن عليّ الاختفاء من دون لفت الأنظار. وقال: «أملك حديقةً على الحدود أنشأت عليها ڤيلا، وسوف أصطحبك لتقيم هناك بعض الوقت». وأسرَّ لي بأن عليَّ ألا أثق بحكومة الباكستان، فربَّما سلَّمتني إلى الأميركيين؛ ذلك أن الباكستان مَدينةٌ للولايات المتّحدة. شكرته على كرمه وعرضه الطيّب؛ ولكنّني رفضته.

كنتُ أشعرُ بالقلق. فقدمت طلب لجوء سياسيّ إلى أربعة بلدان: المملكة العربيّة السعوديّة والإمارات المتّحدة وقطر والباكستان. لكن لم يصلني ردٌّ من أيّ منها. كما تواصلتُ مع السفارتين البريطانيّة والفرنسيّة، ولكنهما أيضًا لم تجيباني. حتّى أنني ذهبت لأسجّل نفسي في مفوّضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين، فمنحتني مستندًا صالحًا لمدّة شهرٍ، ووعدت بدعمي في أيّ محنة تصيبني. ولكنني، على الرغم من ذلك علمتُ أنّني قد أواجه أخطارًا أكبر من توقيفي، ألا وهي قتلي. ولكنّني فكّرت قليلًا بأمر توقيفي. إن من الأسهل للباكستان أن تغتالني وتنحي باللائمة على جهة أخرى أو على شخصٍ آخر، من أن تقومَ بتسليمي. هذه هي حال الجميع في الباكستان، أمّا أنا فكنتُ أشكّ في أنّ السلطات قد ترميني يومًا كعظمة للأميركيّين. وكان بإمكاني الذهاب إلى مكانٍ آخر. إلاّ أنّ وجودي في الباكستان كان مهمًّا من أجل المحادثات حول سجناء طالبان الذين اعتقلهم التحالف الشمالي. وراحَ وضعي يسوء يومًا بعد يوم في الباكستان.

وصلتني دعوةٌ من سفارة ليبيا إلى الاحتفال الذي تقيمُه في ذكرى استقلال دولتها، وذلك في الرابع والعشرين من كانون الأوّل/ديسمبر، فذهبت للمشاركة في الاحتفال بفندق الماريوت. وكان الرئيس مُشرّف حاضرًا هو أيضًا. أبصرته حين وصلتُ إلى الفندق، يُحيطه عددٌ من الدبلوماسيّين والسفراء. ولكنّني لم ألقِ التحيّة عليه، بل مررتُ بين الحشود لأجلسَ في مكانٍ آخر.

أتى معظم سفراء الدول الإسلاميّة وألقوا التحيّة عليّ. كما جاء السفير الإيراني،

وبعدَ يوم من بدء التفجيرات، زارني طبيبٌ باشتوني في منزلي، وقال للحرّاس المرابطينَ أمام باب المنزل إنّه قد استُدعي لأنّني مريض. وأبلغني أن الوقت قد حان لأغادر، وأن عليّ الاختفاء من دون لفت الأنظار. وقال: «أملك حديقةً على الحدود أنشأت عليها فيلا، وسوف أصطحبك لتقيم هناك بعض الوقت». وأسرَّ لي بأن عليَّ ألا أثق بحكومة الباكستان، فربّما سلّمتني إلى الأميركيين؛ ذلك أن الباكستان مَدينةٌ للولايات المتّحدة. شكرته على كرمه وعرضه الطيّب؛ ولكنّني رفضته.

كنتُ أشعرُ بالقلق. فقدمت طلب لجوء سياسيّ إلى أربعة بلدان: المملكة العربيّة السعوديّة والإمارات المتّحدة وقطر والباكستان. لكن لم يصلني ردٌّ من أيّ منها. كما تواصلتُ مع السفارتين البريطانيّة والفرنسيّة، ولكنهما أيضًا لم تجيباني. حتّى أنني ذهبت لأسجّل نفسي في مفوّضيّة الأمم المتّحدة لشؤون اللاجئين، فمنحتني مستندًا صالحًا لمدّة شهرٍ، ووعدت بدعمي في أيّ محنة تصيبني. ولكنني، على الرغم من ذلك علمتُ أنّني قد أواجه أخطارًا أكبر من توقيفي، ألا وهي قتلي. ولكنّني فكّرت قليلًا بأمر توقيفي. إن من الأسهل للباكستان أن تغتالني وتنحي باللائمة على جهة أخرى أو على شخصٍ آخر، من أن تقومَ بتسليمي. هذه هي حال الجميع في الباكستان، أمّا أنا فكنتُ أشكَ في أنَ السلطات قد ترميني يومًا كعظمة للأميركيّين. وكان بإمكاني الذهاب إلى مكانٍ آخر. إلاّ أنّ وجودي في الباكستان كان مهمًّا من أجل المحادثات حول سجناء طالبان الذين اعتقلهم التحالف الشمالي. وراحَ وضعي يسوء يومًا بعد يوم في الباكستان.

وصلتني دعوةٌ من سفارة ليبيا إلى الاحتفال الذي تقيمُه في ذكرى استقلال دولتها، وذلك في الرابع والعشرين من كانون الأوّل/ديسمبر، فذهبت للمشاركة في الاحتفال بفندق الماريوت. وكان الرئيس مُشرّف حاضرًا هو أيضًا. أبصرته حين وصلتُ إلى الفندق، يُحيطه عددٌ من الدبلوماسيّين والسفراء. ولكنّني لم ألقِ التحيّة عليه، بل مررتُ بين الحشود لأجلسَ في مكانٍ آخر.

أتى معظم سفراء الدول الإسلاميّة وألقوا التحيّة عليّ. كما جاء السفير الإيراني،

وجلس بقربي. طرحوا عليَّ أسئلةً عدّة حول الوضع في أفغانستان وحولَ موقفي ورأيي الخاصّ من كلّ تلك الأمور. تناولتُ العشاء بسرعة، ثمّ هممتُ بالرحيل. وحين وصلت إلى بوابة المغادرة، رأيتُ عددًا كبيرًا من الصحافيّين بانتظاري، وتقاطروا إليّ كالنّحل. فاستدرتُ وعدتُ إلى الفندق؛ ولكنّهم لحقوني إلى قاعة الانتظار، ثم إلى الردهة، حيث تُقام الاحتفالات. هُلعَ الديبلوماسيّون حين رأوا الكمّ الهائل من الصحافيّين يدخلون؛ فوقف مشرّف، وركض باتّجاه غرفةٍ أخرى محاطًا برجال حراسة. وصلت الشرطة على الفور، وقامت بمرافقتي إلى خارج الفندق، حيث ركبت سيّارتي، وعدت إلى البيت.

في اليوم التالي، أخبرني رجلٌ من وزارة الخارجيّة الباكستانية، ورافق مشرّف إلى الاحتفال، أن من المحتمل أن تكون الحكومة تحيك مؤامرة ضدّي. وقال لي: يمكنهم أن يغتالوكَ أو يزجّوا بك في السجن؛ ولكنّ احتمال اغتيالك أكبر كثيرًا. لأنّ مشرّف وجد أنّ تهافُتَ الصحافيّين أمسِ «أمرٌ غير مقبول».

لم أفهم ما عناهُ بكلامه ذاك، لأنني قبل حادثة الماريوت، اتُّهمتُ بالتخطيط لقتل مُشرّف وأبلغتني الاستخبارات الباكستانيّة أنّها تملك دليلًا على نيّاتي وخططي التي كنتُ أناقشها مع شخص ما. يا له من خبر مفاجىء. فأنا لم أحدّث أحدًا عن تحضيري لاغتيال ما. كما أنّني لم أخطّطْ يومًا لاغتيالٍ في حياتي.

فمنذ أن أخبرتُ الإعلام الدولي والباكستان عن فتوى السبعمئة من العلماء، بتُّ أشبه بحربة في جنبِ مُشرّف. أمّا الإعلان فجاء كالآتي: «أيّ شخصٍ يقوم بمساعدة الأميركيّين فهو يعتدي على أفغانستان. ويُعدُّ خاطئًا أيُّ شخصٍ ساهمَ في قتل المسلمين، أو ساعدَ بطريقة أو بأخرى على محاربتهم. ويعني ذلك أن دمَ مثل هذا الشخص مهدور». فسألني صحافيٌّ باكستانيّ في المؤتمر في حينها: «هل الأمرُ ينطبق على برويز مُشرّف باعتباره الرجل الأهمّ في الباكستان وهو الذي سمح للأميركيين بإنشاء قواعدَ عسكريّة، وأمر الاستخبارات الباكستانيّة أن تزوّد الأميركيّين بالمعلومات اللازمة. فقلتُ له: «إنّ الفتوى في الإجمال لا تستهدفُ شخصًا معيّنًا. كما أنّها لا تستثني أحدًا». وأضفتُ: «من غير الممكن

تعديل الشريعة لتتناسب مع شخصٍ ما، بل ينبغي للناس أن يتكيّفوا مع الفتوى، والعكسَ ليس صحيحًا.

كنتُ أشعرُ بالخطرِ في كلّ يومٍ أقضيه في الباكستان، خصوصًا بعدَ أن أعلنت الفتوى.

▲▼▲

كنتُ لا أزالُ في إسلام أباد، حين سقطت مدينة قندهار، وشارفت المقاومة على نهايتها. لم أعلم ما الذي حلّ بقيادة طالبان أو برفاقي، ولم أملك أيّ وسيلة اتّصال بهم. حاولت أن أعرف مصيرهم؛ من قُتل؟ ومن أصبحَ بأيدي دوستم وقادةٍ آخرين في التحالف الشمالي؟

لقد كنتُ معزولًا ورحت أُستشيرُ بعضًا من رفاقي عمّا أفعله. فنصحوني بالاتّصال بمكتب تنسيق الشؤون الاجتماعيّة وأطلبَ لجوءًا. فذهبتُ إلى مكاتبهم ولكن قبل أن أسجّلَ اسمي، راح رجلٌ وامرأة يطرحان جميع أنواع الأسئلة. كان الرجل قصيرًا وبشرته بنيّة وحين سألته ما هو مركزه وأين وُلدَ قال إنّه مسؤولٌ في جهاز استخبارات الأمم المتّحدة ووُلدَ في الولايات المتّحدة. فقلتُ للمرأة إنّ أسئلتهما لا تدلُّ على أنّني هنا لأقدّمَ طلبَ لجوء؛ وبدا لي الأمرُ وكأنّه تحقيق ما. فقالت لي إنّه بانتظاري أسئلة أكثر بعد. لم أفهم في ذلك الوقت ما عنته. ولكن بعدَ أن وقعت بأيدي الوحوش الأميركيّين، تذكّرتُ كلماتها وفهمت معانيها.

قرّرت العودة إلى كويتا لفترة وجيزة؛ فوصلتني رسالة من مكتب تنسيق الشؤون الاجتماعيّة تطلبُ إليّ العودة إلى إسلام أباد وإلا فلن يقبلوا طلبَ لجوئي. حتّى أنّ زوجتي كانت تطالبني؛ بالعودة وبدت قلقة من إقدام الحكومة الباكستانيّة على اعتقالي. وراحَ رفاقٌ لي يطلبون الأمرَ نفسه. لكن كان صعبًا عليّ أن أغادر بمثل هذه البساطة. شعرتُ أنّني أقوم بخيانة أعضاء طالبان الذين اعتُقلوا في الشمال. كما أنّي فكّرتُ بالأفغانيين الخمسة والعشرين ألفًا الذين قُتلوا في التفجيرات الأميركيّة، والآلاف الآخرين الذين زُجّوا في السجون. فهل يتغيَّر في الأمر شيءٌ

إذا شاطرتهم مصيرَهم؟ لم أستطع أن أدعهم ورائي.. لم يكن بمقدوري ألاّ أكون وفيًّا.

حاولت مساعدة السجناء. فتحدّثت مع أعضاء في التحالف الشمالي بالباكستان أغريتهم بالمال لأحصلَ على معلوماتٍ حول أولئك السجناء. رحت أستخدمُ كلّ نفوذي، فأزوّد القادة بالأموال لأضمن بقاء السجناء على قيد الحياة. كما حاولت دعم الصليب الأحمر ومنظّمات حقوق الإنسان لأضمن أنهما يقومان بحمايتهم. اتّصلت بقادة من التحالف الشمالي في أفغانستان، وتكلّمت مع دوستم وإسماعيل خان مرّات عدّة، طالبًا إليهم إطلاق سراح السجناء. وفي بضعة أيّام، أنفقت أكثر من ١٨٠ ألف دولار، في محاولة يائسة مني لأحصل على القليل.

▲▼▲

في كلّ لحظة، كانت تنتابني الخشية من اعتقالي؛ لكنّني لم أستطع الرحيل. ثابرتُ على الاتّصال بوزارة خارجيّة الباكستان لأتابعَ طلب لجوئي السياسي. فقالوا لي إنّهم يعملون على ذلك؛ وطمأنوني بأن أحدًا لن يضايقني. لربّما كانوا في ذلك الوقت يتشاورون مع الأميركيّين حول المبلغ الذي سيقبضونه إن أقدموا على اعتقالي. شدّدت الاستخبارات الباكستانيّة مراقبتها لي بعدَ العيد؛ فأحاطَ الحرسُ بمنزلي من كلّ الجهات. وما من مرّة غادرت فيها المنزل بسيّارتي، إلا وقاموا بتفتيشها، ليضمنوا عدم هروبي، لكنّهم سمحوا لي باستقبال ضيوفي.

لا أزالُ إلى اليوم قادرًا أن أتذكّرَ الحلمَ الذي طاردني لأيّام عدّة قبلَ أن يتمّ توقيفي في منزلي بإسلام آباد. في هذا الحلم، رأيت أخي يتّجه إلي حاملًا سكّينًا بيده والغضبُ يملأ وجهه. أمسى قريبًا جدًّا منّي حتّى أنّني شعرتُ بأنفاسه تلفح وجهي. ثمّ قال بصوتٍ باردٍ: «أخي، أتيت لأقطع رأسكَ بهذا السكّين».

وقفَ أمامي رافعًا كُمّي قميصه، أمّا أنا فصُعقت، لم أصدّق ما سمعته. كيف لأخي من لحمي ودمي أن يغدو قاتلي! فأنا لم أُسئ معاملته قط ولم أسببّ له أيّ

أذى أو شقاء. ظننت أنّه يُمازحني إلاّ أنّ تعابيرَ وجهه كانت جديّةً، وتؤكّدُ كلّ كلمةٍ نطق بها. في الحلم، قلت في نفسي: «إن كان قتلي سيجلبُ له السعادة، فلأدعه يفعل ما يشاء من دون أن أستوقفه، خصوصًا إذا لم نتوصلْ إلى تفاهم، فتحدّثت معه قائلًا: «يا أخي، أنا لم أخطئ يومًا بحقّك، ولم أقدمْ على إيذائك ولم أجلب لك التعاسة؛ وأنت تحاول الانتقام منّي الآن». لم تقنعْه كلماتي، لذا هيّأت نفسي. ولكنّني أملت أن يعودَ إلى رشدِه ويرحمني. استلقيت، فاستلّ أخي السكّين ووضعه حول عنقي كما يفعل الجزّار، وقطع رقبتي بحركة سريعة.

هذا هو الحلم الذي راودني قبلَ أيّام من قيام القوّات الأمنيّة الباكستانيّة بمداهمة منزلي. حينذاك بدأت أفهم خيانة أخي في الحلم.

حلّ اليوم الأوّل من السنة الجديدة، وأنهت الباكستان منذ قليل احتفالها ببداية العام ٢٠٠٢، وأنا في منزلي مع العائلة، أحاولُ تأمين مخرج للسجناء عند دوستم والتحالف الشمالي، فأحداث الشمال قد جعلتني مشتّتًا عن أي حدث آخر. أحاولُ يائسًا أن أجد طريقًا آمنًا لعودة مقاتلينا وجرحانا إلى بيوتهم. جعلني هذا الوضع، أتعمّقُ في التفكير. كيف يمكن أن يعودَ إخوتي إلى منازلهم؟ وماذا سيحدث لأولئك الذين ألقى دوستم القبض عليهم؟ كيف لي أن أجدَ لهم طريقًا آمنًا؟ وكيف يمكنني أن أعرف ما هي أحوالهم؟ وأين هم الآن؟

دارت كلّ تلك الأسئلة في ذهني حين دخل الحرّاس المنزل، وقالوا إنّ مسؤولين باكستانيّين يريدون رؤيتي. كانت عقاربُ الساعة تشير إلى الثامنة مساء، وهو وقت لا يزورني أحدٌ فيه عادةً. ذهبت إلى غرفة الضيوف، حيث انتظرني ثلاثة رجالٍ، عرّفوني بأنفسهم حين دخلتُ، الأوّل باشتونيّ يُدعي غولزار، والآخران تحدّثا بلغة الأوردو. بعدَ أن تبادلنا التحية، قدّمت إليهم الشاي منتظرًا أن أسمعَ ما جاؤوا يقولونه لي في هذه الساعة المتأخّرة. بدا الرجل الباشتونيّ غاضبًا؛ وجهه أسود ومُرعب، وشفتاه منتفختان، أمّا أنفه وبطنه فكبيران؛ بدا وكأنّه آتٍ من الجحيم. قلّل من احترامي ولم يحسب لحرمة منزلي حسابًا، وراح يتصرّف بفظاظة، وقال: لقد خسرتَ لقبَ «السعادة». هل تعلم أنّ الولايات المتّحدة هي

القوّة العظمى؟ لا أحدٌ يمكنه هزيمتها، ولا أحد يمكنه مناقشتها. تريدُ الولايات المتّحدة أن تحقّق معك ونحنُ أتينا لنسلّمك إليها.

أرادت الباكستان أن تهربَ من أي خطر محدقٍ بها.

أجبته بعلمي أنّ الولايات المتّحدة هي القوّة الوحيدة في العالم؛ لكنّ للعالم قوانينَ وقيودًا، وقلت له: «كيفَ لك تحت هذه الشريعة، إسلاميّة كانت أم لم تكن، أن تسلّمني إلى الولايات المتّحدة؟ قل لي أيّ دستور يسمح لك بذلك؟ بإمكانك أن تصدر إليّ إنذارًا بمغادرة بلادك، ولكن لا يمكنك أن تعتقلني.

فأجابني الرجل «الآتي من الجحيم» بفظاظة قائلًا: «إنّ الشريعة الإسلاميّة وغيرها، لا تحتمل ما نمرّ به الآن. أمّا الأهمّ فهو مصلحتنا ومصلحة الباكستان». شعرتُ أنّ النقاش احتدّ فهدّأت من روعي، وقلت لهم: «افعلوا ما تشاؤون. أنا تحت رحمتكم، لم يعد لديّ أيَّ ملجأ هنا، واللّه القدير سيحكم عليّ في الآخرة». أمروني بملازمة المنزل، حتّى منتصف الليل، حيث يتمّ ترحيلي إلى بيشاور.

أحاط رجالهم بمنزلي، ولم يدعوا لي أو لعائلتي أيّ طريق للمغادرة. أخبرني المسؤولون أنني سوف أخضع للاستجواب على مدى عشرة أيّام، بعد أن أصلَ إلى بيشاور. سوف يقومُ الأميركيّون بالتحقيق معي، وبعدها يُطلقون سراحي وأعود إلى بيتي.

في ذلك الحين كنتُ أملك تأشيرة دخولٍ إلى الباكستان صالحة لعشرة شهورٍ، وكان بحوزتي ورقة رسميّة أُرسلت إلى الحكومة الباكستانيّة ووزارة الخارجيّة للاعتراف بصفتي ممثّلًا عن إمارة أفغانستان الإسلاميّة في الباكستان، إلى حين حلّ الأزمة الصعبة في أفغانستان. وفي منتصف الليل، أتت ثلاث سيّاراتٍ، وسحبتني من منزلي، على الرغم من الوثائق التي أحملُها، وعلى الرغم من رسالة الأمم المتّحدة التي تقول «لا يُسمح التعرُّض لحامل هذه الرسالة، بصفته ممثّلًا دولة أفغانستان»، والتي تُعدُّ مصدرَ حمايةٍ لي تحت رعاية القانون الدولي.

أُقفلت الطرق جميعها، ومُنع الصحافيّون من التوافد إلى منزلي. لم يُسمح

لي بالتكلّم معهم لإخبار الناس بما جرى. أمروني بمغادرة منزلي..راحَ أولادي يبكون، وأنا أغادرُ المنزل.

لو لم يحدثِ الأمرُ معي، لما صدّقت أنّ الجنودَ الباكستانيّين ـ المدرّبين للدفاع عن الإسلام ـ قد يديرون ظهورهم لإخوتهم المسلمين حتّى لو لم يرتكبوا أيّ جريمة. في الحقيقة، لا وجودَ لقانون يبرّر فعلتهم؛ ولكنّ ضغط الأميركيّين وغضب شعبهم قد أداراهم ضدّنا. لم أستطع أن أفهمَ كيف استطاعوا التخلّي عن شرفهم واحترامهم لأنفسهم؛ كيف يمكنهم أن ينقلبوا ضدّ عالم القرآن الكريم وشجاعته وكرمه؛ كيف يمكنهم أن يتجاهلوا القوانين الدوليّة ومبادئ الأخوّة والتفاهم.

فيما كنتُ أسيرُ في الشارع والظلمة حالكة، صعقتني فكرة أن ما من أحد يستطيع نجدتي وما من أحد يمكنه ردعهم عن فعل ما يريدون. أدخلوني في إحدى سيّاراتهم. وحتّى تلك اللحظة، لم أفهم لماذا عاملتني الحكومة الباكستانيّة بتلك الطريقة. أولستُ أخًا لهم في الإيمان؟ ومن المفترض على الأقلّ أن يرأفوا بي من منطلق دينيّ. لم أتقبّل هذه الحقيقة بسهولة، خصوصًا وأنّ الرجال الذين اعتقلوني، تجرّأوا على التحدّث عن القرآن الكريم ومناقشة معنى الجهاد.

وضعوني في المقعد الخلفي، وجلستُ بين رجُلَين من الاستخبارات الباكستانيّة. لم أرَ معهم أسلحةً. وكانت سيّارتنا الثانية في الموكب الثلاثي المتّجه إلى بيشاور. وكان الرجال في السيّارتين الأُخْرَيَيْن مسلّحين. وضعَ السائق شريطَ أغانٍ لفنّانةٍ أُورديّة طوالَ الطريق؛ وبدا من الواضحِ أنّ هدفهم من تلك الأغاني هدف استفزازيّ محض. طلبتُ إليهم؛ ونحن في طريقنا إلى بيشاور، أن يوقفوا السيّارة لأصلّي صلاة الصباح؛ ولكنّهم طلبوا إليّ الانتظار حتى نصلَ إلى بيشاور. لم يأبهوا لصلاة الصباح، وتجاهلوا طلبي.

١٧

السّجين رقم ٣٠٦

عندما وصلنا بيشاور، اقتادوني إلى مكتب تبدو عليه مظاهر البذخ. ينتصب على المكتب علم الباكستان. وتتصدّر خلفيّة الغرفة صورةٌ لمحمّد علي جناح[١]. ويقبع خلف المكتب رجل باشتوني. نهض عندما دخلت، ورحّب بي وعرّفني بنفسه. كان حليق الرّأس، لا تميّزُه علامة أخرى، متوسّط الطّول والوزن. تقدّم نحوي وقال إنّه رئيس المكتب. عرفت أنني في مركز عمل الشيطان، المكتب الإقليمي للمخابرات الباكستانية.

أخبرني أنني صديق مقرّب، وضيف عزيز، وأنني من النّاس الّذين يهتمّون بأمرهم كثيرًا. لم أصدّق ما قاله، إذ كنت أعلم أن القيمة المعنويّة لديهم مرتبطة بقيمة المبلغ الماليّ المحترم الذي سيقبضونه عندما يبيعونني. كانوا يتاجرون بالبشر، تمامًا كما يفعلون بالماعز. كلّما ارتفع سعر الشاة، ازداد سرور البائع. ظلّت الباكستان في القرن الحادي والعشرين، تشكّل مركزًا لعمليّات النخاسة، رغم انقراض هذه التجارة من معظم أنحاء العالم.

بعد العشاء، أدّيت الصّلاة مع الضّابط المسؤول في المخابرات. ونُقلت إلى زنزانة خاصّة بالمحتجزين. حُجرة على قدر عال من التّرتيب، تحتوي على سخّان

(١) محمد علي جناح (١٨٧٦ ـ ١٩٤٨) هو القائد الحاكم الأوّل للباكستان بعدَ الانقسام. كان سياسيًّا وكان يُنظر له أنّه والد الباكستان. كما كان رئيس الإخوان المسلمين.

غاز وحمّام. وتتوفّر فيها الكهرباء. قُدّم إليّ الطّعام والشراب، ومصحفٌ شريفٌ للتلاوة، ودفترٌ وقلم. بدا الحارس الواقف ببابي لطيفًا وخدومًا، لم يرفض لي طلبًا مما احتجتُ إليه خلال الليل.

لم يتمّ استجوابي خلال احتجازي في بيشاور. كلّ يوم كان يجيئني رجل يجهل الباشتو، ويتكلّم الأوردو بشكل أعجز فيه عن فهمه، ويسألني «ما الذي سيحدث؟» وكان جوابي نفسه في كلّ مرّة «وحده اللّه القدير عالم بهذا، وهو يقرّر مصيرنا. كلّ شيء يجري لنا رهن بمشيئته».

عاملني جميع الضّباط الذين قابلوني في بيشاور باحترام. لم يكلّمني أحد منهم فعليًّا، كانوا ينظرون إليّ بصمت؛ فأرى على وجوههم شفقة، وفي عيونهم دموعًا أبلغ كثيرًا من أيّ كلام.

أخيرًا، بعد أيّام في الزّنزانة، أتى رجل، تنهمر الدموع على وجنتيه ويتآكله الحزن والخجل. كان الشخص الأخير الّذي رأيته في تلك الغرفة. لم يُتَح لي التعرُّف إلى اسمه. بعد أربع ساعات تمّ تسليمي إلى الأميركيين.

كانت السّاعة الحادية عشرة ليلًا، وأنا أتهيّأ للنوم، حين فُتحَ باب غرفتي فجأة، ودخل رجلٌ (حليق الرّأس هو أيضًا). تصرّف بتهذيب، وبادلني التحيَّة. سألني إن كنت على علم بما سيحدث لي فأجبت بالنفي. أخبرني حينها أنني سأُنقلَ في القريب العاجل، ونصحني بتحضير أمتعتي وبالوضوء ودخول الحمام. نهضت من سريري. ومن دون أن أطرح أي سؤال إضافي، توجّهت وتوضّأت.

لم يكد يمر خمس دقائق، حتّى وصل رجال آخرون، كبّلوا معصميّ وعصبوا عينيّ بقطعة قماش سوداء اللون. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أُعامل فيها بهذه الطّريقة. فتّشوا أمتعتي، وأخذوا القرآن الكريم، ومسجّلة رقميّة وبعض النقود التي كانت بحوزتي. عمدوا، ونحن في طريقنا إلى خارج المبنى، إلى ركلي ودفعي بقوّة داخل سيّارة، ولم ينبس أحد منهم ببنت شفة. سرنا مسافة ساعة تقريبًا، قبل أن تتوقّف السيّارة. سمعت أصوات شفرات المروحيّة تدور على مقربة

منًا، فخمّنت أننا وصلنا المطار. أمسك بي أحدهم، وسحب ساعة باهظة الثمن كنت أحملها في معصمي، بينما كانت السيّارة تقترب أكثر فأكثر من المروحيّات.

توقّفت السيّارة مجدّدًا. وفي هذه المرّة أمسك بي رجلان، كلّ من جهة، وأخرجاني من السيّارة. في مسيرنا نحو المروحيّة، همس أحدهما في أذني «خودا حافظ»، أي الوداع. قالها وكأنني ذاهب في رحلة رائعة.

قبل أن أصل إلى المروحيّة، تعرّضت لهجوم من الجهات كافّة. حيث أقدموا على ركلي وضربي، وصرخوا في وجهي، ومزّقوا ثيابي بالسكاكين. نزعوا العصابة السوداء عن وجهي؛ فتمكّنت، للمرّة الأولى، من تحديد مكاني. وقف حولي جنود أميركيّون وباكستانيّون، وخلفهم رأيت مركبات عسكريّة تحمل إحداها لوحة تسجيل تابعة لجنرال. لازم الجنود الباكستانيون أماكنهم، بينما انفردَ الجنود الأميركيّون بضربي وتجريدي من ملابسي. بكلّ عار، كان الجنود الباكستانيون، حماةُ القرآن الكريم، ينظرون إليّ عاريًا ويبتسمون، ويحيّون أعمال الأميركيين المشينة.

جرت مراسم التسلُّم والتسليم تحت نظري. لا تزال تلك اللحظات محفورة في ذاكرتي كلطخة على روحي. حتّى وإن عجز الباكستانيون عن الوقوف في وجه الأميركيين الكفرة، فإنني كنت أتوقّع منهم على الأقل ألا يسمحوا لتصرّف كهذا أن يجري أمام عيونهم وعلى تراب بلادهم. أمسكَ جنديٌّ أميركي عديم الرحمة بذراعي، وجرّني إلى المروحيّة. كبّلوا يديَ وقدميَّ، وأقفلوا فمي بشريط لاصق، وغطّوا رأسي بقماشة سوداء ألصقوها على رقبتي، ورموني على أرض المروحيّة.

بتُّ في ذلك الوقت، عاجزًا عن الصراخ والتنفُّس. وفي كلّ مرّة أحاولُ فيها التقاط أنفاسي أو التحرُّك من جهة إلى أخرى، يركلني أحد الجنود بعنف. زال خوفي عندما أقلعت المروحيّة، بتّ أكيدًا أنّ روحي ستفارق جسدي عمّا قريب تحت وطأة الضرب. راودني شعورٌ بالاطمئنان من أنني سأموت، لكنّ أمنيتي لم تتحقّق. لم يتوقّف الجنود عن ضربي وركلي وتعنيفي طوال الرحلة، حتّى حطّت المروحيّة. كنت حينها قد فقدت كلّ إحساس بالوقت. وحده الله يعلم كم قضيتُ من الوقت بين السيّارات والمروحيّات، حتّى وصلت إلى حيث أنا الآن.

انفرجت أساريري قليلًا، عندما حطَت المروحيّة. وأملتُ أن ينتهي العذاب الذي أعيشه. لكنّ جنديًا قويَ البنية عاد وأمسكني وجرّني خارجًا، حيث أخذ جنود آخرون يضربونني ويركلونني. عوملتُ كالحيوانات. وبدا لي أن الأمر مستمرٌ لساعات. جلس بعدها الجنود فوقي، وطفقوا يتحادثون كمن يجلسون على مقعد في حديقة. فقدت كلّ أمل، وطالت جلسة التعذيب، وبات اقتناعي بالموت الوشيك راسخًا. كنت لا أزال أرى وجوه الجنود الباكستانيين في مخيّلتي. ما الذي فعلته حتّى أستحقّ كلّ هذا العقاب؟ كيف يمكن لإخوتنا المسلمين أن يخونونا بهذا الشكل؟

بقيت مطروحًا على الأرض لمدّة ساعتين، حتّى أتوا وسحبوني مجدّدًا إلى مروحيّة أخرى، بدت لي أكثر عصريّة من سابقتها. أوثقني الحرّاس بمقعد حديدي، ولم يلمسوني طوال فترة الرحلة. لم يخبرني أحد بوجهتنا، حتّى حطَت المروحيّة بعد حوالي عشرين دقيقة. مرّة أخرى أمسك بي الجنود وسحبوني خارجًا. بدا الطريق طويلًا، وكنت لا أزال معصوبَ العينين. لكنّني تمكّنت من سماع أصوات ناس على مقربة منّي. رافقنا مترجم قال لي أن أهبطَ درجًا أمامي. والدرجُ يُفضي إلى غرفة داخليّة. تلاشت الأصوات الخارجيّة تدريجيًّا بينما كنت أهبط الدرجات. عددت ستًّا منها، قبل أن نتوقّف؛ حيث نزع الكيس الأسود عن رأسي، وفكّت يداي ونُزع الشّريط اللاصق عن وجهي.

▲▼▲

وقف أربعة جنود أميركيين من حولي. وشاهدت إلى يساري زنازينَ أشبه بأقفاص، وفي داخلها أناس محتجزون. أخذني الجنود إلى حمّام صغير، لكنّني لم أقدر على الاستحمام. كانت أطرافي وجسدي يئنّان تحت وطأة الألم الناجم عن الضرب المُبرِح الذي تعرّضت له ذلك اليوم خلال رحلتي. شعرت بالشلل في أنحاء جسدي ولم أكد أحس بيديَّ أو رجليّ. أعطاني الحرّاس لباس السجناء

وقادوني إلى أحد الأقفاص. كان القفص ضيّقًا: طوله حوالي المترين وعرضه متر، وهو مجهَّزٌ بصنبور مياه وحمّام. أمّا الجدران فكانت مصنوعة من قضبان حديدية. قبل المغادرة، أمرني الحرّاس بالنوم، وأقفلوا باب الزّنزانة. عندما صرتُ وحدي في الدّاخل، أخذت أفكّر في الأيّام القليلة الماضية. كيف انتهى بي الأمر في قفص كهذا؟ كان كلّ شيء كالكابوس. وعندما تمدَّدتُ على الأرض، وحاولت النوم برغم أوجاع جسدي المزروع بالرضوض، اكتشفت أنني لم أعد قادرًا على التمييز بين نومي وصحوتي.

في الصباح أرسلت نظري خارج القفص، فرأيت جنديًّا يحرس الباب، وثلاثة أقفاص أخرى في محيطي مغطّاة بالمطّاط. اكتشفت أنني في بارجة كبيرة، من تلك البوارج المستخدمة في الحرب ضد أفغانستان والراسية مقابل الشاطئ الباكستاني. استطعتُ سماع هدير محرّكاتها في الليل والصباح وتأكّدت من أن هذه البوارج هي التي أطلقت الصّواريخ على أفغانستان.

بالكاد رفعت عينيّ، لم أكن أجرؤ على النّظر حولي. كان لساني جافًّا وملتصقًا بحنكي. رأيت بعض السجناء المحتجزين في زنزانة واحدة إلى يساري. أتى أحد الجنود ببعض الطعام إلينا، وأدخلوا سجينًا جديدًا على متن السّفينة. تناول هؤلاء الفطور وجلسوا معًا. كان تبادل الحديث محظورًا، ولا نكادُ نستطيع أن نتبادل النظرات حين يقدّم إلينا الطّعام. شاهدت الملّا فضل(١)، ونوري(٢)، وبرهان(٣)،

(١) وُلد الملّا محمد فضل (يمكن أن يكون قد وُلد بين العام ١٩٦٧ والعام ١٩٦٨) في شار شينو. كان نائب وزير الدفاع في آخر أيّام طالبان. ووفقَ معلومات أُخذت من تقرير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين في غوانتانامو حول المعركة، إنّ الملّا فضل قادَ «٣٠٠٠ فرقة على الجبهة في تاخار في تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١». ولم يُطلق سراحه من غوانتانامو منذ العام ٢٠٠٨.

(٢) كان الملّا نوري حاكم طالبان على بلخ. هو يتحدّر من شاه جوي في مقاطعة زابول. وهو لا يزال محتجزًا في غوانتانامو.

(٣) يتحدّر الملّا برهان من كاجاكي في هلمند؛ سُجن في غوانتانامو ثم أُطلق سراحه.

ووثيق صاحب[1] وروحاني[2] بين السجناء. لكنّني لم أستطع التحدُّث إليهم.

دخل جنديّ إلى غرفتي؛ فوضع الأصفاد في معصميّ وأوثقني بقضبان القفص. فتّشوا غرفتي، واصطحبوني بعدها إلى التحقيق؛ فأخذوا بصماتي، والتقطوا صورًا لي من مختلف الجهات. كتبوا تقريرًا مختصرًا عن سيرة حياتي، ثمّ أعادوني إلى القفص. اكتشفت أنني تلقّيت بعض الأشياء الأساسيّة خلال غيابي وهي عبارة عن شرشف، وأغطية بلاستيكية وصحن يحتوي على الأرز والبيض المسلوق. كان قد مضى وقت طويل على آخر وجبة طعام تناولتها. أكلت وأعدت الصحن الفارغ إلى الحارس الواقف أمام القفص.

تمدّدت أرضًا، وما هي إلا لحظات حتّى أتى حارس آخر يحمل الأصفاد، قيّدني مجدّدًا وقادني إلى غرفة التحقيق. سألوني هذه المرّة عن الشيخ أسامة بن لادن والملّا محمّد عمر. استفسروا عن مكان وجودهما وأوضاعهما الحالية. ثمّ سألوا عن بعض القادة المهمّين في قوّات طالبان: أين يختبئون؟ وماذا جرى لهم؟ وما الذي يخطّطون له؟ مرّت أحداث ١١ أيلول/سبتمبر مرور الكرام، فلم يسألوني عنها إلاّ سؤالًا واحدًا بسيطًا. أرادوا أن يعرفوا إن كان لي اطّلاعٌ مسبقٌ على الهجوم. كانت تلك الأشياء الرئيسية التي سُئلت عنها في غرفة التحقيق الصغيرة والمظلمة القابعة على متن السفينة.

كان الأميركيون يعرفون، وأنا متأكّد من ذلك، أنني لم أتعاطَ بكلّ تلك الموضوعات التي سألوني عنها. فلا أنا أُعلِمْت بالهجومِ على الولايات المتحدة،

(١) الملّا عبد الحق وثيق صاحب (المولود عام ١٩٧١ تقريبًا) يتحدّر أصلًا من كاراباغ في غازني. كان نائب رئيس جهاز الأمن في حركة طالبان في كابول. ألقي القبض عليه مع الملّا غلام روحاني في ٩ كانون الأوّل/ديسمبر عام ٢٠٠١. ووفق تقرير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين، فهو اعترف أنّه عمل للطالبان كحاكم لشمال تاخار. وتُفيد البراهين أنّه كان مقرّبًا من الملّا محمد عمر. وهو لا يزال محتجزًا في غوانتانامو.

(٢) الملّا غلام روحاني (المولود تقريبًا العام ١٩٧٦) ويتحدّر من غازني (في وسط المدينة) وعملَ مع جهاز الاستخبارات خلال حكم طالبان. كان من بين عشرين مخطوفاً نُقلوا إلى غوانتانامو يوم ١١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. نُقِل من غوانتانامو إلى سجن في كابول. يوم ١٢ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٧.

ولا سبقَ لي أن اطّلعت على مخططه، ولا عرفتُ من كان يقف خلف تلك العمليّة. لكن، كما جرى لي ما جرى، وقع كثيرون ضحية الإذلال والقتل والاعتقال دون أي محاكمة، أو إثبات لتورُّطهم أو مسؤوليّتهم عن الاعتداءات.

فكّرت وأنا على السفينة، أنني لن أرى أصدقائي وعائلتي بعد اليوم، وأنّهم لن يعرفوا إطلاقًا ما ألمَّ بي. لا يجدر بأي شخص أن يقع تحت وطأة اليأس، خصوصًا إن كان مسلمًا. لكنّ الذاكرة عادت بي إلى زمن الاجتياح الروسي، وممارسات الروس في أفغانستان. وفكّرت في مصير ستّين ألف أفغاني افترسهم الوحش الرّوسي[1]. هؤلاء رحلوا إلى الأبد، ولم يعد أحد منهم إلى أهله، ولم يعرف أحد عنهم شيئًا.

كانت تلك المرّة الأولى التي شعرت فيها، من أعماق عظامي، بما شعر هؤلاء يومًا. أردت لروحي أن تلتقي أرواحهم وينتهي هذا الجحيم الذي أنا فيه. أردت الهرب من وحشيّة تلك الحيوانات، هؤلاء الغزاة الأميركيين البرابرة.

بعد مضي خمسة أيام أو ستّة عليّ وأنا على متن الباخرة، أُعطيت بزّة رمادية اللون لأرتديَها؛ ورُبطت يداي وقدماي بشرائط بلاستيكية، وغطّى رأسي كيس أبيض. صعدوا بي إلى سطح السّفينة، مع سائر السجناء. أُجبرنا على الركوع والانتظار. وقد تسبّبت الشرائط البلاستيكية في جرح أقدامنا وأيدينا فأخذ بعض السّجناء يصرخون تحت وطأة الألم؛ فلم يتحرّك الجنود لمساعدتهم، بل عمدوا إلى تعنيفهم وإسكاتهم. بعد ساعات عدّة، وُضعنا على متن مروحيّة حلّقت بنا وهبطت ثلاث مرّات قبل أن تصل إلى وجهتها النّهائيّة. وفي كلّ مرة تحطّ فيها المروحيّة، يعمد الجنود إلى طرحنا أرضًا خارجها؛ ونجبر على التمدّد أو الركوع، ويعالج بالركل والضرب كلّ من يتحرّك أو يشتكي من الوضع. في المروحّية، أوثقنا الجنود بالجدران أو بالأرض، في وضعيّة ليست ركوعًا وليست وقوفًا.

كان ذلك هو التعذيب بذاته، وكانت تزداد حدّته مع كلّ دقيقة تمرّ. في المرّة

(١) دليل على كلّ الأفغان الذين احتُجزوا أو اختفوا أو قُتلوا خلال التعذيب الذي مارسه النظام الشيوعي.

ما قبل الأخيرة التي توقّفنا فيها، رماني الجنود على الأرض، وصرخ أحدهم «هذا، هذا هو الكبير بينهم». لم أكن أستطيع رؤيتهم، وقد هاجموني من كل الجهات، وهم يضربون ويركلون. استخدم البعض البندقيات لضربي، واكتفى آخرون بالدوس علي بأحذيتهم العسكريّة. تمزّقت ثيابي أشلاء، وأصبحت عاريًا مرميًّا فوق الثّلج. فقدت كلّ إحساس بيديّ وقدمي، جرّاء البرد والأربطة التي استخدموها. في ذلك الوقت راح الجنود يغنّون ويسخرون منّي. وكرّروا مرّات عدّة أن الولايات المتّحدة الأميركية هي أرض العدالة والسّلام، وهي تريد العدالة والسّلام لكلّ شعوب الأرض. وبالنظر إلى شدة البرد، بات صعبًا عليّ التنفُّسُ؛ وتملّكت الرجفة جسدي، فصرخ الجنود يأمرونني بالتوقّف عن الحركة. بقيت ممدّدا على الثلج وقتًا طويلًا قبل أن أفقد الوعي في النهاية.

▲▼▲

استعدت وعيي لأجد نفسي في غرفة كبيرة. رأيت حارسَيْن مقنَّعَيْن، ويحملان عصوَيْن كبيرَتين أمامي. كان جسدي مثقلًا بالألم. وعندما أدرت رأسي، شاهدت حارسين آخرين يقفان خلفي، كلّ منهما في زاوية من الغرفة، وهما يصوّبان مسدّسَيْهما نحو رأسي. أخذ الجميع يصرخون «أين أسامة؟ أين الملّا عمر؟ أيّ دور أدّيتَ في اعتداءات نيويوك وواشنطن؟».

عجزتُ حتّى عن تحريك لساني. وكأنه مبتلعٌ بدا لي أنّه ملتصق بحنكي الأعلى. تمنّيت الموت في تلك الغرفة، أمام هذا الصراخ، وتحت وطأة ذلك الألم المبرح. ليغفر لي اللّه قلّة صبري! تركوني عندما لاحظوا أنني عاجز عن الإجابة؛ فدخل جنود آخرون الغرفة، وسحبوني إلى غرفة حقيرة لا باب فيها ولا نافذة. أعطوني بعض الملابس، لكنني بقيت أشعر بالبرد وفقدت وعيي مجدّدًا.

أفقت من جديد في الغرفة نفسها. فتوجَّهتُ إلى الحارسة التي تحمي المدخل. كانت تلك أوّل جندي يتمتّع باللطف ألتقيه. تعاملت معي باحترام، وسألتني إن كنت أحتاج إلى أمر ما. لكنني كنت لا أزال عاجزًا عن الكلام. ظنّنت نفسي في

كوبا بداية، لأنني فقدت كلّ إدراك للوقت. لكنني حين رأيت الجدران مغطّاة بأسماء طالبان وتواريخها، عرفت أنني لا أزال في أفغانستان.

تحرّكت بصعوبة بالغة. شعرت أن كتفي ورأسي مكسوران، وكان الوجع يندفع في جسدي مع كلّ نبضة قلب. صلّيت في صمتٍ لله أن يرضى عنّي وأن يحمي سائر إخوتي من العذاب الذي أتعرّض له. وعندما هبط الظّلام ناديت الحارسة وطلبت إليها المساعدة. سألتها إن كان يسمح لي بالصلاة، فأجابت بالإيجاب.

كانت يداي لا تزالان مربوطتَيْن فلم أستطع التيمّم. دخل جنديّان الغرفة حين كنت أصلّي، انتظرا حتّى انتهيت من الصّلاة وسألاني إن كنت أشعر بتحسُّن، أم أني لا أزال أشعر بالبرد، وهل أريد أيّ شيء. كلّ ما قلته: الحمد لله. لم أجرؤ على الشكوى، وكنت أعلم أنّهما قادران على رؤية الدم فوق كدمات وجهي ويديّ المتورّمتين وجسدي المرتجف. سألاني عن الشيخ أسامة والملّا محمّد عمر. لكنني لم أكن أعرف شيئًا لأخبرهما به. لم يرق لهما جوابي، وبدا الغضب على وجهيهما. فعمدا إلى تهديدي وحاولا ترهيبي. لكنّ جوابي بقي هو هو، فغادرا حينها.

امتنعت عن تناول الطعام لمدّة ستّة أيام، لأنني شككت في ألا تكون الحصص الغذائية العسكريّة حلالًا. بقيت في الغرفة المنخفضة قُرابة شهر، اقتصر فيه قوتي اليومي على كوب شاي وقطعة خبز. لم يدعني الجنود أخلد إلى النوم، وربطوا رِجليَّ ويديَّ مدّة عشرين يومًا، أستجوب خلالها كلّ يوم.

في ٢٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢، أُدخل ستّةُ سجناءَ آخرين إلى غرفتي، معظمهم عربٌ. استقرّوا في الغرفة لساعات معدودة قبل أن ينقلوهم مجدّدًا. عادوا في اليوم التالي؛ فاستفسرت منهم عمّا يجري. أسرّوا لي أن ممثّلين عن الصّليب الأحمر[1] كشفوا على المخيّم، وسجّلوا السجناء ونقلوا رسائل إلى عائلاتهم.

---

(١) أُنشئت اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر عام ١٨٦٣ وكُلّفت أن تطبّق اتّفاقيّات جنيف عام ١٩٤٩. ركّزت اللجنة الدوليّة للصليب الأحمر على مناطق النزاع وكانت ناشطة في أفغانستان منذ الاجتياح السوفياتي. هي من المنظّمات القلائل التي يحترمها الأفغان وذلك لأنّها لعبت دور وسيط باسم المعتقلين كما قال الملّا ضعيف.

أخبروني أيضًا أنّهم لا يعلمون لماذا تمّ إخفاؤهم. تكلّمنا قليلًا، ثمّ وصل الطّعام؛ فأكلت حتّى شبعت. وقد نُقلنا مرّات عدّة في الأيام التي تلت.

وفي كلّ مرّة تُعصَّب عيوننا، ونُجبَر على الركوع في وضعيّات غير مريحة لساعات. في التّاسع من شباط/فبراير، نُقلنا إلى بغرام، ومنها طرنا إلى قندهار. ومرّة أخرى رُبطنا وضُربنا ورُكلنا وجُررنا على الوحل، وجُعلنا ننتظر في الخارج فرائس للبرد. صرخ كثير من السجناء وبكوا جرّاء ما تعرّضوا له. وتكرَّر الأمر نفسه لدى وصولنا بعد سفرةٍ قصيرة. تعرّضتُ للضرب بالعصيّ، ثمّ جلس فوقي خمسة جنود، وأنا ممدّد على الوحل البارد. مزّقوا ملابسي بخناجرهم، فظننت أنهم سيذبحونني عاجلًا. أجبروني بعدها على الوقوف خارجًا. كان البرد قارسًا، ولم أشعر بشيء سوى الألم. ثمّ أدخلوني إلى خيمة كبيرة مخصّصة للاستجواب. رأيتُ في الداخل جنودًا، من ذكورٍ وإناث وراحوا يسخرون منّي، بينما التقطَ أحدهم صورة لي وأنا عارٍ.

بعد الفحص الطّبي، عُصبَت عيناي مجدّدًا، وأُخرجت من الخيمة. أخذَ الجنود قسطًا من الراحة في الطريق، فجلسوا فوقي؛ حتى بلغنا خيمة كبيرة أخرى مُخصّصة للسّجناء، تحيط بها الأسلاك الشائكة. أعطي كلّ سجين سترةً وجواربَ وقبّعةً وغطاءً. ارتديتُ الملابس، والتففت بالغطاء طلبًا للدفء. وأدخل السجناء إلى خيمة باردة الواحد تلو الآخر. جرت الاستجوابات ليلًا نهارًا، فكان الجنود يأتون إلى الخيمة، وينادون على السجين، ويأمروننا بالتراجع إلى مؤخّرة الخيمة، بينما يقومون بتكبيل السجين وأخذه خارجًا. عمد الجنود إلى تعذيب السجناء، بضرب رؤوسهم بالجدران، لعجزهم عن الرؤية، وجرّهم على الأرض القاسية.

قدمت إلى المخيّم هيئة من الصّليب الأحمر لتسجيل أسماء السجناء وتزويدهم بهويات. ساورتنا الشكوك بشأن هؤلاء الموفدين، وفكّرنا في انتمائهم إلى المخابرات الأميركية. عمل الصليب الأحمر على تأمين الاتّصال بين السّجناء وعائلاتهم، فاهتمّ بتبادل الرّسائل وتأمين بعض الكتب لنا. كما سعوا إلى فسح المجال أمامنا للاستحمام؛ فحصل كلّ سجين على دلوٍ من الماء، وأُرغِمَ على

الاستحمام عاريًا أمام سائر السجناء. سُمح لنا بالاستحمام مرّة في الشهر، لكن لم نحصل على ماء للوضوء. كانت مياه الشفة تأتينا معبّأة من الكويت. بيد أن السجناء استعملوها في بعض الأحيان لغسل وجوههم وأيديهم. لكن سرعان ما اكتشف الحُرّاس ذلك، ففرضوا عُقوبات على المخالفين.

بقيت محتجزًا في قندهار من ١٠ شباط/فبراير حتى ١ تموز/يوليو ٢٠٠٢. استدعينا مرارًا وتكرارًا للاستجواب، وكان تكتيك الأميركيين يختلف من مرّة إلى أخرى. فتارةً يتعاملون معنا باحترام، وطورًا يستخدمون أسلوب التهديد والترهيب، أو يحاولون عقد الصفقات معنا. سئلت عن حياتي وعن عائلتي وانخراطي في طالبان وما إلى ذلك. لكنّ الحديث كان دائمًا يدور ويعود إلى موضوع الشيخ أسامة والملّا محمّد عمر. وغالبًا ما بدأ الاستجواب بطريقة إنسانية محترمة ثمّ تحوّل إلى العنف؛ حيث يُقدِمُ الجنود على ضربي وجرّي خارج الغرفة، إذا لم يكن عندي أي معلومات عن حياة الشيخ أسامة وعن مكان وجود الملّا محمد عمر.

ضمّت كلّ خيمة في السّجن عشرين شخصًا. وفاق المخيم في قندهار نظيره في بغرام. وقد سُمح لنا بالجلوس في مجموعات من ثلاثة أشخاص وتبادل أطراف الحديث. وتوافرت الخدمات إجمالًا بشكل مقبول. أظن أن عدد السجناء في قندهار قد بلغ حوالي ستمئة شخص. وقد عمد الحرّاس إلى إجراء حملات تفتيش ليلية؛ حيث يندفعون داخل الخيم، ويأمرون السجناء بالتمدُّد ووجوههم نحو الأرض، بينما يفتّشون كلّ شبر من الخيمة. استخدموا الكلاب أيضًا في عمليّات تفتيش الأمتعة والأغراض. وكانت تقترب لتشتمّ أجسادنا. وما كنّا نحصل عليه للأكل يشبه كلّ شيء إلا الطعام، إذ كانت تقدّم إلينا وجبات عسكريّة يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الثانية. وكان يصل إلينا بعض الطعام فاسدًا، أو منتهي الصلاحية. ولم نكن نعرف إن كان اللحم صالحًا للأكل؛ لكن لم يكن لدينا خيارٌ آخر: إما الأكل، وإما التضوُّر جوعًا. تحسّن الوضع مع شهر حزيران/يونيو، فقد بتنا نتلقّى وجبات مع إشارة حلال. وكانت لذيذة الطَعم، ولم تتخط

تاريخ صلاحيّتها بعد. كما حصلنا على بعض الخبز والحلوى الأفغانية، ما شكّل لنا مصدرًا كبيرًا للرفاهية.

شُيّدَ على مقربة منّا، مَدْرَج للطائرات والمروحيّات؛ فمنعنا الضجيج المستمرّ من النوم ليلًا نهارًا. كما عمد الحراس إلى تسيير دوريات ليلية؛ يدخلُ عناصرها غرفنا ويبدأون بالصراخ لإيقاظنا. ثلاث مرّات في النهار، يحصون السّجناء، وكلّ منّا برقم. كنت أنا السجين رقم ٣٠٦، واحتفظت بهذا الرّقم حتّى تمّ إطلاق سراحي.

▲▼▲

عندما نُقلت إلى بغرام، راودني كلَّ يوم أملٌ في أن يكون يومي الأخير. مجرّد النظر إلى الأغلال تكبّل يديّ ورجليَّ، وإحساس الألم الذي يغزو رأسي وكتفيّ المكشورتَيْن، وكلّ تصرّفات الأميركيين المذلّة واللاإنسانية، سدّت في وجهي كلّ طاقة أمل بالخروج إلى الحرية يومًا ما. حين قابلت السجناء الستة[1] الذين تمّ إخفاؤهم من وجه الصليب الأحمر في بغرام، فهمت أنّ شيئًا ما يدور في الخارج. لم أرَ أنا أيضًا أيّ ممثلين عن الصليب الأحمر في بغرام لأن الأميركيين أخفوني عنهم، لكنني لما نقلت من بغرام إلى قندهار، شاهدت الصليب الأحمر في اليوم الثاني لوصولي.

لم يكن معهم أي مترجم باشتوني، فحلّ محلّه شخص ناطق بالأوردو اصطحبوه من مكتبهم في إسلام أباد. كان ذلك الرجُل يتكلّم الأوردو بطلاقة، رغم أنّه ليس باكستانيًّا. وثمّة موظفون يتكلّمون العربيّة أيضًا. أما الباشتو، فقد رافقهم بخصوصها ثلاثة أشخاص يتكلّمون اللغة بشكل رديء، وهم جوليان وباتريك

(١) ذكر الملّا ضعيف أسماء بعض الأشخاص الذين التقاهم في غوانتانامو وبغرام... هذه هي الأسماء الحقيقيّة (على حسب ما تذكّر) وهي تختلف عن الأسماء الرسميّة (الخاطئة) التي أعطاها المعتقلون للسلطات الأميركيّة. حاول الكاتبان قدر الإمكان أن يحدّدوا هويّات المعتقلين في الهوامش وحدّدوا أسماءهم.

وشخص ألماني، وقد أمضوا وقتًا طويلًا في منطقة بيشاور. حصلت حينها على فرصتي الأولى لإعلام عائلتي بأنني لا أزال حيًّا أُرزَق.

أعطوني ورقة ودفترًا، وجلس في مقابلي جندي، بينما شرعت في الكتابة وعندما انتهيت سلّمته الرسالة والقلم. لم تصلني أي رسالة من عائلتي طوال فترة احتجازي في قندهار. ولم يردني أي خبر عنهم، أو عمّا حدث لهم بعد إلقاء القبض عليّ. أتى الكثير من ممثّلي الصليب الأحمر وذهبوا. كانوا يتحدّثون إلينا عبر الشّرائط الشائكة، يسألوننا عن صحّتنا والمشاكل الأخرى. طمأنونا إلى أنّ كل ما نقوله لهم يبقى سرًّا لديهم معهم، ولا يبلغ مسامع الأميركيين. لكن الريبة ساورتنا حيال هذا الموضوع. فكّرنا في احتمال أنهم يكذبون. لذلك لم نثق بهم، ولم نفتح لهم قلوبنا. لم نجرؤ على الشكوى من أوضاعنا، إذ كانت تتمّ تحت أنظارهم عمليّات الأخذ للاستجواب، وعلى مرأى منهم، كان الجنود الأميركيّون يجرّوننا على الأرض، ويجلس على أجسادنا اثنان أو ثلاثة منهم. شاهدتْ بعثةُ الصّليب الأحمر كلّ هذه الأمور، لكنها كانت عاجزة عن المساعدة.

نبّهنا الإخوة العرب أن نكون حذرين حيال كل ما يقولونه. أما مبعوثو الصّليب الأحمر، فبينَهم مَن يعملون جواسيس أميركيّين متنكّرين، يخدعوننا وهم يدّعون السعي إلى مساعدتنا. لكن، في جميع الأحوال، لم يكن لدينا شيء مهمّ نخبر الأميركيين به؛ لذلك باتت عمليّات التجسّس علينا عديمة الجدوى. بقيت قضيّة واحدة حسّاسة، هي مشكلة الشكاوى، فواقع الأمر أن كثيرًا من الإخوة قد أعطوا الأميركيين أسماء وعناوين خطأ، يوم أُلقي القبض عليهم؛ ولم يعد بإمكانهم بعد ذلك التراجع عن إفاداتهم، وإعطاء الصليب الأحمر أسماء وعناوين صحيحة، خوفًا من وصول هذه المعلومات إلى الأميركيين؛ فبقيت رسائلهم تصل إلى العناوين الخطأ. تملّكتني المخاوف نفسها عندما كنت في غوانتانامو.

لم نكن نفهم فعليًّا مدى المساعدة التي كنا نحصل عليها من الصليب الأحمر. لكنّني تيقّنتُ من أمورٍ ثلاثة كانوا يفعلونها: الأمر الأول هو أنهم كانوا يصلوننا

بعائلاتنا عبر هذه الرسائل، الأمر الذي كان مهمًّا جدًّا لنا. والأمر الثاني هو أنهم أعطوا كلّ مجموعة منا قوامها عشرون شخصًا أربعة مصاحف شريفة. والأمرُ الثالث هو أنهم عملوا على تأمين الاستحمام لنا للمرّة الأولى خلال أربعة أشهر، رغم كونه استحمامًا جماعيًّا، حيث الجميع عراة، بصورة تثير الاشمئزاز. كما جلبوا لنا وزرات نظيفة. ويفيد الصليب الأحمر، أن كلّ هذه الأمور كانت تتمّ بناء على اقتراحاتهم.

في اليوم الواحد، تتبدّل نوبتا حراسة، وقد أبدى الكثير من الجنود ذوي الرتب المتدنّية تصرُّفات سيّئة تجاهنا، وأظهروا نيّاتٍ مريضة حيال المسلمين. في كلّ مرّة يأتون، يتوجَّب علينا أن نصطفّ ونخفض أنظارنا أرضًا، ونهتف «أهلًا» إن نادوا أحد السجناء برقمه. وكلّ سجين يرفض التجاوب مع هذه الأوامر يتعرّض للعقاب. في كلّ يوم، يصطفّ السّجناء خارجًا، ويجبرون على الوقوف تحت الشمس. تألّف معتقلنا من عشرين خيمة ضمَّت ثمانمئة سجين. لم يكن جميع الجنود متشابهين، لكنّ بعضهم كان يأمرنا بالوقوف تحت الشمس نصف ساعة قبل أن يبدأ بتعداد الحضور، ويجبرنا على البقاء ساعتين بعدها. لم يكن يسمح لأحد بالجلوس أو بالاحتماء في الظّل، بغضّ النظر عن ظروفه. ليقتصّ لنا اللّه من أولئك الجنود!

عمل الحرّاس على تفتيش داخل الخيام وخارجها بشكل يومي. ذات مرّة وجد أحد الجنود قطعة زجاج مكسور رُميت في الخارج على الأرض، وكان أكثر الجنود لُؤمًا عندما اكتشف أمر القطعة أتى بها إليّ وسألني عن مصدرها. أعدتها إليه، وأخبرته بأننا لم نجلب شيئًا معنا، ولا بدّ من أنّها كانت حيث هي قبل قدومنا. ظلّ الجنديّ يُكرّر سؤاله ويصرخ «لا تتكلّم! اللعنة عليك!». أجبرني على الركوع واضعًا يديّ خلف رأسي لساعات. وعمد من وقت لآخر إلى ركلي أو طرحي أرضًا. لم تنفع الشكاوى في معالجة السلوك السّيىء الرّديء للجنود، لا بل زادته سوءًا. لن أنسى ما حييت تلك المعاملة التي تلقّيتها على أيدي أولئك الذين يعاملوننا كعبيد.

▲▼▲

قُسّم سجن قندهار عدّة أقسام. تقومُ إلى جانب الخيام حظيرة طائرات قديمة - استخدمت في ما مضى لأعمال الصّيانة - وحوّلها الأميركيّون إلى مكان لتعذيب السجناء. كان معظم هؤلاء يرتعدون لما عُرِفَ عن العقوبات القاسية التي تجري هناك. شاهدت مرّات كثيرة السّجناء ينقلون إلى الحظيرة مكبّلين بالسّلاسل المعدنيّة. وفي أماكن أخرى، يُحرمُ السجناء من النوم لأشهر، عبر إبقائهم في وضعيّة الوقوف. تتمّ حراسة السجن عبر ستّة أبراج مراقبة، ودوريات راجلة أو مؤلّلة، تجول في الليل والنهار.

تختزن ذاكرتي أخبارًا كثيرة عن فترة اعتقالي في سجن قندهار. ذات يوم قدِمَ سجين جديد إلى الخيمة التي أحتَجزُ فيها. كان رجلًا هرمًا. جرّه الجنودُ الأميركيّون بخشونة إلى داخل الخيمة، وطرحوه أرضًا. أمروه بالوقوف، لكنّه كان عاجزًا عن ذلك، وعن فهم ما يقولونه له. بدا مرتبكًا. أخبره السجناء الآخرون بما يُطلبه إليه الجنود، لكنّ الأمور اختلطت عليه، فلم يكن قادرًا على تمييز الجنود من السجناء.

في اليوم التالي، استُدعي للاستجواب، وأُمر بالتّمدد على الأرض ليتمّ ربطه. لكنّه لم يفهم هذه المرّة أيضًا، ولم يُسمَح لأي من السجناء بمساعدته. أمرنا الجنود بالتوجّه إلى الطرف الآخر من الخيمة، وأفلتوا العنان لغرائزهم فبطحوا الرجل أرضًا وجلس أحدهم فوقه بينما قام آخرون بربط يديه. أخذ الرجُل العجوز يصرخ ظانًّا أنّهم سيقومون بذبحه «أيّها الكفّار! دعوني أصلّي قبل أن تقوموا بذبحي!».

كنّا نصرخ له من مؤخّر الخيمة أن يهدأ. فكلّ ما سيفعلونه هو أخذه للاستجواب وإعادته إلى الخيمة بعد الانتهاء من التحقيق معه. لكنّه بدا كمن هو في نشوة فلم يسمع شيئًا. بكيتُ وضحكتُ في آن. اجتاحني الغضب عندما رأيت الرجُل يجرّ خارج الخيمة. وحين أعادوه جلستُ وتكلّمت إليه. أخبرني أنّه من ولاية أروزغان، وأنّه يقيم في ولاية شارشينو. وأضاف أنّه يبلغ من العمر ١٠٥ أعوام. وفي النهاية كان هذا الرجُل أوّل المفرجَين عنهم من جحيم غوانتانامو.

أسّسنا ما يشبه جماعة في المخيّم، وكنّا نصلّي معًا. ذات يوم، وبينما كنت أرأس صلاة الصباح، وقد بدأنا بتأدية الركعات، دخلت مجموعة من الجنود الأميركيين الخيمة، ونادوا أحد الإخوة العرب برقمه بغية أخذه للاستجواب. لم يتحرّك الأخ، بل تابع صلاته كما أمرنا اللّه. فنادوه مرّة ثانية. وفي المرّة الثالثة اندفع الجنود باتّجاهنا فرموني أرضًا وضغطوا رأسي على أرضيّة الخيمة، وجلسوا فوقي بينما أمسك اثنان آخران بعادل[1]، الأخ العربي التونسيّ، وجرّوه خارجًا. فلا الإسلام حظي بأدنى احترام، ولا السجناء نَجوا يومًا من سوء المعاملة.

مرّة أصيب أحد الإخوة الباكستانيين بألم في ضرسه، فعالجوه في العيادة بإعطائه التيلينول فقط. فاستمرّ الألم، وبقي عاجزًا عن الأكل وإنهاء وجبة طعامه في الدقائق الثلاثين المخصّصة لكلّ وجبة. حين أتى الجنديّ لأخذ صحنه، طلب الأخ بعض الوقت الإضافي، بالنظر إلى حالته. فما كان من الجندي إلا أن أخذه إلى المدخل وضربه مباشرة على فمه، بينما كنّا نحن نراقب عاجزين عن مدّ يد العون.

بعد أن شاهدنا ما تعرّض له الأخ الباكستاني، قرّرنا الإضراب عن الطعام. انتشر الخبر بسرعة، والتزم المخيم كلّه الإضراب. تدخّلت السّلطة للبحث في أسباب التصعيد، فأبلغناهم أنّه احتجاج على الانتهاكات التي يقوم بها الجنود، والتي تخطّت الحدود، ولن نسمح بها بعد اليوم. تلقّينا وعودًا بعدم تكرار هذه الحوادث، فعلّقنا إضرابنا. وبذلك سجّلنا أول إضراب عن الطعام في ظلّ الحجز الأميركي الغاصب، رغم أنّ حوادث التنكيل كثيرًا ما تكرّرت في السّابق.

في اليوم التالي، تعرّض محمّد نوّاب[2]، وكان رجلًا مريضًا عاجزًا عن الحركة، للضّرب والرّكل. دخل الجنود الخيمة لتفتيشها، وأمروا السّجناء بالتراجع. لكنّ

(١) يتحدّر عادل مبروك بن حميدة (المولود في ١٩٧٠) من تونس العاصمة. وتدلّ الأدلّة المذكورة في تقرير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين أنّه كان يعيش في إيطاليا ولكنّه سافر إلى أفغانستان في أوائل العام ٢٠٠١. وسُجن في ٥ آذار/ مارس ٢٠٠٩ في غوانتانامو، ولا يزال هناك.

(٢) يتحدّر محمد نوّاب أصلًا من مكّة في المملكة العربيّة السعوديّة.

محمّد نواب لم يتحرّك، بل لازم فراشه. عندما رأى الجنود ذلك، انهالوا عليه بالضّرب والركل قبل أن يجرّوه إلى مؤخّر الخيمة، ويرموه على أقدامنا. يجدر بي لفت النظر إلى أنّ هذه الطريقة في المعاملة لم يعتمدها جميع الجنود. فالحقيقة أن ثمّة حرّاسًا محترمين ولائقين رفضوا الانخراط في أعمال رفاقهم الدنيئة. غير أن بعض التجاوزات كانت أفظع من سواها، واستهدفت جميع السجناء في المخيّم.

عصر أحد الأيام، استيقظت على صراخ الرجال. كان بالإمكان سماع أصوات البكاء في كلّ أرجاء المخيّم. سألت محمد نواب عمّا يجري، فأخبرني أنّ جنديًّا أخذ نسخةً من القرآن الكريم وبال عليه ثمّ رماه في القمامة. كان الصليب الأحمر قد قدّم إلينا نسخًا من القرآن كما أسلفتِ. وعندما وقع ذلك أعدناها إليهم. كانت تلك الطريقة الوحيدة لحماية مقدّساتنا، التي استعملها الجنود وسيلة لمعاقبتنا. وعَدنا الصّليب الأحمر بوضع حدّ لهذه التّجاوزات، لكنّها استمرّت على أرض الواقع. فكم جاءوا بكلاب الحراسة لتشمّ المصاحف. ويقوم الجنود على الأثر برمي النّسخ على الأرض. واستمرّ هذا الأمر طوال فترة احتجازي في قندهار. كان ذلك الجنديّ نفسه الذي يتصرّف دون أيّ احترام للقرآن وللإسلام.

وقعت جملة من حوادث الظلم والإذلال. وقد أجرى الجنود تدريبات علينا، وكأننا خنازير اختبار: جرّبوا بالسجناء تقنيّات اعتقال وصوّروها؛ وضربوهم، وأرغموهم على الجلوس لساعات في وضعيّات مؤلمة. ولو أردت إحصاء هذه الأخبار لما اتّسعت لها الكتب.

خلال هذه الفترة، تتالت الاستجوابات. ذات ليلة، وبعد مضيّ أشهر على اعتقالي في قندهار، استُدعيت للتحقيق. سألني المحقّقون إن كنت أريد العودة إلى المنزل. وأخبروني أنّهم لم يجنوا أي فائدة من توقيفي، ولم يجدوا أيّ إثبات على تورُّطي في الأحداث بما يتخطّى عملي في السفارة. أبلغوني أنّهم ينوون إطلاق سراحي، وتزويدي بالمال والهاتف وكلّ ما أحتاج إليه ثمّ أفصحوا عن شرط لإخلاء السبيل هذا. كلّ ما يتوجّب عليّ هو مساعدتهم لإيجاد الشيخ أسامة

والملّا محمّد عمر. ويعود إليّ القرار في مسألة إطلاق السراح، في الوقت الذي أختاره. محالٌ وألف محال أن أطلب مكافأة على رأس أيّ أخ مسلم!

قاطعتهم، وسألت عن مبرّر خروجي من السجن. فقالوا إنهم يعتقدون باطّلاعي على القاعدة وطالبان وعلى فروعهما الماليّة، وعلى الهجمات التي استهدفت نيويورك وواشنطن، وبأن اعتقالي قد جرى للتحقيق بهذه المسائل. فأجبت قائلًا: بالنظر إلى عدم توفُّر أي دليل لإدانتي، فإن الأجدر بكم إطلاقي وإعلان براءتي. لقد اعتُقِلت على يد النظام الباكستاني، ومن حقّي الخروج دون قيد أو شرط.

استمرّ الجنود في ترغيبي بالمال تارة وبصفقات أخرى طورًا، لكنّني أسقطت كلّ تلك العروض. حينذاك تبدّل تصرُّف المسؤولين تجاهي، وعادوا إلى تهديد حياتي مرّة أخرى. في اليوم التالي، دخلت مجموعة من الجنود الخيمة، وكبّلت عددًا من السّجناء، وربطت بعضَهم إلى بعض ومضت بهم خارجًا. تساءلنا جميعًا عمّا يجري. فظنّ البعض أنهم يطلقون سراحنا، وخمّن آخرون أننا نُنقل إلى مكان آخر. لكنّ السّجناء أعيدوا إلى الخيمة بعد ساعات، وقد تمّت حلاقة شعورهم ولحاهم وحواجبهم، وأزالوا كلّ شعرة من أجسامهم.

هذا أسوأ أنواع العقاب، فضلًا عن أنه أمر محرّم في الإسلام ويُعدّ خطيئة في المذهب الحنفي. من الأفضل للإنسان أن يُقتل على أن تُحلَق لحيته. كنت في المجموعة الثانية التي نقلت إلى الحلّاق. طلبتُ إليه ألا يحلق لحيتي، فكان جوابه ضربة موجعة على رأسي. لم أتمَكن من فتح عينيّ إلا لدقائق بعدها، إذ اجتاح الألم جسدي. وعندما سألني الطّبيب عما جرى لوجهي، شكوتُ الحلّاق، فبادرني الطبيب بصفعة على وجهي، وأفهمني أن الشّكوى من الغزاة الأميركيين ممنوعة.

سُئلت في إحدى جلسات التّحقيق، إن كنت أعرف السيد متوكّل، كما طُرحت عليَّ أسئلة أخرى بخصوصه. وسُئلت أخيرًا إن كنت أريد لقاءه. كنت أشك في أنه اعتُقل؛ فاستفسرت عن مكانه وكيف أستطيع مقابلته. بعد لحظات دخل السيد متوكّل الغرفة. حمل إليّ علبة من البسكوت الباكستاني، لكنّ يديَّ كانتا مكبّلتين، فلم أستطع أن أتناول شيئًا أو آخذ العلبة معي. تكلّمنا عشر دقائق أو خمس عشرة

دقيقة، ثمّ غادر مجدّدًا. خلال هذا الاجتماع فهمت أنني سأُنقل قريبًا إلى كوبا. لم يشرح السيد متوكل الكثير، لأنه كان يدرك أن اللّه وحده يعلم ما سوف يلمّ بي.

في اليوم التالي استجوبت مجدّدًا، وأُبلغت أنني سأنقل إلى كوبا في الأول من تموز/يوليو. وأضاف المحقّق أنّ الذين يذهبون إلى كوبا يقضون بقيّة حياتهم هناك، حتّى أجسادهم لن تتمكّن من العودة إلى تراب أفغانستان. كانت تلك فرصتي الأخيرة كما أوضح لي، وعليّ اتّخاذ القرار بالعودة إلى المنزل أو الانتقال إلى كوبا. وأعاد عليّ تلاوة الشروط. للعودة إلى المنزل، عليّ التّعاون مع المخابرات الأميركية في بحثهم عن قادة القاعدة وطالبان، وبالتالي سأبقى عبدًا لهم ما حييت. ليجنّبنا اللّه الوقوع في خطايا كهذه!

منحوني نهارًا للتفكير في هذا العرض، لكنّني أجبتهم مباشرة: «لست أهمّ من أيّ أخ من الإخوة المعتقلين هنا. وإن كان ذلك ما كتبه اللّه لي، فسأقبله. لم أرتكب أيّ جريمة، لذلك لن أقرّ بأي ذنب. ويعودُ إليكم الآن تقرير ما سيجري لي وإلى أين سيتمّ نقلي». بعد تلك الجلسة، تمنّيت لو أُنقَل بأسرع وقت ممكن.

١٨

خليج غوانتانامو

في أول تموز/يوليو ٢٠٠٢، مضوا بي إلى حلاّقٍ أجهز على شعر رأسي ولحيتي مرّة جديدة. بعد ذلك تقدّم جنود يحملون السلاسل، وضعوها على مدخل الخيمة، وشرعوا بتقييدنا الواحد تلو الآخر تمهيدًا لنقلنا إلى كوبا. وُضِعت الأغلال في أيدينا وأرجلنا، والأكياس السوداء في رؤوسنا وانطلقنا في مجموعات من سبعة أشخاصٍ أو ثمانية.

تجمّعنا في محطّة انتظار أخرى، حيث استبدلت بالأكياس نظارات سوداء؛ وصُمَّت آذاننا بسدادات. تمّ تصويرنا قبل صعود الطائرة؛ وزوّدنا بأحذية وملابس حمراء اللون. كُمّت أفواهنا وقيّدت أرجلنا وأيدينا بنوعين مختلفين من السّلاسل، وعندما أصبحنا داخل الطّائرة، رُبطت أقدامنا بأرضها، أما أيدينا فوضعت خلف ظهورنا وقيّدت بالسلاسل المعدنية. بدا الحراك مستحيلًا في هذه الوضعية، ما تسبَّب لنا بآلام مبرحة. بعد إقلاع الطّائرة أخذ بعض السّجناء يصرخون ويئنون من شدّة الوجع. بقينا على هذه الحالة طوال الرّحلة، ولم يسمح لنا باستخدام الحمّام.

تجدر الإشارة إلى أننا جلسنا في هذه الوضعيّة ثلاث ساعات قبل إقلاع الطّائرة، ولم يُخلَ سبيلنا إلا بعد أربعِ ساعات من الهبوط؛ فبقينا ثلاثين ساعة مكبّلين بالسّلاسل. قطعت القيود تدفّق الدّم عن أيدينا وأرجلنا، ولم يمضِ عشر ساعات على هذه الحال حتى فقدت كل إحساسٍ بأطرافي. تورّمت يداي إلى

درجة أن الجنود الأميركيين عجزوا عن انتزاع الأصداف، الّتي انغرزت عميقًا في اللحم. هبطت الطائرة مرّة واحدة في طريقها إلى كوبا.

بعد الهبوط، أمرنا الجنود بالوقوف في صفوف، بينما أخذوا يصرخون علينا بالعربية والإنكليزية، «لا تتحرّكوا، الزموا مقاعدكم!». لكننا، بعد ثلاثين ساعة من السفر تحت قيود السلاسل وآلام الأطراف، تحرّك بعضنا في محاولة لتليين مفاصله، فانهال الجنود علينا بالركل والضرب. كان نصيبي منها ثلاث ركلات.

تمّ نقلنا إلى القاعدة حيث خضعنا لفحص طبّي. بعد ذلك، استُدعيت إلى غرفة الاستجواب، حيث قيّدت إلى كرسيّ. وما هي إلا دقائق حتى دخل المحقّقُ، يرافقُه مترجمٌ فارسيّ. عرَّف بنفسه بـ«توم». وأخبرني أنه أوكل بالتحقيق معي. كنت مرهقًا جرّاء الرحلة المضنية. فطلبت إليه أن أمضي الآن إلى مكان إقامتي، على أن نتابع استجوابي في الغد، لكنّه أصرَّ على التكلّم في هذا الوقت.

كان فمي جافًا، والنعاس يغالبني. لم يبق أحدٌ، حتّى ذاك الحين إلاّ ونصحني بتجنُّب ترحيلي إلى كوبا. لكنني حين وصلتها، لم يعد هناك ما أخاف منه، حتّى أنني لم أعد آبه للعقوبات. في غوانتانامو، صرنا نفضّل الموت على الحياة، ورغم إصرار توم، لم أكد أجيب عن أسئلته؛ فغادر الغرفة في النهاية. نُقلت بعد ذلك إلى قفص صغير مصنوع من صناديق الشحن. حُلَّ رباط يديّ ورجليّ وتُركت وحيدًا. قدّمت إليّ حصّة غذائية؛ لكن سعادتي تجلّت بحصولي على الماء تحديدًا. وهذه أوّل مرة منذ أشهر عدّة أحصل فيها على الماء اللازم للوضوء. اغتسلت، وصلّيت، ثمّ خلدت إلى النوم. نمت جيّدًا تلك الليلة. أغفلت صلاة الليل، واستيقظت قبل الصباح.

▲▼▲

كان قفصي في المبنى الذّهبي من سجن غوانتانامو. عاملنا الجنود بشكل أفضل مما ألفناهُ في بغرام وقندهار. وسُمح لنا بمخاطبة بعضنا بعضًا. ورغم أن السّجن

كان انفراديًا، إلا أنني شعرت بنوع الحرية بعد الأشهر التي قضيتها مسجونًا في أفغانستان.

كانت الأقفاص بعرض أربع أقدام وطول ست أقدام، وصفَت متراصفة. وضمّت لوحًا حديديًا للنّوم وصنبور مياه وحمّامًا. لم يكن هناك من جدران بكل معنى الكلمة، بل شباك معدنية تفصل ما بين الزنازين. هذا الأمر سبب إحراجًا وارتباكًا لدى السجناء، إذ لم يكن من المريح الاغتسال، ودخول دورات المياه على مرأى من الجميع. اعتقد البعض أننا لسنا في كوبا، بل على إحدى جزر الخليج. وظنّ آخرون أن يكون هذا مجرّد مخيّم مؤقت قبل الانتقال إلى غوانتانامو. صلّينا في اتّجاهات عدّة، إذ كنا نجهل جميعا اتّجاه القبلة.

زارنا ممثّلو الصّليب الأحمر، وأخبرونا أنّهم حرصوا على حضورهم إلى المطار ليضمنوا عدم تعرُّضنا لأي تنكيل من الجنود. فقلت لهم: «لكنّنا ضربنا في الباص كما تُقرع الطّبول». فأجابني أحدهم «كنّا في المطار، ولم نكن في الباص».

في الأيام الأولى على وصولنا إلى غوانتانامو، تأقلمنا مع وجود الصليب الأحمر. كانوا يزورون السجناء على انفراد، ويتكلّمون إليهم بشكل شبه حرّ. لكن الريبة لازمتنا من أجهزة المخابرات الأميركية، فالتزمنا جانب الحذر في كلّ ما نقوله.

حين كان أحد السّجناء يؤخذ لمقابلة مبعوث الصّليب الأحمر، يوثق الجنود يدَيْه بحبل مخصّص لذلك، ثم يفكّون إحداهما لدى وصوله. وتعوّدنا أن نجد لدى أولئك المبعوثين الشاي والحلوى والعصير.

ولكم قابلونا، وسمحوا لنا بكتابة الرّسائل إلى أهالينا أو أصدقائنا. لكنّ الواقع تغيّر مع الوقت، فاستبدلت بالحبال سلاسل معدنية. إلا أن عناصر الصّليب الأحمر استمرّوا في مقابلتنا، وكانوا يوصلون إلينا الرسائل الواردة من الديار. وفي بعض الأحيان يجيئون لزيارتنا في الزنازين.

افتقرنا لفترة طويلة إلى مترجم باشتوني، واقتصر الأمر على أوروبيين، يتكلّمون شيئًا من الباشتو. لكنّهم لا يكادون يقدرون على فهم ما نقوله. ونحن بالمقابل

عجزنا عن إدراك ما كانوا يتفوَّهون به. ساد اعتقاد أن للمخابرات الأميركية جواسيس داخل بعثة الصَليب الأحمر، فبقينا على حذر. وأنا أيضًا، ارتبت في الأمر، وشككت في أن يكون هؤلاء جواسيس.

ذات يوم، قدم إليّ مترجم ألماني، وتفرّس بي، كمن رآني من قبل. سألته «ما الأمر؟ لم تنظر إليّ بهذه الطَريقة؟» فأجاب «وجهك يبدو لي مألوفًا، وكأنني رأيتك من قبل في مكانٍ ما». فقلت له «بالطبع رأيتني. لقد تقابلنا مرّات عدة في سجن قندهار، قبل أن أُنقل إلى هذا المكان». لكنّه لم يوافقني الرأي وقال إنه لم يرني في قندهار. وتابع: «ربّما شاهدتك على التلفاز، هيئتك مألوفة جدًا عندي».

سأل عن اسمي، فقلت أنا الملّا ضعيف، سفير أفغانستان في الباكستان. عندها نظر الرجل إليَّ مندهشًا وقال سائلًا: «آه! كيف حالك؟». ومن دون أي ربط منطقي، أردف قائلًا: «والملّا داد اللّه، هل تعلم في أيّ مبنى هو؟». دُهشت لسؤاله. لم أكن قد رأيت الملّا داد اللّه منذ اعتقالي. وبتّ عندها أفكّر في إمكانية أن يكون قد اعتُقل ونُقل إلى كوبا. فسألت الرّجل: «هل تمّ اعتقاله؟ متى حدث ذلك؟ لم أكن أعلم أنه قد اعتُقِل». أجاب: «آه! وهل هو هنا؟». عاودت القول: «لست أدري».

يملك الصليب الأحمر لائحة كاملة بأسماء السجناء في غوانتانامو؛ وهم بالتالي يعرفون مَن في السجن ومن ليس فيه. هذه المراوغة في سؤاله عن الملّا داد اللّه زرعت بي الريبة. بين السجناء في غوانتانامو رجُلان فقدا إحدى الساقين، أحدهما عبد الرّؤوف[1]، والآخر سليمان[2]. وكان الأميركيون يعتقدون أن داد اللّه واحدٌ منهما، لكنَّهم كانوا على خطأ.

(١) وُلدَ عبد الرّؤوف أليزا في العام ١٩٨١ في أفغانستان (وفق وزارة الدفاع الأميركيّة) وهو يتحدّر أصلًا من هلمند. وقد أقرّ أمام المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين أنّه من قبيلة أليزاي وقد فقد رجله في جهاد الثمانينيّات ضدّ السوفيات. ثمَّ رُحّل إلى أفغانستان يوم ١٢ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٧.

(٢) إنّ سليمان (المعروف بمحمد علي) هو من قبيلة مشود ويتحدّر أصلًا من وزيرستان. وبعدَ أن أُطلق سراحه، اتّخذ له اسم «عبداللّه مسعود» وقتلته الحكومة الباكستانيّة في العام ٢٠٠٨ في زوب.

لم يشكَّ السجناء بجميع ممثّلي الصليب الأحمر، على أنهم جواسيس. لكنهم كانوا على يقين من أن المخابرات الأميركية قد اخترقت الهيئة الدوليّة، وزرعت داخلها عناصر مخابراتية. ورغم كلّ هذه الشّكوك، فإن الرسائل التي نتبادلها مع أهلنا مثّلت أفضل ما عايشناه في ذلك المكان. والجدير ذكره أن الصّليب الأحمر قد أحضر لنا كتبًا، لكن الأميركيين أخذوها منّا. وحين كنا نشتكي من المعاملة أو رداءة الطعام أو المرض، لم تكن تنفع الشكوى، بل تساهم في زيادة الأمور سوءًا. في إحدى المرات، مثلًا، اشتكينا للصليب الأحمر عدم كفاية حصص الطعام التي نحصل عليها. وبدورهم، حوّل أولئك شكوانا إلى الأميركيين الذين غضبوا، فجعلوا الوجبات في الأسبوع الذي تلا أسوأ مّما كانت عليه أصلًا.

أذكر أنني شعرت بألم مبرحٍ في رئتي اليسرى وأذني، فطلبت المساعدة من الصليب الأحمر. بعد أن عاينني ممثّلهُ نقل حالتي إلى الأطباء الأميركيين، وأخبرهم عمّا أعاني منه. لكنّ هؤلاء لم يحرّكوا ساكنًا لمعالجتي، ولم يقدّموا إليَّ أي دواء، بل امتنعوا حتّى عن معاينتي. لأسابيع عدّة اشتكيت من الألم، ومن تردّي صحّتي، لكنّ أحدًا لم يأتِ لمساعدتي.

وفي إحدى المرّات، قابل مبعوثو الصّليب الأحمر بدر الزّمان بدر[1] في زنزانته. اشتكى الرجل من الوضع القائم، وكان يتكلّم بالإنكليزية؛ ففهم الجنود المرابطون في الخارج ما تفوّه به. وعندما انتهى، حضر الضابط المسؤول عن طابقه، وأمر بدرًا بتسليم جميع ملابسه ومقتنياته، فاعترضَ بدر قائلًا: «لكنّني لم أفعل شيئا! لماذا تُنزلون بي القصاص؟» ردّ الضابط: «لا تقُلْ شيئًا، أعطني الأغراض فحسب». فسلّمه بدر جميع أغراضه على مرأى من ممثّل الصليب الأحمر، الذي وقف من دون أن يتكلّم بشيء يبادر إلى أي عمل.

(١) وُلد بدر في جلال أباد، في أفغانستان، حوالي العام ١٩٧٠، وحاز على ماجستير في الأدب الإنجليزي. وقبل أن يُنقل إلى غوانتانامو كان قد سُجن في أفغانستان لكتابته مقالات ساخرة حول الولايات المتّحدة وطالبان. أطلق سراحه من غوانتانامو قبل أن تبدأ المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين. ألّف كتابًا ناقدًا مع أخيه حول غوانتانامو ونُشر عام ٢٠٠٦.

بعد انتهاء المقابلة، عاد بدر جاءه الرقيب وقال له: «أيّها الغبي! إلى من تشتكي؟ ما الذي تظنُّهم قادرين على فعله؟». أعاد إليه أغراضه مجدّدًا. ومنذ ذلك الحين لم نعد نرفع مطالبنا إلى الصّليب الأحمر، رغم أننا واظبنا على التقائهم لأن في ذلك فرصة لتغيير الجو الذي نعيش فيه، وتذوّق البسكوت والعصير.

في السّنتين الأخيرتين لإقامتي في غوانتانامو، تمّ استخدام مترجمَيْن باشتونيَّيْن. أحدهما يدعى حبيب كبير والآخر أرمان، وكلاهما من أفغانستان، يقيمان في ألمانيا وفرنسا. كانا كلاهما يتّسمان بالطيبة. وقد أظهرا تعاطفًا في التّعامل مع السجناء. كما بدا على وجهَيْهما علامات التأثّر لما نعيشه. أتى حبيب إلينا مرّة واحدة ثمّ اختفى لفترة طويلة. قال: « لا يمكنني رؤيتكم بهذه الحالة. أخاف أن تصيبني نوبة قلبيّة حين أدخل هذا المخيّم». كان يساعد الأمّيين، ويقضي نهاره يدوّن الرسائل إلى عائلاتهم. ولمّا كان معظم السّجناء يجهلون عناوين عائلاتهم، فقد عمل هو على البحث عنهم وإيصال الرسائل. أرمان، هو الآخر، ساعد السجناء على التواصل مع ذويهم. كان يدرك المشكلات التي نعاني منها، ويفهم لغتنا وثقافتنا، فمنحناه ثقتنا.

حين كنت في غوانتانامو، غفلت عن حجم العمل الذي كان الصليب الأحمر يقوم به لمساعدة السجناء، ولم أتنبّه لذلك إلا عند خروجي من هناك. أدركت مدى الاهتمام الذي خدموا به قضيّتنا. ساعدنا هؤلاء في الوقت الذي كانت فيه أميركا تمارس علينا جميع أنواع التعذيب. أميركا ... أرض الأحرار الذين داسوا القوانين وحقوق الإنسان بجزمهم. أستغل هذه المناسبة لأعبّر عن امتناني للصليب الأحمر، ولأتمنّى له كلّ التوفيق في المستقبل.

▲▼▲

في المخيّم، تناوبت على الخدمة مجموعات مختلفة من الجنود، لكلّ منها شارة تحمل رمزًا معيّنًا. في البداية تعاملنا مع مجموعات ثلاث أساسية تحمل شارات شجرة أو صليب أو قمر. عاملنا فريق الشجرة بشكل جيّد. لم يميّز أولئك بيننا.

وقدّموا إلينا الطّعام بكمّيات كافية. ولم يبخلوا علينا بالفواكه كلما أتيح ذلك. ولم يعمدوا إلى إزعاجنا حين نخلد إلى النوم. وعملوا ما بوسعهم لتأمين الرعاية الطبيّة لمن احتاج إليها من السجناء. بالمقابل، تعاونّا معهم قدر المستطاع. وفي المرّات التي كان أحد الإخوة يشعر بالتعب الشديد أو بمرارة الخيبة، نعمل على إقناعه بعدم رفع الشكوى ضدّ أولئك الجنود، لأنهم كانوا رجالًا طيّبين. حرصنا إذًا على معاملتهم باحترام وتعاطف، كما جاء في القرآن الكريم.

أما الجنود ذوو شارات الصليب، فكانوا بغاية الصرامة، وحرصوا على تنفيذ القوانين بحذافيرها. تحامل هؤلاء علينا وأساؤوا إلينا. ولم يقدّموا إلينا ما يكفي من الطعام. لكن، والحقُّ يُقال، فقد تحلّى بعضهم بالاحترام والأخلاق الطيّبة. أما أفراد المجموعة التي تحمل شارة القمر، فكانوا جميعا أشرارًا. وقد تحاملوا علينا، فحرمونا الطعام الكافي والثياب المناسبة.

وثمة مجموعاتٌ ثلاث أخرى. الأولى تحمل شارة مفتاح، والثانية الرقم ٩٤، والثالثة شارة إسبانيا. وقد بدا جنود الشارة الإسبانية الألطف والأكثر احترامًا بين جميع الجنود الذين التقيتهم في غوانتانامو. وقد أظهروا تعاطفًا ورحمة تجاهنا. وغالبًا ما تحاورنا، فأخبروننا عن أجدادهم الذين اعتنقوا الإسلام. وصاروا يجلبون لنا المزيد من الطعام والصابون والشامبو. أفصح هؤلاء عن احترام للإسلام. وحرصوا ألا يقاطعونا في أوقات الصّلاة. ولم يقلّلوا قط من شأن القرآن الكريم. وكانوا في بعض الأحيان ينقلون إلينا الأخبار عمّا يجري في العالم الخارجي. لكنّ أولئك الجنود اختفوا فجأة، استُبدِلَ بهم الأميركيون الحمر.

وحدّث عن الجنود ذوي الشارات الحمر ولا حرج. إنهم وحوش بريّة. وكانوا لا يزالون في المعتقل يومَ أُطلق سراحي. قلوبهم قاسية، لم يحترموا يومًا الإسلام. وعملوا ما بوسعهم ليجعلوا حياتنا جحيمًا. كانوا يقومون بحملات التفتيش ليلًا، فيمنعوننا من النوم، ويقدّمون بلاغات خاطئة عن السجناء إلى السلطات. أساء هؤلاء إلى القرآن وعاقبوا السجناء دون أيّ مبرّر.

وقد تصاعدت العدائية بين الفرقة ٩٤ والمعتقلين الذين عمدوا إلى عصيان

أوامر الحراس في كلّ مرّة استطاعوا إلى ذلك سبيلًا. فكانوا يرشقونهم بالماء ويرفضون الإجابة عن أسئلتهم والانصياع لأوامرهم. وأخيرًا قرر السّجناء وجوب إزالة الفرقة ٩٤. وأعلنوا أنّهم سيصعّدون عصيانهم حتّى مغادرة هؤلاء الحراس. تحرّكت السلطات حينها، وحلّت الفرقة، ووزّعت أعضاءها على سائر مجموعات المعتقل.

كان يُعاد تشكيل الجنود كلّ ستّة أشهر، فيغادر الحرّاس الطيّبون، ويأتي آخرون سيّئون في غالب الأحيان. أبدى لنا بعض الجنود حزنهم تجاه ما يجري في المعتقل. وقالوا إنّهم متى خرجوا سينقلون قضيّتنا إلى وسائل الإعلام العالميّة، حتّى يعرف العالم كلّه ما كنّا نعانيه في كوبا.

اختلفت طباع الجنود باختلاف انتماءاتهم. وفي غوانتانامو صادفنا الحمر والبيض اللاتينيين والسود والهنود. كان معظم البيض اللاتينيين مهذّبين يتعاطفون مع السجناء، ولم يمارسوا تمييزًا عنصريًا.

▲▼▲

أما الأميركيون الأفارقة، فمتعبون طوال الوقت، ينامون ويأكلون، فضلًا عن أنهم ذوو مستوى ثقافي متدنّ؛ ذلك أنّهم قد جاءوا بمعظمهم من بلدان فقيرة. ولم يتوانَ أقساهم وأعنفهم عن ممارسة التمييز تجاهنا. انتقدَ هؤلاءِ الأفارقة الأميركيين البيضَ والحمرَ، واتّهموهم بالأنانية والوحشيّة والتعرُّض لهم بالسوء. وقد خيّم مُناخ من عدم الثّقة على العلاقة بين تينك المجموعتين، وكان الأميركيّون الأفارقة، في كلّ مرّة يتكلّمون فيها إلى أحد السجناء، ينظرون حولهم ليتأكدوا أن أحدًا لم يرهم.

يمسك الأميركيون الحمر بالمراكز المهمّة في الإدارة الأميركيّة، ويُعرفون بخداعهم وغشّهم وأكاذيبهم. ومعظم كبار الجنود كانوا من الحمر. وقد اتّضح أن مستوياتهم العلميّة والماديّة كانت تفوق مستويات زملائهم اللاتين أو الأميركيين الأفارقة.

تألّفت المجموعة الرابعة من الهنود، وكانوا قلّة. وهم سكّان أميركا الأصليون، وأصحاب الأرض الأميركية الحقيقيون. عاشوا فيها لزمن طويل قبل أن يتمّ اكتشافها على أيدي الأوروبيين. ويعيش معظمهم اليوم في الأحياء الشعبية، وتنتشر الأمية في أوساطهم. كما تتفشّى بينهم آفات المخدّرات والكحول. اضطهدهم الأميركيّون الأوائل وقتلوهم، اغتُصِبت أرضهم، وطردوا منها نحو الجبال. ولا يزال تمثيلهم في الحكومة ضعيفًا حتّى اليوم، وهم يعتبرون الأميركيين الآخرين غزاةً، ويرفضون ما تقوم به الولايات المتّحدة. لذلك وقفوا إلى جانبنا في ما يحدث.

▲▼▲

عندما وصلت إلى غوانتانامو، كان المعتقل مؤلّفا من مخيّم واحد يتضمَّنُ ثمانية أبنية ومبنى للسجن الانفرادي. يضمّ السّجن ثمانيَ وأربعين زنزانة، وساحتين للمشي، وأربعة حمامات بسيطة، وأربعًا وعشرين زنزانة في السجن الانفرادي. كانت ملابسنا حمراء مصنوعة من موادَّ خشنة أحدثت طفحًا جلديًا لبعض السجناء. وقد أُعطي كلُّ سجين غطاءين وزجاجتي ماء، ومنشفتين، وسجادة بلاستيكية صغيرة، وفرشاةً ومعجون أسنان، ونسخةً من القرآن الكريم، وقناعًا. بيد أن الحراس عمدوا إلى مصادرة هذه الأغراض، عدا السجادة، لمعاقبتنا.

حين بُني المخيّم الثاني، واستبدل الجنرال القائد، تغيرّت الأوضاع؛ فتوزّعنا على مجموعات، وازدادت العقوبات شدّة. وتمّ إنشاء زنازين جديدة حتّى وصل عددها إلى ثلاثمئة. وصودرت نسخ القرآن التي كانت بحوزتنا، وحُلقت شعورنا ولحانا من جديد. كما ازدادت الاعتداءات على السجناء خلال جلسات الاستجواب.

تسلّم قيادة السجن جنرالٌ جديد يُدعى ميلر[1]، تمّ نقله لاحقًا إلى العراق،

(١) كان الجنرال ميلر (المولود تقريبًا في ١٩٤٩) القائد العسكري لسجن غوانتانامو من العام ٢٠٠٢. ارتبط عهده بفضيحة تعذيب السجناء في سجن أبو غريب في آذار/مارس ٢٠٠٤. تقاعد في العام ٢٠٠٦ بعدَ أن خدم في الجيش الأميركي ثلاثة وأربعين عامًا.

حيث تسلَّم سجن أبو غريب. بنى هذا الرجُل سجنًا جديدًا، يُسمّى مخيّم إيكو[1]. وهو مكان مظلم وموحش جدًّا ضمّ أماكن مختلفة للاحتجاز. أحد تلك الأماكن قفص داخل غرفة مع حمّام إلى جانبها. ويتمّ التحكّم بالغرفة والأبواب عن بعد، ومراقبة السجناء على مدار الوقت، بواسطة كاميرات مراقبة. ولم يكن ممكنًا داخل الغرفة التمييز بين الليل والنهار. حتى أن احتجاز بعض الإخوة هناك قد ولّد لديهم أزمات نفسيّة مزمنة بعد خروجهم. كما لم يكن ممكنًا أن يسمع من في الخارج صراخ من في الغرفة. ما اضطر من في الداخل إلى التلويح بأيديهم للفت نظر الحراس إليهم. مُنعَت الكتب والدفاتر وجميع الأشياء الأخرى عن السجناء، وتركوا معزولين بين أربعة جدران.

عانى الكثير من السجناء مشكلات نفسية بعد مرور سنوات على سجنهم في غوانتانامو. أحد المعتقلين اسمه أحمد[2]، شابٌّ من المغرب هاجر إلى بريطانيا، ثمّ قدم إلى الباكستان لدراسة الدين حيث ألقي القبض عليه. كان جاري في سجن قندهار، وهو واحد من مجموعة مكبّلة بالسّلاسل المعدنية الثّقيلة طوالَ الوقت. انهار أحمد في النهاية، وبدأت تظهر عليه علامات الاضطرابات النفسية جراء ظروف الاحتجاز القاسية. وبدل أن تتمّ مساعدته، تعرّض للمزيد من العقوبات. أذكر أنّه أُغمي عليه مرّات عدّة. ازدادت حالته سوءًا مع نقله إلى غوانتانامو. في مرحلة معيّنة كان يقيم في القفص بجانبي، وكنت أستطيع سماعه طوال الليل يردّد

(١) مخيّم إيكو هو واحد من سبعة مخيّمات تشكّل مرفق الاحتجاز في خليج غوانتانامو. يُستخدم لاحتجاز السجناء في حبس فردي. ويُحتجز عادة السجناء رفيعي الشأن في هذه السجون التي يصعب الوصول إليها.

(٢) أحمد الرشيدي (المولود حوالى العام ١٩٦٦) هو مواطن مغربي. اعتُقلَ في الباكستان عام ٢٠٠٢، ونُقِل إلى غوانتانامو في نيسان/أبريل عام ٢٠٠٧. أمضى الرشيدي ١٧ عامًا في لندن حيث عمل طبّاخًا في عدد من المطاعم قبل أن يُغادر إلى أفغانستان في تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١. أسماه المسؤولون في السجن «الجنرال» وذلك بسبب تأثيره في الآخرين وثقته بنفسه (Golden, 2006). خضع الرشيدي إلى ما يُسمّى بـ«برنامج المسافر الدائم» أي كان يُنقل إلى سجن آخر مرّات عدّة في النهار وفي الليل ويُستجوب لستّ ساعات وذلك ليُحرمَ من النوم. وجد أحد المحققين أدلّة تُفيد بأنّ الرشيدي كان يعمل في لندن في حين أنّه ادّعى أنّه كان في تدريب في مخيّم الفاروق في تموز/يوليو ٢٠٠١ وذلك حسب تقرير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين.

القصائد، ويتلو القرآن الكريم. لم يكفّ عن التبشير بأن المهدي (عليه الصلاة والسلام) سيعود في هذا العام. كان بذلك يعزّي نفسه. ذات يوم ضربَ أحد الجنود بصحن الطعام؛ فنقل إلى مخيم الصدى حيث قضى ثلاث سنوات.

ومع أن أحمد بلغ مستوى رفيعًا من التعليم، فإن السجن جعله يفقد عقله. وأدرك الجنود جيّدًا أنه وصل إلى مراحل متقدّمة جدًّا من الاكتئاب، لكنّهم لم يحركوا ساكنًا لمساعدته، بل استمرّوا في تعذيبه. عانى الكثيرون من مشكلات نفسيّة في السّجن. أذكر مثلًا الدكتور أيمن[1]، وطارق عبد الرّحمن[2]. ولا أشك في أن هؤلاء ستغفر خطاياهم أمام اللّه القدير، بعكس الأميركيين.

احتجزت في القفص ١٥ بمبنى دلتا، وفي القفص ٨ من المبنى الذهبي بمخيم دلتا[3] حتى مطلع العام ٢٠٠٣. نُقلت بعد ذلك إلى القفص ٣٧ بمبنى المكعّب. في زنزانتي الجديدة، تمكّنتُ من رؤية المحيط والسفن العابرة فيه. لكنني نُقلت من جديد إلى مجموعة أخرى من الزنازين حيث قضيتُ فترة طويلة من الوقت.

في الفترة الأولى، سُمح لنا بالاستحمام مرة في الأسبوع، وبربع ساعة من المشي في أحد الملاعب، وأيدينا مقيّدة. تمّ لاحقًا تمديد الوقت، فحصلنا على ثلاثين دقيقة، مرّتين في الأسبوع. وكنا نبدّل ملابسنا بشكل أسبوعي. خلال ردح طويل في المرحلة الأولى، مُنعنا من تشذيب لحانا أو قصّ أظفارنا. تبدّل هذا الأمر لاحقًا، إذ سمح لنا باستخدام مقصّ الأظافر وآلة الحلاقة مرّة في الأسبوع.

(١) أيمن سعيد عبدالله بطارفي (المولود حوالى العام ١٩٦٧) هو يمنيّ قوميّ وُلد في القاهرة في مصر. ادّعى أنه كان يعمل بصفته طبيبًا خلال المعركة التي حصلت في تورا بورا عام ٢٠٠١ حين أُلقي القبض عليه. وصرّح الصحافي سامي الحاج الذي أُطلق سراحه من غوانتانامو في ١ أيار/مايو ٢٠٠٨ أنّ اليمنيّين مثل بطارفي صاروا مجانين بسبب تعاطيهم المخدّرات والمهلوسات في غوانتانامو. لم يتمّ الإفراج عنه منذ العام ٢٠٠٨.

(٢) طارق عبد الرحمن يتحدّر أصلًا من هلمند وأُفرج عنه وأُرسل إلى أفغانستان.

(٣) مخيّم دلتا هو مرفق احتجاز في خليج غوانتانامو، بدأ العمل فيه في نيسان/أبريل ٢٠٠٢. وهو مؤلّف من سبعة مخيّمات على الأقلّ. (مخيّم ١ إلى ٦ ومخيّم إيكو).

استبدلت بالحصص الغذائية العسكرية حِصصٌ طازجة للفطور والعشاء، وفي العام الذي تلى، صار الغداء أيضًا يُقدَّم طازجًا. وعُهد إلى الجنود الذين يسكبون الطعام أمر تحديد الكمية التي يحصل عليها كل سجين؛ فبقيت الكمية صغيرة، وكنا غالبًا ما نشعر بالجوع. وفي جميع الأحوال، كان الطعام يُحضَّر بطريقة تجعله بلا نكهة. وبتنا نحصل على الفواكه ثلاثة مرّات في اليوم، وهي قمة الرفاهية في نظرنا.

سُمح لنا بالصّلاة خمس مرات في اليوم. حتّى أن صلاة الليل كان يُعلن عنها. استعمل الجنود شريطًا مسجّلًا للأذان، وكانوا يقلّدون الصوت في بعض الأحيان لكننا رغم ذلك بقينا نعتمد على الشمس لتحديد الوقت الصحيح. بعد فترة، سُمح لنا أيضًا بالصلاة جماعة، لكن السجناء الانفراديّين عانوا صعوبات بالغة، إذ كان من المستحيل تحديد أوقات الصلاة، فعمدوا إلى أداء صلواتهم في الأوقات التي ارتأوا بأنفسهم أنها مناسبة.

حين بُني المخيم الثالث، تدهورت أوضاعنا. فتناقصت كميّة الطعام التي نحصل عليها، كما تراجعت النوعية، وازدادت العقوبات. وكان مبنى المكعّب المبني حديثًا أفضل مثال على قساوة الحياة فيه، حيث أجبر السجناء على البقاء في ملابسهم الداخلية في جميع الفصول، ومُنعوا من ستر أجسادهم حتى في أوقات الصلاة. القليل القليل من الطعام والتعذيب المستمر باتا خبز السجناء اليومي. ناهيك بدورات المياه التي يراها الجميع؛ وصغر الزنزانة إلى درجة يصعب معها على السجين أن يتمدَّد في أرضها لينام.

أتت فصول الشتاء باردة، فعمد السجناء إلى القفز لتدفئة أجسادهم. بيد أن أسوأ الأوضاع التي فُرضت علينا انسداد المجاري، وانتشار رائحة المياه الآسنة لتملأ المبنى كلّه. مُنعت عنا مناديل المرحاض، ومنع الماء لنغتسل، فلم يبق لدينا سوى أيدينا، التي حتى هي منعنا من غسلها. والأسوأ من كل ذلك إجبارنا على استخدام أيدينا المتّسخة جرّاء المرحاض، لتناول الطعام. هؤلاء هم المدافعون عن حقوق الإنسان، وهكذا أرغمونا على العيش.

قضى كل سجين في مبنى المكعّب مدة تراوح بين شهر وخمسة أشهر. وكانت

هذه المدّة تطول للسّجناء للذين عجزوا عن التحكُّم بردود أفعالهم. أما المرضى النفسيون، فقد جُهّز مبنى جديد لهم، وعانى معظم المحتجزين هناك من حالات اكتئاب حاد، وحاولوا الانتحار. في الفترة التي قضيتها هناك، شهدت محاولات انتحار يومية. وقد عمد الجنود إلى حقن المرضى بالمهدّئات لتسكينهم؛ فأصبح معظمهم مدمنًا عليها.

أضف إلى ذلك العنف الذي استوطن بين السجناء أنفسهم، إذ اتُّهم البعض بالتواطؤ والتّجسُّس لحساب الأميركيين، فتعرَّض المتهمون للتوبيخ والضرب في حالات عدَّة. كان السجناء الآخرون يبصقون عليهم فطالبوا أن ينقلوا إلى مكان آخر. وكل من حاول منهم شنق نفسه في زنزانته، نُقل إلى قسم المرضى النّفسيين، ما زاد وضعه تردّيًا.

كان بعض الجواسيس من الأفغان؛ الذين ترك الكثير منهم الإسلام واعتنقوا ديانات أُخرى. جدَّفوا باسم اللَّه وبالقرآن الكريم الّذي انتُزع منهم لاحقًا. وكان بين الجواسيس أشخاصٌ من جنسيات عراقية ويمنية؛ فتعامل السجناء الآخرون بحذر معهم. ولكم ارتابوا لدى دخول أحد الجواسيس زنزانة مجاورة لهم، ولكم شكروا اللَّه، متى ابتعد عنهم. حدث كلّ ذلك في مبنى دلتا، حيث يضع الكفار الصلبان في أعناقهم، وحيث راح عددهم يرتفع يومًا بعد يوم. واعتقد الكثيرون أن هذه الخطة أميركية تهدف إلى تحييدنا عن اتّباع الإسلام.

لاحقًا بُني مخيمان جديدان، أحدهما يحتوي على كل المرافق الضرورية لحياة أفضل، والثاني مجرّد مكان آخر للتّعذيب. وصلتنا سريعًا أخبار المخيم رقم خمسة[١] المبني في مكان بعيد نسبيًا عنّا، إلى درجة أن المحقّقين أنفسهم أبلغونا أن هذا المكان هو الأسوأ في العالم.

---

(١) يتميّز المخيّم رقم خمسة في مخيّم دلتا لأنّه مؤلّف من طابقين آمنين جدًّا مصنوعان من الخرسانة والفولاذ. وصلت قيمة بنائه إلى ٣١ مليون دولار أميركي (على الرغم من أنّ مصادر أخرى تفيد بأنّ قيمة البناء ١٣ مليون دولار). صُمّم البناء لاحتجاز ١٠٠ سجين وأنهي العمل فيه في أيّار/مايو ٢٠٠٤. يُحتجز فيه كل الذين يُشكلون خطرًا أمنيًا في هذا المخيّم ويفيد أحد المصادر أنّ ١٦ بالمئة من السجناء كانوا مُحتجزين في المخيّم رقم خمسة.

في الواقع أن ظروف الحياة في المخيم رقم خمسة كانت سيئة. فالهواء الخارجي لا يدخل الزنازين، حتّى الشمس تعجز عن ذلك، إذ لا نوافذ في الغرف. وُضعت كلّ غرفة تحت عيون كاميرة مراقبة، وجُهّزت بسرير اسمنتي ومغسلة وحمّام. بُنيَت الجدران من الإسمنت، وتم التحكم بالأبواب عن بعد. وحده القرآن الكريم كان مسموحًا في الداخل. فالطعام يُقدّم عبر نافذة صغيرة في الباب. ولم يكن يسمح لنا بالنظر عبر تلك النافذة عند تقديم الطعام. غالبًا ما كان الطعام يقع أرضًا خلال هذه العمليّة. وفي مثل هذه الحالات، لم نكن نحصل على حصّة جديدة. وأصبحت النزهة الخارجية الأسبوعية تحت الشّمس مجرّد امتياز. ولم توفّر الرعاية الطبية إلا في الحالات القصوى. ولا أذكر أن أحدًا شُفي من مرضه هناك.

احتُجز الملّا فضل في المخيّم رقم خمسة. وهو يعاني من مشكلة في الهضم، ظلّ يطالب بالعلاج لأكثر من سنة، وظل طلبه يقابل بالرفض. ولم يُنقَلْ إلى المستشفى، إلا حين أضرب عن الطعام، وفقدَ وعيه أخيرًا.

اتّسمت ظروف الحياة بالقسوة الشديدة. وغالبًا ما كذب الجنود الأميركيون علينا وخذلونا، ومارسوا ضدنا التّعذيب والتنكيل. وكلّ الإخوة الذين دخلوا المخيم رقم خمسة خرجوا أشبه بهياكل عظمية. وكان مجرّد النظر إلى أجسادهم الهزيلة يبعث الألم في النفوس. عندما رجع أبو حريص[1] من ذلك المخيم، لم أتمكن من التعرف إليه، فالرجل الذي عاد إلينا لا يشبه، بأي شكل، الرجل الذي غادرنا. أرعبني منظره فكنت أحلم به ليلًا، وأفيق وأنا أصرخ. ليعجّل الله القدير في إطلاق سراح جميع الإخوة المسلمين وهم بصحّة وأمان؛ ولينجّيهم من أيدي الوثنيين والأشرار. كنا ندعو المخيم رقم خمسة بالمقبرة رقم خمسة، لأنه كان قبرًا للأحياء.

تم إنشاء المخيم رقم أربعة، لاحتجاز السجناء الذين بات إطلاقهم من

(١) يتحدّر أبو حريص من الكويت وَوُلد حوالي العام ١٩٧٢ أو العام ١٩٧٣.

غوانتانامو قريبًا. كانت الفكرة من إنشائه تأمين معاملة جيّدة ونظامًا غذائيًّا يمكّن السّجناء من استعادة أوزانهم وقواهم، ليعودوا إلى الحياة العادية من جديد.

عاش السجناء كجماعة في المخيم رقم أربعة. يأكلون ويصلّون معًا. وتم السّماح لهم بممارسة الرياضة والألعاب، كما فُتح المجال للسجناء بالاستحمام مرّات عدّة في النهار، لو شاؤوا ذلك. بالإضافة إلى ذلك، أصبح يعرض فيلم سينمائيّ مرة في الأسبوع. كما تلقّى الكبار في السّن حصصًا دراسية. وأُدخلَت أصناف جديدة في قائمة الطعام، فحصلنا، مع الوجبات العادية، على التمور والعسل والحلوى والكاتشاب وغيرها، في الوقت الذي كان فيه سجناء المخيمات الأخرى يستميتون للحصول على رغيف من الخبز.

احتوى المخيم رقم أربعة على ملعب لكرة القدم والكرة الطائرة وكرة الطاولة وزاره صحافيون وأعضاء في مجلس الشيوخ الأميركي، فالتقطوا الصور وصنعوا الأفلام؛ لكننا مُنعنا من التواصل معهم. استبدلت بملابسنا الحمراء ملابسُ بيضاء، وأعطانا الجنود قِطع الصابون لغسلها. في البداية، وعندما نُقِلَ بعض السجناء إلى المخيم رقم أربعة، حسبنا أن موعد إطلاق سراحهم قد بات قريبًا. حتى الأميركيون أخبرونا أن مدّة إقامة السجناء في المخيم رقم أربعة لن تطول أكثر من شهر واحد ليصار إلى الإفراج عنهم. لكنّ الشهور تتالت، واستحالت سنوات. بيد أننا آخر المطاف، لم نفاجأ بهذا الأمر، لأن الأميركيين عوّدونا إطلاق الوعود ونسيانها في أقرب فرصة.

ذات يوم، وبعد أن تنقّلت من زنزانة إلى أخرى في مبنى المكعّب، جاءني جندي وأمرني بتحضير نفسي للاستجواب. نقلت إلى مكان لم أره من قبل، وتمّ تكبيلي بسلاسل معدنية وسط الغرفة. دخلت مجموعة من الأفغان؛ فألقوا السلام وجلسوا على كراسيّ وضعت من حولي. عرّفوا بأنفسهم كمندوبين عن الحكومة الأفغانية، وأخذوا يطرحون أسئلة كتلك التي تعوّدت سماعها من الأميركيين. ومن وقت إلى آخر كانت تدخل امرأة أميركية وتسلّمهم أوراقًا، أو تهمس في آذانهم؛

فشككت أن يكونوا فعلًا مبعوثين من الحكومة الأفغانية، وخمّنت أن هذا مجرّد خطّة جديدة وضعها الأميركيون للإيقاع بنا.

لمّا سألت عن سبب قدومهم، أجابوا أن هدفهم تأمين الإفراج عنّي. فقلت لهم إن تلك المقابلة تبدو استجوابًا أكثر من أي شيء آخر؛ لكنّهم لم يعلّقوا على ما قلته، وغادروا سريعًا. معظم السجناء لم يصدّقوا أن هؤلاء الناس بعثة أفغانية حقًّا، فأساؤوا معاملتهم.

لاحقًا، نُقلت إلى المُخيَّم الأول رقم واحد ثم إلى المخيم رقم أربعة في حزيران/يونيو ٢٠٠٤، حيث بقيت هناك حتّى أُخليَ سبيلي، بعد سنة وثلاثة أشهر.

١٩

مقبرة الأحياء

شهدتُ وسمعتُ خلال السنوات الأربع التي قضيتها في غوانتانامو أحداثًا لا تُصدّق، وقعت في المخيّمات الأول والثاني والثالث. ذلك أن المعتقلين قد واجهوا ظروفًا صعبة تخالفُ كلّ قانون دولي ودستوري وإسلامي وغير إسلامي.

في العام ٢٠٠٣، ومع بداية شهر رمضان المبارك شهر الصوم لدى المسلمين، أخبرونا أنّهم سيحضرون لنا بعضَ التمر والعسل والخبز. فشعرنا بالسعادة، على الرغم من أنّ تلك الأطعمة لم تكن كافية. ولكن في اليوم الثاني من رمضان، أساءَ أحد العساكر معاملتنا. كنّا ثمانيةً وأربعين سجينًا؛ فبادر ثلاثةٌ منّا إلى الردّ، حيث رمى سجينٌ الماء على العساكر؛ فقاموا على الفور بجرّه إلى زنزانة أخرى ليعاقبوه. وأعلنوا في اليوم التالي أنّنا جميعنا معاقبون بحرماننا من الطعام الطازج لأربعة وثلاثين يومًا، ومن المياه أيضًا. طلبنا التحدّث إلى الضابط المسؤول، وأخبرناه أن عليهم احترام شهر رمضان؛ وأنّهم يعاقبوننا جميعًا لأنّ سجينًا واحدًا فقط أساء التصرُّف. فجاء ردّه سلبيًّا: «إنّها الطريقة العسكريّة: إن أخطأ فردٌ واحدٌ، يعاقب الجميع».

وذات مرّة، أساءت جنديَّةٌ التعامل مع القرآن الكريم فرمته أرضًا بينما كانت تفتّش الزنزانة. أثار الأمر غضب السجناء؛ فاعتصموا، ورفضوا تغيير ملابسهم والاستحمام والتعاون مع الجنود بأي شكل من الأشكال، أو حتى الخروج من السجن. انتشر الاعتصام بسرعة. وبدل أن تقوم الإدارة بمعاقبة الجندية على

تصرُّفها (كما طلب السجناء)، واجه هؤلاء التحرُّك بعنف. أُطلقَ الغاز داخل الزنازين، ما جعل السجناء يفقدون وعيهم. واقتُحِمت الزنازين، وأُخرِجت جميع الموجودات، وأُجبِر السجناء على الخروج. وحُلِقَتْ شعورهم جميعًا. وقع المبنى في حالة من الفوضى والضجيج، منعَتِ الجميع من النوم.

في مرة أخرى، احتُجزَ السجناء في مبنى منفصل يُسمَى أنديانا فأخذوا يصرخون «اللَّه أكبر» ويضربون على جدران زنازينهم. في ذلك الوقت، لم يكن أحد منا يعلم ما الذي يجري في مبنى أنديانا. ولكن الأخبار سرعان ما تناهت إلينا عن جنود ضربوا أخًا عربيا يُدعى مشعل[1] ضربًا مبرحًا، حتى اعتقد البعض أنه فارق الحياة. طالب جميع السجناء بالحصول على معلومات عن حالة الأخ مشعل. وهددوا بافتعال أزمة داخل المعتقل. بادر الجنود إلى تشديد الإجراءات الأمنية؛ لكنّهم عادوا وأعلنوا أن مشعلًا لا يزالُ حيًّا، لكنه في وضع دقيق. بعد شهرين، اكتشفنا أن الرجل قد أصيب بالشلل التام. لم يكن قادرًا على الجلوس أو المشي أو الحركة. حتى أنه فقد القدرة على النطق. بقي في مستشفى غوانتانامو لسنتين ونصف السنة، لكنّ حالته لم تتحسّن فتمّ تسليمه إلى السلطات السعودية.

في غوانتانامو، كان كل شيء يحدث بالشكل المعاكس. حين وصلت إلى هناك، بدت لي الظروف صعبة، ولكن كلَ شيء ازداد سوءًا مع الوقت. كانت مشكلتنا الدائمة هي الطعام. وتطلّب الأمر وقتًا طويلًا حتى نجحت السلطات في تأمين كميات كافية وملائمة من الطعام. كانت الأمور كلها تسيرُ على أسس تجارية بحت. فالمعاملة والامتيازات على ارتباط وثيق بالمحققين. فإذا ما أجاب أحدهم عن أسئلتهم، بما يلائم انتظاراتهم، حصل على ما أراد، من المناديل الورقية والمياه المعبّأة، أو حتى النقل إلى المخيم الرابع. بالمقابل، كان يتعرّض الإخوة غير المتعاونين للعقاب.

(١) وُلد مشعل عوض سيّاف الحربي حوالى العام ١٩٨٠ في المملكة العربيّة السعوديّة. ألقي القبض عليه في مزار الشريف بأفغانستان عام ٢٠٠١، وأُطلق سراحه من غوانتانامو، وأُرسل إلى السعوديّة في ١٩ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

الملّا فضل، مثلًا، عوقب واحدًا وأربعين يومًا، لأنه رفض الإجابة عن الأسئلة خلال الاستجواب. أُجبر على البقاء مقيّدًا في غرفة التحقيق خلال الليل، وتم تشغيل جهاز التكييف بأقصى طاقته. وخلال النهار حرص الجنود على إبقائه مستيقظًا بإجباره على المشي. كان الزوار يأتون دائمًا إلى المبنى الرابع، ولم يروا يومًا حقيقة ما يجري في غوانتانامو، على بعد أمتار منهم. مرّات كثيرة تعرّض القرآن الكريم للإهانة. واستغلّ الجنود هذا الأمر لمعاقبتنا.

أقدمنا، أكثر من مرة على استرداد نسخ القرآن الكريم من الإخوة وأعدناها إلى السلطات، لأننا كنا عاجزين عن حمايتها بأنفسنا. ولكن، بدلًا من أن يستردوها منا، عمدوا إلى معاقبتنا. السجناء أضعف خلق اللّه في العالم. والسجين في غوانتانامو لا يصح أن يعدّ إنسانًا، لأنه يجرّد من صفاته الإنسانية شيئًا فشيئًا مع كل يوم يمرّ.

▲▼▲

أخبرني الكثيرون عن تجاربهم، من خلال الجيرة التي جمعتنا في الزنازين. مختار[1] من اليمن، ويوسف[2] من طاجكستان كانا في قلعة جانغي[3] بقندوز، من ضمن مجموعة كبيرة من مقاتلي طالبان الذين استسلموا للميليشيا الأوزبكية. ظن هؤلاء أنهم توافقوا على شروط الاستسلام، وأنهم لن يتعرضوا لأي أذى، لكن المقاتلين الأوزبكيين نكثوا بوعودهم. وتعرّض مقاتلو الطالبان للضرب، وقُتل بعضهم وعُذّب بعضهم الآخر. ليوضعوا، بعد ذلك، بالمئات داخل مستوعبات

(١) مختار يحيى ناجي الورافي يمني الجنسيّة وُلد حوالى العام ١٩٧٦. اتُّهمَ بمساعدة طالبان عام ٢٠٠١ إذ كان مسؤولًا عن عيادة خاصّة للعرب. وهو لا يزال في غوانتانامو منذ العام ٢٠٠٨.

(٢) يوسف نابييف (المولود قرابة العام ١٩٦٤) هو من مواليد إسفارة في طاجيكستان. أُطلق سراحه من غوانتانامو قبل بدء تقرير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين في تموز/يوليو ٢٠٠٤.

(٣) قلعة جانغي احتُجزَ فيها «سجناء طالبان والقاعدة». قام السجناء بانتفاضة بين ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر و١ كانون الأوّل/ديسمبر. ونجا ٨٦ من السجناء الـ ٣٠٠ الذين كانوا مسجونين هناك من المعركة.

معدنية. وكان بعضهم في حالة يرثى لها. في قلعة جانغي، كدَّس الجنود السجناء على الأرض وضربوهم، وأجبروهم على مصارعة بعضهم بعضًا. حُرموا من الطعام والشراب، فتمنّوا حينها لو يموتون.

أخبرني يوسف الطاجيكي[1] أن أحد الجنود، كان يفتّشه ويسرق ما بحوزته من مقتنيات ثمينة، حيث عثر على سنّ ملبّسة بالذهب داخل فمه. وعبثًا حاول يوسف أن يوضّح له أن السن ليسَت مصنوعة من الذهب، والجندي يصرّ على اقتلاعها. كانت السن مغروزة بعمق داخل الفك، فأخذ الجندي قطعة معدنية وحاول مجددًا اقتلاعها بها، ولم يدعْ يوسُفَ إلا حين قال له باقي الجنود أن لا قيمة للسن.

كان مختار لا يزال شابًا حينها. وأخذ يبكي حين أخبرني عما حدث له في قلعة جانغي. قال لي إنه تمنّى الموت، وأنه حضر خطّة للهجوم على جنود دوستم. حين فكّت قيود أيديهم، حملوا السلاح وأخذوا بالقتال. استشهد الكثير منهم خلال الأيام الستة التي صمدوا خلالها. لكن عاودوا إلقاء القبض عليهم.

أخبرني محمد يوسف أفغان أنه انخرط في طالبان عندما أتوا إلى قريته. وحين ألقت ميليشيا دوستم القبض عليه، ظنّ أنه لن يعود أبدًا إلى منزله. وُضِع محمَّدٌ ورفاقه في الصف، وضُربوا. وأطلقت النيران على الجرحى أو تمّ رميهم في برك مياه الأمطار. كما وضعت الميليشيا يدها على كل ما كان بحوزتهم من أموال وملابس وأحذية، وحتى معاجين الأسنان. ضُرب البعض حتى الموت، وتم رميهم في مستوعبات الشحن. وبحسب ما ذكره محمد، فقد مُلِىءَ كل مستوعب بثلاثمئة رجل. كان المستوعب، وينقل مسافة أربعة أيام، يفتح خلالها من وقت إلى آخر، فيتعرَّض السجناء للدفع خارجًا والضرب قبل إعادتهم إلى الداخل مجدّدًا. في نهاية المطاف، يُقفل المستودع نهائيًا لمدة ثلاثة أيام، بحيث يبقى السجناء داخله، يصرخون طلبًا للنجدة. يقول بعضهم إنهم شاهدوا النبي محمَّدًا

(١) هي صفة أُعطيت ليوسف تبعًا لجنسيّته. «طاجيكي» أي من طاجيكستان.

عليه الصلاة والسلام. وعندما فُتحَت الأبواب أخيرًا، كان معظم السجناء قد فارقوا الحياة. واضطر من ظلوا أحياء إلى الدوس فوق جثث رفاقهم للخروج. لدى خروج يوسف، كان ممثّلَ الصليبِ الأحمر أوّلُ من شاهدَه. عُصبت عيناه بعدها، واقتيد إلى سجن في جاوزجان[1].

استسلم من طالبان ٨٠٠٠ مقاتل، ووقع ٣٠٠٠ فقط منهم في الأسْر. ذهبتُ إلى إسلام أباد في محاولة لإطلاق سراحهم، وتكلمت إلى دوستم مرّات عدّة، وطمأنني إلى أن السجناء سيلقون معاملة حسنة. ووصل بي الأمر إلى الأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان والصليب الأحمر، لمتابعة قضية السجناء.

يُخبر عبد الغني[2] القادم من خوشاب في قندهار، كيف اقتيد من منزله، وكيف اتّهمه حاكم قندهار بإطلاق صواريخ باتجاه المطار. نفى عبد الغني أي علاقة له بإطلاق الصواريخ، لكنه رغم ذلك، سُلّم إلى اللّه نور[3]، وهو أحد القياديين المرتبطين بالنظام الشيوعي، ممّن تزرع أسماؤهم الخوف حيثما ذكرت. كان اللّه نور مسؤولًا عن الاتصالات في القاعدة العسكرية في لاكشار غاه. وصودف وجوده حينها في مركز القيادة الأمنية في مطار قندهار؛ فاقتيد عبد الغني إليه، واحتُجِز في غرفة مظلمة، حيث تعرّض للضّرب بأسلاك الفولاذ، ومع ذلك لم يعترف. عندها، دلّوه من السّقف رأسًا على عقب، وعمدوا إلى ضربه طوال النهار؛ فلم يستطع تحمّل الألم، واعترف أخيرًا بالتهم الموجّهة إليه، وسُلّم إثر ذلك إلى الأميركيين. سمعت قصصًا كثيرة مشابهة من الإخوة الذين اعتقلوا في الباكستان. وقع هؤلاء تحت قبضة المخابرات أو الشرطة الباكستانية. ومن لم يكن قادرًا

(١) تقع جاوزجان في شمال أفغانستان وهي قوّة دعم لدوستم. يسكن فيها ٤٠٠ ألف مواطن في منطقة أصغر من مساشوستس في الولايات المتّحدة. ولهذه المنطقة حدود مع تركمانستان وأوزباكستان.

(٢) وُلد عبد الغني حوالى العام ١٩٨٤. وتدلّ أدلّة ضدّه وردت في تقرير مجلس مراجعة أوضاع مقاتلي العدوّ أنّه شارك في إطلاق صاروخ بي.أم ١٢ من قندهار ضدّ القوّات الجويّة الأميركيّة (تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٢). لا يزال منذ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٨ في غوانتانامو.

(٣) يتحدّر اللّه نور (من قبيلة باركيزاي) من فرح وقاتل مع الحكومة الشيوعيّة في جهاد الثمانينيّات. كان يعمل قائدًا للأمن في مطار قندهار في الوقت الذي اعتُقل فيه عبد الغني.

على دفع الرشوة، تم استجوابه، وضربه وتعذيبه. كانت الاستجوابات تدور حول أفغانستان، ولم يكن هؤلاء يملكون أي إجابة عن الموضوع، فتمّ بيعهم للأميركيين في نهاية المطاف. بعض المعتقلين لم يزوروا أفغانستان قط، ولم يكن لهم أي ارتباط بالقاعدة أو بطالبان. دخل غوانتانامو صحافيّون ومعلّمون، وصانعو أحذية وتجّار، ولا يزال بعضهم قابعًا هناك. باتت الباكستان معروفة بين السجناء تحت اسم مجبورستان، أي الأرض التي فُرض عليها تنفيذ طلبات الولايات المتحدة الأميركية.

▲▼▲

تم في إحدى المرات نقلي من زنزانتي بغية استجوابي؛ فدخلت غرفةً لم أرها من قبل. توسّط الغرفة كرسيّ أبيض جلست عليه، وإلى جانبي مكتب عليه آلة معيّنة. فك الحراس قيود معصميَّ، ما لم أعهده خلال الاستجوابات. دخل أميركي يرافقه مترجم فارسي وأخبروني أن الآلة هي كاشفة للكذب. سألوني إن كنت أوافق على استجوابي تحت مراقبة الآلة، لتظهر صحّة ما أقول، فأجبت أنه كان من الأجدر بهم أن يأتوا بهذه الآلة منذ وقت طويل، تفاديًا لكل تلك الساعات من التحقيقات المتعبة.

سألوني في البداية «من يعرف كل شيء عنك؟» فأجبت «اللّه، خالقي». ثم سألوني من يعرف كل شيء عني، فأجبت أنني أعرف كل شيء عن نفسي. ومجدَّدًا سألوا مَنْ أيضًا، فأجبت «لا أحد سوى اللّه يعرف كل شيء عني». نظر المحقّق إلي وقال إنه، بمساعدة الآلة الكاشفة، سيصبح قادرًا على معرفة كل سرّ في قلبي. قلت له ألا يدعي قيامه مقام اللّه، وأضفت: «ما من والد يعلم ما في قلب ابنه».

عند ذلك وضعوا الأسلاك فوق جسدي. تشير الآلة إلى درجة حرارة الجسم وضغط الدم، ونبضات القلب ومستوى التعرُّق بين الأصابع ومظاهر جسديّة أخرى يعتمدها المحققون ليعرفوا إن كان الشخص يكذب أم لا. طُرحت عليّ أسئلة بسيطة

عدّة. تجدر الإشارة إلى أن الآلة نفسها تسبّب القلق والخوف عند السجين؛ وهي في الواقع لا تكشف سوى صلابة قلب الشخص. صاحب القلب القوي ينجح في الامتحان، ويجيب عن الأسئلة بسرعة، ولا يفكّر مطوّلًا؛ فلا يدع للمحقق فرصة للشك في صحة ما يقول. لا تعترف معظم المحاكم بنتائج هذه الآلة كبراهين على صحّة الشهادة أو عدمها. فهي ليست سوى وسيلة لإرهاب السجناء.

في جلسة تحقيق أخرى، لم تستخدم فيها الآلة المذكورة، وُضعت خريطةٌ للعالم مركزها أفغانستان مقابلي. رُسمَ على الخريطة أسهمٌ وخطوط متنوّعة. وأخبرني المحققون أن تلك هي خريطة تجارة الذهب غير الشرعية في العالم. واتهموني بكوني طرفًا في تلك العمليات. لم تقتصر ردّة فعلي على المفاجأة حينها، بل دفعني الأمر إلى التفكير أيضًا في مستوى البلاهة التي وصل إليها هؤلاء الناس، ليضيّعوا وقتهم في التفكير بأمور كهذه.

لاحظت أن الخريطةُ تُظهِر أن خطوطَ تهريب الذهب تنطلق من أفغانستان فقلت لهم «إذًا، بالاستناد إلى خريطتكم، فإن الذهب يستخرج من أفغانستان ليباع من ثَمَّ إلى باقي أنحاء العالم»؛ فأجابوا إن ما قلته صائب، ومطابق لما تظهره الخريطة. فتابعت «إذا تمكنتم من إثبات أن أفغانستان بلد منتج للذهب، فسأعترف بكل سرور بكل التهم التي تكيلونها لي». لم يجيبوا بشيء، بل انتقلوا إلى سؤالي عن موضوعات أخرى. أعطوني ورقة أسئلة كان أولها: هل أسافر إلى بشاور كل أسبوع؟ فنفيت الموضوع. وثانيها: ما دافع سفري إلى بشاور كل أسبوع. غالبًا ما كان المحققون يطرحون أسئلة فارغة كهذه.

كانت التحقيقات تستهدف كل شيء: السجناء الآخرين، الجرائم، السفر، تجارب الحياة، العمل، حياة الدراسة، المدارس، أماكن وجود الأشخاص، المؤسسات التربوية، الهيئات السياسية، رجال الأعمال، المناجم والموارد الطبيعية، المؤتمرات الدينية والسياسية، الأحزاب، التنظيمات الاجتماعية والثقافية، سكان الأرياف، القبائل، الاختلافات المناطقية، الجغرافيا وغيرها.

في البداية تمحورت كل الأسئلة حول الوضع الحالي في أفغانستان، لكن

الأمور تبدَّلت لاحقًا؛ فصارت الأسئلة تشمل جوانبَ عامَّةً من اقتصاد البلاد، والموارد الطبيعية ومواقع المناجم. وتم سؤالي بنوع خاص عن النفط والغاز والكْروم والزئبق والذهب والجاد والروبية والفولاذ وغيرها من المعادن الثمينة.

سُئلت مرات عدة عن اليورانيوم، ولم أكن قد سمعت يومًا عن وجود هذه المادة في أفغانستان. وفي معظم الأحيان التي عبَّرت فيها عن جهلي لهذا الموضوع أو عدم امتلاكي أي معلومات حوله، تعرّضت للسجن الانفرادي. كانت الأسئلة لا تنتهي حول الإسلام والمدارس والمؤسسات الدينية والعلماء والمؤتمرات الدينية.

في إحدى المرات اتّهمني محقق بضلوعي في إحدى الهجمات[١] على سفينة في اليمن ذهب ضحيّتها أحد عشر أميركيًّا. قالوا إنني كنت في اليمن حينها. فاجأني الموضوع. وأخذ المحققون يسألون عن كيفية وصولي لليمن. قالوا إنني سافرت إلى إيران، ومنها إلى قَطَر، ثم من قطَر إلى اليمن. سألتهم إن كانوا يظنون أنني كنت على علم بالهجوم قبل وصولي إلى اليمن. فقالوا إنهم يعتقدون أنني كنت أجهل الموضوع. ثم سألتهم إن حملت المتفجرات معي؛ فقالوا إنهم لا يملكون معلومات حول الموضوع. فسألت مجدّدًا «أنا لا أعلم شيئًا عن تلك السّفينة، لا عن مكانها، ولا عن وجهة سيرها، فكيف أنفذ الهجوم عليها؟ كيف أسافر عبر إيران وقطر واليمن إلى وجهة مجهولة في مهمّة مجهولة؟ ولمعلوماتكم، أنا لم أذهب يومًا إلى إيران أو قطر أو اليمن. ولو استطعتم أن تثبتوا أنني وطأت يومًا أرض أي من تلك الدّول، فسأعترف بالتهم الموجهة إلي».

كانت التحقيقات تبعث على اليأس: تتكرّر الأسئلة وتلفّق التّهم دون أي إثبات أو دليل. كان هدفهم تدميرنا. تتلاحق العقوبات والعروض، والوعود بالتعاون ثم العقوبات من جديد. ذات مرّة أتت إلينا مجموعة من المحقّقين، على رأسهم رجل يبدو كساحرٍ له لحية فرنسية المظهر. قال لي إنني لم أعامل بالشكل اللائق من قبل. وقد أتى هو ليزفَّ إليّ الأخبار السارة. قال إنه سيجعل مني رجلًا ثريًّا،

---

(١) تمّ الاعتداء على *USS Cole* في ١٢ تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠٠ وقُتل ١٧ جنديًّا أميركيًّا بالإضافة إلى الانتحاريين.

سيقدّم إليّ خمسة ملايين دولار أميركي وسيارةً ومنزلًا جميلًا، وسأصبح الرجل الأغنى في أفغانستان. وحين سألت عمّا يمكن أن أفعله للحصول على ذلك؛ أجاب: حين تصبح صديقنا المقرَّب جدًّا وتساعدنا للحصول على أجوبة لأسئلتنا. ابتسمت حينها وقلت لهم، إنني أصلًا رجل ثري، ثري بشكل لا يتصوّره عقل.

أردفت قائلًا: «الحمد للّه أنني لست في حاجة إلى أموالكم. لقد تكلّمت بصدق، وأجبت عن كلّ أسئلتكم، وسأستمرّ في قول الحقيقة مستقبلًا. لا أدري ما طبيعة الأعمال التي تتعاطون بها، لكنني لن أكون طرفًا فيها. كل ما أريده هو حريّتي». فقال إنني لا أثق بهم ولا أفهم ما الذي يقولونه لي. فقلت له أن لا شيء مطروح للثقة، وشكرته على العرض الذي أتى به وأعدت على مسمعه ما قلته: «إن كل ما أحتاج إليه هو الخروج من هذا السجن».

دامت المحادثة أربع ساعات، غادروا بعدها. بقي بعضهم في الخلف. وكان بينهم امرأة عرَّفت بنفسها باسم أنجل. تقدَّمت وسألتني: «هل تعلم مَن أكون؟». قلت: «أنت أميركية». فقالت: أنت تفهم الكثير عن موقعي، فأنا المسؤولة عنك، وبيدي كامل السلطة على الأمور المتعلقة بك: تحريرك، حياتك، والعقوبات المفروضة عليك. ورغم أن محقّقين كثيرين سبق لهم استجوابك فإنني لست واثقة بالنتائج التي توصلوا إليها عنك».

كانت تريد إعادة التحقيق من جديد، وتريدني أن أخبرها الحقيقة وأتصرّف معها بشكل جيّد. سألتها: «ما الذي سيفعله المحقّق الذي سيأتي بعدك؟ هل سيعيد التحقيق معي مجدَّدًا أم سيقبل المعلومات التي توصَّلتِ إليها؟ وكيف سنعرف ما سيؤول إليه مصيرنا في ذلك المكان؟». أسكتتني وطلبت إليّ أن ألزم الهدوء. قالت لي أن ألوذ بالصمت حتى يُطلب إليَّ الكلام. واستطردت قائلة: «سأقوم بتربيتك وأجرّدك من كل ما تحمله من عزّة نفس». عندها فقدت أعصابي ورشقتها بكلّ كلمة قفزت إلى لساني حينها. انتهت المقابلة. غادر الجميع ولم أرهم مجدّدًا.

لم يَسُدْ في المخيّمات أيُّ قانون؛ ما حدا بالمحقّقين، أن يتصرّفوا على

سجيّتهم، كما يفعل المسؤولون والعساكر في المخيّمات. لم يكن هناك أيّ كتاب قانون. وما من شيء يحدّد كيف ينبغي للعسكري أن يتصرّف. فراحوا يعملون كما يحلو لهم من معاقبة السجناء واستغلالهم. وإذا ما لجأ أحد السجناء، في النهاية، إلى الشكوى، أو جرى التحقيق في الموضوع، يُبرّأ الجنود كالعادة؛ فهم لا يكذبون وبالمقابل يتم تجاهل شهادة السجناء، وإن حدث ذلك، فإن شهادتهم تُعدّ كذبًا وتلفيقًا.

لا أستطيع تذكّر عدد المحقّقين الذين استجوبوني خلال السنوات التي قضيتها بين أفغانستان وغوانتانامو. معظم هؤلاء أساؤوا معاملتي، وعاقبوني بأساليب مختلفة وتعمّدوا أذيّتي. عسى أن يثأر لي اللّه منهم في هذه الدنيا، وفي الآخرة.

▲▼▲

تصاعدت الضغوط في العالم الخارجي على أميركا بسبب ما يحدث في غوانتانامو. وبعد ثلاث سنوات استُحدثَ ما عُرِفَ بـ«مجلس مراجعة أوضاع المقاتلين في صفوف العدو»[1]. بهدف إسكات العالم والسجناء على حدّ سواء. استبشر بعض السجناء خيرًا بما سمعوه عن تأسيس المجلس، رغم أنه، في الواقع لم يكن قانونيًّا ولا دستوريًّا. عمل هذا المجلس على تحديد الوضع القانوني لكل سجين، أي بكلام آخر، يُعدّ كل سجينٍ «عدوًّا»؛ ويمكن لأي سجين لدى توجيه التهم إليه، أن يَمْثُلَ أمام محكمة ولايةٍ كولومبيا للمحاكمة.

تألّفت المحكمة من المحقّقين الذين استجوبونا. فكان أحدهم يتّخذ دور القاضي، وآخر دور الدّفاع وثالث دور الادّعاء. كان جميع هؤلاء يعملون لصالح

(١) بدأت جلسات أوضاع المقاتلين الأعداء في تموز/يوليو من العام ٢٠٠٤. وكان هدف هذه المحاكمات تحديد ما إذا المحجوزين في غوانتانامو هم «المقاتلين الأعداء». عقدت ٥٧٤ جلسة ولكن ٣٧ منها كانت مفتوحة واستطاع الصحافيّون حضورها. لم يكن المعتقلون مجبورين على حضور هذه الجلسات. وبالفعل لم يحضر الكثير من المعتقلين هذه الجلسات وفضّلوا كتابة تصريحهم وتقديمه إلى المحكمة.

وكالة المخابرات الأميركية أو الشرطة الفيدرالية ووكالات استخباراتية أُخرى. لم يدرس أحد منهم الحقوق ولا فهم ماهيّتها، بل تدرّبوا على التحقيق بالخبرة والممارسة. كنتُ واحدًا من كثيرين تلاعبوا بهم. أُخذت مرّة إلى محقّق ادّعى أنه ممثّلي الخاص. وفي الواقع كان هذا الرجل الأشد قساوة بين جميع المحقّقين الذين سبق لي التعامُل معهم. طلب إليّ أن أخبره كل شيء عن توقيفي حتى يتسنّى له الدفاع عني أمام المحكمة.

راودتني الشكوك حوله تحديدًا، وحول المحكمة ككل؛ فطلبت طرح بعض الأسئلة فقبل طلبي: سألته: «هل سبق لك أن درست الحقوق في الجامعة»؛ فأجاب بالنّفي. سألته أيضًا عن هيئة المحكمة، ومَن سينطقون بالحكم علي: «هل يمتلكون أي خبرة سابقة في المحاكم والقانون؟» ومجدّدًا أجاب بالنفي. وسألته: «لأي قانون نخضع: الدولي أم المحليّ». فأجاب أن أيًا من تلك القوانين لا يُطبّق على وضع السجناء. يقتصر دور هيئة المحكمة على إعلان نتائج التحقيقات. وفي النهاية سألته عن المذكّرة التي تلقّيناها، والتي تشير إلى اعتبار جميع السجناء «مقاتلين في صفوف العدوّ»: قائلًا: «أي قانون يُطبّقُ على ذلك؟» فأجاب أنه لا يعلم.

حينها كلّمتُه قائلًا: «من الجيّد أنك أنت والقاضي لا تفقهان بالقانون، ولن تتم محاكمتي وفقًا لأي قانون. لا قانون هنا على الإطلاق، وهذا ما كان عليه الأمر خلال السنوات الثلاث الماضية، فتمّ اعتبارنا جميعًا مقاتلين في صفوف العدو. قل لي: ما الدافع الآن من سؤالي عن كلّ تلك الأمور؟ أنت تدّعي أنك ممثّلي، ولكن، ألا يُفترَضُ الموافقة أوّلًا على ذلك؟ أنت عدوّي. وأنا لا أقبل ولا أرضى عن أي محاكمة من هذا النوع وبالزيارات التي تقوم بها. أنا لا أقبلُكَ ممثلًا لي. افعل بي ما طاب لك. عاقبني إن شئت، ولكن لا تأتِ لمقابلتي مجدّدًا!». أبلغني أن من الحكمة أن أتعاون معه لأنه سيقوم بتمثيلي في غيابي بجميع الأحوال. لكنني أجبته أنني لا أثق به ولا بمحكمته، وليفعل ما يشاء.

تمّ تأسيس مجلس آخر، دُعي بمجلس المراجعات الإداريّة[1]، لكنّني رفضت التعامل معه. فلم أذهب إليه ولم يصدر عنه أي قرار بحقّي. اتُّهمنا جميعًا بالقتال في صفوف العدوّ، أكان العدو القاعدة أو طالبان. لم نعلم يومًا دوافع هذه الاتهامات، أو الأدلّة عليها. احتجز النّاس في غوانتانامو لأسباب شتّى؛ وفي معظم الأحيان لم يكن للمعتقلين أي صلة بالقاعدة أو طالبان. اتّهم البعض بإيواء عناصر من طالبان أو بتقديم الطعام إليهم، أو بكونهم يعرفون مجاهدين مشهورين أو قادة من طالبان. واتّهم آخرون بتنفيذ اعتداءات وتفجيرات. ومن السجناء من أُلقي القبض عليهم بسبب معلومات خاطئة، ومنهم بسبب ارتداء «بزّة مجاهد». اعتُقلَ رجُلٌ لأنّه يحمل مرآة، وثانٍ لامتلاكه هاتفًا، وثالثٌ لأنّه يراقب قطيعه باستخدام منظار.

أخبرنا أحد المساجين أنّه قد اعتُقل لأن أوراقه الثبوتيّة تعود إلى خمسة وعشرين عامًا، أي إلى الفترة التي كان فيها لاجئًا. تلك كانت الوقائع والإثباتات التي أتت بها أميركا. ولكم سمعتُ من قصص مشابهة. اجتمع في السجن بكوبا أعضاء سابقون في طالبان، وعضو في الحكومة الحاليّة، وصانع أحذية، وراعي ماشية، وصرّاف، وصاحب متجر، وإمام مسجد، فضلًا عن الكثير من قدامى المجاهدين ومترجميهم الخاصّين. نقل بعض الإخوة الباشتونيّين إلى غوانتانامو بسبب انتهاء صلاحية تأشيرات دخولهم في أحدِ البلدان العربيّة. وقضى الكثير منهم ثلاث سنوات في المعتقل قبل أن تُعلن براءتهم، ويُخلى سبيلهم. لم يتلقّ هؤلاء أي تعويض عن الوقت الذي سُرق منهم والشدائد التي تعرّضوا لها.

أدّى تصاعد اليأس والمعاناة إلى اندلاع إضراب عن الطعام[2] خلال صيف

---

(١) مجلس المراجعات الإداريّة هو جسم عسكريّ في الولايات المتّحدة يقدّم تقريرًا سنويًا حول المشبوهين المعتقلين في غوانتانامو. انتقد محامو حقوق الإنسان جلسات الاستماع هذه لأنّ المعتقلين لم يُسمح لهم بمستشار قانوني ولم يعرفوا الاتهامات التي يجب أن يُدافعوا عن أنفسهم منها. جرت جلسات الاستماع بين ١٤ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٤ و٢٣ كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠٥.

(٢) للمزيد من المعلومات حول هذه الأحداث، راجع: Golden, 2006.

٢٠٠٥. توقف السجناء عن الأكل والشرب. ووصل عدد المشاركين في الإضراب إلى ٢٧٥ سجينًا. وقد أعلن بعض الإخوة العرب عن نيّاتهم المضي بالإضراب حتى الموت. طالب السجناء بمحاكمة حُرَّة وعادلة وباحترام حقوق الإنسان في معاملتهم. استمر الإضراب ستَّةً وعشرين يومًا، وشارك فيه حوالي ثلثي السجناء. أعلن الكولونيل بومغارنر[1]، المسؤول عن السجن، أن بعض بنود اتفاقية جنيف ستطبّق على السجناء؛ وطلب بالمقابل تعليق الإضراب. قام الشيخ شاكر[2]، السّعودي الجنسية، وكان من المشاركين في الإضراب ويحظى باحترام في أوساط السجناء، بجولة على كل فرد، لإقناع الجميع بحلّ الإضراب.

انتهى الإضراب أخيرًا، وتألفت هيئة من ستَّة ممثلين عن السجناء لمناقشة الوضع وتقديم الاقتراحات باسم السجناء إلى السلطات الأميركية.

تألّفت المجموعة من الشيخ شاكر، والشيخ عبد الرحمن[3]، والشيخ غسان[4]،

(١) كان الكولونيل مايكل بومغارنر (المولود عام ١٩٥٩) قائدًا مسؤولًا في غوانتانامو خلال فترة مهمّة احتُجزَ فيها الملّا ضعيف هناك. راجع: Golden, 2006 للمزيد من المعلومات حول مفاوضاته التي أجراها مع السجناء.

(٢) الشيخ شاكر عبد الرحيم محمد عمي وُلد في العام ١٩٦٨ في المدينة في المملكة العربيّة السعوديّة. ألقي القبض عليه في أفغانستان في كانون الأوّل ٢٠٠١. ادّعى شاكر أنّه كان يعمل لمنظّمة خيريّة سعوديّة في أفغانستان ألا وهي «مؤسسة الحرمين» وذلك حين تمّ اعتقاله. شارك في العام ٢٠٠٥ و٢٠٠٦ و٢٠٠٨ في مظاهرة الإضراب عن الطعام في غوانتانامو وساعد في إنهائها: وفي أيلول/ سبتمبر من العام ٢٠٠٦، طالب محامو شاكر بنقله من السجن المنعزل في غوانتانامو حيث بقي ٣٦٠ يومًا. ولكن الطلب قد رُفض وكان لا يزال في غوانتانامو في شباط/فبراير ٢٠٠٩.

(٣) وُلد الشيخ عبد الرحمن (والمعروف بعبد الفتّاح الجزّار) في القاهرة في مصر علم ١٩٦٥. وأُلقي القبض عليه في الباكستان في كانون الأوّل/ديسمبر ٢٠٠١. أصيبت رجله في حملة تفجيرات الولايات المتّحدة ويُقال إنّها بُترت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥. وقد ظلّ مسجونًا في غوانتانامو لسبع سنوات وشهرين وكان لا يزال هناك في ٣ آذار/مارس ٢٠٠٩.

(٤) وُلد غسّان عبدالله الشاربي في جدّة في المملكة العربيّة السعوديّة عام ١٩٧٤. ارتاد الجامعة في الولايات المتّحدة وحاز على شهادة مهندس كهربائي من جامعة أريزونا. ألقي القبض عليه في الباكستان في آذار/مارس ٢٠٠٢. وتُفيد تقارير المحكمة حول مراجعة وضع المقاتلين أنّ زملاءه في سجن غوانتانامو كانوا يسمّونه «البنّاء الكهربائي» و«يد أبي زبيدة اليمنى». وخضع إلى «برنامج المسافر الدائم». وكان في ٩ آذار/مارس ٢٠٠٩ لا يزال محتجزًا في غوانتانامو لستّ سنوات وتسعة أشهر.

والشيخ صابر[1]، والشيخ أبو علي[2] وأنا. بذلنا قصارى جهدنا لإيجاد حل سريع لتفادي نموّ الشكوك بين السجناء الآخرين. توخّينا الحذر بشدّة لعدم الوقوع في شرك الأميركيين. عقدنا ثلاثة اجتماعات بين هيئة ممثّلي السجناء وسلطات السجن. جرى الأول في ٧ آب/أغسطس ٢٠٠٥ وحضره الكولونيل مايكل بومغارنر، الضابط الأكبر المسؤول عن السجن، بالإضافة إلى آمر السجن وشخص آخر شارك في الاجتماع.

افتتَح بومغارنر، وهو رجل قصير القامة، الاجتماع معبّرًا عن احترامه لهيئة ممثّلي السجناء، وعن رغبته في جعل السجن آمنًا، وأن هذه الرغبة تفترض تعاوننا، لأن سائر السجناء يصغون إلى ما نقولُه. وأضاف أنه يحترم قراراتنا، وأنه اتّصل بوزير الدفاع الوطني، السيد دونالد رامسفيلد، سائلًا إياه تطبيق بعض توصيات معاهدة جنيف في السجن، على أن يعود إلينا اختيار ما يناسبنا من تلك البنود.

عندها قلنا للمجتمعين إن تهديد السجناء والتعرّض لهم يجب أن يتوقّفا فورًا. خدع الأميركيّون العالم أربع سنوات بإقناعه أنهم يحتجزون إرهابيين داخل سجونهم من دون أي دليل أو مسوّغ قانوني أو ادّعاء رسميّ. تقبّل المجتمعون ما سمعوه منّا، وقالوا إنهم سيأخذون من الآن فصاعدًا بمعاملتنا كبشر. لكنّ كلامهم كان مجرّد أكاذيب ووعود فارغة لم تتحقق قط. تمّ فصل ممثّلي السجناء عن رفاقهم، وعوقبوا بقساوة. لم يعلم أحد بمكانهم، وازداد الوضع سوءًا. عاد

(١) وُلد صابر محفوظ لهمر في القسطنطينيّة في الجزائر في أيّار/مايو ١٩٦٩. هو يحمل الجنسية البوسنية وألقي القبض عليه هناك في تشرين الأوّل/أكتوبر ٢٠٠١ بتهمة التآمر للهجوم على السفارة الأميركيّة في ساراجيفو في البوسنة. في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٨، أصدر قاضٍ فدرالي أميركي أمر إطلاق سراحه لأنّه وجد أنّ سجنه غير قانوني. وهو كان لا يزال مسجونًا في ٥ آذار/مارس ٢٠٠٩ لسبع سنوات وشهرين في غوانتانامو.

(٢) الشيخ أبو علي (المعروف أيضًا بعلاء محمد سليم والشيخ علاء) هو مواطن مصري. طلب من السلطات الأميركيّة عدم نقله إلى مصر لأنّه كان قد سُجن وتعذّب هناك. وهو كان لا يزال معتقلًا في غوانتانامو في آذار/مارس ٢٠٠٩.

الإضراب مُجدَّدًا بثلاثمئة معتقل مضربين عن الطّعام، وتعهّد عشرون منهم المضيّ بالإضراب حتّى الموت.

جرت إضرابات عدّة عن الطعام في المعتقل، وانتهت جميعها بعد تلقّي وعود من الأميركيين. والإضراب الذي ذكرتُه استمرّ حتى إطلاق سراحي في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥. كان عدد المشاركين يزداد يومًا بعد يوم؛ خارت قوى كثير من المضربين، وشارف بعضهم على الموت، فأُغمي عليهم في حُجراتهم وزنازينهم، ونقلوا إلى المستشفى للمعالجة. وقد تمّت تغذية المرضى بالقوّة عبر الحقن الوريديّة، ورغم ذلك، كان المضربون يحاولون منع الأطباء من معالجتهم. لم يعودوا قادرين على تحمُّل ما يحدث لهم وفضّلوا الموت على الاستمرار في تلك الحياة. غصّ المستشفى بالمرضى الجائعين. انشغل الأطباء جدًّا بالحالات الطارئة؛ فأجبر المرضى الآخرون على الانتظار كي تتمّ معالجتهم. رفض الطبيب المسؤول إجبار السجناء على الأكل، فاستُقدِم خمسة أطبّاء جُدد. واستمرّت المشكلة قائمة حتّى ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦.

أسأل الآن: أين هي الأمم المتّحدة التي دعمت من دون تردُّد فرض عقوبات ضدّ عشرين مليون أفغانيّ، في حين أنّ آلاف المسلمين يقبعون الآن في السجون، ويصرخون مطالبين بالعدالة والقانون وحقوق الإنسان؟ ولماذا؟

٢٠

الخروج

في الحادي عشر من أيار/مايو ٢٠٠٤، المصادف لليوم السادس عشر من رمضان ذلك العام، تم استدعائي إلى ما حسبته مجرَّد استجواب آخر. كانت الغرفة التي نقلت إليها أشبه بمكتب، جُهّزت بأثاث جميل واحتوت على تلفازٍ ومكتب صغير. حين دخلت الغرفة، فُكّت قيود يديّ ورجليّ. وكانت تلك المرة الأولى التي أعدو فيها محرّر اليدين والرجلين منذ وصولي إلى غوانتانامو. بعد فترة، قدِم إلى غرفتي رجُل أفغاني بصحبة ثلاثة أميركيين. تعرّفت إلى اثنين منهما، إذ سبق لهما استجوابي؛ وقد عاملاني بشكل جيّد جدًّا. عرّف الثالث بنفسه كموظّف في السفارة الأميركية الجديدة في أفغانستان. أما الرجل الأفغاني فقال إنه ممثّل الحكومة الأفغانية. بدا لي لطيفًا جدًّا؛ لكن الشكوك راودتني حول صحّة تعريفه بنفسه. تكلّمنا لبعض الوقت، وعبّر عن حزنه لما نعيشه، وعن التضامن الذي يشعر به تجاهي وتجاه السجناء الآخرين. كان تصرُّفه مختلفًا عن المجموعة الأولى من الأفغانيين الذين ادّعوا أنهم بعثة حكومية. التقيت الرجل مرّتين، وفي المرة الثانية دعاني إلى الغداء.

كان الطعام لذيذًا. حصلت على الفاكهة الطازجة والبيبسي، وشعرت بمعاملة ملؤها الاحترام. وعدني الرجل ببذل ما في وسعه لتأمين إطلاق سراحي من كوبا. تطلّب الأمر عامًا حتّى تم تحريري. كنت توّاقًا إلى مغادرة هذه المقبرة التي بناها الأميركيون. بعد مقابلة المبعوث، أصبح يزورني المحقّقون مرّة أو مرّتَيْن

في الأسبوع. للمرة الأولى شعرت أنني أُعامل ككائن بشري. سألوني إن كنت أحتاج إلى أي شيء. وبالفعل أمَّنوا لي كل احتياجاتي. راحت ظروف معيشتي في المخيم تتحسّن، بينما تسوء ظروف السجناء الآخرين، فعمدت إلى مشاركة سائر السجناء في ما كنت أحصل عليه من المحقّقين من العطور والشامبو وزيت الزيتون.

وعدني المبعوث الأفغاني بالعودة خلال شهر فانتظرته. مرّ شهر، ثم شهران، ولم يعد. فازدادت شكوكي، وشعرت بخيبة الأمل. طلب إليَّ أحد المحقّقين التحلّي بالصبر، لأن المبعوث سيرجع، وسوف يُفرج عنّي، وأعود إلى بلدي الأم. لم أكن أثق بالأميركيين، فلطالما كذبوا عليّ. وفي ذلك الوقت تحديدًا، عجزتُ تمامًا عن التمييز بين كذبهم عليَّ وإبلاغي الحقيقة. وكم سخر منّي السجناء لمجرَّد تفكيري بإطلاق سراحي. وأقسم بعضهم أن تلك مجرّد خطة أميركية أخرى. في الأسبوع التالي، نُقلْتُ إلى مكان جديد: غرفة جميلة، فيها مكيّف وثلاجة وتلفاز وحمّام خاصّ. كما حصلت فيها على الشاي والصابون والشامبو، وعلى آلة لتحضير القهوة.

للمرة الأولى منذ سنوات، حضَّرت لنفسي فنجان شاي أخضر، لطالما تمنّيت الحصول عليه خلال وجودي في الزنزانة. زارني محقّق جديد، وزفّ إليّ خبر إطلاق سراحي. هنّأني الرجل، وأخبرني أن الجنرال المسؤول عن المنطقة أتى لزيارتي، وهو يتوجّه إليَّ بالتهاني. أخبرني أيضًا أن المبعوث الأفغاني سيعود ويزوّدني بمعلومات إضافية. رغم فرحتي بالمغادرة، فإن وجود رفاقي في السجن، دون أي حفظ للكرامة الإنسانية، ظلّ يقضّ مضجعي. أتى المبعوث ونقل إليّ أخبار عائلتي والأوضاع الراهنة في أفغانستان. بالمقابل، حدّثته عن المخيّم، وظروف السجناء، وكل ما كان يحدث في الداخل. وطلبت إليه التكلم إلى الأميركيين لمعالجة هذه المسائل. في اليوم التالي، رجعت إلى زنزانتي السابقة، وانتظرت البعثة الدولية للصليب الأحمر التي كانت تزور جميع السجناء قبل إطلاقهم.

فجأة، دخل عددٌ من الأميركيين يحملون آلة تصوير ويرافقهم مترجم باشتوني، وقدّموا إليّ ورقة. طلبوا إليّ التوقيع على الورقة الموضوعة أمامي، والموافقة على كل ما ورد فيها لإطلاق سراحي.

- يقرّ المتّهم بجريمته، ويشكر حكومة الولايات المتحدة الأميركية لغفران ذنوبه، والسماح بخروجه من السجن.
- يعترف السجين بكونه عضوًا في القاعدة وحركة طالبان. ويتعهّد بقطع جميع الصّلات التي تربطه بهما.
- يتعهّد المتّهم عدم المشاركة في أي نشاط إرهابي.
- يتعهّد المتّهم عدم المشاركة في أي نشاط مناهض للحلف أو لأميركا.
- إذا خالف السجين أيًا من البنود الواردة أعلاه، سيتمّ اعتقاله مجدّدًا وسجْنه مدى الحياة.

توقيع السجين:

صُعقتُ لقراءة هذه البنود. وعمد الجنود والضباط إلى تسجيل كلّ اللقطات بآلة التصوير في الوقت الذي كنت أستمع فيه إلى المترجم. سلّموني الورقة لأوقّعها؛ لكنني رددتُها غاضبًا، وقلت:

«أنا بريء ولست مجرمًا. لم ولن أقبل أي تهمة موجّهة ضدّي. ولن أقدّم الاعتذار إلى الأميركيين أو الشكر لهم لإطلاقي. ولنفترض أنني ارتكبت جريمة، فأي محكمة أثبتت جرمي؟!

ثانيًا، نعم، كنت أنتمي إلى طالبان، ولا أزال أنتمي، وسأبقى منتميًا إليهم ما حييت. لكنّني لم أنتمِ يومًا إلى القاعدة!

ثالثًا، اتُّهمت بأعمال إرهابية لم أقم بها يومًا، فكيف أعترف بما لا صلة لي به؟ هيّا! أخبروني!

رابعًا، أفغانستان بلدي. ولا أسمح لأي يكن بأن يملي عليّ ما أفعله في وطني

الأم. إذا كنت أعيش في منزلٍ ملكي، فكيف يأتي شخص آخر ويقول لي ما عليّ أن أقوم به داخل بيتي؟

خامسًا، أنا لا أزال محتجزًا هنا جورًا. يمكنكم اعتقالي مجدّدًا، تحت غطاء أي تهمة، لكنّني لن أوقّع أي ورقة».

أصرّ هؤلاء عليّ لأوقع، وأخبروني أنني لن أخرج ما لم أوقّع. لكنّني أصرَرْتُ على موقفي الرافض. حتى توجّب عليّ إفناء عمري في السجن، ما كنت لأعترف بجرائم لم أرتكبها. غادر الرجال وعادوا مرّات عدّة، لكنّني لم أتزحزح عن موقفي قيد أُنملة.

في النهاية طلبوا إليّ أن أكتب بنفسي ما أراه مناسبًا عوضًا عن المكتوب في الورقة. كنت مرغمًا على الكتابة، فأمسكت بالقلم، وكتبت الآتي:

> أنا لست بمجرم. أنا بريء غدرت بي الباكستان والولايات المتحدة الأميركية. اعتُقلت لأربعِ سنواتٍ من دون مسوّغ قانوني. أكتب هذه الورقة تحت الضّغط لأعلن بأنّني لن أشتركَ في أي نشاط معادٍ للولايات المتّحدة الأميركية، أو أي عملية عسكرية في المستقبل. والسّلام.

بعد أن وقّعت ما كتبت، تركني الجنود بمفردي. كنت أتساءل إن كانوا سيوافقون على ما كتبته أم لا. مرّ بعض الوقت، ثم أقبلت هيئة الصّليب الأحمر، فهنّأوني على إطلاقي، وأخبروني أنني سأُنقل قريبًا إلى أفغانستان، إن كانت تلك إرادتي. بدا لي السؤال غريبًا. سألتهم عمّا يمكنهم فعله لمساعدتي فيما لو رفضت العودة إلى أفغانستان. هل أقضي في السجن بقيّة عمري؟ قالوا لي إنَّهم عاجزون عن فعل أيّ شيء، فالأمر كلّه بيد الأميركيين.

هم بالفعل، لا يملكون أي سُلطة لمساعدتي، فلم يبق لي خيار آخر: إما العودة إلى إفغانستان، وإما البقاء في السجن مدى الحياة... أفغانستان وطني، وأحبّ وطني، لكنني كنت أحاول معرفة الدافع لطرح هذا السؤال عن المكان الذي أرغب في المضيّ إليه، ما دام ذلك لا يدخل في نطاق صلاحيتهم. حاول أولئك أن يضعوا إطارًا قانونيًّا لما يفعله الأميركيّون بالسجناء.

غادرتِ البعثة، ونُقلت أنا إلى المخيّم رقم خمسة لإلقاء تحية الوداع على السجناء. كان الإخوة قد نقلوا من الزنازين الفردية إلى قفص كبير وضعوا فيه جميعهم. تحدّثت إليهم لساعة ونصف الساعة. ثمّ غادرت. شعرت بالخزي لتحريري، بينما يبقى إخوتي في الدين ليعيشوا أبشع الظروف. لكنّهم كانوا جميعهم سعداء لما جرى لي. سُمح لي بلقاء الأفغان في المخيّم رقم خمسة، ومُنعت من مقابلة الإخوة العرب. بعدها نُقلت إلى المخيم رقم واحد لوداع السجناء الأفغان. ثم إلى المخيم رقم أربعة حيث تمكّنتُ من مقابلة جميع الإخوة، أفغانًا وعربًا.

عدت بعدها إلى غرفتي لتناول الطعام والرّاحة. كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا؛ فصلّيت وخلدت إلى النّوم. في الساعة الواحدة فجرًا أتى إلي من أخذني إلى المطار. وقيّدوا يديَّ ورجليّ بالطريقة نفسها التي قُيّدت بها لدى قدومي إلى كوبا منذ أربع سنوات. عندما وصلنا المطار، أمر الجنرال الجنود بفك قيودي. كانت كل الأنوار مطفأة في المطار، وشاهدت طائرة على وشك الإقلاع. حين اقتربت منها، وجدت بعض الأميركيين يرافقهم أفغانٌ بانتظاري؛ وقد سلّموني رسميًّا إلى السلطات الأفغانيّة.

هنّأني المسؤولون على إطلاقي سراحي، وطلبوا إليّ الصعود إلى الطائرة. كانت المرة الأولى التي أتمكّن فيها من السير بمفردي، دون أن تُمسك أيدي الجنود الأميركيين بكتفيّ. وقد استأجرت البعثة الأفغانية تلك الطائرة الصغيرة خصّيصًا لهذه الغاية. دخل الجنرال الأميركي الطائرة، وألقى تحيّة الوداع. رافقنا أربعة أميركيين خلال الرحلة، بدوا لي كعناصر أمن. أقلعت الطائرة عند الساعة الثالثة. وكان ممثّلو الحكومة الأفغانية قد أحضروا لي ملابس أفغانية تقليدية وعمامة ارتديتها وتناولت الطعام والفواكه. كما سُمح لي أن أتنقّل بحريّة داخل الطائرة وأن أستخدم دورة المياه.

حطّت الطائرة في بريطانيا للتزوّد بالوقود، بعد حوالي عشر ساعات من التحليق في الجو وصلنا إلى مطار كابول الدولي بعد سبع ساعات أُخَر من الطيران.

تبدّلت كابول كثيرًا خلال السنوات الأربع التي غبت فيها عن أفغانستان. كل شيء تغيّر، وبخاصّة المطار. فقد بنى الأميركيّون طُرقات وأسوارًا ومخّيمًا بدا لي كمدينة صغيرة قائمة بنفسها. عند هبوطي من الطائرة، أدّيت سجدة شكرٍ للّه.

أطلق سراحي من غوانتانامو في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٥. وصلت مطار كابول الدولي في اليوم التالي. ونقلني الأميركيّون إلى مديرية الأمن الوطني. من هناك انتقلت إلى منزل الملّا متوكّل حيث التقيت عائلتي، ثم إلى منزل مجدّدي في زيارة بروتوكولية[١].

بعد يومين، انتقلت إلى الإقامة في منزل في خوشال مينا، استأجرتُهُ لي الحكومة الأفغانية. بعد ذلك، حدث ما أزعجني وأثار مشاعري. حين كنت أهمّ بمغادرة غوانتانامو، حصلت على وعد بأن يمتنع الأميركيون عن استجوابي في أفغانستان. وأبلغتُ البعثة الأفغانية أن الاستجوابات يجب أن تنتهي على الأرض الأفغانية.

كنت متأكدًا من أن المشكلات سوف تلاحق الأميركيين في أفغانستان، وتتصاعد حدّتها يومًا بعد يوم. ولو أراد الأميركيون التحدّث إليّ عن تلك المشكلات، يعني ذلك العودة إلى الاستجوابات. سيكون من الصّعب علي الإجابة عن أسئلتهم بشكل يومي، أو مساعدتهم. فسعيت للحصول على تعهّد منهم بالكفّ عن استجوابي، والامتناع عن دخول منزلي بهدف طرح الأسئلة. وافق الأميركيون على ذلك، بل ذهبوا معي إلى حدّ التكفُّل بنفقات معيشتي خلال العام الأوّل.

سارت الأمور على ما يرام في الأشهر الأربعة الأولى، فلم أر أيّ أميركي. في الشهر الخامس تلقّيت اتّصالًا من مجلس الأمن الوطني الأفغاني، وطلبوا

(١) تتولى منظَمة السلام والمصالحة التابعة لمجدّدي مسألة العائدين من غوانتانامو، فمنذ شباط/فبراير ٢٠٠٩، عاد ٦٣ معتقلاً إلى أفغانستان من غوانتانامو. وقد وصل عدد المعتقلين في سجن غوانتانامو إلى ١١٠ أفغانيين. ولا يزال هناك ٢٧. وقد تمّ من جديد اعتقال ٨ من الذين أُطلق سراحهم لأسباب عدّة وخرج منهم ٣ (شخصيّات من منظّمة السلام والمصالحة).

موعدًا لزيارتي. رحّبت بهم مُعتقدًا أنّ الزوّار أفغان. في الساعة الثانية بعد الظهر، شاهدت جنودًا أميركيين يرتدون سترًا واقية من الرصاص يحيطون بمنزلي. لم يرُقْ لي المشهد؛ فلم أكن أرغب في رؤية الغزاة الأميركيين المسلّحين بجوار منزلي. ورغم ذلك، حاولت السّيطرة على نفسي تفاديًا للمشكلات. رفضت الإجابة عن أسئلتهم وادّعيت المرض، لقناعتي بأن الصمت أفضل من الردّ عليهم. غادر هؤلاء، لكنّني عدت لأتلقّى اتّصالًا من الرجُل نفسه ليخبرني بأنّه سيعاود زيارتي في الثانية من بعد ظهر اليوم نفسه.

سألت هذه المرة عن هوية القادمين لزيارتي. فأجاب «الأشخاص نفسهم الذين أتوا في المرة الماضية». أوضحت له أنني حصلت على وعد في غوانتانامو بعدم مجيء أولئك الأشخاص إلى منزلي. وأضفتُ قائلًا «إن كنت أتمتّع بحرية اتخاذ القرار، فأنا أرفض استقبال هؤلاء. وإن لم أكن حرًّا، فتفضّل بالقدوم إلي مع الأصفاد والسلاسل وخذني إلى المكان الذي ترتئيه لاستجوابي».

بعد وقت قصير، اتّصل بي أحد الأشخاص الذين ساعدوني على الخروج من غوانتانامو، وبعد السلام، طلب إليَّ أن أسمح لهؤلاء الناس بالقدوم إلى منزلي، قائلًا: «إن لديهم بعض الأسئلة ليطرحوها. أنهِ المسألة وتخلَّصْ منهم».

لم يكن بإمكاني رفض طلبه بعد كلّ ما فعله لمساعدتي. وافقت على مجيئهم، وكنت أريد لكلّ ذلك أن ينتهي. لكنّ الأمر لم يكن رهن إرادتي.

أتى الرجال إلى منزلي عند الثانية بعد الظّهر مع لائحة طويلة من الأسئلة. لكنّني بدل الإجابة عنها، رحتُ أطرح أسئلتي. قلت لهم: «لا بأس، أنا أفهم أنّكم تواجهون مشكلات في أفغانستان، وستأتون إليّ بالمزيد من الأسئلة كلّ يوم لأجيب عنها. إن أدليتُ بإجابات الآن، فلن ينتهي هذا الأمر. لذلك لن أجيب عن أيّ من أسئلتكم».

طمأنوني بأن لا داعٍ للخوف، قائلين: «أمنك الشخصي مضمون، ولن يكون هناك أيّ خطر عليك أوَّ على عائلتك. ستكون معلوماتك بأمانٍ معنا، وسنحرص

على تزويدك بكل مساعدة ضرورية». قلت لهم إن الحصول على الضمانات الأمنية والتمتّع بالامتيازات سيّان عندي؛ لكن «لا يمكنني التعاون معكم. ببساطة لا أريد ذلك. لست في وارد عقد أي صفقة فدعوني وشأني أرجوكم. قضيتُ في غوانتانامو أربع سنوات، وتمّ استجوابي بشكل متواصل. ألم يكن ذلك كافيًا؟».

ورغم ذلك استمرّوا في المحاولة، تارةً بالتهديد، وطورًا بعبارات التشجيع: «أنت ربّ عائلة، لديك منزل وأولاد وأمامك المستقبل بكامله». وبكلّ صراحة، كان ذلك أشدّ قساوة عليّ ممّا كان في غوانتانامو.

حاولوا زحزحتي عن معتقداتي. وأشكر الله الذي أمدّني بالقوّة لتفادي الوقوع في شراكهم. في النهاية، تكلّمت معهم بكلّ صراحة قائلًا: «هذه كلماتي الأخيرة، لن أكون يومًا مستعدًا للإجابة عن أي سؤال. أطلب إليكم عدم القدوم إلى منزلي مجدّدًا. إن كنت حرًّا، وهذه البلاد حرّة كما تقولون، وإن كنت أتمتّع بالسلطة داخل عتبة منزلي، فلا تعودوا إلى هنا بعد الآن؛ فأنا لا أريد رؤيتكم إطلاقًا».

استشاط الرجال غضبًا، وسألوني: «لماذا تكرهوننا؟». أجبتُ: «أنا لا أحبُّكم، انظروا فقط إلى ما تفعلونه الآن، وإلى ما سبّبتموه من الأذى لي ولسائر المسلمين. ماذا تتوقّعون منّا؟».

نظروا إليّ بوجوه مشدوهة، وسألوني: «أتريد العودة إلى غوانتانامو؟». فأجبت: «هذا الأمر يعنيكم وحدكم، لقد احتجزتموني أربع سنوات في غوانتانامو في الوقت الذي كنت فيه بريئًا. إن إردتم إعادة الكرّة فلا أحد سيردعكم. لكنّ القضيّة قضيّة حريّة، وأنا أطلب إليكم أن تدعوني وشأني. لكن إذا كانت القوة هي المعيار، فافعلوا ما شئتم، إذ لديكم كلّ القدرة على ذلك. أنا لا أريد رؤيتكم بعد الآن. ارموني في السجن أو دعوني وشأني... فالقرار قراركم». غادروا بعد أن سمعوا هذا الكلام.

أحمد الله أنني لم أرَ وجوههم بعدها، لكنّ وضعي تدهور، إذ توقّفوا عن

دفع نفقات معيشتي. وكل ما حصلت عليه تمثَّل في إيجار المنزل لعام كامل، لكنني حصلت على المساعدات من أصدقاء آخرين ومسلمين. وضعت الحكومة جنودًا خلف بابي بهدف الحراسة. وحتّى اليوم، لا تزال حياتي الشخصية مقيّدة في نواحٍ عدّة طوال النهار وعلى مدار الأسبوع. وحده اللَّه عليم بما يُخبّئه لي المستقبلُ.

٢١

لا حربٌ لننتصر

لم تنتهِ قصّتي وقصّة أفغانستان بعد. ففي ١١ حزيران/يونيو ٢٠٠٦ بلغتني أخبار عن ثلاثة سجناء استشهدوا[١] في سجن غوانتانامو. انفطر قلبي لسماع ذلك. ولا أزال أصلّي كلّ يوم لأجل إخوتي الذين تركتهم حين غادرت المعتقل. أصلّي للّه كي يسدّد خطاهم وينجّيهم في الدنيا وفي الآخرة، وأن يعطيَهم وعائلاتهم نعمةَ الصّبر، ليتحمّلوا ما هم عليه.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يموت فيها أخ مسلم في سجن أميركي. لكنّها الحادثة الأولى من نوعها في غوانتانامو. بقيت ظروف موت الإخوة غامضة، إذ لم يكن من مصدر للمعلومات سوى الحكومة الأميركية والجنود العاملين في السجن. ادّعى هؤلاء أن السجناء قد انتحروا. لكنني أرى أن كل ما يصدر عن لسان أميركا ليس أهلًا للثقة. هذا ما تعلّمته حين كنت رهن اعتقالهم لأربع سنوات. ما انفكّوا في غوانتانامو يكذبون علينا. لم يصْدقوا في كل ما قالوه، حتّى في إبلاغنا عن الوقت.

ولكن، حتّى لو أن ما أخبرونا به عن مقتل الإخوة المسلمين كان صحيحًا، فإن من واجبنا التفتيش عن المسؤول. ولا شك في أن ظروف الاعتقال ومعاملة الأميركيين هما السبب في مقتل الإخوة الذين، بعد سنوات في المعتقل، لم يعودوا قادرين على تحمُّل الضغط واليأس والتهديدات المتواصلة. لقد أرخى الوقت

(١) يحمل مانع العتيبي وياسر طلال الزهراني الجنسيّة السعوديّة. أمّا علي عبدالله أحمد فهو يمنيّ.

بثقله على حياتهم؛ فدمّر كلّ ما كان عزيزًا عليهم، وجرّ عليهم الذّل والخزي. ما عرفتُ سجينًا لم يعانِ من مشكلاتٍ نفسية في غوانتانامو. والنظام المتّبع في المعتقل هو بحدّ ذاته الذي يجرّ السجناء إلى حالةٍ يفقدون فيها صحّتهم النفسية.

تعدّدت القوانين والأنظمة التي أوصلت إلى هذه الحالة. فالمعاملة، والعقوبات التي فُرضت على السجناء، افتقرتا إلى أيّ مسوّغ قانوني وجرّدتا السجناء من أبسط حقوقهم الإنسانية؛ فأساء السجّانون استخدام سلطتهم، ونكّلوا كثيرًا بالسجناء. ومع مرور السنوات داخل السجن، يفقد المُعتقَل كلّ أمل بالخروج؛ ذلك أن مصيره وخطط نقلِه المستقبلية وكل هذه الأمور، تبقى مجهولة عنده. بعض السجناء احتجزوا لعدّة سنوات متواصلة دون أي اتّصال بالعالم الخارجي. وكان القرآن الكريم والإسلام يتعرّضان للإهانة، ويُستخدمان كوسيلة لمعاقبتنا والحطّ من كراماتنا. في غوانتانامو، حُجِبَت كلُّ مصادر المعلومات، من كتب وغيرها من وسائل الدراسة أو قضاء الوقت. عمد الجنود إلى حرماننا من النوم لأسابيع وأشهر، ما شكّل سببًا مباشرًا لكلّ الانتكاسات في صحّة السّجناء العقليّة. كما تعرّض الجميع لمعاملات مذلّة، كأن يُجبروا على الوقوف عراة بينما ينظرُ إليهم الآخرون.

في التحقيقات، استُخدمت المعلومات سلاحًا كذلك ضدّ السجناء، إذ تنقل لهم الأخبار عن اعتقالات تستهدف عائلاتهم وأولادهم، أو عن مقتل أحد أقربائهم. كذلك لم تتوافر الرعاية الصحّية لعدد كبير من السجناء، فضلًا عن أن الرسائل التي كانوا يتبادلونها مع عائلاتهم تصل مفتوحة مبدّلة في مضمونها. هذه بعض المظاهر مما يعانيه كل سجين في غوانتانامو: كلّ شيء يبدو أشبه بكذبة هناك، والثقة معدومة بأي شيء وبأيّ شخص. بتنا نجهل ماذا نقول أو ماذا نفعل كي نضع حدًّا للحالِ التي نعيشها. باختصارٍ أقول إن من غير الممكن لأي إنسان أن يعيش في تلك الظروف.

وحتّى لو ثبت أن هؤلاء السجناء قد انتحروا، فلا شكّ في أن المسؤولية ستظل تقع على الأميركيين، وعلى سجن غوانتانامو تحديدًا. إدارة بوش مسؤولة

عن موتهم، هذا إن لم يكونوا قد قُتِلوا مباشرة على يدها. والشعب الأميركي مسؤول عمّا يجري داخل سجن غوانتانامو، فهو من يعطي الشرعية لحكومته ونظامه بخرق كل القوانين الدوليّة والمحليّة هناك. وزاد الطّين بلّة انتخاب السيّد بوش لولاية ثانية.

▲▼▲

أفغانستان هي بيت كل أفغاني، هي المنزل العائلي الذي يحق لنا جميعًا العيش فيه. من حقنا أن نعيش في بلادنا دون أي تمييز، مُحافِظين على عاداتنا وقيَمِنا. وليس لأحد أن يُجَرّدنا من هذا الحق. لكلّ أفغاني الحق في مساعدة بلده، أكان ذلك في القضايا الثقافية أم في الأمن الوطني، أم في الرفاهية، وكذلك في التقاليد الدينية والرخاء الاقتصادي والقيَم الاجتماعية. تشكّل الوحدة الوطنية والوفاق بين القبائل أسس التطوُّر والتّنمية في أفغانستان، إلى جانب التقاليد الدّينية. وهذه تستدعي دعم أفراد المجتمع. ليساعدنا اللّه على تأسيس أفغانستان حرّة!

وأنا أرى أن المسألة الأهم إنما هي حماية شرف أفغانستان وإطارها الإسلامي وتقاليدها الوطنية. هذه هي القيم التي حمت الأفغانيين، والتي بذل الأفغانيون من أجلها الدماء، واستبسلوا في الدّفاع عنها؛ فردّوا جميع الغزاة، وهزموا أعظم القوى العالمية بمعونة اللّه. أفغانستان لم تكن ولن تكون مرتهنة لأي طرف. فلطالما عاشت بلادًا حرّة على مدى التاريخ. بوحدتها تمّكنت أفغانستان من الوقوف في وجه كلّ غازٍ.

ولو راجعنا التاريخ لوجدنا أن أرض أفغانستان لم تحتمل وجود أيّ محتل فوقها. ولأكون دقيقًا ولتوخّي المزيد من الدقة، أقول إن الحركات الوطنيّة التي تضمّ فئات الشعب هي التي نزلت إلى الشوارع للتظاهُر، وهي التي حاربت، وهي التي أنقذت أفغانستان من الأخطار الخارجية، ومن الحكومات المحلّية أحيانًا.

لطالما كان الشباب الأفغاني جاهزًا لتذليل كل المصاعب. لكنّ مشكلتنا الأساسية اليوم هي الثقة، والثقة قوّة لامرئية،. وغياب الثقة مصدرٌ لكلّ ضعف

في البلاد. وجدير بالأفغان أن يهبّوا جميعًا ليساعدوا بعضهم بعضًا. وبشكل عام، يتحلّون جميعهم باحترام فضائل الإسلام. ونحن قادرون عبر الإسلام أن نجدَ حلولًا لمشكلاتنا الحالية، ولما يمكن أن يستجدّ علينا في مسيرتنا المستقبلية. هذا الفراغ السياسي الذي وقعنا فيه كل هذه الفترة يجبُ أن يمتلئ، والإسلام هو السّبيل إلى ذلك.

الطريقة الوحيدة لحلّ لمشكلاتنا هي احترام القيم الإسلامية. فالأفغان المساكين يتعرَّضون للقتل بشتّى الطرائق: نصب الكمائن والخطف والاحتجاز. يأتي الأجانب ليهاجموا منازلهم وينزلوا بأزواجهم وأطفالهم قتلًا وجرحًا. بشكل أو بآخر، يُجبَر هؤلاء على التخلّي عن أرضهم. كلّ هذه المشكلات يجب أن توضع على طاولة البحث. وكلّ مبادرة للحل يجب أن تأتي من باب الشمولية، وتعالج مختلف جوانب الأزمة. يصعب أن نتوسَّمَ أملًا بالحل في الوضع الرّاهن الذي أفسد ضمائر حُكّامنا المحليين، وجعلنا محطّ أطماع الأجانب. يأمل الجميع بإيجاد حلّ لهذا الأفق المسدود. ومن الناس مَنْ يحاولون جاهدين تقديم المساعدة؛ لكنّ معظمهم يعملون لمصالحهم الخاصّة.

التقيت حامد كرزاي ثلاث مرّات أو أربعًا، بناء على دعوة منه وصلتني بعد عودتي إلى أفغانستان. تشاحنّا كلاميًا، لكننا حاولنا التوصُّل إلى حلّ. الموضوع هنا أقرب ما يكون إلى لُغز، ويصعب تصوُّر من سيقوم بفكّ العقد. الثابت الوحيد أن الأفغان وأفغانستان هما ضحيّة تلك المشكلات. منهم من يَفهمُ هذا، ومنهم مَن لا يفهم.

كان كرزاي يتكلّم من دون كلل عن السلام والاستقرار. لكنّه كان بعيدًا كل البعد عن تحقيقهما. لقد شوّه صورته أمام شعبه بالدعاية السياسية والوعود الفارغة. لا أعرف إن كان يفهم ذلك أم لا؛ لكنّه يعيش سجين حلقة من المعاونين تبقيه بعيدًا عن الحقيقة. والمعلومات التي يتلقّاها ضعيفة، وهي أقرب ما تكون إلى الأكاذيب. يعتمد كرزاي على هذه المعلومات؛ لذلك نراه ينطلق بخطوات غير مناسبة. لكرزاي عددٌ قليلٌ جدًّا من الأصدقاء يساعدونه على تحمُّل هذه

المسؤولية. وليس لديه مَن يشاركه في السرّاء والضرّاء؛ ذلك أنه قد وصل إلى السلطة بدعم خارجي، ما أضعف شرعيته مُنذُ البداية. أما مستشاروه الأذكياء، فهم قلّةٌ أيضًا، يقدّمون إليه المشورة الواضحة على ضوء التراث الأفغاني.

وضع كرزاي نفسه بين الوحش والهوّة، يستيقظ كلّ صباح دون وجهة يسير إليها. وفي النهاية هو لا يستطيع التمييز بين صديق وعدوّ، لأنّه لم يبلغ السلطة بالطريقة التي كان يجب أن يبلغها بها، حين يمضي بخطى بطيئة وصعبة. بهذه الطرّيقة، البطيئة والصّعبة، يكتسب المرء الأصدقاء الحقيقيين الشرفاء. فالمعروف أنَّ مَنْ يصل إلى السلطة، يصبح الجميع أصدقاءه، ويصعب التمييز بين الصادق والمرائي. وهناك أسباب أخرى أيضًا، لن يكون لها الأثر الايجابي على مستقبل أفغانستان.

حين تحادثت مع كرزاي لمدّة طويلة، وحلّلت شخصيّته، رحتُ أقارنه بالملّا محمد عمر آخوند. أوّلًا، كان الملّا صاحب يمنح كل مَنْ يزوره الوقت الكافي ليُفصح عن مكنوناته. واتّسم بأنه شخصٌ يستمع، طويل الأناة، لا يعرف الغضب طريقًا إليه. ما حدا بكلّ مَن زاره أن يقول إن الملّا يُفكرُ عميقًا في ما يقوله له. أما كرزاي، فكان على العكس تمامًا. يأخذ كل الحديث على عاتقه، فلا يدع لجليسه إلا مجالًا قليلًا للكلام. والواقع أنك حين تصغي إلى الآخر، تتمكّن من فهم المشكلة، لكن حين تتكلّم كثيرًا فربَّما نطقت بما تندمُ عليه لاحقًا.

ثانيًا، لم يخلف أمير المؤمنين بوعدٍ قطعه. ثالثًا، يحبّ كرزاي التباهي وادّعاء المعرفة، بينما لا يشعر المرء بذلك مع أمير المؤمنين. كثيرةٌ هي أوجه الشبه والاختلاف بين الرجُلين.

يحاول كرزاي التفتيش عن حلّ. ويمكن للآخرين أن يشعروا أنه ليس رجلًا شريرًا. فهو لا يُقدم على قتل الناس، أو على رميهم في السجون؛ لكنّه من ناحية أخرى، مسؤول عن الجرائم التي يقترفها ضيوفه. في الواقع هو يدين هذه الأعمال، لكنّه يعود ليقع في فخّ اللعبة السّياسية. يحب السلطة ويسعى إلى البقاء حيث هو، في موقعه، وهو يحب السلام أيضًا. لكنّه يعطي مكانة كبيرة للذين ساعدوه على

بلوغ السلطة. من الصعب خلق التوازن بين نقيضَيْن، ولا أعلم مدى إدراك كرزاي للضعف الذي يشوب حكمه. ولكنني أدرك كم هو مهمٌّ لهذا الموقع في الوقت الحالي. فالدور الذي يؤدّيه مفصليٌّ ومشكلات أفغانستان تتراكم فوق رأسه، وهو لا يستطيع أن يكون أكثر من كرةٍ بين يدَيِ اللاعبِ الأساسيّ.

يمكننا أن نقول، وبثقة تامّة، إن أيّامه ستُشرف على نهايتها. أتذكّر كم كانوا متأكدين، في بداية الغزو الأميركي، من أن أحدًا لن يجرؤَ على رفع يده في وجوههم. وأبلغوني بكل فخرٍ وكبرياء قائلين: «سيطول وجودنا في أفغانستان، وسنستأصل القاعدة وطالبان، وسنجلب إلى بلادكم الحرية والديمقراطية».

لم يسعني آنذاك إلا الضحك على الموقف هذا «ربما كان هذا رأيكم، لكن لي موقفًا مغايرًا». بعد ذلك ينتقلون إلى سؤال: «وما هو رأيك إذًا؟ ما الذي سيحدث؟».

أُجيبُ رافعًا يدي، مُظهرًا أصابعي الخمس: «هذا ما أنتم عليه الآن، ولكنّكم بعد ثلاث سنوات ستصبحون على هذا الشكل» وأريهم قبضتي. «قد تفهمون مقصدي إن لم تكونوا أغبياء، وإلا تبيتون بعد ستّ سنوات على هذا الشكل». وأريهم قبضتي مشدودة أكثر. «فمن الأفضل لكم، أن تُحكّموا في هذه المرحلة عقولكم وإلاّ لن تكونوا، بعد عشر سنواتٍ، قادرين على التحكّم في أيّ شيء. ستختبرون إخفاقًا مُحرجًا، وسنعيش نحن في كارثة».

ولكنّهم اعتبروا كلامي كلامَ أطفالٍ. أخبروني أنّني لا أفهم.. فأجبتهم: «أعلم ذلك.. فأنا أفغانيٌّ».

▲▼▲

يرتبط وضع أفغانستان السياسي بالمشهد الدولي. وهذه لعبة سياسيّة تترابطُ فيها الدول الأشدُّ اختلافًا في سلسلةٍ غير شريفة. وتختلط الأمور، فلا تعودُ قادرًا على تمييز أيّ شيء. لماذا لا يرحل أولئك الأشخاص من أفغانستان؟ في أي حال، إنَّ

وجودهم مؤقّت. قد يرحلون قريبًا؛ وقد يطول بقاؤهم. ولكن يبقى أمرٌ واحدٌ في غاية الوضوح: يحقّ لأفغانستان أن تقاومَ الاجتياح. يحقّ لنا أن ندافعَ عن شرفنا. يحقّ لنا أن نثأر من كلّ من سفكَ دماءنا.

تُعدُّ أفغانستان والولايات المتحدة الأميركية من ألدّ الأعداء. وحتّى كلمةُ «إرهابيّين» ليس بمقدورها إخفاء هذه الحقيقة. ولكنّ أوروبا أخطأت حين وقفت إلى جانب الولايات المتّحدة، لأنّها باتت تحذو حذوها. تحاولُ تلك البلاد أن تتدخّل في شؤوننا، كما حدث من قبل، وهذا ما يشدّ عزيمتنا. لا يمكنُ لبعض الدول أن تحكم العالم؛ لا معنى لهذا قط. فإذا ألقينا نظرةً على كلّ قرن من الزمان، تصادفنا أمثلة على كوارث دمويّة أدّت إلى إبادة الكثير من الأشخاص وتدمير الكثير من الممتلكات.

أمّا ذلك فيعود إلى اتّخاذ البعض موقفًا منحازًا. لا بُدّ من وجود دولٍ محايدةٍ تستطيع الوقوف بين الدول المتنازعة؛ ولا بُدّ من وجود دولٍ تكون موضع ثقة، إن استُدعيت للوساطة. الأمرُ لا يُطبّق اليوم.. العالم كلّه في كِفّةٍ واحدة وموقفٍ واحد. إن لم يتمّ السيطرة على هذا الأمر، فسوف تقع الكوارث.

يمكننا رؤية التراجع الذي حلّ الآن بأفغانستان والعراق؛ كما تتفاقم المشكلات شيئًا فشيئًا في بلدان أخرى ويُمسي الوضع جديًّا. وإنّ من الصعب تحديدَ الجهة المُستفيدة من كلّ ما يجري. ومن الصعب أيضًا معرفة وجهة هذه الأزمة. لماذا لا تزالُ الولايات المتّحدة تسفكُ الدماء؟ لماذا يستمرّ الأميركيون في لعب تلك اللعبة؛ فيدمّرون المباني باسم الأصوليّة والإرهاب؟ وهل يمكن أن تبتلعَ الولايات المتحدة الجشعة حقوق الإنسان أكثر من ذلك؟ وهل ستنتهي الولايات المتّحدة كالوحش الذي يأكل نفسه؟ وهل ستأكل العالم بأكمله؟ هل ستنشر الأمن أم ستبدأ حربًا عالميّة ثالثة؟ هل ستستطيع تحقيقَ هدفها بالقضاء على الإرهاب، أم أنّها ستسبّبُ في مضاعفته؟

لا يستطيعنّ أحدٌ ردّ السيف بالسلام، ولا غسل الدم بالماء. فلا يُردّ على السيف إلاّ بالسيف، ولا يُردُّ على السلام إلّا بالسلام. ويبدو أن الولايات المتّحدة ليس

بمقدورها أن تحتملَ أحدًا سواها؛ وهذا ما قد يُفضي إلى انهيارها. إذ إنّ تقبُّل الآخر هو من أهمّ السمات على وجه الأرض؛ وهو ما يجعل العالمَ بيتًا للجميع.

لكن من المستحيل أن تتحكّم أمنيةُ شخصٍ بكلّ شيء، مهما يمتلك من ثروات وسلطات.

والحقُّ يُقال إنّ الولايات المتّحدة قد خسرت سمعتها كبلد مسالم وإنساني. فالعالم كلّه الآن بات ينظر إليها على أنّها أنانيّةٌ ومتهوّرة وقاسية. وإن كانت دولة استبداديّة ما، تساعدُ الدول القاسية بغضّ النظر عن الجانب الذي تُحاربُ معه فهذه مسألة أُخرى. لا يجدي أن يكرّر التاريخُ نفسه. إنّ أفغانستان تواجهُ الآن عواقبَ أخطاء الماضي. ويتّضحُ لكلّ من راقب المرحلة الأخيرة أنّ العالم يتوجّه نحو تغيير جذريّ. ولكنّنا لا يمكن أن نعلم هل هذا التغييرُ مسالمٌ أم دام. لكن من المستبعد أن يكون مسالمًا؛ إلاّ أننا ندعو إلى السلام ونحلم به. لكنّ إذا كان ما ينتظرنا هو العنف، فسنكون، نحن الأفغان، الضحايا. وستُعاني أراضينا وأراضي جيراننا الكثير من الأسى.

ولكن قبلَ أن ننظر إلى العالم ونحكم على توجّهه، علينا أن نتأكّد من أننا لن نُجرفَ أو نُسحقَ كالنمال تحت الأقدام. وإن من غير الحكيم أنّ نتحدّث في هذا الوقت الحاسم عن خلافاتنا الداخلية. ويجب على طالبان وحكمتيار وغيرهما من عناصر المقاومة التنبُّه لهذا الأمر. كما يجب على تحالف الشمال وشخصيات أخرى في إدارة كرزاي، الذين يأملون أن يعيشوا في هذا البلد لفترة طويلة، أن ينظروا هم أيضًا إلى هذا الأمر بجديّة تامة. لكنّ عقول بعض الناس غارقة في الماء العكر، إذ إنّهم ينتفعون من خلق الانقسامات. لكن ينبغي لهم أن يعلموا أن من غير الممكن لأي مجموعةٍ إثنيَّةٍ في أفغانستان أن تزدهر إلّا في مناخ من الوحدة الوطنيّة. ولا أحد بمقدوره أن يحميَ شرفهم الوطني. تبقى مسألة القوات الأجنبية التي تم نشرُها في أفغانستان. يلزم تلك القوّات أن تعرف الحقيقة، وتعرف أن من غير الممكن لأيّ قوّة أن تحتلّ أفغانستان. هذا هو مجتمع التسامح والاحترام.

لا تجلب القنابلُ العنقوديّة وصواريخ الكروز، والتصرُّف بقلّة احترام، وزجّ الناس بالسجون، سوى العداوة. ليست هذه طريق السلام! ولا ينفع البتّة أن نبني جدارًا من الكراهيّة والتحيُّز.

لطالما قال لي المحقّقون ليس هناك سوى ألف مقاتلٍ من طالبان. وتنتهي المقاومةُ بمجرّد قتلهم. منذ أن تمّ إطلاق سراحي من سجن غوانتانامو، رحت أتابع تقارير الأميركيّين وحلفائهم الأفغان الذين ادّعوا أنّهم بحلول عام ٢٠٠٦ قد قتلوا ١٢ ٧٠٠ من طالبان؛ منذ وصولهم عام ٢٠٠١. لكنّ المقاومة تزداد قوّة يومًا بعدَ يوم. وهذا ما يدلّ إلى أنّ قتلَ الناس وزجّهم في السجن لا يلغيان العدوّ بل يولّدان أعداءً أكثر وناسًا تملأ قلوبهم الكراهية. حاولت بعض البلاد المتورّطة أن تخرج من تلك المعمعة؛ لكنّها لا تعلم كيف؟ وتُحاولُ بلادٌ أخرى إيجادَ استراتيجيّات أخرى لتفادي الهزيمة، لكنّها لا تملك أدنى فكرة عن كيفيّة المضيّ قدمًا.

هذه الكلمات كلّها فارغة. فكلّ بلدٍ يسعى وراء مصالحه لن نتوسّم الصدق في وعوده وأعماله. وما يجمع تلك الدول هو خوفها، وربّما الخوف من المستقبل. إنّها زوبعةٌ في فنجان تدعمها المخابرات الأميركية والشرطة الفيدرالية. أنا أوافق تلك الدول التي تبحث عن استراتيجيّة بديلة، لكن عليها التنبّه من أنها قد تكون انحازت إلى جانبٍ، وهي تعملُ على هذه الاستراتيجيّة البديلة. لقد اختارت الجانبَ الذي قتلَ آلاف الأفغان والذي أدّى إلى نزوح الآلاف من الأُسَر ويتّمَ آلاف الأطفال، وجعلَ آلاف النسوةِ المسلمات أراملَ. حلَّ الشتاء الثامن منذ الغزو، ولا تزال القسوةُ والعارَ مستمرّين. ولا تزال عمليّات القتل والجنازات وإراقة الدماء تشتدّ يومًا بعد يوم. فما هي الاستراتيجية التي يعملون عليها، وقد ضمرت عقولهم في جماجمهم؟ ومن هم أولئك الأفغان الأنانيون الذين يصغون إليهم؟

من الأفضل أن تترك هذه الدول الاستراتيجيات البديلة للأفغان. يجب أن نقرّر مستقبلنا بأنفسنا. وعلينا نحن أن نتّخذَ القرارات والحلول الوسطى، والنظام.

وينبغي لتلك الدول أيضًا أن تتخلّى عن فكرة «رئيسٍ للجمهوريّة» يرقص على أنغامها. ما يحدث الآن هو تجاهل قانون البلاد وتعيين وزراء وفقًا لرغبات لتلك

الدول. وينسى القضاءُ قرارات اتّخذها سابقًا، أو يقوم بأعمال تنتهكُ تلك القرارات.

لا يمكن لاقتصادهم أن يكون أُحاديًا. ولا يمكنهم أن يتحكّموا بشرف الأفغان سعيًا وراء أهدافهم الخاصّة.

هم يضمّون الحاكمين والنوّاب إلى صفوفهم. وقتلُ أفغانيّ في نظرهم هو ببساطة قتل عصفور. وإن قاموا بقتل أفغانيّ أو جرحه، لا يمكن لأحد أن يجرَّهم إلى المحكمة؛ لا يمكن لأحدٍ أن يستجوبَهم.

وستقوم المملكة المتّحدة الشيطانيّة والولايات المتّحدة العنيدة بتوسيع الفجوة بين المسلمين وديانات أخرى. وسوف تشيع مُناخًا من عدم الثقة والشكّ.

وقد استمرّت هذه السياسة الشيطانيّة مدّة طويلة. وعلى الأفغان أن ينسوا خوفهم من زوبعة الفنجان تلك، وأن يستعيدوا استقلالهم؛ مفوّتين على الأجانب أيّ ذريعة. هل هذا أمرٌ ممكنٌ أم لا؟ ربّما كان من المبكر أن نعلم. لكن إن بقيَ الوضعُ على حاله، بعدَ تشكّل ذلك التحالف غير البريء من أجل الانتخابات الأفغانيّة، فلن يعودَ ذلك بالفائدة، لا على الأفغان ولا على جيرانهم. ستَخلُصُ أفغانستان؛ فهي وُلدت قبلَ الولايات المتّحدة بكثير؛ وستبقى بعدَ رحيل الأميركيّين.

يبدو وطننا حاليًّا عالقًا في شباكٍ حاكها جيراننا والأجانب بمساعدة دول أخرى. ولكن سيحين وقتٌ، يسترجعُ فيه الأفغان صوتهم، ويتّحدون معًا للمضيّ قدمًا على وتيرتهم الخاصّة، وفي طريقهم الخاصّ.

الخاتمة

أفغانستان اليوم

يبقى الاتّجاه الذي يسير فيه الوضع السياسي في أفغانستان مُبهمًا. فهي بشكل عام جزءٌ لا يتجزّأ من أزمة إقليمية واسعة النطاق، تزداد تعقيدًا يومًا بعد يوم، جرّاء غياب التوازن في السلطة والثقة السياسيّة. وهذا ما جعل أفغانستان مرَّة أخرى ساحة تَتصارع فيها القوى العظمى. وجرّاء الفراغ السياسي والعسكري فيها، أصبحت بمثابة مختبر لتنمية نفوذ هذه القوى وتحالفاتها.

ومع رحيل جورج بوش ووصول باراك أوباما، تعزَّزت آمال بعض الأفغان، إلا أن الوضع ازداد تعقيدًا على الصّعيد الإقليمي؛ ولم تعد أميركا كما كانت عام ٢٠٠١، عندما غزت أفغانستان للانتقام. كما أنها لم تعد كما كانت عام ٢٠٠٣ عندما غزت العراق، متذرّعةً بأسلحة الدمار الشامل للاستيلاء على احتياطيّ النفط في البلاد. تغيّرت سمعة أميركا، وأصبحت تُعرف الآن بمخالفة القوانين، وانتهاك حقوق الإنسان، وإثارة الكراهية. وبلغَتِ الأمور درجةً تكشفُ تردُّد المواطنين الأميركيين في إظهار جوازات سفرهم في بلدان معيَّنة، جرّاء الخوف، أو الخجل من أفعال دولتهم.

كما تشهد أميركا انحطاطًا اقتصاديًّا: فنسبة البطالة تشهد ارتفاعًا ملحوظًا. وكذلك الأسعار. وراحت الشركات الكبرى تفلس الواحدة تلو الأخرى. ومع استخدام أميركا لطرق الإمدادت الجديدة عبر روسيا أو الاتحاد السوفياتي السابق، أصبحت مشكلتها مع الباكستان أكثر وضوحًا. ومع ذلك، فإن الباكستان

كانت خاضعة لرئاسة برويز حليف أميركا. فاضطهدت المسلمين، واستخدمت أراضيها لتدمير بلد مسلم آخر، وساهمت في قتل مدنيين أفغان، وفي قمع الأحزاب الإسلامية في الباكستان، وزرعت بالتالي بذور الكراهية بين الحكومة والشعب. ويبدو الآن وكأن حليب البقرة الأميركية بدأ يجفّ. حتى أن العالم العربي قد بدأ ينأى عنها جرّاء عداوتها للإسلام، فضلًا عن أسبابٍ عدَّة، منها دعم إسرائيل ضد الفلسطينيين وهذه حقيقة لا يمكن لقادة العرب أن يغضّوا النظر عنها. أضفْ إلى ذلك، مَن منّا يجهلُ سبب بناء منشآت الدّفاع الأميركية في جورجيا وأوكرانيا وجمهورية التشيك. ولكن ازدياد قوّة روسيا، وتطوُّر الصين الدراماتيكي، وسعي إيران للحصول على أسلحة نووية، شكّلت مجتمعةً تحدّيًا لأميركا.

وعلى الرغم من كل هذه التحدّيات، فإن استراتيجية الرئيس أوباما السياسيّة لا تزال تستند إلى الافتراض القائل بأن أميركا هي الأولى في العالم. وهذا في حد ذاته هو مرضٌ عضال. وتعمل أميركا اليوم على استراتيجية أفغانية جديدة، وتخطّط أنٍ يحلّ رئيس آخر محلّ حامد كرزاي كي تُظهِر للأفغان كم هي قادرة على التحكّم باستقلالهم ووضْعِ من تشاء في السلطة. في هذا الصدد، يستطيع أوباما أن يكون أكثر خطورة من بوش. قد تكون نيّاته إحداث التغيير والسلام، لكنه سيخضع لضغطٍ من وكالات الاستخبارات، يؤثر به تأثيرًا بالغًا. وهذا يدل أيضًا على أن أميركا ستبقى في أفغانستان لفترة طويلة. لأنها تريد تغطية إخفاقها وتحسين صورتها. ولن تغادر العراق إلا بفضل المقاومة المتصاعدة في العالم العربي. فالدول العربية تعني لأميركا الكثير اقتصاديًا. لذلك لا تريد أن يهزمها العرب. كما أنها لا ترغب في المزيد من تخريب علاقاتها مع العالم العربي.

أما قضية أفغانستان فسهلة على أميركا، لأنها تقاتل جماعة عرقيّة غير منتشرة في أي مكان آخر في العالم، وبالتالي يمكنها أن تستمر في القتال، مهما يرتفع عدد الضحايا؛ وأن تتجاهل معاناة الشعب الأفغاني، لأنها لن تواجه أي ردّ فعل أو معارضة عالميّة. بالمقابل ستواجه مشكلات كثيرة إذا راحت تُقاتِل في فلسطين أو العراق.

إن الهوّة بين الأفغان والغُزاة الأجانب تتسع شيئًا فشيئًا، والمشكلات بينهما تتفاقم. ومع أن الأفغان المظلومين يتحلون بصبرٍ عظيم، فإن العالم أيضًا لسوء الحظ، يصبر ويسكت على معاناتهم وسفك دمائهم. باتت أفغانستان البلد الأكثر اضطهادًا في العالم. لكنَّ الأفغان ينتقمون بهدوء، حتى لو كلّفهم الأمر التضحية بأنفسهم. ما من أفغاني، أو باشتوني على الأقل، يعتقد أن أميركا لا تفعل شيئًا إلا قتل الناس ونشر الكراهية. مع أن هدف الغزو الرئيسي الذي يسوّق هو تقديم الدعم. حتى الأفغان الذين أيّدوا أميركا في البداية بدأوا يشكّون في نيّاتها.

بدأ الوضع الأمني في أفغانستان يتفاقم يومًا بعد يوم. فالغزاة الأجانب والسلطات الأفغانية فقدا السيطرة. وأصبحت الحياة في القرى والأحياء أصعب على الشعب، ولاسيما رجال الأعمال وأولئك الذين لديهم ماشية، أو غيرها من الممتلكات. إذ لا يشعر الناس بالأمان، وبالتالي يلجأون إلى الاستثمار في الخارج. وتربط بين الأمن والاقتصاد علاقة مباشرة. فعندما يتدهور الوضع الأمني يحذو حذوه الاقتصاد والوضع السياسي. ويعتقد أوباما الآن بضرورة رفع عدد القوّات، وإرسال ٣٠ ألف جندي إضافي. ويعمل على تشجيع الدول الأخرى كي ترفع أعداد قواتها إسهامًا في تهدئة الوضع الأمني. إلا أنه لا يعرف أن المزيد من القوات يعني المزيد من سفك الدماء والمزيد من التوتُّر مع جيراننا. وكلّما ارتفع عدد القوات أصبح من الصعب إخراجها. لذلك قد تؤدي استراتيجية أوباما الجديدة إلى تحويل المشكلات التي تواجهها أفغانستان إلى مشكلات إقليمية تستهدف كل المنطقة.

والحل في رأيي يكمن في أن تعيد أميركا النظر في سياسة الحرب التي وضعها رئيسها الأسبق بوش، وأن تضع حدًّا للصراع، وتبدأ حملة السلام بدلًا من الحرب. وهذا لمصلحة البلديْن. ذلك أن المنطقة الجنوبيّة قاطبةً، من قندهار وهلمند وزابول وأوروزغان وفرح ونمروز، مترابطة اقتصاديًّا وأمنيًّا. ويمكن لمحافظة واحدة أن تؤثّر في الأُخريات، خصوصًا في الجنوب الغربي والجنوب الشرقي والمنطقة الوسطى. كما أن لوضع المحافظات الجنوبية السياسي أيضًا

تأثيرًا مباشرًا في الشمال والغرب، وفي المناطق القبليّة من الباكستان. فبعض الأشخاص لا يرغبون إلا في قمع الباشتون والجنوب. ويفعلون ذلك إما مباشرة، وإما من خلال تشجيع الأجانب. وهم يعرفون أن قمع زملائهم الأفغان ليس سوى قمعٍ لأنفسهم؛ لكنهم يفعلون ذلك من أجل المال.

في العام ٢٠٠٧، كان الوضع السياسي والاقتصادي والأمني معقّدًا جدًّا في المحافظات الجنوبيّة، حيث فقد الكثير من الأجانب ومن الأفغان حياتهم. تحوّلت العلاقة بين القوّات الأجنبية والسكان المحلّيين في كثير من المناطق الريفية في الجنوب من مجرَّد كراهيَّةٍ إلى عداء. فإذا سألت في الشوارع كل الأفغانيين: كيف يعامل الأميركيون الناس؟ لأجابك ٩٥٪ منهم بالقول إنهم أعداء الشعب الأفغاني. ومن سيقولون العكس يكونون عملاء، وهم يواجهون كراهية أكبر من كراهية الشعب الأفغاني للأميركيين. أما البريطانيّون، فالجميع متفقون على أنهم قد جاؤوا إلى أفغانستان انتقامًا لآبائهم وأجدادهم.

غالبًا ما يُغض النظر عن حقيقة أن الشعب الأفغاني هو الذي يعاني، أي الفلاح وصاحب المتجر، وهو الذي يدفع ثمن سياسة سيّئة وقرارات خاطئة. ويفقد رجالنا ونساؤنا وأصدقاؤنا وأشقاؤنا حياتهم واستقلالهم باسم إعادة الإعمار. لَمَ توضع الأصفاد في أيدينا وأرجلنا؟ ماذا يريد الأجانب منّا؟

أَوَلم يتكبّد الجميعُ الخسائر في ظل إدارة بوش؟ ومَن استفاد من بوش سوى أعداء الأفغان والأميركيين؟ لكن بِمَ يختلف عنه الرئيس أوباما؟ يبدو من الواضح أن يديه ستتلطّخان أيضًا بدم الأفغان. لقد أعلن لتوه أنه سيرسل المزيد من القوات. انتُخِب أوباما من قبل الكثيرين، ولكن شعار حملته «التغيير الذي يمكننا أن نؤمن به»، كان غامضًا جدًّا ويفتقر إلى الوضوح. وأوباما نفسه أيضًا من الأقلّية التي مثّلتها ذات يوم الزنوج الذين حُرموا من حقوقهم على مدى قرون في أميركا؛ الأقلّية التي كانت مُهملةً اقتصاديًّا وسياسيًّا. لكنّه في نهاية المطاف، قد يكون ضحية تلاعُب، كما كان بوش. وهذا واضح من خلال رفع عدد الجنود الأميركيين في أفغانستان، والتهديدات الموجّهة إلى الدول الأخرى. وإذا كان

أوباما يريد إنقاذ أميركا من الانهيار ووضع حد للعداوة تجاه العالم الإسلامي والمسلمين بشكل عام، فيجب عليه أن يكون أكثر حذرًا.

نحن نعلم أن رفع عدد القوات في أفغانستان ليست خطّة أوباما بل هي خطّة مقرَّرة قبل أن يُنتخَب. إذ يرى كبار المستشارين الأميركيين أن زيادة القوات كفيلة بالسيطرة على الوضع. لكن ينبغي لأميركا أن تُلقي نظرة على تاريخ أفغانستان. لقد سبق أن تعرَّضنا للغزو مرات ومرّات. فلماذا أخفقت القوات الغازية؟ ويجب أن يأخذ الأميركيون في الحسبان ما حدث في العراق من قتلٍ حصد مليونًا من الشعب العراقي، مع وجود ٣٠٠ ألف جندي أميركي، ولا يزال مسلسل القتل مستمرًّا.

يجب أن يدرك الأميركيون أنهم فقدوا صفة الشعب المناصر للحرية والديمقراطية. وباتوا يتصفون بدل ذلك بنشر بذار الكراهية في جميع أنحاء العالم. وقد أعلنوا الحرب على الإرهاب والإرهابيين تحت الراية الجديدة، مع العلم أنّ مصطلح «إرهاب» من تأليفهم. لذلك سيظلّ الجهاد مستمرًّا ضدَّهم حتى تتَّخذ أميركا الخطوات اللازمة لتصحيح أخطائها.

ونحذّرها من مواجهتنا! فعلى الرغم من الجوع والفقر ومن العيش بين الأنقاض، وعلى الرغم من اقتصادنا الضعيف، فإن إيديولوجية أفغانستان ليست للبيع. لا يوجد حلٌّ سهل في أفغانستان، وأميركا لن تحل المشكلات من خلال الميليشيات القبلية. فالعداوة بين الإخوة لن تُفضي إلا إلى الفساد، وتكوين قوة خارجة عن الجيش والشرطة لا يمكن السيطرة عليها. ستوقظ أميركا وحشًا نائمًا. حدث كل ذلك من قبل. رأيناه من قبل، ولا نزال نرى آثاره. ومع ذلك يعتقد بعضُ الأميركيين والأفغان الموالين للغرب أن أميركا يجب أن تعزّز موقفها العسكري والسياسي، وتُمهّد من ثَمَّ الطريق لمحادثات السلام. قد يكون هذا هو السبب الحقيقي وراء رفع عدد قوّاتها. ربما نجحت هذه الاستراتيجية في العراق؛ لكن أفغانستان تختلف كثيرًا عن العراق أو الغرب. فالأفغان لا يتراجعون، بل يناضلون، مهما يكن وضعهم، من أجل حقوقهم. أما أميركا فقوية حاليًّا، وأي محاولة لتعزيز قوَّتها، سيدفع الشعب إلى تصعيد القتال.

لقد غزت أميركا أفغانستان، وانتهكت سيادتها، وألقت القبض على الآلاف، وزجّت بهم في السجون، وعذّبتْهم وأذلّتْهم، وقتلت عشرات الآلاف من المواطنين الأفغان. لذلك على أوباما أن يعتذر عن كل ذلك بدلًا من استمراره في اللجوء إلى العنف. وعليه أن يسعى إلى تحقيق سلام حقيقي وهذا هو المهم للجميع. كلنا نتحدث عن السلام؛ ولكن الخلاف ينسب بيننا على تطبيقه. ليس مستبعدًا أن تسعى أميركا وراء السلام؛ لكنَّه سلام خاص بها، يناسبُ شروطها. وهذا ليس بسلام، بل حرب باسم بالسلام.

يجب أن تُعامِلُ أميركا أفغانستان كدولة ذات سيادة وألاّ تُجاوِزَ حقوقها. وإذا منحتْها الحكومة الأفغانية حقوقًا، عندئذ فقط يقبل الشعب الأفغاني وجودها. أمّا الآن، فإنّ هدف أميركا في المنطقة غير واضح. ماذا تريد؟ إلى متى ستستمرّ في أعمال القتل والاضطهاد تحت عنوان «الحرب على الإرهاب»؟ مع العلم أن عدد الأميركيين الواصلين إلى أفغانستان كان قليلًا؛ لكنه وصل إلى ٦ آلاف، ثم ١٨ ألفًا؛ حتى بلغ ٣٠ ألفًا. ونتوقّع أن يصل قريبًا إلى ٦٤ ألفًا. وليس مستبعدًا أن يصبح العدد في العام المقبل ١٠٠ ألف. ما معنى هذا؟

مَنْ سيُسيطر عليهم؟ من سيتمكّنُ من الادّعاء بأن أفغانستان بلد مستقل؟ لا نرى الآن متى سيتم الانسحاب. ولكن إذا لم يضع الأميركيّون جدولًا زمنيًا واقعيًا للانسحاب، فسوف يعزّزون قواعدهم، ويعملون على بناء المزيد من المطارات ومستودعات الذّخيرة، ويجمعون لوازم لعشرات السنين. سوف يحاولون الإفادة من الظروف السيّئة التي يعيشها الأفغان، ويشترونهم بالأموال التي سيتمّ استخدامها ضدّهم لاحقًا.

ما يحتاجُ إليه الأفغان هو التوحُّد يجب ألّا يسمحوا لأنفسهم ولأطفالهم أن يخدموا الأميركيين بقتل الأفغان الآخرين، والتعرُّض للقتل. يجب أن ننتظر ونرى ما سوف يحدث. يحتاج الأفغان إلى معرفة أن موتهم لن يضرّ إلا هم. لا أحد سيبكي عليهم، بل إن البعض سيفرحه خبر موتهم.

السجون الباكستانيّة

أثارت السجون الأميركيّة انتقادات منظّمات حقوق الإنسان واعتراضاتها، في جميع أنحاء العالم. فهي مشهورة بالاضطهاد غير المشروع للمسلمين. في تلك السجون يعذّبون النّاس ويحرمونهم من حقوقهم الإنسانيّة، منتهكين بذلك القوانين الدوليّة وقوانين الولايات المتحدة، واتفاق ١٩٤٦ الذي أُبرِم في جنيف. ولا يزال هذا الظلم مستمرًّا في أفغانستان والعراق وغوانتانامو وأماكن أخرى بعيدًا عن عيون البشر.

ونجا من الإنذار بعض البلدان التي تفوّقت على الأميركيّين ظلمًا. فدول مثل مصر والأردن والباكستان ترتكب، بدعم من الولايات المتّحدة، أعمالًا لا يمكن تبريرها بموجب أي قانون أو دين. ويكفي أن نراقب كيف تعامل الباكستان الأفغان على سبيل المثال. فهي تؤدي دورًا رئيسيًّا في آسيا، وتشتهر بالخيانة؛ ويمكنها بحسب القول المأثور أن تجلبَ الثور. لديها لسانان في فم واحد، ووجهان في رأس واحد؛ لكي تتمكّن من التحدث بلغة الجميع، واستخدام الجميع، وخداع الجميع. فهي تخدع العرب بذريعة الطاقة النووية الإسلاميّة، مدّعية أنها تدافع عن الإسلام والدول الإسلاميّة. تتحالف مع أميركا وأوروبا ضد الإرهاب. وتخدع المسلمين الباكستانيين وغيرهم في جميع أنحاء العالم، باسم الجهاد الكشميري. لكنّها في الحقيقة لا تخدع سوى نفسها، فقد كانت تخون الجميع.

كان الإسلام والجهاد مجرَّد وسيلة لتدمير البلاد الإسلاميّة المُجاورة. فقد سلَّمت مطاراتها للأميركيين حتى يتسنّى لها قتل المسلمين وتدمير الدولة الإسلاميّة. ولاؤها للعرب عظيم إلى درجة أنها باعت الديبلوماسيّين والصحفيّين والمجاهدين، كحيوانات، مقابل حفنة من الدولارات. لم نعد واثقين حتّى بأنّها ستستخدم القنبلة النوويّة للدفاع عن الإسلام والمسلمين. فلعلّها تنوي استخدامها ضدهم كما جرت العادة.

يُسجَنُ الأفغان في جميع أنحاء العالم. وتَستخدم الحكومات ذرائع لتعذيبهم

وسجْنهم كل يوم. كما أصبح تعذيب الأفغان في سجون أفغانستان والعراق وغوانتانامو وأميركا معروفًا؛ لكن لا يُعرف إلاّ القليل عن الوضع في الباكستان. فهي تختلق اتّهامات سياسيّة أو جنائيّة، لسلبهم مالهم. إن من يسجن بتهمة جنائية لديه على الأقل فرصة للمحاكمة، وغالبًا ما ينجح رشو المسؤولين في إطلاق سراحه. وحتى في السجن أيضًا يُتاح له هامش من الحريّة. وهذا لا ينطبق على مَن يُسجَن لأسباب سياسية. في السجون الباكستانية، يمكن أن يُقابِلَ المجرمين أقاربهم تلقاء رشوِ المسؤولين. وقد لا يُمنحون الحق في توكيل محامٍ، ويتعرَّضون للضرب والتعذيب عند الاستجواب.

لكن حياة السجناء السياسيّين أصعب كثيرًا من ذلك، خصوصًا إذا اتّهموا بـ «الإرهاب» ومن الجدير بالذكر بأن معظم الضحايا من الأفغان. ناهيك بأن وضع السجناء الأفغان يختلف كثيرًا عن الباكستانيين، الذين يمكنهم التواصل بسهولة. كما أن السياسيين في الباكستان يستطيعون مساعدة السّجناء الباكستانيين. أما الأفغان فتعاملهم الشرطة الباكستانية كمواطنين من الدّرجة الثانية. وعندما تقبض عليهم تفعل بهم ما تشاء. وتَحتجز وكالة الاستخبارات الباكستانية معظم السجناء السياسيّين في أماكن يغيب عنها القانون.

وقد سُجن الكثير من الأفغان خلال السنوات الخمس أو الست الماضية في سجون الاستخبارات الباكستانية. وكثيرون أيضًا خلال السنتين أو الثلاث الماضية، مع انعدام أي أمل في إطلاقهم. حتى أقاربهم كانوا يجهلون ما يحدث لهم. وما كان لأحد أن يعرف إن كان ابنه أو أخوه أو والده مسجونًا أو مريضًا أو في صحةٍ جيدة. لم تتوافر لديهم أي وسيلة اتصال بالعالم الخارجي كالصليب الأحمر، أو الرسائل، أو الهاتف أو الفيديو. بل كانوا يعيشون في زنازينهم كالموتى في انتظار يوم القيامة.

ليكن اللّه في عونهم، ويخلّصهم من تلك السجون. فالحياة صعبة على الأقارب، وأصعب كثيرًا على السّجناء. ما يقضونه في السجن مأساة حقيقيّة، لأنهم جُرّدوا من الكرامة. وعندما تأتي الاستخبارات العسكريّة الباكستانيّة

للقبض على شخص ما، تداهم منزله، تمامًا كما يفعل الأميركيون في أفغانستان، وتربط بقية أفراد الأسرة، وتضع أكياسًا سوداء على رؤوسهم. وفي بعض الأحيان تعتقل أفرادًا آخرين من الأسرة، حتى الضيوف. وتعذّبهم حتى يصلوا إلى مراكز الاعتقال. وتعاملهم بطريقة لاإنسانيّة وغير لائقة بالإسلام. كما تعرّضهم للتعذيب، وأحيانًا تحرمُهم من النوم أثناء الاستجواب. ولا تسمح لهم بالذهاب إلى دورات المياه إلا مرّة واحدة كل ٢٤ ساعة، ولا حتى بمحادثة بعضهم بعضًا؛ فلا يعود التواصل ممكنًا إلا من خلال الإيماءات. وإذا قُبض عليهم مُتلبّسين بمحادثة تُنْزِل بهم أقسى العقوبات.

أخبرني أحد السّجناء قصّته قائلًا: «عندما اعتقلني جواسيس باكستانيون، اقتادوني إلى مكان مخيف جدًّا. أدخلوني إلى غرفة صغيرة وضيّقة، غُطّي كل شيء فيها، من السقف إلى الأرض والجدران والأبواب، باللون الأسود. حتى ليتعذّر عليك التفريق بين الليل والنهار. ولم أرَ نورًا في ذلك المكان إلا نور المصباح المشتعل في غرفة التحقيق». وأضاف: «أول مرة مضوا بي إلى تلك الغرفة جرّاء ارتفاع ضغط دمي وانقطاع نفسي، بعد إحساسي أنني في قبر. آنذاك صرخت وصرخت، ولكن من دون فائدة؛ لكنني لم أستسلم. وفجأة سمعت صوتًا خافتًا يهمس في أذني: هل أنت سجين جديد؟ صدّقني لن تجد مَن يُعاملكَ بلطفٍ هنا حتى لو صرختَ حتى الصّباح. لذلك من الأفضل لك أن تنتظر بدلًا من الصراخ والصّياح. وأسأل اللّه أن يساعدك. آنذاك هدّأت قليلًا من روعي.

«أدركتُ، عندما جاء الجنود الباكستانيون إلى زنزانتي وأضاؤوها، كم كانت جدرانها سودًا. كان المنظر مخيفًا. لم أرَ مثل هذا المكان في حياتي. فقد عُلّقَت على جدرانها أوتادٌ ليُربط بها السجناء، وتتدلّى منها حلقات، اثنتان لليدَيْن واثنتان للقدمَيْن، فضلًا عن حلقة خامسة للرّقبة. وكانت الجدران السّود ملطخة بدماء السجناء الذين تعرَّضوا للتعذيب. وعندما نظرت إلى الجنود الباكستانيين، رأيت من خلال ملابسهم السود وقبّعاتهم السود عيونهم المليئة بالشرّ. ثم أُغمي علي. أيقظوني، ووضعوا كيسًا أسود على رأسي، ثم اقتادوني إلى مكان آخر. هناك لم

أسمع سوى أصوات المحقّقين، يتحدثون الإنكليزية بلكنة أميركية: مُحَقّق يطرح علي الأسئلة، ومحقّق يترجم الأسئلة والأجوبة. حقَّق الضبّاط الباكستانيّون معي مرة أو مرّتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، وعلى مدى طويل. ثم تغيّر الوضع. وأُلقيتُ في غرفة صغيرة مع ثلاثة سجناء أفغان آخرين. وبدت الخلية الجديدة مضاءة وسمح لنا فيها بالذهاب إلى دورة المياه مرتين كل ٢٤ ساعة».

هذا السجين، قضى سنة وثلاثة أشهر في هذا السجن السرّي، ولم يسمع أمرًا عن عائلته طَوال هذا الوقت. كما أن أحدًا لم يكن يعرف مكانه.

«عندما تأكد ضباط الاستخبارات الباكستانية والمحقّقون الأميركيون أنّني مجرَّد رجل أفغاني عادي، ولا تربطني بالأحزاب السياسيّة أي صلة، وأنني لم أكن أملك أي معلومات حول تنظيم القاعدة أو حركة طالبان، قرّروا الإفراج عنّي. جاؤوني في منتصف الليل، وقيّدوا يديّ ورجليّ بالأغلال، ووضعوا كيسًا أسود على رأسي، وألقوا بي في سيارة. وبعد ثلاث ساعات توقّفوا في مكان ما وأخرجوني من السيّارة، وألقوا بي على الأرض، وفكّوا قيودي وأزالوا الكيس عن رأسي. كان الجو باردًا جدًّا. عندها سمعت الجنود الباكستانيون يقولون لي: «أنت حرّ الآن، ولكن عليك أن تفعل شيئين. أولًا، يجب ألّا تتحرَّك لمدة خمس عشرة دقيقة، حتى نكون قد ابتعدنا. ثانيًا، يجب ألاّ تخبر أحدًا بما حدث لك. وإذا فعلت، فإنك سوف تواجه عواقب أكثر شدّة. يجب أن تعرف أن أحدًا لن يحميَك منا».

مرَّت تجارب كثيرة تفوق هذه سوءًا. وأولئك الذين يسلّمهم الباكستانيون للأميركيين، أو للحكومة الافغانية بعد السجن والاستجواب يكونون في غاية السعادة بمجرد الإفراج عنهم.

طرحتُ على كثير من السجناء السؤال الآتي: ما الفرق بين السجون الباكستانية والسجون الأفغانية أو الأميركية؟ وحصلت على هذا الجواب: السجون الأفغانية والأميركيّة أفضل كثيرًا من تلك الباكستانيّة. فقد تضرّر الكثير من السجناء جسديًّا، كالسيد محمد آغا أكبر، ويسار طبيب، والمفتي عبد الحكيم، ومئات

السجناء الآخرين، جرّاء الضرب المبرح والتعذيب الذي لحق بهم خلال فترة سجنهم.

لقد أصبح بعضهم عاجزًا عن العمل بسبب إصاباته. ولكم حاولنا جعل منظمات حقوق الإنسان والمجتمع الدولي تقوّم السجون الباكستانية، في محاولة لمساعدة السجناء. ولكن حتى الآن لا تزال منظمة الصليب الأحمر الدوليّة في انتظار الحصول على إذن لزيارة السجون وتفقّدها، وجعل السّجناء يتواصلون مع أُسرَهم. وعلى الرغم من جهود الكثير من منظمات حقوق الإنسان التي حاولت التأثير في أميركا والباكستان وأفغانستان لتحترم حقوق الإنسان، فإن الأمور لا تزال كما هي.

لماذا أخفقت الولايات المتحدة؟

على الرّغم من أنها لا تزال تدّعي النجاح، وكذلك حلفاؤها في حلف شمال الأطلسي، مدّعين أنهم حققوا الكثير في أفغانستان، لا تذكر أميركا كلمة «إخفاق» أو «هزيمة»، مهما تتعدَّد الصعوبات التي تُواجهها. ولكن الحقيقة هي الآتية: بعد ثماني سنوات من الاحتلال، تفاقمت المشكلات، وسُفِكت الدماء، وانتشر الفقر، ووصلت نسبة البطالة إلى ذروتها، وتدهور الوضع الاقتصادي. ولم يشمل الأمن سوى المدن والبلدات.

وازدادت الكراهية بين الجانبَيْن إلى درجة أن جنود أميركا وحلف شمال الأطلسي لم يعودوا قادرين على حماية أنفسهم، ناهيك بالشروع في تحقيق الأمن للشعب الأفغاني. وبدلًا من تصويب بندقياتهم ودباباتهم على العدو، فإنهم يستخدمونها ضد الشعب المظلوم. وقد تقرَّر تنفيذ مؤامرة الحرب هذه مباشرة بعد أحداث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، علمًا أن دم أميركا كان يغلي قبلها وكانت تلك الأحداث مجرَّد ذريعة وكان يجب أن تستخدمَ أميركا منطقها بعد أن تتحقّق من الأمر. لأن الهجوم على أفغانستان بعد ١١ أيلول/سبتمبر ليس سوى خطوة خاطئة. وتمثَّل الخطأ الثاني في مؤتمر بون الذي فرض الأفكار الأميركية على الشعب

الأفغاني، بالإضافة إلى التحالفات التي قاموا بها مع أمراء مجرمي الحرب، ومساعدتهم على العودة إلى السلطة.

لا شك في أن سياسة أميركا قد أخفقت، وأفغانستان سوف تدفع الثمن. فالكثير من القواعد والقوانين التي فُرِضَت على أفغانستان تتداخل مع ثقافتها. وهذا الخطأ اقترفه من قَبْلُ الغزاةُ الأجانب والحكّام الأفغان على حدّ سواء.

إن عدم احترام القيم الدينية، واستعمال الرموز الدينية للضغط على السجناء، واللجوء إلى سياسة الكراهية والتحيُّز إنما تؤدّي إلى عزل الكثير من سكان المناطق الريفيّة. كما أن وضع مكافآت مقابل قتل المسلمين البارزين، والتدخُّل في العملية الانتخابية يُفقدان الحكومة الجديدة شرعيّتها. وأخيرًا يمكن القول إن انتهاك حقوق الإنسان في السجون، وغض أميركا والمجتمع الدّولي النظر عن ذلك، جعلا الشعب الأفغاني يفقد ثقته بهم. ومن دون الثقة لن يحلّ السلام. فالناس لا يزالون يعتقدون أنهم قادرون على إيجاد حل عسكري لمشكلة سياسيّة، متجاهلين الدروس التي لقّنهم إياها التاريخ.

▲▼▲

إن قرار غزو أفغانستان وشن حرب ضدّ شعبها قاد الولايات المتحدة وأفغانستان إلى بئر عميقة، مع أن الباب كان مفتوحًا على مصراعيه لإجراء محادثات ومفاوضات. وكان ثمّة وسيلة من شأنها أن تُجنّب إزهاق الكثير من الأرواح. لكن الولايات المتحدة كانت على يقين من أنها ستكسب الحرب بسهولة؛ ذلك أن بعض العملاء الأفغان قد أكّدوا لها أن أفغانستان سترحّب بالأميركيين لأن شعبها ليسَ راضيًا عن بعض قوانين حركة طالبان. حتى أن قادة التحالف الشمالي أعطوها الضوء الأخضر. وما جعل اقتصادنا يتدهور وسَلب منا الوقت الذي كان من المفترض أن نستخدمه للتقدُّم، إنما هو عقوبات الأمم المتحدة، وعدم الاعتراف بحكومتنا. وسرعان ما اتَّخذت أميركا قرارًا متسرّعًا وحاقدًا، ألا وهو شن الحرب، وغزو أراضي أفغانستان، بدلًا من أن تجد وسيلة للتفاوض. ففرضت إرادتها في مؤتمر

بون، عن طريق مجموعة صغيرة من الأفغان. وهذا الانتهاك لاستقلال أفغانستان أصبح أكثر خطورة من الغزو بحدّ ذاته.

يعرضُ مؤتمر بون في الأساس مشكلتين: أولاهما أن أميركا منحت قوات التحالف الشمالي السلطة لتعزيز موقفها، وقمعت الباشتون باعتبارهم «طالبان». والثانية، وهي النقطة الأكثر إثارة للجدل أن مؤتمر بون افتقد مشاركة أي ممثل لأفغانستان؛ أو على الأقل لم يُتح لمثل هذا الممثل الفرصة لاتخاذ قرارات حول ما يريد الأفغان. وبالتالي، فإن القرارات التي اتُخذت تُعدُّ غير قانونية.

ووصل إلى السلطة آنذاك كلّ من دعم أميركا. إن المجرمين من الأنظمة الشيوعيّة، واللصوص الذين أطلقوا على أنفسهم اسم «المجاهدين»، يتحمَّلون مسؤولية الكثير من الدمار ومآسي الماضي. وها هم يريدون الاستيلاء على السلطة مرة أخرى ليتاجروا بحياة الناس، ويعيدوا الإرهاب والسلب والنهب، في جرائم تفوق عنفًا ما ارتكبه السوفيات. هذه الجماعات ليست سوى أعداء المجاهدين الحقيقيين وحركة طالبان.

نجحت الولايات المتحدة برشو الناس في أفغانستان. وبدأت بتوزيع أكياس الدولارات في الشمال وخصوصًا في بنجشير، لحمل الشعب على استخدام القوات البريّة ضد حركة طالبان .كما استخدمت أميركا أموالها لأغراض أخرى أيضًا، منها توظيف جواسيس أفغان لتعزيز وضعها، وتحديد المكافآت مقابل قادة طالبان والقاعدة. وبالتالي استغلّت فقر الأفغان إلى أقصى درجة ممكنة. وبحسب الجواسيس، فقد استشهد الأبرياء، وتولّدت الكراهية واتسعت الفجوة بين الشعب والحكومة ودُفن استقلال أفغانستان، ممّا جعل سمعة أميركا تزداد سوءًا.

كما أن الهجوم على الثقافة الأفغانية والقيم الإسلامية كشف الوجه الحقيقي للأميركيين في العالم. واشتدّ عداء أميركا للإسلام والمسلمين بذريعة مكافحة «الإرهاب». مثلًا: عندما جاء الأميركيون إلى أفغانستان للمرة الأولى، اعتقدوا أنهم لن يواجهوا أي مقاومة؛ فأغلقوا كل المدارس الدينية بمساعدة من عملائهم. كما أغلقوا المساجد، ولم يسمحوا إلا للأولاد الصغار بدخولها. وتوقّف تعليم

الطلاب في المساجد. كل ذلك حدث في قندهار وزابول وأوروزغان خصوصًا، وفي بعض المحافظات الأخرى. وحقيقة أن هذه الخطة لم تطبَّق بحذافيرها، فتلك مسألة مختلفة. أضف إلى ذلك أن فكرة محو كلمة «الجهاد» من المناهج الدراسية وبعض الموضوعات الأخرى مقلق للغاية. فالجهاد مفهوم مركزي في الإسلام، وهو واجب على كل مسلم. أما الجهود المبذولة للمساواة بين حقوق الرجال وحقوق النساء في كل شيء، وتمهيد الطريق أمام التعليم المختلط باسم القانون الدولي، والسماح للنسوة بخلع الحجاب؛ فذاك مشروع مختلف. ولا ننسى أن الأميركيين ولّدوا عداوة مع جميع المنظمات الإسلامية في العالم، ولاسيما المنظمات الجهادية. وحاولوا القضاء عليها. ومن بين الأمثلة على ذلك دعمهم لإسرائيل وتدمير الحكومة المنتخبة في فلسطين.

أمست هجمات الأميركيين على الثقافة الأفغانية أمرٌ شائعٌ، إذ انتشرت في كل ركن من البلاد تحت عدة ادعاءات، مثلًا: عندما يستهدفون أحد الأفغان على أنه عدو وفقًا لتقارير جواسيسهم، فإنهم يحددون موقع منزله. وفي منتصف الليل تهبط أمامه مروحيّاتهم. ويداهمُ الجنود الأميركيون المنزل. قبل الدخول، يفجّرون الباب بدلًا من طرقه، كما يعمدون إلى تعرية الشخص الذي يتم استهدافه أمام زوجته وعائلته. ثم يفتشون النسوة ويخلعون الصناديق بدلًا من فتحها. ويقتادون الشخص المنشود كحيوان برّي، أو يكتفون بقتله رميًا بالرصاص أو بالسكين، في بيته وأمام زوجته وأطفاله. وإذا نظرنا إلى الأمر من الناحية القانونية، يحقّ لنا أن نسأل كم تعددت الانتهاكات التي ارتكبوها: من دخول بيوت الناس دون إذن إلى تفتيش النسوة وتعرية الشخص أمام أفراد عائلته؟ سيكون من السهل ملء كتاب بجميع الانتهاكات والجرائم التي يرتكبونها.

وقد خصَّصت أميركا مكافآت لحصد الكثير من الرؤوس. كما وضعْت أشخاصًا على القائمة السوداء، وسلبتهم أدنى حقوقهم. ما دفعَ الناس إلى محاربتهم دفاعًا عن النّفس. ليس كل هذا طريقًا يفضي إلى السلام. وعندما أعلنت الإدارة الأفغانية أنها تسعى إلى إجراء محادثات سلام مع حكمتيار، لِمَ

ظلت الإدارة الأميركية تَعِد بملايين الدولارات مقابل إيجاده؟ وها هي لا تزال تعارض المدارس الدينية الإسلامية، مما يخرّب علاقتها مع العالم الإسلامي. وبناء على سوء فهم لفحوى المدارس الدينية، ضغطت أميركا على الباكستان والمملكة العربية السعودية والدول الإسلامية الأخرى لتغيير مناهجها الدراسية. وقادت حملة ضد الشيوخ الذين يبشرون بالجهاد. وتفيد بعض الشائعات أن أميركا قد اغتالت بعضهم، بسبب تأثيرهم في التعليم الإسلامي.

وكان مجلس اللويا جيرغا مجرَّد مهزلة. ذلك أن أميركا ضغطت على المسؤولين لتوظيف مَن تشاء والاستغناء عمّن تشاء. وقد تم إعداد جدول الأعمال مسبقًا. ومع أن مجالسَ ومؤسسات من هذا القبيل تُعدّان جزءًا لا يتجزأ من ثقافة أفغانستان، وتُستخدَم كوسائل لحل الكثير من مشكلات البلاد، لكن محاولات التلاعب بها ستُفضي إلى نتائج عكسيّة؛ وتسبّب المزيد من الضرر.

لقد ارتكبت الولايات المتحدة خطأ في اختيارها للأصدقاء، وتجاهل تاريخهم مع أفغانستان. فالحلفاء الذين اختارتهم هم أمراء الحرب الذين عادوا إلى أفغانستان في أعقاب المعركة، وذلك بتدمير الأُسس التي قامت عليها أفغانستان الجديدة. أضف إلى ذلك أنها سمحت لبريطانيا العظمى بالعودة إلى الجنوب، أو إلى أفغانستان عمومًا، بعد أن خاضت الإمبراطورية البريطانية ثلاث حروب مع أفغانستان، خصوصًا مع قبائل الباشتون في جنوب أفغانستان. وكانت هي المسؤولة عن الانقسام في المناطق القبلية، وإنشاء خط دوراند. ما يعني أن عودة القوات البريطانية إلى جنوب أفغانستان ولاسيما إلى ولاية هلمند، ستقاس ليس بحسب تصرُّفاتها الحالية، بل بحسب تاريخها في المنطقة، وبحسب المعارك التي خيضت في الماضي. فالسكّان المحليّون لم ينسوا، والكثير من القرى تشهد القتال العنيف والخسائر البشرية نفسها التي شهدتها منذ ٩٠ سنة.

كما أن الحكومة الأفغانية تعاني عيوبًا جوهرية في هيكلها؛ مما يدلّ على عدم فهم الشعب ومتطلباته. فالباشتون منذ البداية لم يُمثَّلوا جيّدًا، على الرغم من أن الرئيس كرزاي باشتوني. فضلًا عن ذلك، فإن نظام الحكم وآليّاته متقدّمان للغاية

قياسًا على أفغانستان، ويشكوان من غياب رقابة داخل الإدارات والوزارات. وتخضع أجزاء من الحكومة لسيطرة الأجانب، وليس لرئيس الوزراء أو مجلس الوزراء. وتضم الحكومة مسؤولين حكوميين وأعضاءً في مجلس الوزراء لا يثق بهم السكّان؛ لأن من قرَّر شكل هيكل الحكومة ومجلس الوزراء والأجهزة الأخرى، هم الأجانب.

إن المعلومات مفتاحُ أيّ صراع. والقوات الأجنبية في أفغانستان لديها مخابرات ضعيفة. ورغم ذلك، فإنها، في أغلب الأحيان أنصتت إلى مَن يقدّمون معلومات خاطئة، مستخدمةً الأجانب لتحقيق أهدافها الخاصة، واستهداف أعدائها. وتعترف أميركا في كثير من الأحيان بأخطائها. ولكن من يقدّمُ معلومات كاذبة لا يُعاقَب ولا يُحاسَب على عمله. وبالتالي يجب أن نفترض أن أميركا تُخطّط لعمليّات عسكريّة بناءً على معلومات كاذبة. والمدهش أن الحكومات الأجنبية، بعد ثماني سنوات، مع عشرات الآلاف من الطائرات الحربية والقوات والمعدّات، وتشكيل جيش وطني واسع، وحوالي ١٠ آلاف مسلح، وترك ما يقارب ثلثي البلاد غير مستقر، لا تزال تؤمن بأن القوة هي الحلّ لهذه الأزمة. وأنها لا تزال ترسل المزيد من القوات.

الصراع الحالي هو صراع سياسيّ. وعلى هذا النحو لا يمكن حله عن طريق البندقية. قد يكون أكبر خطأ اقترفته السياسة الأميركية هو عدم معرفة عدو أميركا، التي أرسلت أميركا قوات ساحقة إلى أفغانستان، وصلت مع آلة حرب متفوقة، محاولة قتل البعوض بالأسلحة. فدمَّر الجنود ما تبقّى من أفغانستان وتسبّبوا في خسائر لا تُحصى، وهدموا الكثير من الجدران، وهم يقتلون الحشرات. حتى يومنا هذا لا تزال أميركا تعاني من أحكامها المسبقة وعدم فهم عدوها.

ويبدو أن إدارة أوباما الجديدة تكرّر أخطاء الإدارة التي سبقتها. كما أن قرارات جلب مبعوث خاص من شأنه أن يقلّص من سلطة المسؤولين الأفغان. ويُعدّ الجنرال ماكريستال، الذي كان في السابق مسؤولًا عن العمليات السّرية، خطوة خاطئة. وقد أفضت عوامل عدّة إلى عدم تأييد الأفغان لها، منها ارتفاع

عدد الضحايا المدنيين المطّرد الذي يضر أميركا في خطر اتّباع مسار الاتّحاد السوفياتي نفسه. وإذا لم تستيقظ من غيبوبتها، فسوف تكون أفغانستان كابوسها. فها هي منذُ غزوها لأفغانستان، قد اتخذت الكثير من القرارات الخاطئة لأنها لا تعرف سوى القليل عن هذا البلد.

واليوم في مسقط رأسي قندهار يبدو الوضع مزيجًا من أسوأ لحظات الغزو الروسي والحرب الأهلية التي تلته. فالأفغان يقاتلون بعضهم بعضًا ثانية. والرئيس أوباما، الذي كان بإمكانه اختيار مسار جديد، يبدو أنه قد اتخذ قراره. ومرة أخرى ستشهد الأراضي الأفغانية وصول قوات بأعداد هائلة لحل مشكلة هي جزء منها. فإلى متى سيحاول أجانب غريبون عنا وعن ثقافتنا حل مشكلاتنا؟ وإلى متى سينتظر الشعب الأفغاني ويصبر؟ اللّه وحده يعلم. مرّة أخرى، أنا أصلّي من أجل السلام، ومن أجل وطني أفغانستان.

الملّا عبد السلام ضعيف

كابول، حزيران/يونيو ٢٠٠٩

قائمة المراجع

Anderson, Jon L. (2003) *The Lion's Grave: Dispatches from Afghanistan*. (New York: Grove Press).

Baitenmann, Helga (1990) "NGOs and the Afghan War: The Politicisation of Humanitarian Aid", *Third World Quarterly*, vol. 12, no. 1, pp. 62-85.

Barry, Michael (1974) *Afghanistan*. (Paris: Éditions du Seuil).

Bedawi, Zaki and Bonney, Richard (2005) *Jihad: From Qur'an to Bin Laden*. (New York: Palgrave Macmillan).

Bergen, Peter (2006) *The Osama bin Laden I Know: An Oral History of al Qaeda's Leader* (New York: Free Press).

Bonner, Michael D. (2006) *Jihad in Islamic History: Doctrines and Practice*. (Princeton: Princeton University Press).

Coll, Steve (2004) *Ghost Wars: the Secret History of the CIA, Afghanistan, and bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001*. (London: Penguin Books).

Dorronsoro, Gilles (2005) *Revolution Unending*. (London: Hurst).

Dupree, Nancy Hatch (1977) *An Historical Guide to Afghanistan*. (Kabul: Afghan Tourist Organization).

Dyk, Jere van (1983) In *Afghanistan: An American Odyssey*. (Lincoln: Authors Choice Press).

Gannon, Kathy (2006) *I is for Infidel: from Holy War to Holy Terror in Afghanistan*. (New York: Public Affairs).

Golden, T. (2006) "The Battle for Guantánamo", *The New York Times*, 17 September.

Judah, Tim (2002) "The Taliban Papers", *Survival*, vol. 44, no. 1, pp. 69-80.

Kaplan, Robert D. (1990) *Soldiers of God: With Islamic Warriors in Afghanistan and Pakistan*. (New York: Vintage).

Khalidi, Noor A. (1991) "Afghanistan: Demographic Consequences of War, 1978-1987", *Central Asian Survey*, vol. 10, no. 3, pp. 101-26.

Maley, William, ed. (1998) *Fundamentalism Reborn? Afghanistan and the Taliban*. (London: Hurst).

Maley, William. (2002) *The Afghanistan Wars*. (London: Palgrave Macmillan).

Musharraf, Pervez (2006) *In the Line of Fire*. (London: Simon & Schuster).

Rashid, Ahmed (2002) *Taliban*. (London: I.B. Tauris).

Urban, Mark (1990) *War in Afghanistan* (London: Macmillan Press).

WHO (World Health Organisation) (1995) *Brief Note on Health Sector of Afghanistan: From Emergency to Recovery and Building from Below* (Stockholm: Donors' Meeting on Assistance for Afghanistan's Long-Term Rehabilitation and its Relationship with Humanitarian Programmes, 1-2 June).

Yousaf, Muhammad and Adken, Mark (1992) *The Bear Trap: Afghanistan's Untold Story*. (London: Leo Cooper).

التسلسل الزمني

السنة	العمر	حياة الملّا ضعيف
١٩١٥	-٥٣	مولد والد ضعيف (تقريبًا)
١٩٦٢	-٦	مقتل الملّا نظام عمّ ضعيف في صحراء زهراي (تقريبًا)
١٩٦٨	٠	وُلد ضعيف في زانجياباد (بانجواي، قندهار)؛ توفِّيت والدته وكان عمره ٧ أشهر
١٩٦٩	١	انتقل إلى مشان (مقاطعة مايواند)
١٩٧٠	٢	عاش في مشان
١٩٧١	٣	وفاة شقيقة ضعيف الصغيرة
١٩٧٢	٤	انتقل إلى رانغريزان (مقاطعة مايواند)
١٩٧٣	٥	عاش في رانغريزان
١٩٧٤	٦	عاش في رانغريزان
١٩٧٥	٧	وفاة والد ضعيف؛ انتقل إلى منزل عمّه في شارشاخا
١٩٧٦	٨	عاش في شارشاخا
١٩٧٧	٩	انتقل إلى سانزاري (قرب ناغان) حين بدأ القتال
١٩٧٨	١٠	انتقل إلى سانزاري (قرب ناغان) حين بدأ القتال، رحل إلى الباكستان (نوشكي ومن ثمّ إلى مخيّم بانجيباي) مع عمّه وشقيقته عبر طريق التهريب
١٩٧٩	١١	عاش في مخيّم بانجيباي

السنة	العمر	السياق التاريخي
١٩١٥	-٥٣	
١٩٦٢	-٦	
١٩٦٨	٠	
١٩٦٩	١	
١٩٧٠	٢	
١٩٧١	٣	مجاعة في وسط وشمال أفغانستان
١٩٧٢	٤	مجاعة في وسط وشمال أفغانستان
١٩٧٣	٥	انقلاب داود (تموز/يوليو)؛ نفي ظاهر شاه إلى إيطاليا
١٩٧٤	٦	
١٩٧٥	٧	
١٩٧٦	٨	
١٩٧٧	٩	
١٩٧٨	١٠	جماعة اشتراكية توصل تراقي وأمين إلى الحكم (مقتل داود)؛ انتفاضات في الريف (Kunar esp)
١٩٧٩	١١	بداية هجوم غريلا في قندهار (شباط/فبراير)؛ انتفاضات في هرات (آذار/مارس)؛ اجتاحت قوّات الاتحاد السوفياتي (حوالى ٨٥٠٠٠) أفغانستان (كانون الأوّل/ديسمبر)

السنة	العمر	حياة الملاّ ضعيف
١٩٨٠	١٢	عاش في مخيّم بانجيباي
١٩٨١	١٣	عاش في مخيّم بانجيباي
١٩٨٢	١٤	عاش في مخيّم بانجيباي
١٩٨٣	١٥	ذهب ضعيف للقتال في أفغانستان (باشمول ومن ثمّ نلغام)
١٩٨٤	١٦	عاد ضعيف إلى كويتا ليتابع دراسته
١٩٨٥	١٧	تدرّب على الأسلحة مع المخابرات الباكستانيّة وعاد إلى القتال في قندهار
١٩٨٦	١٨	جرح معصمه في أفغانستان؛ عاد إلى الباكستان للعلاج ثمّ عاد إلى القتال في قندهار
١٩٨٧	١٩	قاتل ضعيف في قندهار
١٩٨٨	٢٠	شارك في معركة في خشاب وحارب ضد الهجمات الروسية الأخيرة في قندهار (ومن ضمنها حصار أرغنداب)
١٩٨٩	٢١	أنهى الحرب ضد السوفيات وعاد إلى المنزل
١٩٩٠	٢٢	أصبح ضعيف والداً
١٩٩١	٢٣	أجبرت الحرب الأهلية ضعيف على الرحيل إلى الباكستان (مرّة جديدة)

السنة	العمر	السياق التاريخي
١٩٨٠	١٢	مظاهرات في البلد (شباط/فبراير)؛ مقاطعة الولايات المتّحدة للألعاب الأولمبيّة في موسكو(تموز/يوليو)
١٩٨١	١٣	ألّفت خمس مجموعات من المجاهدين تحالفًا (آب/أغسطس)؛ حارب فيرس في مدينة قندهار
١٩٨٢	١٤	هجوم السوفيات في بانجشير(حزيران/يونيو)؛ ثورة المجاهدين في سجن قندهار (آب/أغسطس)
١٩٨٣	١٥	السوفيات يلجأون إلى تكتيكات جديدة لمكافحة التمرد في الجنوب؛ محادثات السلام بدأت في جنيف في حزيران/يونيو؛ التعزيزات السوفياتية وصلت إلى قندهار في حزيران/يونيو
١٩٨٤	١٦	وافقت الولايات المتّحدة على تقديم مساعدة بقيمة ٥٠ مليون دولار للمجاهدين (تموز/يوليو)؛ هجوم السوفيات في باشمول (أيلول/سبتمبر)
١٩٨٥	١٧	حاول السوفيات إغلاق حدود إيران/الباكستان (شباط/فبراير)؛ صار عصمت مسلم إلى جانب الحكومة الأفغانيّة (أيار/مايو)
١٩٨٦	١٨	وافقت الولايات المتحدة على تزويد المجاهدين بصواريخ ستينغر (نيسان/أبريل)؛ حصار مدينة قندهار (نيسان/أبريل)؛ قتال حادّ في قندهار دام معظم السنة
١٩٨٧	١٩	الجولة العاشرة من محادثات جنيف (شباط/فبراير)؛ استهدف المجاهدون القوة العسكريّة الجويّة في جنوب أفغانستان (ربيع/صيف)
١٩٨٨	٢٠	توقيع اتّفاقيّة جنيف (نيسان/أبريل)؛ تأسيس القاعدة في لقاء في بيشاور (آب/أغسطس)؛ خروج السوفيات من جنوب أفغانستان (آب/أغسطس)؛ قصف جوّي كثيف على جنوب أفغانستان (خريف)
١٩٨٩	٢١	مغادرة الروس أفغانستان (كانون الثاني/يناير)؛ تسمّم الحاجي لطيف في قندهار (آب/أغسطس)
١٩٩٠	٢٢	مظاهرة في كويتا لدعم عودة الملك السابق ظاهر شاه إلى أفغانستان (شباط/فبراير)؛ محاولة تاناي الانقلاب ضدّ نجيب الله (آذار/مارس)
١٩٩١	٢٣	هزّة أرضية قويّة في قندهار (شباط/فبراير)

السنة	العمر	حياة الملّا ضعيف
١٩٩٢	٢٤	بدأ بالعمل كإمام في مسجد قندهار
١٩٩٣	٢٥	عاش في حاجي كشكيار كالا (قندهار)
١٩٩٤	٢٦	بداية محادثات حول «حركة طالبان»؛ تولّى حكم قندهار وبدأ العمل في القضاء مع المولوي باساناي صاحب
١٩٩٥	٢٧	ذهب إلى ديلارام (فرح) لمقاتلة إسماعيل خان؛ وعاد من ثمّ إلى باساناي بعدَ أن أصيب؛ زار هرات؛ عُيّن مسؤولًا عن مصارف هرات
١٩٩٦	٢٨	عمل في المصارف في هرات؛ ترك العمل وعاد إلى قندهار؛ بقي شهرًا في المنزل يُفكر قبل أن يتّصل به الملّا محمد عمر
١٩٩٧	٢٩	عُيّن مديرًا في وزارة الدفاع (كابول)
١٩٩٨	٣٠	عمل وزير دفاع لتسعة أشهر (كابول)؛ ومن ثمّ نُقل إلى وزارة الطاقة والعمل والموارد الطبيعيّة
١٩٩٩	٣١	عمل في وزارة الطاقة والعمل والموارد الطبيعيّة
٢٠٠٠	٣٢	عمل في لجنة إدارة النقل؛ عُيّن سفيرًا في الباكستان (إسلام أباد)
٢٠٠١	٣٣	إلقاء القبض على ضعيف (إما في أواخر كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠١ وإما في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢)
٢٠٠٢	٣٤	سلّمت الباكستان ضعيف إلى الولايات المتّحدة (من إسلام أباد)؛ ذهب إلى قندهار وإلى سفينة عسكريّة وبعدها إلى بغرام ومن ثمّ إلى غوانتانامو
٢٠٠٣	٣٥	احتُجز في غوانتانامو
٢٠٠٤	٣٦	احتُجز في غوانتانامو

السنة	العمر	السياق التاريخي
١٩٩٢	٢٤	سقوط نظام نجيب الله (نيسان/أبريل)؛ قُسِمت قندهار بين قادة المجاهدين(نيسان/أبريل)؛ الحرب الأهليّة
١٩٩٣	٢٥	قتال بين القادة في مدينة قندهار (نيسان/أبريل وآب/أغسطس)
١٩٩٤	٢٦	حركة طالبان تولَّت إدارة قندهار؛ العمل في القضاء مع المولوي باسناي صاحب
١٩٩٥	٢٧	استولت طالبان على هرات (أيلول/سبتمبر)
١٩٩٦	٢٨	استولت طالبان على كابول (أيلول/سبتمبر)
١٩٩٧	٢٩	انتقل بن لادن من السودان إلى جلال أباد (أيّار/مايو)
١٩٩٨	٣٠	استولت طالبان على مزار وخسرتها من ثمَّ؛ قصف أفغانستان بالصواريخ الأميركية
١٩٩٩	٣١	انتفاضات ضدّ طالبان في هرات (أيّار/مايو)؛ مقتل عبد الأحد كرزاي (تموز/يوليو)؛ انقلاب عسكري في الباكستان يوصل مشرّف إلى الحكم (تشرين الأوّل/أكتوبر)
٢٠٠٠	٣٢	هرب إسماعيل خان من سجن طالبان (آذار/مارس)؛ منع الملّا محمد عمر زراعة الحشيش (آب/أغسطس)
٢٠٠١	٣٣	هجوم ١١ أيلول/سبتمبر في نيويورك/واشنطن؛ سقوط طالبان (تشرين الثاني/نوفمبر ـ كانون الأوّل/ديسمبر)
٢٠٠٢	٣٤	عودة الملك السابق ظاهر شاه (نيسان/أبريل)؛ لويا جيرغا في كابول (حزيران/يونيو)
٢٠٠٣	٣٥	غلب حلف شمال الأطلسي المخابرات الباكستانيّة (آب/أغسطس)
٢٠٠٤	٣٦	لويا جيرغا في كابول تعيّن كرزاي رئيسًا (كانون الثاني/يناير)؛ بدء محاكم مراجعة وضع المقاتلين في غوانتانامو (تموز/يوليو)؛ انتخابات رئاسيّة (تشرين الأوّل/أكتوبر ـ تشرين الثاني/نوفمبر)

السنة	العمر	حياة الملا ضعيف
٢٠٠٥	٣٧	إطلاق سراح ضعيف من غوانتانامو (أيلول/سبتمبر)
٢٠٠٦	٣٨	نشر ضعيف «صورة غوانتانامو» بلغة الباشتو في أفغانستان وباكستان
٢٠٠٧	٣٩	عاش في كابول
٢٠٠٨	٤٠	سافر إلى قندهار (شباط/فبراير)؛ اعتُقل بسبب تصريحات أدلى بها إلى الإعلام؛ سافر لتأدية فريضة الحج إلى المملكة العربيّة السعوديّة
٢٠٠٩	٤١	أدلى بتصريحات متكرِّرة في الإعلام حول ضرورة إنهاء الحرب عبر الحوار والمحادثات؛ عاش في كابول

السنة	العمر	السياق التاريخي
٢٠٠٥	٣٧	إضراب كبير عن الطعام في غوانتانامو؛ انتخابات نيابيّة وفي المحافظات (أيلول/سبتمبر)
٢٠٠٦	٣٨	اعتصامات ضدّ الولايات المتّحدة في كابول (أيّار/مايو)؛ استيلاء حلف شمال الأطلسي على فرق عسكريّة في جنوب أفغانستان (تمّوز/يوليو)
٢٠٠٧	٣٩	مقتل الملّا داد اللّه (أيّار/مايو)؛ اشتباكات على الحدود الأفغانيّة الباكستانيّة (أيّار/مايو)؛ وفاة الملك السابق ظاهر شاه
٢٠٠٨	٤٠	حرّرت طالبان مئات السجناء من سجن قندهار (حزيران/يونيو)؛ هجوم انتحاري بقنبلة على السفارة الهنديّة ومقتل أكثر من ٥٠ شخصًا (تموز/يوليو)
٢٠٠٩	٤١	زادت الولايات المتّحدة عدد الفرق العسكريّة في أفغانستان (خصوصًا في الجنوب)؛ اقترحت ميليشيات قبلية أفغانيّة حلولًا في مناقشات مع قيادة طالبان

عن الكاتب

شغل الملّا عبد السلام ضعيف منصبَ سفير طالبان في الباكستان عام ٢٠٠١. كان وجهًا معروفًا في الحركة بعدَ اعتداءات ١١ أيلول/ سبتمبر. وُلدَ في جنوب أفغانستان عام ١٩٦٨، وأدّى دورًا مهمًّا في الكثير من الأحداث التاريخيّة. كان مجاهدًا في الثمانينيّات خلال الحرب ضدّ السوفيات. وتولّى مناصبَ إداريّة عدّة في حركة طالبان، ثمّ سُجن في غوانتانامو ولعبَ عقبَ الإفراج عنه عام ٢٠٠٥، دورًا في انتقاد كرزاي الذي دعمته الولايات المتّحدة. يعيش حاليًّا في كابول.

عن المحرّرين

تخرّج أليكس ستريك فان لينشوتن في مدرسة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة، وحاز إجازة في اللغتين العربيّة والفارسيّة. أتى أليكس للمرّة الأولى إلى أفغانستان كسائح. وأسّس عام ٢٠٠٦ مع فيليكس كويهن موقع AfghanWire.com، وهو بصدد العمل على كتاب جديد. ويحضّر في جامعة كينغ بلندن ـ قسم دراسات الحرب، دكتوراه في التفاعل بين المجموعات الصوفية ومنظمات ميليشيات الجهاد في العراق، أفغانستان، الشيشان، والصومال. ويعمل على تاريخ جنوب أفغانستان ١٩٧٠ ـ ٢٠٠١. عملَ كصحافي في أفغانستان وسورية ولبنان والصومال. كتب في Foreign Policy، وInternational Affairs وABC Nyheter، وThe Sunday Times البريطانيّة وThe Globe and Mail الكنديّة وThe Tablet البريطانيّة. يتكلّم العربيّة والفارسيّة والباشتو والألمانيّة والقليل من الفرنسيّة. يقطن حاليًّا في قندهار بأفغانستان.

زارَ فيليكس كويهن أفغانستان للمرّة الأولى، بعدَ أن قضى في الشرق الأوسط سنوات عدّة، سنة منها أو أقل في اليمن، حيث تعلّم اللغة العربيّة عام ٢٠٠٢. وأنشأ AfghanWire.com عامَ ٢٠٠٦ مع أليكس فان لينشوتن. يعمل حاليًّا على تاريخ جنوب أفغانستان بين عامي ١٩٧٠ و٢٠٠١. يتكلّم اللغة العربيّة والإنكليزيّة والألمانيّة والقليل من الفرنسيّة والإسبانيّة. يحمل شهادةً من مدرسة الدراسات الشرقيّة والأفريقيّة (إجازةً في اللغة العربيّة والدراسات المتطوّرة). يقطن حاليًّا في قندهار بأفغانستان.

عن المحرّرين:

أليكس ستريك فان لينشوتن وفيليكس كويهن باحثان وكاتبان يقيمان في قندهار. عملا في أفغانستان منذ العام ٢٠٠٦، وغطّيا تمرّد طالبان وتاريخ جنوب أفغانستان على مدى العقود الأربعة المنصرمة. كما امتدت أبحاثهما إلى بلدان أخرى منها الصومال، وهما ضيفان دائمان على قنوات الأخبار الغربية.

«جواسيس، جنرالات، وسفراء، سوف ينقضّون على هذا الكتاب، ويغوصون في صفحاته».

نك ميو، صنداي تلغراف (المملكة المتحدة)

«السيرة الذاتية الأولى والوحيدة بقلم شخصية بارزة في حركة طالبان».

البروفسور روبرت كروز، جامعة ستانفورد

ما الذي يدفع برجلٍ ما إلى حمل السلاح والانتساب إلى طالبان؟

إنها مذكرات الملا عبد السلام ضعيف، أحد رجالات الصف الأول في أفغانستان، وأحد الذين شاركوا في المفاوضات التي أدّت إلى نشوء حركة طالبان عام ١٩٩٤. وهو أيضاً صوت الملا محمد عمر، الزعيم الروحي للحركة.

مذكّراتٌ كتبها ضعيف بيده، وقال فيها ما له وما عليه:

- **نشأته ودراسته في المدارس الدينية، ودوره في صد الحرب السوفياتية على أفغانستان.**
- **علاقته بطالبان يومَ والى ويومَ عارض.**
- **ما خبره من مفاوضات داخلية وخارجية، في المناصب المتعددة التي تبوأها ومنها نائبٌ لوزير الدفاع ونائبٌ لوزير المناجم والصناعة.**
- **طبيعة العلاقة مع الأميركيين، وما يدور في ميدان المعارك، وخلف الكواليس السياسيّة من صفقات وأسرار.**
- **دوره منذ أحداث ١١ أيلول/سبتمبر التي قلبت حياته وحياة بلده، وبعدها، حين كان صلة الوصل الوحيدة بين أفغانستان والعالم.**
- **غدر الباكستان به وتسليمه إلى القوات الأميركية.**
- **تصويره المتقن والمؤثر لمعتقل غوانتانامو، يوم أصبح السجين رقم ٣٠٦، وما يعانيه السجناء هناك من عذاب نفسي وجسدي.**

كتابٌ يقدم إلى جانب كل ما ذُكر، نظرة معمّقة، ومن الداخل، إلى تركيبة المجتمعات القروية التي تشكّل حجر الأساس لحركة طالبان.


ISBN 978-9953-88-823-1

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥-١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٩٦١١٨٣٠٦٠٨+ فاكس: ٩٦١١٨٣٠٦٠٩+

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com


شركة المطبوعات للتوزيع والنشر